سورة العنكبوت

[٦٨٩] أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾(١) الآية. قال: أنزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله [ﷺ] من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت هذه الآية فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾(٢) الآية.

[٦٩٠] ك.. وأخرج عن قتادة قال أنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾(٣) في أناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبي [ﷺ] فعرض لهم المشركون فرجعوا فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٤) الآية.

[٦٩١] وأخرج ابن سعد عن عبدالله بن عبيد (ابن عمير)(٥) قال نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾(٦) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ [العنكبوت: ٨] الآية.

[٦٩٢] أخرج مسلم والترمذي وغيرهما(٧) عن سعد بن أبي وقاص قال قالت أم سعد أليس قد أمر الله بالبر والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر فنزلت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾(٨) الآية.

---

[٦٨٩] (١) سورة العنكبوت: الآية (١و٢).
(٢) سورة النحل: الآية (١١٠).
[٦٩٠] (٣) سورة العنكبوت: الآية (١و٢).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٩).
[٦٩١] (٥) بالأصل (عن ابن عمير).
(٦) سورة العنكبوت: الآية (٢).
[٦٩٢] (٧) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٥و ١٩٦).
(٨) سورة العنكبوت: الآية (٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] الآية.

[٦٩٣] تقدم سبب نزولها في سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] الآية.

[٦٩٤] أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده[١] من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبي [ﷺ]: «**كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم**» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ [العنكبوت: ٦٠] الآية.

[٦٩٥] أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف[٣] عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله [ﷺ] حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي: «**يا ابن عمر مالك لا تأكل**» قلت لا أشتهيه قال: «**لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوماً يخبؤن رزق سنتهم ويضعف اليقين**» قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[٤] فقال رسول الله [ﷺ]: «**إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد**».

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ [العنكبوت: ٦٧] الآية.

[٦٩٦] أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والأعراب أكثر منا

---

[٦٩٤] (١) مسند الدارمي (١/١٢٤).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٥١).
[٦٩٥] (٣) رواه البغوي (٥/١٩٩) (شرح السنة) وانظر الدر المنثور (٤/٢٠٠) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٦).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٠).

فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾(١)

* * *

---

[٦٩٦] (١) سورة العنكبوت: الآية (٦٧).

(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

سورة العنكبوت مكيةٌ وموضوعها هو العقيدة في أصولها الكبرى « الإيمانُ بالله ، واليوم الآخر ، والبعث والجزاء ، والإيمان بالرسل والكتب » شأنها كسائر السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة والإيمان . سميت سورةَ العنكبوت لأن الله تعالى ضرب العنكبوتَ مثلاً للأصنام التي اتُخِذَتْ آلهةً من دون الله ، ومَثَّلَ لعابديها في اعتمادهم عليها بالعنكبوت الضعيفة التي احتمتْ ببيتٍ من خيوطٍ واهية ، لا يحتمل أدنى مسَّةٍ فضلاً عن ان يقاوم الرياح العاتية ، فهم في عبادتهم للأوثان والتجائهم إليها كالتجاء العنكبوت إلى ذلك البيت الواهن ، والقرآن الكريم يعرض ذلك مثلاً مصوَّراً مجسَّماً في قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الذين اتَّخَذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمثلِ العنكبوتِ اتَّخَذتْ بيتاً وإنَّ أَوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ .

ولما كان المسلمون في مكة في أقسى أنواع المحنة والشدة لذلك جاء الحديث بالإسهاب عن الإيمان والفتنة وسنة الابتلاء في هذه الحياة حتَّى لَيكادُ يكونُ محورُ السورةِ وموضوعُها الأساسي حول الابتلاء في الإيمان والعقيدة ، ولهذا تبتدىء السورة بهذا البدء الواضح الصريح ﴿ آلم .أحسبَ الناسُ أَن يُتْرَكُوا أَنْ يقولوا آمنَّا وهم لا يُفْتَنون . ولقد فتنَّا الذين مِنْ قبلِهم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقوا ولَيَعْلَمنَّ الكَاذِبين﴾ .

وتمضي الآيات الكريمة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون

الإيمانَ كلمةً تُقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة أو أصابتهم الشدة ظهرت حقيقتهم فانتكسوا وارتدوا على أدبارهم معلنين ولاءهم لأهل الكفر ، ولم يصبروا على الأذى في سبيل العقيدة والإيمان ، بل أظهروا التخاذل والاستسلام أمام المحنة والابتلاء ، واهتزت في ضميرهم العقيدة فآثروا السلامة في الدنيا على عذاب الآخرة ، كأنَّ عذاب الدنيا أشدُّ من عذاب الآخرة وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم ﴿ ومن الناسِ مَنْ يقول آمنَّا باللهِ فإذا أُوْذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولُنَّ إنّا كنا معكم ، أَوَ لَيْسَ اللهُ بأعلمَ بما في صدورِ العالمين ؟ ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلَمنَّ المنافقين﴾ .

وتمضي السورة الكريمة تتحدث عن بلاء الأنبياء صلواتُ الله وسلامه عليهم وكفاحِهم وجهادِهم في سبيل نصرة دين الله ، وما لا قوة من شدائدَ ومِحَن ، بدءاً بقصة نوح ، وإبراهيم ، ثم لوطٍ وشعيب ، وتذكر قَصَص بعض الأمم المكذبين كعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار كنتيجة حتمية للاستعلاء والطغيان ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرضَ ، ومنهم مَنْ أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظْلمون﴾ وفي قَصَص الأنبياء تتمثل ألوانٌ من الفتن التي اعترضتْ دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل ، ومن الصعاب والعقبات التي وقفت في طريق دعوة الأنبياء ، ففي قصة نوح تبتدَّى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم لم يؤمن معه إلا القليل ثمّ كانت النتيجة « فأخذهم الطوفانُ وهم ظالمون » وفي قصة إبراهيم مع قومه يبتدّى طغيان الضلال وسوء الجزاء ، فقد حاول هدايتهم

بكل وسيلة وجادلهم بالحجة والبرهان ، وكانت النتيجة « فما كان جواب قومه إلاّ أَنْ قالوا اقتلوه أو حرّقوه ، فأنجاه الله من النار ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » وفي قصة لوط يتبدّى التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء مع الاستهتار بصوت الإنذار « فما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين ... إلى قوله « إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » وفي قصة شعيب مع مدين يتبدّى الفسادُ والتمرد على الحقِ والعدلِ ، والتكذيبُ بآيات الله « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » .

وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء مع أقوامهم ، وذكر مصارع العُتاة البغاة من الكفرة والظلمة على مدار القرون ، يضرب القرآن الكريم المثل للآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله ، سواءً كانت من البشر أو الحجر ، فهي قوة هزيلة واهنة أمام قوة الواحد القهار « مَثَلُ الذينَ اتخذوا من دون اللهِ أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهنَ البيوتِ البيت العنكبوت لو كانوا يعملون » وحقاً إنه لمثلٌ رائع يبيّن خسارة الذين عبدوا غير الله . ثم تمضي السورة الكريمة تُبيّن صدق الرسالة وصدق هذا القرآن الذي نزل على نبيٍ أميّ لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلّق علماً على أحدٍ من البشر ، ثم يأتي بكتاب معجزٍ للبشر وهو رجل أميٌّ ، وذلك – بلا شك – أعظم البراهين على صحة نبوته وصدق دعواه ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنونَ به ، ومن هؤلاء من يؤمنُ بهِ وما يجحدُ بآياتِنَا إلا الكافرون . وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينكَ إذاً لارتابَ المبطلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون﴾ . وينتقل الحديث إلى الأدلة الناطقة بوجود الله ووحدانيته

في هذا الكون الفسيح ، حتى الكفرة يقرون بأن صانع هذا الكون هو الله جل وعلا ولكنهم مع هذا يعبدون الأصنام أو يعبدون الملائكة والجن ، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة وهو تناقضٌ عجيب ﴿ ولئن سألتَهم من خلق السموات والأرضَ وسخَّر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله ، فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولُنَّ الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ثم تقرّر السورة حقيقة الحياة الدنيا التي يغتربها الكثيرون فيظنونها دارَ راحةٍ وسعادة ، وما هي إلا دارُ عبور إلى دار القرار لأنها زائلة فانية ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحَيَوانُ لو كانُوا يَعْلمون ﴾ وتختم السورة الكريمة ببيان جزاء الذين وقفوا في وجه المحنة والابتلاء وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي مغريات الحياة واجتازوا الفتن والمشاق ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة العنكبوت[1]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿الٓمٓ﴾[١] ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٢]

قوله عز وجل: **الٓمٓ**، قد ذكرنا[2] في غير موضع.[3]

وقوله:[4] **أحَسِبَ الناس،**[5] هو وإن كان في الظاهر استفهاما فهو على الإيجاب، لأنا قد ذكرنا أن كل استفهام واستخبار وسؤال كان من الله فهو يخرج على التقرير والإيجاب، لأنه به خبير عليم لا يحتمل [منه] الاستفهام[6] والاستخبار،[7] إذ حقيقة الاستفهام والاستخبار[8] إنما تكون[9] ممن يجهل الأمور فيستخبر ويستفهم ليعرف ذلك،[10] فالله سبحانه يتعالى عن أن يخفى عليه شيء، فهو على التقرير والإيجاب منه ذلك.[11] ثم يخرج قوله: **أحسب الناس،** على أحد وجهين. أي قد حسب الناس. والثاني، أي لا يَحسبِ الناس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنا.

---

[1] ر – سورة العنكبوت؛ ن: ذكر أن سورة العنكبوت كلها مكية وقتادة يقول عشر آيات من أولها مدنية وسائرها مكية والله أعلم؛ ث + وهي ستون وتسع آيات مكية؛ م + كلها مكية.

[2] ن: ذكرناه.

[3] انظر: تفسير أول سورة البقرة وسورة آل عمران.

[4] ن ث: قوله.

[5] جميع النسخ + قوله أحسب الناس.

[6] ر م – لأنا قد ذكرنا أن كل استفهام واستخبار وسؤال كان من الله فهو يخرج على التقرير والإيجاب لأنه به خبير عليم لا يحتمل الاستفهام.

[7] ر م: لا الاستخبار.

[8] ث – إذ حقيقة الاستفهام والاستخبار.

[9] ث: إنما يكون.

[10] ن – ليعرف ذلك.

[11] ر م: وذلك.

وقوله: **أن يقولوا آمنا**، ذكر الإيمان و لم يذكر[1] بِمَن: بالله أو بغيره. وليس أحد من الخلائق إلا وهو يؤمن بأحد ويكفر بغيره. وليس في الآية بيان الإيمان به أو بمن، إلا أن الله تعالى سخر الخلق على الفهم من الإيمان المطلَق المرسَلِ الإيمانَ بالله وبرسله، وسخرهم حتى فهموا من الكتاب المطلق كتابَ الله و[من] الدار الآخرة الجنّةَ وأمثال ذلك: مما فهموا من الكتاب المطلق كتابَ الله وفهموا مما ذكرنا من الإيمان المطلق الإيمانَ بالله وبرسله وفهموا أيضًا من الدين المطلق دينَ الله. فيكون قوله: **أن يقولوا**[2] **آمنا**، [آمنا] بالله وبرسله.[3]

وقوله: **وهم لا يُفتَنون**، أي لا يُبتَلون. والفتنة هي الابتلاء الذي فيه الشدة. يمتحن الله

[٥٧٣و] عباده باختلاف الأحوال، / مرة بالضِّيق والشدّة ومرة بالسعة والرخاء وأنواع العبادات،[4] ليكون ذلك علَما للخلق في صدق الإيمان به والكَذِب فيه فيعرفوا صدق كل مخبر عن نفسه الإيمان بالله تعالى وكَذِبه. إذ قد يجوز أن يكون فيما يخبر ويقول: "آمنت" كاذبًا، فجعل الله تعالى العلم في صدقهم وكذبهم أعمالاً يظهر بها عندهم صدقه ما لو كان الابتلاء والامتحان بجهة لعله لا يظهر ذلك. وهو ما أخبر عن المنافقين فقال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّٰهَ عَلَى حَرْفٍ،[5] الآية، هذا يدلّ أن الفتنة هي المحنة التي فيها الشدّة والبلاء، وما قال: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ،[6] فإنما يظهر صدق الرجل في إيمانه بما يصيبه من الشدة. فأما السعة والرخاء فهو ما يوافق طبعه وهوَى نفسه، فلا يظهر صدقه بما يوافق طبعه، وإنما يظهر ذلك بما يخالف طبعه ويَثقُل[7] عليه تحمّل ذلك. ثم قال بعضهم: نزلت الآية في قوم أظهروا الإيمان باللسان وأضمروا الخلاف والكذب.[8] وقال بعضهم: نزلت في قوم آمنوا بالله وبرسوله حقيقةً ثم عُذِّبوا بأنواع العذاب فتركوا الإيمان وكفروا به، وفيهم نزل: فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ.[9]

---

[1] ر م: ولم يذكره.
[2] ر م: أن يكونوا.
[3] جميع النسخ: أو برسله.
[4] ر: العباداة.
[5] ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ (سورة الحج، ١١/٢٢).
[6] سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.
[7] ن: وتثقل.
[8] «قال الحسن: "الناس" هنا المنافقون» (*البحر المحيط* لأبي حيان، ١٣٥/٧؛ وروح *المعاني* للآلوسي، ١٣٥/٢٠).
[9] سورة العنكبوت، ١٠/٢٩.

فكيف ما كان ففيه أن من أقرّ بالإيمان وقبله[1] [فهو] يُمتَحن بأنواع المحن بموافقة الطبع ومخالفته ليظهر صدقه عند الناس فيعاملونه على ذلك. *والله أعلم*.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٣]

وقوله:[2] **ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدَقوا وليعلمن الكاذبين**، وقد ذكرنا معنى قوله: **فليعلمن الله الذين صدقوا**،[3] فيما تقدم، أي[4] يعلم ظاهرًا كائنًا ما قد علمه غير كائن أنه يكون، وليعلمه موجودًا مما[5] قد علمه غير موجود أنه يوجد. *والله أعلم*.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٤]

وقوله: **أم حسِب الذين يعملون السيئات**، هذا أيضا يخرج على وجهين. أحدهما قد حسب الذين ما ذكر. والثاني لا يَحْسَبْ، على النهي.

وقوله: **أن يَسبِقونا**، لا أحدَ[6] يظنّ أن يَسبِق الله في عذابه ونقمته، لكنهم إذا رأوا الكافر والمسلم في هذه الدنيا على السواء في نعيمها وسَعَتها ورأوا أيضًا عند الموت أن[ه] لم ينزل على الكافر عذاب كالمسلم ظنّوا أن لا بعثَ،[7] حملهم ذلك على إنكار البعث، كقوله: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، -حين[8] خلقهما إذا لم يكن بعث- بَاطِلًا،[9] وهم قد علموا أن خلقه إياهما ليس بباطل ولكن صيّر خلقهما إذا لم يكن بعثٌ باطلاً. فإذا أنكروا البعث ظنوا أن لا عذابَ ولا جزاءَ. *والله أعلم*.

---

[1] م ث: وقبل.
[2] ن: قوله.
[3] جميع النسخ – وليعلمن الكاذبين وقد ذكرنا معنى قوله فليعلمن الله الذين صدقوا. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٥ظ.
[4] جميع النسخ: أن. والتصحيح من *الشرح* ورقة ٥٧٤ظ.
[5] ر ن ث: ما.
[6] ر م + أن؛ ن: لأحد.
[7] جميع النسخ + وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٥ظ.
[8] ن: صير.
[9] ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ (سورة ص، ٣٨/٢٧).

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **من كان يرجو لقاء الله**، أضاف اللقاء إلى نفسه، وكذلك ما ذكر من المصير إليه، بقوله:[١] وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ،[٢] وقوله: وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ،[٣] وقوله: وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا،[٤] ونحوه، هذا كلّه لأن خلق الدنيا وخلق العالم فيها لا لها ولكن المقصود بخلقها وخلق العالم فيها الآخرة. فإنما صار خلق هذه الأشياء فيها حكمة بالآخرة إذ لو لم يكن آخرة كان خلْق ما ذكر في هذه الدنيا لعبًا باطلاً، كقوله: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.[٥] صيّر خلْقهم لا للرجوع إليه لعبًا باطلاً.

وقوله: **فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم**، **السميع**[٦] بما يقولون ويظهرون **والعليم** بما يُضمرون ويُسِرّون لأن القصّة قصّة المنافقين. أو **السميع** المجيب **العليم** بحوائجهم وأمورهم. *والله أعلم*.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٦]

وقوله: **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه**، وكذلك قوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا،[٧] وقوله: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا،[٨] أي فعليها. ففي هذا[٩] أن الله إنما امتحن الخلائق لا لحاجة له فيما امتحنهم في دفع مضرّة أو جرّ نفع، لكن إنما امتحنهم لحاجة أنفسهم في دفع المضارّ وجرّ المنافع. وكذلك إنما أنشأ الدنيا وهذا العالم فيها لا لحاجة له في إنشاء ذلك ولكن لحوائج أنفسهم. وكذلك ما أنشأ من الخلائق سوى البشر إنما أنشأ للبشر[١٠] وله سخّر جميع ذلك، وجعل البشر بحيث يقدر على استعمال[١١] جميع ذلك لمنافع أنفسهم وحاجتهم،

[١] ر ث م: لقوله.
[٢] انظر: سورة المائدة، ١٨/٥؛ وسورة المؤمن، ٤٠/ ٣؛ وسورة الشورى، ٤٢/ ١٥؛ وسورة التغابن، ٦٤/ ٣.
[٣] سورة هود، ١٢٣/١١.
[٤] سورة إبراهيم، ٢١/١٤.
[٥] سورة المؤمنون، ١١٥/٢٣.
[٦] ر ث م – السميع.
[٧] سورة فصلت، ٤٦/٤١.
[٨] سورة الإسراء، ٧/١٧.
[٩] ن – ففي هذا.
[١٠] ر ث م: البشر.
[١١] ن: في استعمال.

وهو ما ذكر في غير آي من القرآن حيث قال: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ،[١] وقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا،[٢] ونحو ذلك. فعلى ذلك امتحن هذا العالم لحاجة أنفسهم في دفع مضارّ وجرّ نفع، لذلك قال: **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه،** أي لحاجة نفسه[٣] ومنفعة نفسِه لا لمنفعة أو لحاجة لله تعالى.

إن الله لغني عن العالمين، هذا تفسير ما ذكر.[٤] ثم المجاهدة تكون مرة مع الشيطان والجنّ، ومرة مع أعدائه من الإنس، ومرة مع هوى النفس، ومرة في أمر الدنيا، كلّ ذلك مجاهدة في الله. قال الله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا.[٥] *والله أعلم.*

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٧]

وقوله: **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيّئاتهم،** كأن ما عملوا من الحسنات والصالحات يكفّر بها سيّئاتهم.

وقوله: **ولنجزينّهم أحسن / الذي كانوا يعملون،** هذا يحتمل وجوهًا. أحدها أن جزاءهم [٥٧٣ظ] الذي يُجْزَوْن بتلك الأعمال أحسنُ من أعمالهم التي عملوا، لأن قدر ذلك الجزاء عندهم أعظم وأحسن من قدر[٦] أعمالهم، إذ ليس لأعمالهم عندهم كبيرُ[٧] قيمة وقدر، إذ منهم من يُحيي ليلة بدرهم وبما[٨] يسدّ به حاجته في يوم أو ليلة.

والثاني أن الأعمال التي يعملها المرء تكون على وجوه. سيئات تُكفَّر بالتوبة أو بما كان يعاقَبون عليها. وحسنات يُجزَون بها الثواب الجزيل. وإباحات يعملون لحوائج أنفسهم مما لا يعاقَبون عليه ولا يثابون. فيقول: -والله أعلم- **ولَنَجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون،**[٩]

---

[١] ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (سورة الجاثية، ١٣/٤٥).

[٢] سورة البقرة، ٢٩/٢.

[٣] ر ن م: لنفسه.

[٤] ن ث: ذكرنا.

[٥] الآية ٦٩ من هذه السورة.

[٦] ر ث م + من.

[٧] ر ث م: كثير.

[٨] ن ث: أو بما.

[٩] جميع النسخ: لنجزينهم أحسن الذي عملوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة، ٥٧٥و.

وهو الحسنات والخيرات [التي] عملوها لله. أو أن يكون قوله: **ولَنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون**، أن يكفر سيئاتهم بنوع من الحسنات ويثابون على أحسنها، وهو ما قال: **لنكفرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون**. *والله أعلم بذلك*.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٨]

وقوله: **ووصّينا الإنسان بوالديه حُسنًا**، وقرئ أيضًا إحسانًا.[١] قال: الزجاج: قوله: **حُسنًا**، أجمع وأقرب لأنه يرجع إلى حسن الشيء في نفسه وإلى حُسنه عند ذلك الإنسان.[٢] يقال: حَسُن كذا، إذا كان في نفسه حَسَنًا، والإحسان هو ما يحسُنُ عند ذلك المعمولِ له، أو كلام نحو هذا. {قال الشيخ رضي الله عنه:} لكن الإحسان هو اسم ما حسُن أيضًا في نفسه، يقال: أحسن، فإذا أحسن فقد حسُن. *والله أعلم*.

وقوله: **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم**، إن كان هذا الخطاب لأهل الإيمان فيكون تأويل الآية: **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم**، أي بأن له شريكًا،[٣] أي تعلم[٤] بأن ليس له شريك[٥] فلا تشرك بي، وهو كقوله: قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ،[٦] أي يعلم بخلاف ما تقولون،[٧] فعلى ذلك قوله:[٨] **ما ليس لك به علم** بأن له شريكًا،[٩] أي لك العلم بخلافه بأن ليس له شريك.[١٠] وإن كان الخطاب لأهل الكفر فهم[١١] يقولون على الله ما ليس لهم به علم.

[١] انظر: معجم *القراءات القرآنية* لعبد العال سليم مكرم وأحمد مختار عمر، ٣/٢٧٣.
[٢] *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٦١.
[٣] جميع النسخ: شريك. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٦ظ.
[٤] ر: تعليم.
[٥] م + وأن.
[٦] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (سورة يونس، ١٠/١٨).
[٧] ر ث م: يقولون.
[٨] جميع النسخ + يحتمل؛ ث – قوله.
[٩] جميع النسخ: شريك. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٠] ن – أي لك العلم بخلافه بأن ليس له شريك.
[١١] ر ث م – فهم.

وقوله:[١] **فلا تُطِعْهما**، أمر بالبرّ للوالدين والإحسان إليهما والطاعة لهما ما لم[٢] يكن في طاعتهما معصيةُ الرب ليُعلم أنْ ليس يجب طاعتهما في كلّ شيء وفي كل ما كان عندهما إحسان، ولكن فيما كان في ذلك طاعةُ الخالق.[٣]

وقوله:[٤] **إليَّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون**، وعيد ليكونوا أبدًا على حذر في أعمالهم[٥] لا يعملون بما فيه معصية الرب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[٩]

وقوله:[٦] **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين**، كأنه قال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولهم سيئات لنكفّرنّ عنهم تلك السيئات بأعمالهم الصالحات ثم لنُدخلنهم في الصالحين الذين لا سيئة لهم، وهم الأنبياء، إذ أكثر ما ذكر في الكتاب "الصالحين" إنما أريد بهم الأنبياء صلوات الله عليهم.[٧] وهو ما ذكرنا -والله أعلم- على تكفير السيئات عنهم على ما ذُكِر فيما تقدّم وهو ما قال: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ.[٨] أو أن يكون قوله: **لنُدخلنهم في الصالحين**، أي لنجعلنّهم من الصالحين.

فإن قيل: ما معنى قوله: **لندخلنهم في الصالحين**، وهم قد عملوا الصالحات؟

قيل: معناه ما ذكرنا بدءًا[٩] أنهم قد عملوا الصالحات، إلا أن لهم[١٠] سيئاتٍ يُكفّرها بالصالحات، ثم ليجعلنّهم[١١] في الصالحين الذين لا سيئة لهم. ***والله أعلم***.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ن - لم.
[٣] ر م: الخلق.
[٤] ن ث: قوله.
[٥] ر م: في أعمالكم.
[٦] ن: قوله.
[٧] ن - صلوات الله عليهم.
[٨] الآية ٧ من هذه السورة.
[٩] ر: بدء.
[١٠] ر م: أنهم.
[١١] ن: لنجعلنهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[١٠]

وقوله: **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله**، قال بعض أهل التأويل: ناسٌ مؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتُتِنوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة. ثم قال: **ولئن جاء نصر من ربك ليقولُنَ إنّا كنّا معكم**، وذلك عَلَم المنافق. ومنهم من يقول: نزلت الآية فيمن حقّق الإيمانَ بالله[١] سرًّا وعلانيةً إلا أنه عُذّب لأجل إيمانه بالله وبرسوله فترك الإيمان وكفر. فعلى تأويل هذا يحتمل[٢] قوله: **ولئن جاء نصر من ربّك**، إلى آخر ما ذكر على القطع من الأول والابتداء منه، [وهو لبيان][٣] صنيع المنافقين وخبرهم. *والله أعلم*.

ويحتمل قوله: **جعل فتنة الناس كعذاب الله**، أي جعل فتنة الناس وتعذيبهم إياه في إعطاء ما سألوه وهو الكفر، **كعذاب الله**، في إعطاء ما سأل من أهل الكفر وهو الإيمان، لأن أهل الكفر إذا نزل بهم عذاب الله أو اشتدّ بهم خوف نزوله عليهم أعطَوا الله ما سأَلهم من الإيمان به[٤] والتوحيد له[٥] وهو ما قال: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ.[٦] ويحتمل وجهًا آخر وهو أن[٧] جعل فتنة الناس في ترك الإيمان كعذاب الله في ذلك، أي جعل العذاب الذي[٨] من الناس كأنه من الله جاء فترك الإيمان.

وقوله: **أوليس الله بأعلم بما صدور العالمين**. فإن كانت الآية فيمن حقّق الإيمان بالله سرًّا وعلانية فيخرج هذا على التعيير له في تركه الإيمان بما عُذّب به، لأنه كان يقدر أن يظهر الكفر لهم باللسان فيدفع العذاب عن نفسه ويكون في الحقيقة في السرّ مؤمنًا على ما ذكر: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.[٩] وإن كانت الآية في المنافقين / فيقول: [٥٧٤و]

[١] ر ث م – بالله.
[٢] ن ث: يجعل.
[٣] جميع النسخ + من. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٥ظ.
[٤] ر م – به.
[٥] ر م – له.
[٦] سورة العنكبوت، ٦٥/٢٩.
[٧] ر + الله.
[٨] م – الذي.
[٩] ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (سورة النحل، ١٠٦/١٦).

كيف أسررتم الكفر والخلاف له في القلب وأنتم تعلمون أن الله عالم بما في صدور العالمين؟ فيخبر رسوله بما أضمروا وأسرّوا من الخلاف. *والله أعلم*.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[١١]

وقوله:[١] **وليعلمَنَّ الله الذين آمنوا وليعلمَنَّ المنافقين**، قد ذكرنا تأويل هذا [مِن] أن [الله] يعلم كائنًا ما قد علم أنه سيكون، ويعلم موجودًا ظاهرًا ما قد علم [في الأرض] أنه يوجد ويظهر [في وقت كذا].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١٢]

وقوله:[٢] **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتَّبِعُوا سبيلنا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم**، كأنهم قالوا ذلك لهم بعد ما عجَزوا عن الطعن في الحُجَج والآيات ما يوجب شبهة فيها[٣] عند الناس وبعد ما انقطعوا عن اللّجاج فيها والاحتجاج عليها. فلما عجزوا عن ذلك كلّه فعند ذلك اشتغلوا بما ذُكر وقالوا للمؤمنين ما ذكر: **اتَّبِعُوا سبيلنا**، أي ديننا، **وَلْنَحْمِلْ خطاياكم**. يقولون -والله أعلم- اتَّبِعُوا سبيلنا فإنه صواب، فإن أصابكم خطأ أو أخطأتم في الاتّباع له فإنّا نحمل خطاياكم. وقال بعضهم: قالوا لمن آمن منهم: لا نُبعَث نحن ولا أنتم فاتّبعونا، وإن كان عليكم شيء فهو علينا، وهو قريب من الأول. أو أن يقولوا لهم: اتّبعوا سبيلنا فإن الله أمرَنا به فإن أخطأتم في ذلك فإنا نحمل خطاياكم أو نحوه. فهذا القول منهم متناقض، لأنهم ذكروا أنهم كانوا يخطئون في الاتّباع لهم دينهم إلا أن يريدوا بذلك ما ذكرنا. والثاني إنما كانوا يضمَنون ويحملون خطاياهم لا بإذن مَن له الطلب في الخطايا ولكن بإذن من عليه ذلك، وذلك لا يَصلُحُ الضمانُ بإذن من عليه.

ثم أخبر أنهم لا يحملون ذلك حيث قال: **وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون**، يحتمل قوله: **إنهم لكاذبون**، فيما يذكرون من حمل خطاياهم، أي لا يقدرون على حملها، أو كاذبون في الدعاء إلى اتباع سبيلهم، أو كاذبون أن الله أمرَهم بذلك. *والله أعلم*.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ن: قوله.
[٣] ث - فيها.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[١٣]

وقوله:[١] **وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم**، يحملون أوزارهم بضلال أنفسهم وأثقالاً بإضلال غيرهم ودعائهم إليه، كقوله: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ.[٢] وذكر في الخبر[٣] أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما مِن داعٍ دعا إلى هدى فاتُّبِع عليه إلا كان له مثلُ أجور مَن اتبعه ولا يَنقُص مِن أجورهم[٤] شيء. وما من داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع عليها إلا كان عليه مِثلُ أوزار مَن اتبعه ولا ينقُص من أوزارهم شيء».[٥]

وقوله:[٦] **وليُسألنّ يوم القيامة عما كانوا يفترون**، قال بعضهم: افتراؤهم اتخاذهم الأصنام آلهة، إذ يكون الافتراء في الفعل والقول جميعًا. وجائز أن يكون افتراؤهم ما ذكروا من حَمْل خطاياهم، أو ما قالوا: إن الله أمرهم بذلك، أو تسميتهم الأصنام التي عبدوها آلهة. ***والله أعلم***.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[١٤]

وقوله: **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا**. يَذكر هذا النبأَ لوجهين. أحدهما يصبّر رسوله على أذى قومِه لأنه ذَكَر أن نوحًا لبِث في قومه ألف عام غيرَ خمسين عامًا، كان يدعوهم إلى توحيد الله فلم يجبه إلا نفر من أهله. فلم يمنعه من الدعاء إلى دين الله ما أوعدوه من المواعيد حيث قالوا: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ،[٧] ونحو ذلك من المواعيد، فذلك لم يمنعه عن الدعاء. ولذلك قال: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.[٨]

---

[١] ن: قوله.

[٢] سورة النحل، ١٦/٢٥.

[٣] ن ث م: خبر؛ ث + عن، مشطوب.

[٤] ر: أمورهم؛ ث: أوزارهم.

[٥] ر ث م – وما من داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها إلا كان عليه مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيء. ورد الحديث في *الموطأ* لمالك، القرآن ٤١، بلفظ: «ما من داعٍ يدعو إلى هدى إلا كان له مثل أجر من اتبعه لا يَنقص ذلك من أجورهم شيئا، وما من داعٍ يدعو إلى ضلالة إلا كان عليه مثل أوزارهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا». وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تَبِعه لا يَنقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» (صحيح *مسلم*، العلم ١٦).

[٦] ن: قوله.

[٧] سورة الشعراء، ٢٦/١١٦.

[٨] سورة الأحقاف، ٤٦/ ٣٥.

والثاني ينقض على المتقشّفة مذهبهم لأنهم يقولون: إن الموعظة إنما لا تَنجَع في الموعوظين لتفريط الواعظ وترك استعمال نفسه في[1] ذلك. فيقال: إن نوحًا قد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يُجِبْه إلا نَفَر، فلا يحتمل أن يكون منه تقصير أو تفريط. فدلّ أنها لا تنجع ربما لشقاوة الموعوظ.

وقوله: **فأخذهم الطوفان**، قال بعضهم: هو المطر الشديد. وجائز أن يكون الطوفان كلُّ بلاء فيه الهلاك. والطوفان هو ما أُرسل عليهم من الماء فأغرقهم. ***والله أعلم***.

[٥٧٤و س٣٢] * قال الزجاج: الاستثناء يخرج على تأكيد ما تقدم من الكلام كذكر الكل على إثر ما تقدم من الكلام، أو كلام نحوه.[2] وقلنا نحن: إن كان ما تقدم من الذكر كافيًا تمامًا فيخرج الثُنيا على إثره مخرج التأكيد لما تقدم، نحو قوله: قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ،[3] قوله: إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، كاف تامٌّ مفهوم أنْ لا يدخل فيه آل لوط حيث ذكر المجرم، إذ آلُه غير مجرمين، فهو كاف مفهوم لا يحتاج إلى ذِكر آل لوط لكنه ذُكر على التأكيد له. وكذلك قوله: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ،[4] و مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ.[5] إذا قال: مُحْصِنِينَ، يفهم أنهم غير مسافحين، وكذلك قوله: مُحْصَنَاتٍ، يعرف[6] أنهن غير مسافحات ولا مُتَخِذات أَخدان، لكنه ذُكر على التأكيد. وإذا كان ما تقدّم من الكلام مجملاً مرسلاً فيخرج ذِكر الثُنيا مخرج تحصيل المراد منه على إضمار حرف "مِنْ" فيه،[7] كقوله: **ألف سنة إلا خمسين عامًا**، كأنه قال: فلبث فيهم مِن ألفِ سنةٍ تسعَ مِائَة / وخمسين. وكذلك قول الناس: [٥٧٤ظ] لفلان عليَ عشرةُ دراهمَ إلا كذا، كأنه قال: لفلان[8] علي مِن[9] عشرة دراهم كذا،[10] فهو على التحصيل يخرج ذِكره. وقال بعضهم: الطوفان كل ماء طافٍ فاشٍ من سبيل أو غيره.

[1] ر م – في.
[2] *معاني القرآن* للزجاج، ٤/١٦٣-١٦٤.
[3] سورة الحجر، ١٥/٥٨-٥٩.
[4] سورة النساء، ٤/٢٤.
[5] سورة النساء، ٤/٢٥.
[6] ر ن م – أنهم غير مسافحين وكذلك قوله محصنات يعرف.
[7] ن – فيه.
[8] ث – لفلان.
[9] ث – من.
[10] ن – كأنه قال لفلان علي من عشرة دراهم كذا.

وكذلك الموت الجارف يسمى الطوفان وماءَ الطوفان[1] وهو ما ذكر في سورة الأعراف.[2]
٥٧٤ظ/س٤] وقال بعضهم: هو الغَرق. *والله أعلم*.*

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١٥]

وقوله: **فأنجيناه**، أي نوحًا، **وأصحاب السفينة**، أي من دخل السفينة. **وجعلناها آية للعالمين**، قال بعضهم: جعْلها آية هو أن هلَكت كلُّ سفينة كانت وهي باقية اليوم على ما هي.[4] وقال بعضهم: **وجعلناها آية**، لمن بعدهم فتمنعهم عن تكذيب الرسل والعناد معهم.★

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١٦]

وقوله:[6] **وإبراهيم إذ قال لقومه**، هو نَسَق على قوله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ،[7] وأرسلنا إبراهيم أيضًا إلى قومه. أو أن يكون نسَقًا على قوله: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ،[8] وأنجينا إبراهيم أيضًا حين أُلقي في النار. أو يقال: اذكر إبراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله. وقوله: **إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه**، يحتمل في حق الاعتقاد، أي وحّدوا الله. وقوله: **واتقوه**، [أي] الشرك. ويحتمل قوله: **اعبدوا الله**، في حق المعاملة، أي إليه اصرِفوا العبادة، **واتقوه**، أي اتقوا عبادة مَن تعبدون من الأوثان. يكون قوله: **اتقوه**، في موضع النهي، أي اعبدوا الله ووحّدوه[9] ولا تعبدوا غيره. يكون فيه نهي عن مخالفة ما تقدم من الأمر: افعلوا كذا واتقوا ما يضادّه ويخالفه.[10] *والله أعلم*.

---

[1] ن – وماء الطوفان.
[2] وهو ما ذكر في قوله عز وجل: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٣٣).
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٧٤و/سطر٣٣ – ٥٧٤ظ/سطر٤.
[4] ر م + عليه.
★ وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٧٤و/سطر٣٣ – ٥٧٤ظ/سطر٤.
[6] ن: قوله.
[7] الآية ١٤ من هذه السورة.
[8] الآية السابقة.
[9] ر م: وحدوه.
[10] ن: وما يخالفه.

وقوله:[١] **ذلكم خير لكم**، أي عبادة الله خير لكم. وقوله: **إن كنتم تعلمون**، يحتمل قوله: **إن**، إذ كنتم **تعلمون**، أن[٢] ذلك خير لكم. وجائز ذكر "إنْ" مكان "إذ" في اللغة.[٣]

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١٧]

وقوله: **إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا**، أي تخلقون كَذِبًا في تسميتكم الأوثان آلهةً معبودِين، أي ليسوا بآلهة ولا معبودين. أو يقال: **وتخلقون إفكًا**، أي كَذِبًا في صرف عبادتكم إليها واستحقاق العبادة، أي لا يستحقون العبادة، إنما المستحق للعبادة [هو] اللهُ دون مَن تعبدون. وقال بعضهم: أي جعلتم كَذبًا من الآلهة لا حَقًّا، وهو قريب مما ذكرنا.

ثم بيّن سفههم في صرف العبادة إلى الأصنام وعَجْزَها عمّن يعبدها حيث قال: **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا**، يقول -والله أعلم- إنّ في الشاهد لا يخدم أحدٌ أحدًا إلا لِما يَأمُل من النفع له بالخدمة أو لسابقةِ إحسانٍ كان منه إليه. فالأصنام التي تعبدونها لا يملكون أن يرزقوكم ولا ينفعوكم ولا كان منها إليكم سابقةُ صنع، فكيف تعبدونها؟

وقوله: **فابتغوا عند الله الرزق**، أي اعبدوا الله الذي يرزقكم وينفعكم ويملك ذلك لكم واتركوا عبادة من لا يملك ذلك لكم.[٤] **واعبدوه**، يحتمل الوجهين اللذَين ذكرناهما فيما تقدم: التوحيد والعبادةَ. وقوله: **واشكروا له**، أي اشكروا له فيما أنعم عليكم. **إليه تُرجعون**.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[١٨]

وقوله:[٥] **وإن تكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما وإن يكذّبوك فيما تخبر من نبإ إبراهيم فقد كذّب أمم من قبلك[٦] رسلَهم[٧] فيما أخبروا عن إبراهيم

---

[١] ن: قوله.
[٢] ن - أن.
[٣] جميع النسخ + أو يكون قوله أذلكم [ن: ذلكم] خير لكم إن كنتم تعلمون. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٩و.
[٤] ر ث م - لكم.
[٥] ن: قوله.
[٦] ن ث: من قبلكم.
[٧] ن: رسلكم، مشطوب، رسلهم، صح هـ.

بعد انتساب كلّ فريق منهم إليه وادّعائه نِحلتَه[1] ومذهبه. والثاني وإن يكذبوك فيما تبلّغ إليهم من الرسالة فقد كذّب أمم من قبلك رسلهم في تبليغ الرسالة. **وما على الرسول إلا البلاغ المبين**، يبيّن لهم أنها رسالة ربّهم بالحجج والبراهين والآيات. *والله أعلم*.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[١٩]

وقوله: **أولم يروا كيف يُبْدِئُ الله الخلق ثم يُعيده**، إنهم قد رأوا أنْ كيف أنشأ الله الخلق في الابتداء وإن عجزوا عن الأسباب التي [بها] خلقهم ولا احتمل وُسعُهم ذلك، فعلى ذلك يعيدهم على ما أبدأهم[2] وإن عجز وسْعهم عن احتمال ذلك وإدراكِه. إذ الأعجوبة في الإعادة ليست بأكثر من الأعجوبة في البداية، بل الأعجوبة في ابتداء الإنشاء أكثر من الإعادة، لِما أن[3] الإعادة عندكم أيسر وأهون من الابتداء. فمن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر. **إن ذلك على الله يسير**، الابتداء والإعادة جميعًا لا يُعجزه شيء، إذ هو قادر بذاته.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٠]

وقوله: **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**، كان الأمر بالسير في الأرض والنظر ليس هو سيرًا بالأقدام فيها، ولكنْ أمر بإرسال الفِكر[4] فيما[5] فيها من الخلائق والنظر في بدء ما فيها من الخلق متقَنًا محكَمًا بالتدبير والعلم والحكمةِ بلا أسباب. ليعلموا أن التقدير في ابتداء الإنشاء والإعادة الخارجَ[6] عن احتمال وسْعهم وقُواهم خطأٌ؛ وأن الذي قَدَر على إنشاء الخلق وابتدائه[7] بلا سبب ولا شيء -وإنْ لم يحتمل وسعهم وبِنيتهم وقواهم ذلك، فعلى ذلك الإعادة والنشأة الأخرى وإن كانت خارجة عن احتمال وسعهم وقواهم- قادر عليها. أو أن يقال: انظروا واعتبروا أن بدء الخلق والنشأة من الحكيم[8] العالم الذاتي بلا إعادة ورجوع

---

[1] ن: ونحلته؛ م: بحلته.
[2] ن: على أبدأهم.
[3] ر ث م - أن.
[4] ر م: الكفر.
[5] جميع النسخ - فيما. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٨٩ظ.
[6] جميع النسخ: بالخارج.
[7] ر م: وابتداء.
[8] ر م: من الحكم.

ليس بحكمة في العقل والحكمة جميعًا، إذ[١] في الحكمة والعقل التفريقُ بين الوليّ والعدوّ وبين الشاكر والكافر وبين المطيع والعاصي، إذ قد سوّى بينهم في الدنيا وأشركهم فيها حتى جعل للكافر ما للشاكر، وللعدوّ ما للوليّ، وللعاصي ما للمطيع.[٢] فلا بدّ من الإعادة في دار يفرّق بينهم ليخرج[٣] بدءُ[٤] إنشائه[٥] وخلقُه الخلقَ على الحكمة والتدبير والعلم لا على السفه والعبث. *والله أعلم*. وقوله:[٦] **إن الله على كلّ شيء قدير**، في النشأة الأولى والآخرة / جميعًا لا يعجزه |٥٧٥ر| شيء، إذ هو قادر بذاته.

﴿**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**﴾[٢١]

وقوله:[٧] **يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء**، يحتمل هذا في الدنيا، **يعذّب من يشاء في الدنيا**، أي يمتحنه ويبتليه بالشدّة والضِيق. **ويرحم من يشاء**، أي يمتحنه[٨] بالسَّعة والرَّخاء. فيكون التعذيب كناية عن الشدّة والضيق، والرحمة كناية عن السعة والرخاء. وهو كقوله: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ،[٩] فعلى ذلك قوله: **يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقلَبون**، أي تُرجَعون. ويحتمل التعذيب في الآخرة والرحمة فيها، أي يعذّب من يشاء في الآخرة من كان في الدنيا أهلاً له مستوجِبًا، ويرحم من يشاء من كان في الدنيا أهلاً لها مطيعًا لله.[١٠]

﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾[٢٢]

وقوله:[١١] **وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء**، أي ما أنتم بمعجزين اللهَ إن كنتم في الأرض أو كنتم في السماء. أو ما أنتم بمعجزين الله في الأرض يا أهل الأرض، ولا [أنتم يا] أهلَ السماء بمعجزين الله[١٢] في السماء.

---

[١] ر م: إن.
[٢] جميع النسخ: والولي والعدو والمطيع والعاصي. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٥٧٦ظ.
[٣] ر م: ليخرجوا.
[٤] ر: بدؤا.
[٥] جميع النسخ: إنشائهم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٠و.
[٦] ن: قوله.
[٧] ن: قوله.
[٨] ث – أي يمتحنه.
[٩] سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.
[١٠] ر م: لها.
[١١] ن: قوله.
[١٢] ر ث م – إن كنتم في الأرض أو كنتم في السماء أو ما أنتم بمعجزين الله في الأرض يا أهل الأرض ولا أهل السماء بمعجزين الله.

وعلى قول[1] المعتزلة يكونون معجزين الله في الأرض على ظاهر مذهبهم، لأنهم يقولون: إن الله قد أراد إبقاء الأخيار وأهل الصلاح ثم يجيء كافر فيقتلهم قبل أجلهم الذي أراد الله إبقاءهم إلى ذلك الوقت.[2] وكذلك يقولون: أراد الله أن يَرزُقَهم الحلال وأراد أن يكون أولادهم من رُشْد ونكاح، لكنهم يطلبون الرزق من حرام ويزنون فيَخلُق أولادَهم من زنى، شاء أو أبى لا يقدر التخلّص عما يريدون هم. فأيّ إعجاز يكون أشدّ من هذا؟ فنعوذ بالله من السَّرف[3] في القول.

وقوله: **وما أنتم بمعجزين في الأرض**، هم يعلمون، أعني الكفرة، أنهم لا يعجزون الله ولا يقدرون على إعجازه، لكنه يذكر [هذا] لأنهم كانوا يعملون عمل من هو معجز فائت عن عذاب[4] الله ونقمته، وهو كقوله: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ.[5] هم[6] يعلمون أنهم لا يقدرون أن يَسعوا في آياته معاجزين لكنهم يسعون في دفع آياته[7] والإنكار لها سعيَ معاجز لها لا سعي خاضع قابل، فعلى ذلك الأول.

وقوله:[8] **وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير**، أي ما لكم من دون الله مما طمَعتم من النصر لكم والشفاعة، أي[9] ليس[10] لكم ذلك، لأنهم عبدوا تلك الأصنام لِما طمَعوا شفاعتها عند الله لهم والزلفى حيث قال: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا؛[11] وقوله:[12] هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ؛[13] وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[14] ونحوه. فيقول: ما لكم مما طمعتم بعبادتكم تلك الأصنام من وليّ ولا نصير.

---

[1] ن – قول.
[2] جميع النسخ: إلى وقت. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٠و.
[3] ن + من.
[4] ن: من عذاب.
[5] سورة الحج، ٥١/٢٢؛ وسورة سبأ، ٥/٣٤.
[6] ن – هم.
[7] ث + معاجزين لكنهم، مشطوب.
[8] ن: قوله.
[9] ر م – أي.
[10] ر م: وليس.
[11] سورة مريم، ٨١/١٩-٨٢.
[12] جميع النسخ: وقولهم.
[13] ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (سورة يونس، ١٨/١٠).
[14] ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢٣]

وقوله:[١] **والذين كفروا بآيات الله ولقائه**. قوله: **كفروا بآيات الله**، يحتمل آياتُ الله[٢] الآياتِ التي جاءت بها الرسل في إثبات الرسالة لهم. ويحتمل آياته الآياتِ التي جعلها لوحدانيّته وألوهيّته ولقائه، أي كفروا بالبعث، وقد ذكرنا فيما تقدم وجهَ تسميته[٣] البعثَ لقاءه.[٤] وقال: الحسن آيات الله دين الله، وكذلك يقول: كلّ "آية" في القرآن [هي بمعنى] الدين.[٥]

وقوله: **أولئك يئسوا من رحمتي**، قال بعض أهل التأويل: **من رحمتي**، أي من جنّتي. وتأويل هذا أنهم[٦] قد كفروا بالبعث فإذا كفروا به زعموا أن لا ثوابَ ولا جزاء. وجائز أن يكون قوله: **من رحمتي**، أي من رُسلي وكُتبي، لأن الله سمّى رسله وكتبه رحمة في غير آي من القرآن.[٧] أيسوا منهم حيث كذبوهم وكفروا بهم، أيسوا أن يُرسِل الرسل أو يُنزل الكتب. ويحتمل قوله: **أولئك يئسوا من رحمتي**، أي أولئك عليهم الإياس من رحمتي، لما كفروا بآياته ورسله. **وأولئك لهم عذاب أليم**.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢٤]

وقوله:[٨] **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه**، قوله: **فما كان جواب قومه** إلا كذا، ليس في جميع الأوقات وجميع المشاهد، ولكن جائز أن يكون هذا: ما كان جوابَ قومه في مشهد[٩] إلا كذا. أو أن يكون: **فما كان جوابَ قومه**، أي ما كان آخِرُ جواب قومه،[١٠]

---

١ ن: قوله.

٢ ث – يحتمل آيات الله.

٣ ر م: تسمية.

٤ انظر تفسير الآية ١١ من سورة هود.

٥ هكذا يقول الإمام في تفسير الآية ٤١ من سورة البقرة: «قال الحسن: الآيات في جميع القرآن هي الدين». ويكرر هذا القول في تفسير الآية ٢٧ وفي تفسير الآية ٣٩ من سورة الأنعام. وينقل فخر الدين الرازي تفسير الحسن البصري كلمة "الآيات" بالدين في تفسير الآية ٤٥ من سورة المؤمنون (*مفاتيح الغيب*، ٨٩/٢٣) وكذا أبو حيان الأندلسي (*البحر المحيط*، ٣٧٦/٦). ولكن لم نعثر في المراجع على قول الحسن البصري بأن الآيات في جميع القرآن هي بمعنى الدين.

٦ جميع النسخ: لأنهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٧و.

٧ انظر لمحمد عليه السلام: سورة التوبة، ٦١/٩؛ وسورة الأنبياء، ١٠٧/٢١؛ وانظر للتوراة: سورة الأنعام، ١٥٤/٦؛ وسورة الأعراف، ١٥٤/٧؛ وسورة القصص، ٤٣/٢٨؛ وانظر للقرآن الكريم: سورة الأنعام، ١٥٧/٦؛ وسورة الأعراف، ٥٢/٧، ٢٠٣؛ وسورة يونس، ٥٧/١٠؛ وسورة النحل، ٦٤/١٦، ٨٩؛ وسورة الإسراء، ٨٢/١٧ وغيرها.

٨ ن: قوله.

٩ ر: في شهد.

١٠ ر م – أي ما كان آخر جواب قومه.

إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه. وإلا لم يحتمل أن لا يكون منهم إلا ما ذكر من الجواب، [بل] قد كان جواباتٌ وأجوبة سواه، لكن يحتمل ما ذكرنا أنْ ما كان جوابُ قومه في مشهد[1] إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه، أو ما كان آخر جواب قومه إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه. وهو ما ذكرنا في قوله: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ،[2] لا يحتمل أنْ لم يكن منهم إلا هذا ولكن ما ذكرنا. *والله أعلم*.

وقوله:[3] **فأنجاه الله من النار**، حين ألقوه فيها. **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**، ذَكر "الآيات" في ذلك، فجائز أن يكون ما ذكر في هذه السورة من أولها إلى آخرها الآيات[4] لِمن ذَكر، وجائز أن يكون فيما ذَكر خاصّة.[5] لكن ليس من شيء إلا وفيه آيات من وجوه: آية الوحدانيّة وآية الألوهيّة وآية عِلمه وحكمته وتدبيره وبعثه، فهي[6] آيات. وقوله:[7] **لقوم يؤمنون**، ذِكْر الآيات للمؤمنين يحتمل وجهين. أحدهما ذَكَر الآيات لهم لأنهم هم المنتفعون بها دون من كفر. والثاني [هي] الآيات لهم على المكذّبين بها والكافرين، أي حججًا[8] لهم عليهم، كقوله: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ.[9] *والله أعلم*.

[٥٧٥ظ] وقوله: / **فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا** كذا، هو صلة قصّة إبراهيم وإليه يرجع، وهو ما تقدّم من دعائه إياهم حيث قال: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ،[10] الآية.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٢٥]

وقوله: **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا**، يقول -والله أعلم-: ما اتخذتم من دون الله معبودًا وسميتموها آلهة فهي ليست بآلهة ولا معبودٍ إنما هي أوثان. **مَوَدَّةَ بينِكم في الحياة الدنيا**،

---

[1] ر: في شهد.
[2] سورة العنكبوت، ٢٩/٢٩.
[3] ن: قوله.
[4] ر ث م: لآيات.
[5] وعبارة الشرح هكذا: «ذكر الآيات هاهنا وأضافها إلى المؤمنين فيحتمل أن يكون فيما ذكر في هذه السورة من أولها إلى آخرها لآيات للمؤمنين. ويحتمل أن يكون فيما ذكر خاصة لاسم المؤمنين» (٥٧٧و).
[6] جميع النسخ: فهو. والتصحيح من الشرح، ورقة ٥٧٧و.
[7] ن: قوله.
[8] جميع النسخ: حجة. والتصحيح من المرجع السابق.
[9] سورة الأنعام، ٦/٨٣.
[10] الآية ١٦ من هذه السورة.

يقول -والله أعلم-: اتخاذكم هذه الأصنام معبودًا واجتماعكم عليها إنما هي[١] مودّة [ال]حياة الدنيا لا مودّةُ لها عاقبة أو [مودّةٌ] تدوم، بل تصير في العاقبة عداوة وبغضًا وهو ما ذكر: **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا**. قال بعضهم: يتبرّأ بعضهم[٢] من بعض ويكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضًا، كقوله: ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ.[٣] وقال بعضهم: يتبرأ المتبوع من الأتباع، كقوله: رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ،[٤] وقوله: [كَلَّا] سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا،[٥] ونحوه. ثم أخبر أن مأوى الكلّ النارُ وما لهم من ناصر[٦] ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم العذاب.

ثم اختلف في قوله: **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مودّةَ بينكم**، قال بعضهم: هذا قول إبراهيم لقومه، كقوله: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ]،[٧] وكقوله: هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ.[٨] وقال بعضهم: هذا قول رسول الله لقومه. وجائز أن يكون هذا قول كلّ رسول[٩] لقومه[١٠] الذين عبدوا الأصنام. ***والله أعلم***.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢٦]

وقوله: **فآمن له لوط**، قوله: **فآمن له لوط**، يحتمل وجهين. أحدهما قوله: **فآمن له لوط**، أي أظهَرَ له لوط الإيمانَ مِن بين غيرهم. وقد كان لوط مؤمنًا من قبلُ ليس أنه أحدَثَ له الإيمانَ في ذلك الوقت ولم يكن مؤمنًا قبل ذلك، ولكن ما ذكرنا أنه أظهر له الإيمان من بين غيرهم. والثاني **فآمن له لوط**، فيما دعاه إليه وهو الهجرة، أي صدّقه[١١] فيما أخبر أنه أُمر بالهجرة فاستصحبه فيها.

---

[١] ث: هو.
[٢] ن ث: بعض.
[٣] سورة الزخرف، ٦٧/٤٣.
[٤] ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾ (سورة الأعراف، ٣٨/٧).
[٥] سورة مريم، ٨٢/١٩.
[٦] ن: ناصرين، مشطوب، ناصر: صح هـ.
[٧] سورة الصافات، ٩٥/٣٧-٩٦.
[٨] ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ (سورة الشعراء، ٩٢/٢٦-٩٣).
[٩] ر - الله لقومه وجائز أن يكون هذا قول كل رسول.
[١٠] م - وجائز أن يكون هذا قول كل رسول لقومه.
[١١] ر م - صدقه.

وقوله: **إني مهاجر إلى ربي**، قال أهل التأويل: هذا قول إبراهيم، كقوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي.[1] وجائز أن يكون قوله: **إني مهاجر إلى ربي**، قولَ لوط. ثم لم يفهم من قوله: **إني مهاجر إلى ربي**، وقوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي، انتقالُه إليه[2] أو المكان أو شيءٌ مما يوجب التشبيه مما يُفهَم من الخلق. فكيف فُهِم من قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ،[3] وقوله: وَجَاءَ رَبُّكَ،[4] واستوى،[5] وأمثاله مما يُفهَم من مجيء الخلق وإتيانهم[6] واستوائهم؟ إذ لا فرق بين مجيء آخر إليه وبين مجيئه إلى آخر، هذا في الشاهد سواء. فكيف فُهِم في الغائب في أحدهما ما[7] لم يُفهم من الآخر وهما سِيّانِ في الشاهد. فدلّ أنه لا يجوز أن يفهم منه في شيء من ذلك مما[8] يفهم من الخلق، إذ أخبر أنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[9]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢٧]

وقوله: **ووهبنا له**، يعني لإبراهيم، **إسحاق ويعقوب**. ذَكَر أنه وهب له إسحاق ويعقوب لِيُعلَم أن الولد هبة الله وكذلك ولدُ الولد لأن يعقوب كان ولدَ ولده حيث قال: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ،[10] فكلّهم هبة الله إياه [حيث] قال: يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ.[11]

---

[1] ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ (سورة الصافات، ٩٩/٣٧).

[2] ر م – إليه.

[3] ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللهُ في ظلل من الغمام والملائكةُ وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ (سورة البقرة، ٢١٠/٢).

[4] ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ (سورة الفجر، ٢٢/٨٩).

[5] ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ (سورة البقرة، ٢٩/٢)؛ ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (سورة طه، ٥/٢٠). وانظر: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* لمحمد فؤاد عبد الباقي، «استوى».

[6] جميع النسخ: وإتيانه. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٧و.

[7] ر: مما.

[8] ر ث م: ما.

[9] سورة الشورى، ١١/٤٢.

[10] ﴿وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (سورة هود، ٧١/١١).

[11] سورة الشورى، ٤٩/٤٢.

وقوله:[١] **وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب**، لم تَزَل النبوّة في ذريّة إبراهيم من لدنه إلى هذا الوقت؛ كان جميع أنبياء بني إسرائيل من ولد إسحاق، ونبيّنا محمد صلوات الله عليه[٢] كان من ولد إسماعيل عليه السلام.[٣]

وقوله: **وآتيناه أجره في الدنيا**، اختلف في الأجر الذي أخبر أنه آتاه إبراهيمَ في الدنيا. قال بعضهم: هو ما وهب له من الولد في الكِبَر. وقال بعضهم: هو ما سخر له الألسُنَ بأجمعها على الثناء الحسَن عليه، حيث نسب جميع أهل الأديان على اختلاف أديانهم ومذاهبهم [إليه]، فهم[٤] على دينه وسنّته وسيرته وتَوَلَّى كلٌّ به. وجائز أن يكون قوله: **وآتيناه أجره في الدنيا**، ما أخبر أنه آتى جميع المؤمنين وأعطاهم، وهو ما قال: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ،[٥] وما ذَكَر من ثواب الدنيا. فما من مؤمن إلا وقد آتاه الله في الدنيا أجرًا[٦] وثوابًا فذلك الذي آتى إبراهيم. أو لا نفسّر ما ذلك الأجر الذي ذكر أنه آتاه.[٧] *والله أعلم*.

وقوله: **وإنه في الآخرة لمن الصالحين**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما أنه لو لم يكرمه الله بالنبوّة والرسالة لكان هو أيضًا في الآخرة من الصالحين. والثاني ذَكَر الصلاح له لحقيقة صلاحه، أي يكون هو ممن حقّق الصلاح. وكذلك ما ذكر في موسى وهارون حيث قال: إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ،[٨] أي من عبادنا الذين حقّقوا الإيمانَ وغيرهم من المؤمنين لم يحقّقوا. أو أن يكون ما ذكرنا، أي لو لم يكن الإكرام الذي أكرمه وهو النبوة لكان من المؤمنين أيضًا. وإلا ليس في ذكر الإيمان والصلاح لهم كبير منقِبة وفضيلة عند الناس، إذ يسمّى بهذين كل مؤمن ومصلح. *والله أعلم*.

---

[١] ن: قوله.
[٢] ن – صلوات الله عليه.
[٣] ن – عليه السلام.
[٤] جميع النسخ: أنهم.
[٥] ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وأرض الله واسعة إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب﴾ (سورة الزمر، ٣٩/١٠).
[٦] ث: أجرا في الدنيا.
[٧] جميع النسخ + الله. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٢ظ.
[٨] سورة الصافات، ٣٧/١٢٢.

وعن ابن عباس في قوله: **وآتيناه أجره في الدنيا**، قال: عمَلَه الذي[1] جوزي[2] به[3] في الآخرة. وقتادة يقول:[4] آتاه الله عافية وعملاً صالحًا وثناءً حسنًا.[5] وقال: فلسْتَ تلقى أحدًا من أهل المِلَل إلا [و]يرضى بإبراهيم ويتولّاه. وقد ذكرنا نحن أنا لا ندري أنه ما أراد بالأجر الذي ذكر أنه آتى إبراهيم.[6] والله أعلم / بذلك. وقال بعضهم ما ذكرنا أنه أُعطِي الولدَ الطيب في كِبَر سنِّه. [٥٧٦و]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٢٨]

وقوله:[7] **ولوطًا إذ قال لقومه**، كأنه يقول -والله أعلم-: اذكرْ لوطًا إذ قال لقومه. ثم ذِكره إيّاه يخرج على وجهين. أحدهما أنْ اذكُر نبأَ لوط وخبره ليكون لك آية على رسالتك ونبوّتك، إذ يعلمون أنك لم تشاهده ولا شهدتَ زمنه، فأخبرت على ما في كتبهم ليعرفوا أنك إنما عرفت ذلك بالله.

والثاني اذكُره أنْ كيف صبر على أذى قومه وكيف عامَل قومَه مع سوء صنيعهم من ارتكاب الفواحش والمناكير وسوء معاملتهم إياه. فاصبر أنت على أذى[8] قومك وسوء معاملتهم إياك. هذا -والله أعلم- يشبه أن يكون معنى ذكر لوط إيّاه. وعلى هذا يخرج قوله: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ،[9] أي اذكر إبراهيم ونبأه أنْ كيف عامل قومه وماذا قال لهم وكيف[10] صبر على أذاهم؟ فعامِلْ أنت قومك مثله واصبر على أذاهم كما صبر أولئك. *والله أعلم*.

وقوله: **إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**، قال لهم: ما سبقكم بها من أحد من العالمين،[11] ثم لم يتهيأ لهم أن يعارضوه[12] لقوله: ما سبقكم بها من أحد من العالمين

---

[1] جميع النسخ: ما.
[2] جميع النسخ: جزي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٧ظ.
[3] ر م - به.
[4] ن: قال؛ ث: وقال قتادة.
[5] *تفسير القرطبي*، ١٦/٣٥٧.
[6] ر ث م - ويتولاه وقد ذكرنا نحن أنا لا ندري أنه ما أراد بالأجر الذي ذكر أنه آتى إبراهيم.
[7] ن: قوله.
[8] م - أذى.
[9] الآية ١٦ من هذه السورة.
[10] ر: فكيف.
[11] ث - قال لهم ما سبقكم بها من أحد من العالمين.
[12] ر م: يعارضوا.

[فيقولوا:][1] "بل قد كان سَبَقَنا بذلك أحد". فكان في ذلك[2] وجهان. أحدهما أن يكون ذلك آية لرسالته وأنه إنما علم بالله أنه لم يسبقهم بها أحد مما[3] ذكر.

والثاني أنهم يعبدون الأصنام ويرتكبون فواحش ويقولون: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وإن الله أمرنا[4] بذلك[5] ليُعلم أنهم كذَبة في قولهم: إن آباءنا[6] على ذلك، حيث أخبر أنه[7] لم يسبقهم بها من أحد. ولو كان آباؤهم على ذلك لذكروه وعارضوه. فإذ[8] لم يفعلوا ولم يشتغلوا بشيء من ذلك عُلم[9] أنهم كذَبة فيما يقولون. *والله أعلم.*

﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٢٩] ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣٠]

وقوله:[10] **أإنكم لتأتون الرجال،** وهو ما ذكر: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ.[11] وقوله: **وتقطعون السبيل،** قال[12] بعضهم: أي تعترضون الطريق لمن مرّ بكم لعملكم الخبيث، لأنه ذُكر أنهم إنما كانوا يعملون ذلك بالغُرَباء. وقال بعضهم: **وتقطعون السبيل،** أي تقطعون السبيل على الناس، مِن قطْع الطريق. **وتأتون في ناديكم المنكر،** أي وتعملون في مجلسكم المنكر. اختلف في هذا، قال بعضهم: أي تعملون في مجلسكم اللواطة أيضًا. وقال بعضهم: [هو][13] حَذْفٌ بالحصى ورمْي بالبُنْدُق وأمثاله. لكنه يخبر عن سوء صنيعهم في كلّ حال وكلّ وقت،

[1] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٧ظ.
[2] م – في ذلك.
[3] جميع النسخ: ما. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٣و.
[4] جميع النسخ: أمرهم.
[5] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).
[6] جميع النسخ: آباءهم.
[7] ر م: أنهم.
[8] م: فإذا.
[9] جميع النسخ: ليعلم. والتصحيح من المرجع السابق..
[10] ن: قوله.
[11] ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ (سورة الشعراء، ١٦٥/٢٦-١٦٦).
[12] ر: وقال.
[13] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٧ظ.

يقول: إنكم تعملون الفواحش[1] والمناكير في كلّ حال: في الطريق وفي المجلس وفي المنزل.
[٥٧٦ظ س٢ ما سبقكم بذلك[2] كلِّه[3] من أحد من العالمين. **والله أعلم**. *وقوله: **وتأتون في ناديكم المنكر،** روي عن أم هانِئٍ[4] عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله: **وتأتون في ناديكم المنكر،** قال: «كانوا[5] يَخْذِفُون أهل الأرض ويَسخرون منهم».[6] فإن ثبت هذا كان تفسيرًا له لا يحتاج إلى غيره. والنادي، قال أبو عَوْسَجَة: المجلس، وأندِية جماعة. وكذلك قال القُتَبي.[7] قال أبو معاذ: النَّدِيّ والنادي لغتان، فجمع[8] النادي أَنْدِيَة وجمع[9] النَّدِيّ نُدِيّ ونِدِيّ، كقراءة بعض الناس
٥٧٦ظ س٧] في سورة مريم: وَأَحْسَنُ نِدِيًّا،[10] أي مجالس. وقراءة العامة: نَدِيًّا، مجلسًا. **والله أعلم**.*

ثم قال: **فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله،** وقال في موضع آخر: إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ،[12] وقال في موضع آخر: [قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ] لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ.[13] هذه الآيات في الظاهر بعضها مخالف لبعض، لأنه يقول في بعضها: **فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله،** وفي بعضها: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ،[14] و فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ،[15] فهو يخرج على وجوه. أحدها أن يكون قوله: إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ، و أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ،

---

[1] ن ث م: بالفواحش.

[2] ث: بها.

[3] ث – كله.

[4] ر ث م: أمهاني.

[5] ن: كان.

[6] سنن الترمذي، التفسير، ٢/٢٩، وانظر: تفسير الطبري، ١٨/٣٨٩–٣٩٠؛ وتفسير القرطبي، ١٦/٣٥٨. قال مجد الدين ابن الأثير: «الخَذْف: رَمْيك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمي بها، أو تتخذ مِخْذَفة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة» (النهاية لابن الأثير، «خذف»).

[7] تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ٣٣٨.

[8] ن ث: فجميع.

[9] ن: وجميع.

[10] سورة مريم، ١٩/٧٣.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٧٦ظ/سطر ٢–٧.

[12] سورة الأعراف، ٧/٨٢.

[13] سورة الشعراء، ٢٦/١٦٧.

[14] ن – من قريتكم. والآية تقدمت قريبا.

[15] سورة النمل، ٢٧/٥٦.

إنما ذلك فيما بينهم يقول بعضهم لبعض: أخرجوهم. وقوله: **إئتنا بعذاب الله**، إنما قالوا ذلك لِلُوط. فإذا كان كذلك فليس في الظاهر فيه[1] خلاف.

والثاني فما كان جواب قومه في مشهد وفي وقت إلا كذا. وقد كان منهم له أجوبة أُخَر سواها في غير ذلك المشهد وغير ذلك[2] الوقت. أو أن يكون قوله: فما كان آخِر جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين بنزول العذاب علينا. إنما قالوا ذلك له استهزاء وتكذيبًا. ثم دعا لوط ربّه فقال: **رب انصرني على القوم المفسدين**، فأجيب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[٣١] **﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾**[٣٢]

وقوله:[3] **ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى**، يحتمل البشرى البِشارة[4] بالولد في كِبَر سنه وسنّ زوجته ما لم يُطمَع من أمثالهما الولدُ إذا بلغوا ذلك الوقت، وهو ما ذكر: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ،[5] ويحتمل غيره. **قالوا إنا مهلكو أهلِ هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين**، وقال في آية أخرى: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ،[6] ولم يَذكر[7] فيه بِمَ أُرسلوا؟ وبيّن في هذا.

ثم قال إبراهيم: **إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهله إلا امرأته**، ففي الآية الدليل من وجهين. أحدهما يخرج الخطاب على العموم والمراد منه الخصوص، لأن الملائكة قالوا عامًّا: **إنا مهلكو أهل هذه القرية**، ولم يكن الأمر بإهلاك كل أهل[8] القرية، ثم استثنوا لوطًا وأهله بعد ما قال إبراهيم: **إن فيها لوطًا**، حيث قالوا: **نحن أعلم بمن فيها لننجّينه وأهله**.

---

[1] ن – فيه.
[2] ر م: وفي ذلك.
[3] ن: قوله.
[4] جميع النسخ: بشارة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٨و.
[5] ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ (سورة هود، ٧١/١١).
[6] ﴿فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه نَكِرَهم وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ (سورة هود، ٧٠/١١).
[7] جميع النسخ: ولم يذكروا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٨و.
[8] ن – أهل.

[٥٧٦ظ] والثاني فيه جواز تأخير البيان حيث لم يبيّنوا إلا بعد سؤال إبراهيم / إيّاهم.[١] وفيه وجه آخر في امتحان الملائكة بمختلف[٢] الأشياء لأن هؤلاء أُمروا بالبِشارة وأُمروا بإهلاك قوم لوط ليُعلم أنهم يُمتَحنون بمختلِف الأشياء. *والله أعلم*.*

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٣٣]

وقوله:[٤] **ولما أن جاءت رسلنا لوطًا سيء بهم**، ظاهر هذا أنه سيء[٥] بالفعل الواقع[٦] بهم، وإنما[٧] ساء[٨] ظنُّه أنهم يفعلون بهم لما يَعلَم من قومه[٩] الخبيثَ من العمل. **وضاق بهم ذَرْعًا**، هذه كلمة[١٠] تَتَكلَّم بها العرب عند انقطاع جميع الحِيَل.[١١] فلوط إنما قال ذلك لِما لم يرَ لنفسه[١٢] حيلة[١٣] يدفع بها شرّهم وما قصدوا بهم. ألا يرى أنه قال في آية أخرى: [قَالَ] لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ.[١٤] **وقالوا لا تخف ولا تحزن إنّا منجوك وأهلك**. هذا يدلّ على أنهم قد قصدوهم ولوطًا بالهلاك. ألا ترى[١٥] أنه قال في آية أخرى: لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ،[١٦] دلّ هذا أنهم قد قصدوه بالهلاك حتى قالوا: **إنا منجوك وأهلك**. وإنهم إنما أرادوا بالإخراج بقولهم: لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ،[١٧] إخراجَ قتل، إذ لو كان إخراجًا من القرية لا بقتل لكان لا يكون له النجاة منهم والأمن. *والله أعلم*.

---

[١] ن – لننجينه وأهله والثاني فيه جواز تأخير البيان حيث لم يبينوا إلا بعد سؤال إبراهيم إياهم، صح هـ.
[٢] م: تختلف.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٢٩، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٧٦ظ/سطر٢-٧.
[٤] ن: قوله.
[٥] جميع النسخ + بهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٨و.
[٦] جميع النسخ: بالواقع من الفعل. والتصحيح من المرجع السابق.
[٧] جميع النسخ: لكن. والتصحيح من المرجع السابق.
[٨] ث م: ساءه.
[٩] جميع النسخ: قوم. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٠] ن: كلمات، صح هـ: كلمة.
[١١] ن: الخيل.
[١٢] ر م: نفسه.
[١٣] ر م – حيلة.
[١٤] سورة هود، ٨٠/١١.
[١٥] ن: يرى.
[١٦] سورة هود، ٨١/١١.
[١٧] جميع النسخ: إنك لمن المخرجين. ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ (سورة الشعراء، ١٦٧/٢٦).

وقوله: **إلا امرأتك كانت من الغابرين**، وفي بعض الآيات: إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ.[١] والغُبور فِعلها. ثم أخبر أنه قدّر ذلك، دلّ أن أفعال العباد مخلوقة لله مقدَّرة له. ***والله أعلم***.

[٥٧٧و س٢٢ * قال أبو عَوْسَجَة: قوله: **سِيءَ بهم**، أي اغتمّ من ذلك، يقال: سِئت بفلان، أُساءُ سَوْءًا فأنا مَسُوء.* ٥٧٧و س٢٢]

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٣٤]

وقوله:[٣] **إنا منزلون على أهل هذه القرية رِجْزًا من السماء**، أي عذابًا. والرجز[٤] اسم كلّ عذاب فيه شدّة. ألا ترى[٥] أنه قال في آية أخرى: هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ،[٦] أي شديد. ثم ذكر أنه ينزل من السماء، فإن ثبت ما ذُكر أن جبريل أدخل أحد[٧] جناحيه تحت الأرض فرفع بها قَرْياتِ لوط إلى السماء حتى سمع أهل السماء صِياحهم وضَجَّتهم ثم أرسلها، فهو نزول العذاب من السماء.[٨] أو[٩] أن يكون[١٠] قوله: حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ،[١١] أن السجيل لو كان مكانًا منه ينزل فهو في السماء، على ما يقول بعض الناس أنه مكان. وقال بعضهم: هو اسم ذلك الحجر. ***والله أعلم***.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣٥]

وقوله: **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون**، آية بيّنة لمن عقل وعرف السبب الذي أهلك قَرْياتِ لوط، كقوله: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[١٢] لماذا أهلكوا،[١٣] أي تعقلون. هذه الأنباء والقِصص [قد] ذكرها الله[١٤] تعالى في القرآن الكريم وكرّرها وأعادها مرّة بعد مرّة،

---

[١] سورة الحجر، ١٥/٦٠.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ٤٠، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٧٧و/سطر٢٢.

[٣] ن: قوله.

[٤] ر: والرجس.

[٥] ن: يرى.

[٦] ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سِيء بهم وضاق بهم ذَرعًا وقال هذا يوم عَصيب﴾ (سورة هود، ١١/٧٧).

[٧] جميع النسخ: إحدى.

[٨] *تفسير الطبري*، ١٢/٥١٥-٥١٨، ٥٣٣-٥٣٧؛ و*تفسير ابن أبي حاتم*، ٦/٢٠٦٧-٢٠٦٨.

[٩] ر ث م: و.

[١٠] ر م - يكون.

[١١] انظر: تفسير الآية ٨٢ من سورة هود، ففيه تفسير السجيل وبعض مصادر المسألة (*تأويلات القرآن*، ٧/٢١٥).

[١٢] سورة الصافات، ٣٧/١٣٧-١٣٨.

[١٣] ن: يهلكوا.

[١٤] ر م - الله.

لأن الأنباء والقِصص إنما تُذكر[1] للحِجاج على الكفَرة فتُكَرَّر وتُعاد لِيَحتجّ بها عليهم مَن بَعُد منهم ومن قرب، إذ لعلّه لا يصل إليهم جميع القرآن فمقدار ما يصل إليهم يكون فيه ما يحتج عليهم.[2] وأما الأحكام فإنما هي لأهل الإسلام خاصّة فهم يطلبون ما عليهم من الأحكام فلا يقع الحاجة إلى التكرار والإعادة. ثم الكفرة كانوا[3] على أصناف ثلاثة. منها أهل العناد والمكابرة، وأهل شكّ وحَيرة، وأهل استرشاد. ومن كان همته الاسترشاد يؤمن بها بالبداهة[4] وفي أوّل ما وقع في مسامعهم فلا يقع الحاجة إلى التكرار والإعادة. وأما أهل العناد والمكابرة فإنها تُكرّر عليهم لعلّها تَنْجَعُ فيهم فيؤمنون بها.[5] وهذه[6] الآيات كانت آياتٍ وحُجَجًا للتوحيد والبعث وإثبات الرسالة.[7] وعلى ذلك جاءت الرسل بالدعاء إلى التوحيد وإلى الإقرار بالبعث والإيمان به وإلى الإيمان بالرسل.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٣٦] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٣٧]

فشعيب عليه السلام جمع هذه الخصال الثلاث في قوله: **يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين**، دعاهم إلى التوحيد بقوله: **اعبدوا الله**، وفيه نهي عن عبادة مَن دونه. ودعاهم إلى الإيمان بالبعث بقوله: **وارجوا اليوم الآخر**، أي خافوا عذاب ذلك اليوم. ونهى عن[8] جميع المعاصي بقوله: **ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فكذّبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**، قد ذكرنا هذا.[9] وقوله:[10] **وإلى مدين أخاهم شعيبًا**، أي أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا. ومدين، قال بعضهم: اسم رجل نسب إليه. وقال بعضهم: اسم موضع، وقد ذكرنا فيما تقدم.

---

[1] ن: يذكر.

[2] ر ث م – من بعد منهم ومن قرب إذ لعله لا يصل إليهم جميع القرآن فمقدار ما يصل إليهم يكون فيه ما يحتج عليهم.

[3] ن – كانوا.

[4] ن ث: بالبديهة.

[5] ن: ويؤمنون منها.

[6] ر: فهذه.

[7] ر ث م: والبعث والرسالة.

[8] ن – عبادة من دونه ودعاهم إلى الإيمان بالبعث بقوله وارجوا اليوم الآخر أي خافوا عذاب ذلك اليوم ونهى عن.

[9] انظر: تفسير الآية ٧٨ و ٩١ من سورة الأعراف.

[10] ن: قوله.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[٣٨]

وقوله:[١] **وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم**، إن الرسل صلوات الله عليهم قد خوّفوا الكفَرة بعذاب ينزل بهم في الآخرة بتكذيبهم إياهم وعنادهم، فلم ينجع ذلك فيهم ولم يرتدعوا عما هم فيه، حتى أوعدوهم بعذاب ينزل بهم في الدنيا فلم ينجع ذلك ولم يمتنعوا عن ذلك، حتى أوعدوهم بنزول ما قد شاهدوه وعاينوا من آثار من قد أهلكهم [الله] بتكذيبهم الرسل وردّهم إجابتَهم وهو / ما قال: **وعادًا وثمود**،[٢] أي أهلكنا عادًا وثمود.[٣] **وقد تبيَن لكم من مساكنهم**، أي قد تبيّن لكم من مساكنهم[٤] ما تعرفون أنهم إنما أُهلكوا بالذي أنتم عليه وهو التكذيب والرد بأخبارٍ تصدّقونها وبآثار تشاهدونها، وهو كما قال: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.[٥] ***والله أعلم***. [٥٧٧و]

وقوله:[٦] **وزَيّن لهم الشطانُ أعمالهم فصدّهم عن السبيل**، أي زين لهم الشيطان أعمالهم كما زيّن لكم. **فصدّهم عن السبيل** كما صدّكم. **وكانوا مستبصرين**، اختلف فيه قال بعضهم: أي كانوا يحسبون أنهم على هدى وحق. وقال بعضهم: **كانوا مستبصرين**، أي كانوا عالمين بأن العذاب ينزل بهم بما شاهدوا وعاينوا من آثار مَن تقدّمهم وعلموا[٧] أنهم[٨] إنما أُهلكوا بالذي هم عليه، لكنهم عاندوا. وقال بعضهم: **وكانوا مستبصرين**، أي هالكين في الضلالة. وقال بعضهم: **وكانوا مستبصرين**، أي كانوا بُصَراء علماء في أنفسهم يعرفون الحق من الباطل، ليس كغيرهم من الأمم. ألا يرى أنهم قد طلبوا من رسلهم الحجة والآية على ما يَدْعون إليه حيث قالوا: يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ،[٩] وقال قوم صالح: [مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا] فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ،[١٠] ونحوه. وقال: قتادة: **مستبصرين**، أي مُعجَبين بضلالتهم.[١١]

---

[١] ن: قوله.
[٢] ن ث: وثمودا.
[٣] ن ث: وثمودا.
[٤] ث - أي قد تبين لكم من مساكنهم.
[٥] سورة الصافات، ٣٧/١٣٧-١٣٨.
[٦] ن: قوله.
[٧] جميع النسخ: من تقدم وعلمهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٨ظ.
[٨] جميع النسخ: بأنهم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٥و.
[٩] ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾ (سورة هود، ١١/٥٣).
[١٠] سورة الشعراء، ٢٦/ ١٥٤.
[١١] انظر: *تفسير الطبري*، ١٨/٣٩٩.

[٥٧٧و س ٢٢ *وقوله:[1] جَاثِمِينَ،[2] أي لَزِقوا بالأرض. **وكانوا مستبصرين**، أي قد علموا. والمستبصر العالم.
٥٧٧و س ٢٤] وقوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ،[3] أي صِيح بهم فماتوا.*

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [٣٩]

وقوله:[5] **وقارون وفرعون وهامان**، أي أهلكنا قارون وفرعون وهامان بتكذيبهم موسى، فتُهلَكون أنتم يا أهلَ مكّة بتكذيبكم محمدًا. وقوله: **ولقد جاءهم موسى بالبينات**، أي كذّبوه بعد ما جاءهم موسى بالبينات على نبوّته ورسالته كما جاءكم محمد. وقوله: **فاستكبروا في الأرض**، جائز أن يكونوا استكبروا [أي] أبَوا[6] أن يخضعوا لموسى، أو استكبروا[7] في الأرض، أي سعوا في الأرض بالفساد تكبّرًا واستكبارًا. **وما كانوا سابقين**، أي فائتين عن[8] عذاب الله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٤٠]

وقوله: **فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا**، أي الحجارة، وهم قوم لوط، وقوم هود أُهلكوا بالريح العاصف حيث قال: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ.[9] قال أبو معاذ: الحاصب عند العرب الريح التي فيها الزنانير وهي الصغار[10] من الحَصَى. **ومنهم من أخذته الصيحة**، وهم قوم صالح وقوم شعيب وهؤلاء. **ومنهم من خَسَفْنا به الأرض**، قارون وأصحابه. **ومنهم من أغرقنا**، قوم نوح وفرعون.

---

[1] ن: قوله.
[2] الآية السابقة.
[3] الآية السابقة.
* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ٤٠، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٥٧٧و/سطر٢٢-٢٤.
[5] ن: قوله.
[6] جميع النسخ: وأبوا.
[7] ر م: واستكبروا.
[8] ن: من.
[9] سورة الذاريات، ٥١/٤١-٤٢.
[10] جميع النسخ: صغار. والتصحيح من الشرح، ورقة ٥٧٨ظ.

يذكر إهلاك هذه الأمم والجبابرة لأهل مكّة ولغيرهم من الكفرة وقد تواترت عليهم بذلك الأخبار وظهرت لهم[١] الأعلام والآثار ليرتدعوا عما هم عليه ولئلّا يعاملوا رسولهم كما عامل أولئك رسلهم فيعذّبون كما عُذِّب أولئك.

وقوله: **وما كان الله ليظلمهم**، في تعذيبه إيّاهم، **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**، حيث كذّبوا الرسل وكابروا آيات الله وحججه وبراهينه وعاندوها. *والله أعلم*.*

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٤١]

العنكبوت[٣] هذه التي تَغْزِل، وهي دُوَيبة كثيرة القوائم، وعناكب جمع.[٤] وقوله:[٥] **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا**، يشبه أن يكون ضَرْبُ مَثَلِ الذين اتخذوا من دون الله أولياء ببيت العنكبوت، هم الرؤساءُ منهم والمتبوعون، يقول -والله أعلم-: مثل اتخاذكم أولئك أولياء من دون الله وما تأمُلون وتطمعون[٦] منهم كمثل بيت العنكبوت لا ينفع ولا يُغني ما يؤمل من البيت من دفع الحرّ والبرد وغيره، فعلى ذلك اتخاذكم واتّباعكم هؤلاء أولياءَ من دون الله مِثل ما ذُكر لا ينفع ولا يغني ولا يدفع عنكم ما ينزل بكم، وهو ما قال: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ،[٧] الآية. ظاهر ما ذكر من الأولياء أن يكون المتبوعين منهم. وجائز أن تكون[٨] الأصنامَ التي اتخذوها آلهة. ضَرَبَ مثَل عبادتهم الأصنامَ واتخاذِهم إياها آلهة ببيت العنكبوت. وذلك أن العنكبوت اتخذت البيت رجاءَ أن تنتفع[٩] به كما يُنتفع[١٠] من البيوت[١١] في دفع الحر والبرد والستر والحجاب.

---

[١] ر ث م - لهم.

* وقع هنا مقطعان من تفسير الآيتين السابقتين برقم ٣٣ ورقم ٣٨ فقدمناهما إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٥٧٧و/سطر ٢٢ وورقة ٥٧٧و/سطر ٢٢-٢٤.

[٣] جميع النسخ: والعنكبوت.

[٤] ن ث: جميع.

[٥] ن: قوله.

[٦] ر ث م - وتطمعون.

[٧] ﴿ويلعن بعضكم بعضا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٥).

[٨] جميع النسخ: أن يكون.

[٩] م: ينتفع.

[١٠] ن: تنتفع.

[١١] ر ن ث: بالبيوت.

فلما أن وقعت الحاجة إليه لم تنتفع[1] بما[2] كانت تأمُل[3] منه في شيء مما كانت تأمل. فعلى ذلك هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام آلهة ومعبودًا رجاء أن ينفعهم ذلك يومًا. فلما أن وقعت لهم الحاجة لم يجدوا ما كانوا يأملون من عبادتهم إياها واتخاذهم آلهة. بل في بيت العنكبوت للعنكبوت شيء من المنفعة وليس لأولئك العبَدة بتلك الأصنام شيء مما كانوا يأملون، فهي دون بيت العنكبوت في المنفعة. لكنه -والله أعلم- ضَرَب مثلها ببيت العنكبوت لِما لا[4] شيءَ أوهنَ وأضعف عند الخلق من بيتها. وهو كما[5] شبّه أعمال الكفرة برماد اشتدت به الريح،[6] وبسراب بقيعة[7] لِما ليس شيءٌ أضيعُ ولا أبعد في الوجود والقدرةِ عليه في الوهم مما ذَكَر فشبّه أعمالهم به. فعلى ذلك تشبيهُ اتّخاذِ أولئك الأصنامِ آلهةً وأولياءَ من دون الله ببيت[8] العنكبوت. *والله أعلم.*

وقوله: **وإنّ أوْهَن البيوت لَبيت العنكبوت**، أي أضعف وأبعد من المنفعة بيتُ[9] العنكبوت.

[٥٧٧ظ] / فعلى ذلك عبادتهم الأصنام واتخاذهم إياها معبودًا أوْهنُ وأبعد مما يأملون. **لو كانوا يعلمون**، أي إن كانوا يعلمون[10] ضَعْفها وعجزها. ***والله أعلم.***

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤٢]

وقوله: **إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء**، يقول[11] -والله أعلم-: إن الله لم يزَل عالمًا بما يكون منهم من اتخاذهم الأصنام[12] معبودًا وإنه عن علم أنشأهم كذلك،[13]

---

[1] جميع النسخ: لم ينتفع.
[2] جميع النسخ: مما.
[3] جميع النسخ: كان يأمل.
[4] ن - لا.
[5] جميع النسخ: ما.
[6] يشير إلى قوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٨).
[7] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظّمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (سورة النور، ٢٤/٣٩).
[8] ث: بيت.
[9] ن: ببيت.
[10] ث: يعملون.
[11] ر ث م - يقول.
[12] ث + آلهة.
[13] جميع النسخ: ذلك. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٦و.

لا عن غفلة وسهو، لكن أنشأهم لمنافع أنفسهم ولحاجة لهم لا لحاجة ومنفعة له في إنشائه إياهم،[١] وهو ما قال: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.[٢]

وقال هاهنا: **وهو العزيز الحكيم. العزيز**، قيل: إنه المنيع، وقيل: إنه الذي يَذِلّ كلُّ شيء دونه. لكن العزيز عندنا هو الذي لا يعلو[٣] سلطانَه شيءٌ ولا يقهَر ملكَه شيء، ويعلو سلطانُه وإرادته على جميع[٤] الأشياء ويقهرها. و **الحكيم**، قيل: الذي له الحكم، وقيل: هو المصيب، وقيل: هو الذي يضع كل شيء موضعه. والحكيم عندنا هو الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير. ***والله أعلم***.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٤٣]

وقوله: **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**، فإن قيل: ذكر أنه لا يعقلها إلا العالمون، والعقل يسبِق العلمَ بالشيء، إذ بالعقل يُعلم ما يُعلَم، فكيف ذَكَر أنه لا يعقل[٥] إلا العالمون ولم يقل: وما يعلمها إلا العاقلون؟

فهو -والله أعلم- لوجوه. أحدها أن الأمثال إنما تُضرَب لتقريب ما يَبْعُد عن الأوهام ولكشفِ[٦] ما استتر من الأشياء على الأفهام ولِتجلِيَتِها[٧] عما خفيت، فلا يَعقِل[٨] الأمثالَ أنها لماذا ضُربت وفيم ضربت[٩] إلا العالم.

والثاني أن العقول تعرف أسباب الأشياء ودلائلها. فأما أن تعرف حقائق الأشياء وأنفسها فلا،[١٠] من نحو المسالك والطرق إلى البلدان تَعرف مسالكها وطرقَها التي بها يوصل إليها، فأما أعيُنَها فلا. وكذا المراقي التي بها يُعلى[١١] ويُرتفع، فأما عينَ العلوّ فلا. وأما العلم فإنه به[١٢] يوصَل إلى معرفة حقائق الأشياء وأنفسها وصورها، لذلك كان ما ذكر.

---

[١] جميع النسخ: إياها. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٦و.
[٢] سورة العنكبوت، ٢٩/٦.
[٣] ر: يعلوا.
[٤] ن – جميع.
[٥] ث: يعقلها.
[٦] م: والكشف.
[٧] جميع النسخ: وتجليها.
[٨] ن: فلا تعقل.
[٩] ر ث م – وفيم ضربت.
[١٠] ر: فلأن.
[١١] ر م: يعلو؛ ن ث: يعلا.
[١٢] ر م – به.

والثالث أن يكون قوله: **وما يعقلها**، أي وما ينتفع بما ذكر، **إلا العالمون**، وهو كما قال: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ،[1] نفى عنهم هذه الحواسّ وإنْ كانت لهم أنفُسُ تلك الحواسّ لِما لم يستعملوها[2] فيما جعلت وأُنشئت ولم ينتفعوا بها فنفى عنهم تلك. فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: **وما يعقلها إلا العالمون**، أي ما ينتفع بما يعقل إلا العالم، فأما من لم ينتفع فلا يعلم.[3] ***والله أعلم***.

﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٤]

وقوله: **خلق الله السماوات والأرض بالحق**، يحتمل قوله: **بالحق**،[4] أي لعاقبة[5] وهو البعث، لأنه لم يخلقهما لأنفسهما. وكذلك لم يخلق الدنيا للدنيا ولكن إنما خلقها للآخرة، إذ بالآخرة يصير خلقها حكمة وحقًّا، لأنه[6] لو لم يكن خلقها لعاقبة كان خلقها عبثًا باطلًا وهو ما قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا،[7] لا [يوجد] كافر يظنّ أنه خلقهما باطلًا، ولكن لَمّا تركوا الإيمان بالبعث وأنكروا البعث كأنهم ظنوا أنه خلقهما باطلًا، إذ لولا البعث كان خلقهما باطلًا عبثًا فإنما[8] صار خلقهما حقًّا وحكمة بالبعث، فإذا أنكروا ما به صار خلقه إياهما حكمة وحقًّا فقد ظنوا الباطل بخلقهما. فنسأل[9] الله التوفيق والصواب.

ويحتمل قوله: [**بالحق**]، أي[10] خلقهما لتدلّا إلى الحق، لأنهما تدلّان على[11] وحدانيّة الله وربوبيّته وتعاليه عن الأشباه والشركاء وجميع الآفات. أو أن يكون، **بالحق**، [أي بالحق][12] الذي لله[13] عليهم أو بالحق الذي لبعضهم على بعض. ***والله أعلم***.

---

[1] سورة البقرة، ٢/١٨، ١٧١.
[2] ن: لم تستعملوها.
[3] جميع النسخ: فلا يعقل.
[4] ث – يحتمل قوله بالحق.
[5] م: العاقبة.
[6] ث: لأنها.
[7] سورة ص، ٣٨/٢٧.
[8] ن: فإنهما.
[9] ر ن م: فيسأل.
[10] جميع النسخ: إن. والتصحيح والزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٩و.
[11] ن ث: إلى.
[12] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٩و.
[13] ث – لله.

إن في ذلك لآية للمؤمنين، تصير[١] آية لمن أقرّ بها وآمن، إذ هو المنتفع بها.[٢] فأما من أنكر وجحد وكذبها فهو آية عليه لا له. *والله أعلم*.

﴿اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٤٥]

وقوله: **اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأَقم الصلاة**، جائز أن يكون قوله: **اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقِم** به **الصلاة**، أي بالكتاب الذي أوحي إليك. ويحتمل: **اُتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب** عليهم **وأقِم** بهم **الصلاة**. فالخطاب وإن كان لرسول الله فهو لكلّ أحد على ما ذكرنا في سائر المخاطبات. *والله أعلم*.

وقوله:[٣] **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما على الامتنان. والثاني على الإلزام. فأما وجه الامتنان هو أنْ جعل لكم الصلاة لتمنعكم[٤] عن الفحشاء والمنكر ما لو لم[٥] يجعلها [كذلك] لكم لا شيء يمنعكم عن الفحشاء والمنكر، فيمُنُّ عليهم بجعل الصلاة لهم لِما تمنعهم[٦] عما ذُكر. وأما وجه الإلزام فإنه يخرج على وجهين. أحدهما أن الصلاة لو كان موهومًا منها النطق والنهي لكانت تنهى عن الفحشاء والمنكر، على ما أضاف التغرير والتزيين إلى الحياة الدنيا.[٧] أي لو كان هذا الذي كان من الدنيا، كان ممن[٨] له التغرير [ويتحقق منه][٩] كان ذلك تغريرًا. فعلى ذلك الصلاة لو كان منها حقيقة الأمر والنهي لكانت تنهى عن الفحشاء والمنكر.

والثاني أضيف النهي إلى الصلاة لِما بها يعرف ذلك، فقد تضاف[١٠] الأشياء إلى الأسباب وإن لم يكن منها حقيقةُ ما أضيف إليها، نحو ما يضاف الأمر والنهي إلى الكتاب والسنة ونحوه[١١] يقال:

---

[١] جميع النسخ: صير. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٦ظ.
[٢] ر: بهما.
[٣] ن: قوله.
[٤] جميع النسخ: فتمنعكم.
[٥] ر م – لم.
[٦] جميع النسخ: يمنعهم.
[٧] مثلَ قوله تعالى: ﴿وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا﴾ (سورة الأنعام، ٦/٧٠)؛ ومثلَ قوله: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ (سورة الحديد، ٥٧/٢٠).
[٨] جميع النسخ: من. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٩و.
[٩] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٧٩و.
[١٠] جميع النسخ: يضاف.
[١١] ن هـ: ونحوهما.

أمرَنا الكتاب بكذا والسنة[1] بكذا[2] ونهانا عن كذا وإن لم يكن منها أمرٌ حقيقةً ولا نهي لِما بهما يُعرف الأمر والنهي وهما سببا ذلك، فعلى ذلك جائز إضافة النهي إلى الصلاة أن يكون على هذا السبيل.

[٥٧٨و] وقوله: **ولذكر الله أكبر**، اختلف فيه. قال بعضهم: ذِكر الله أكبر في العبادات / من أنفُس تلك العبادات. ووجه هذا -والله أعلم- أن العبادات إنما تكون[3] بجوارح تُغلب وتُقهر وتُستعمل[4] فلا يعرف [المرء][5] أنها[6] لله إلا بتأويل. وأما ذكر الله إنما يكون باللسان والقلب، وهما لا يُغلبان ولا يُستعملان ولا يُقهران فهو يَعرف أن ذلك لله حقيقةً فهو أكبر. وقال بعضهم: **ولذكر الله أكبر**، من سائر الأذكار التي ليست لله. فهذا ليس فيه كبيرُ حكمة، لأن ذلك يعرفه كل أحد. وقال بعضهم: ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة. وقال بعضهم: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، لأن ذكره إياكم رحمة ومغفرة، وذلك مما لا يعدِله ولا يوازيه شيء، وأما العبد فإنه يذكر ربه بأدنى شيء. وقال بعضهم: ذكر الله أكبر، أي ما وفّق الله[7] العبد من ذكره إياه وطاعتِه له أكبرُ من نفس ذلك الذكر ونفس تلك العبادة.

وذكر في حرف ابن مسعود وأُبيّ وحفصة: إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر.[8] وعن الحسن يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من لم تَنهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يَزدَد بها[9] من الله[10] إلا بُعدًا ولم يزدد بها عند الله إلا مقتًا».[11] وعن سلمان الفارسي قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما[12] قال: لهذا وجهان.

---

[1] ر م: أو السنة.
[2] ن - والسنة بكذا.
[3] ث: يكون.
[4] جميع النسخ: ويستعمل.
[5] جميع النسخ + تلك.
[6] ر: أنهما.
[7] ن - الله.
[8] انظر لحرف ابن مسعود: *كتاب المصاحف* لابن أبي داود، ٧٢.
[9] م - بها.
[10] ر: عند الله.
[11] رواه القضاعي في *مسند الشهاب* (٣٠٥/١): عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلا بعدا». ورواه الطبراني في *المعجم الكبير* ٥٤/١١.
[12] ر م: عنه.

أحدهما يقول: ذكر الله أكبر مما سواه من أعمال البِرّ. والآخر يقول: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.[١] والضحاك يقول: العبد يذكر الله عندما أحلّ له وحرم عليه فيأخذ بما أحلّ له[٢] ويجتنب ما حرم عليه. وقتادة يقول: لا شيء أكبر من ذكر الله.[٣] وأصله ما ذكرنا[٤] من الوجوه التي تقدم ذكرها.[٥]

وقوله: **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**، قال بعضهم: تنهى وتمنع مادام فيها [المصلّي] لا يعمل بالفحشاء والمنكر. والثاني إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، أي لو كانت لها النطق والأمر والنهي لكانت تنهى عما ذُكر. والوجه فيه ما ذكرنا بدءًا. ***والله أعلم.***

وقوله: **والله يعلم ما تصنعون**، وعيد ليكونوا أبدًا على حذر ويَقَظة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤٦]

وقوله: **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم**، الآية، تخرج على وجوه ثلاثة. أحدها ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فلا تجادلوهم لا[٦] بالتي هي أحسن ولا غيره، وهم الذين لا يقبلون الحجة ولا يؤمنون إذا لزمتهم الحجة وهم أهل عناد ومكابرة، والأولون يقبلون الحجة ويؤمنون بها.

والثاني **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**، فقوله: **إلا الذين ظلموا منهم**، ليس على الثنيا من الأوّل ولكن على الابتداء، كأنه قال: **إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا**، إلى آخر ما ذكر، أي قولوا لهم هذا ولا تجادلوهم، فإنكم وإن جادلتم إياهم فلا يؤمنون، وهو كقوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي.[٧] قوله: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ، ليس على الثنيا من الأول ولكن [على] ابتداءِ نَهي، أي لا تخشوهم واخشوني. فعلى ذلك يحتمل الأول مثله.

---

[١] حول آراء سلمان الفارسي وابن عباس رضي الله عنهما، انظر: *تفسير ابن كثير*، ٥١٦/١٠.
[٢] ر م - له.
[٣] حول آراء الضحاك وقتادة، انظر: *تفسير القرطبي*، ٣٦٩/١٦-٣٧٠.
[٤] ث: ذكر.
[٥] ن ث: ذكره.
[٦] جميع النسخ: إلا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٧٦ظ.
[٧] سورة البقرة، ١٥٠/٢.

والثالث جائز أن يكون قوله: **وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم**، إلى آخر ما ذكر هي المجادلة الحسنةَ التي أُمروا بها، لأن ذلك مما يقبلها العقل والطبع وبها جاءت الكتب والرسل فلا سبيل إلى ردّ ذلك. وقال بعضهم: **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**، أي جادلوا الذين يصدّقون منهم ولا يكتُمون[1] نعتَ محمد وما في كتبهم من الحق. فأما الذين تعلمون[2] أنهم يكتمون ولا يصدقون فلا تجادلوهم، وهو كقوله: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.[3] والأول، كقوله تعالى:[4] تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،[5] الآية. والمجادلة الحسنة هي التي جاء بها الكتاب ويُوجبها العقل.

ثم فيه دلالة جواز المناظرة والمجادلة مع الكفرة في الدين، وكذلك في قوله تعالى:[6] وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ،[7] ليس كما يقول بعض الناس أَنْ لا تجوزُ[8] المناظرة معهم، وذلك لجهلهم بحجج الإسلام وبراهينه: ما يَنْهَوْن عن المجادلة[9] والمناظرة معهم.[10] وقال بعضهم: من لا عهْدَ معهم فجادلهم بالسيوف، ومن كان معه عهد وكتاب فجادلهم بالحجج. وقال بعضهم: هو منسوخ بقوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ،[11] الآية. ومنهم من يقول: من أدّى إليكم الجزية فلا تُغلِظوا له القول وقولوا لهم قولاً حسنًا، ومن لم يؤدِ فأَغلِظوا لهم وجادلوهم[12] بالسيف. *والله أعلم*.

---

[1] ن: ولا تكتمون.

[2] ن: يعلمون.

[3] ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (سورة النحل، ١٦/٤٣).

[4] ن ث – تعالى.

[5] ﴿قل يا أهل الكتاب تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألَّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦٤).

[6] ن – تعالى.

[7] ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٥).

[8] جميع النسخ: لا يجوز.

[9] ن: المجادله.

[10] «وفيه دلالة وجوب تعلم علم الكلام الذي به يتحقق المجادلة» (شرح *التأويلات*، ورقة ٥٧٩ظ).

[11] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يَدِينُون دينَ الحق من الذين أُوتوا الكتابَ حتى يُعطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة، ٩/٢٩).

[12] جميع النسخ: وجادلهم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٨و.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾[٤٧]

وقوله: **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب**، أي كما أخبرناك في الكتاب فقل لهم أو جادلهم.[١]
وقوله: **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به**، يخرج على وجهين. أحدهما الذين آتيناهم الكتاب، فيتلونه حق تلاوته فهم يؤمنون به، على ما ذُكر في آية أخرى: اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ،[٢] فتكون[٣] هذه الآية تفسيرًا للأولى. وأما من لم يَتلُوه[٤] حق/ تلاوته فلا يؤمنوا[٥] به. [٥٧٨ظ]
والثاني **فالذين آتيناهم الكتاب** وانتفعوا به، أي يؤمنون [هم] الذين أوتوا منافعَ الكتاب. **ومن هؤلاء من يؤمن به**، يحتمل قوله: **ومن هؤلاء**،[٦] أي من أهل مكة من يؤمن به، وقد آمن كثير منهم. وجائز أن يكون إشارة إلى قوم كانوا بحضرته فقال: **ومن هؤلاء من يؤمن به**. ***والله أعلم***.

وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. قال:[٧] قتادة: لا يكون الجحود إلا بعد معرفة.[٨] وإن[٩] اليهود والنصارى عرفوه كما عرفوا أبناءهم[١٠] لكنهم جحدوه. وكلُّ مَن أنكر شيئًا فقد جحده، عرفه أو لم يعرفه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٤٨]

وقوله: **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تَخُطُّهُ بيمينك**، تأويله -والله أعلم- أي ما كنت تتلو من قبله، أي من قبل هذا الكتاب من كتاب. ولو كنت تتلو لارتاب المبطلون فيقولون: إن ما[١١] أنبأتهم من الأنباء المتقدِّمة أو كلامِ الحكمة إنما تَلقَّفتَ وأخذتَ من تلك الكتب المتقدِّمة

---

[١] ث: وجادلهم.
[٢] سورة البقرة، ١٢١/٢.
[٣] جميع النسخ: فيكون.
[٤] جميع النسخ: لم يتلو. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٨و.
[٥] ر ن م: ولا يؤمنوا؛ ث: لا يؤمنون. والتصحيح من المرجع السابق.
[٦] ن + من يؤمن به يحتمل قوله ومن هؤلاء.
[٧] جميع النسخ: وقال. والتصحيح من المرجع السابق.
[٨] انظر: تفسير *الطبري*، ٤/١٨؛ ٤٢٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣٣٨/١١.
[٩] ر ث م: إن.
[١٠] يشير إلى قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (سورة البقرة، ١٤٦/٢).
[١١] م: من.

أو من[1] كتب الحكماء. ولو كنت تخُطّه بيمينك يقولون: إن ذلك من تأليفك ورَصفك.[2] لأن القرآن حجة عليهم من وجهين. أحدهما ما ذُكِر فيه من الأنباء المتقدمة المُتَرجَمَةِ بغير لسان المتقدّم ما علموا بأجمعهم أن رسول الله صلوات الله عليه كان لا يعرفها بمترجِمٍ[3] ولا شهدها هو، ثم أنبأهم على ما كان، فعلموا أنه بالله عرفها.

والثاني هو آية معجزة نظمًا ورَصْفا[4] ما يعلمون أنه ليس من نظم البشر ولا رَصفه.[5] فيقول: ما كنت تتلو من قبله كتابًا فيه تلك الأنباء والحكمة ولا تَخُطّه بيمينك فيقولون: من تأليفك أو من نظمك. فلو كنت كذلك إذًا لارتاب المبطلون بما ذكرنا على عناد منهم ومكابرة ولا يرتاب المُحِقُّون. ولو كان[6] كما ذكرنا[7] لَمَا عرفوا صدقه بأشياء وبآيات كانت فيه.

وقال بعضهم في قوله: **وما كنت تتلو من قبله من كتاب**، يقول: قبل القرآن. **ولا تخطّه بيمينك**، أي لا تَكتُبُه بيدك، ولو كنت تقرأ كتابًا من قبله أو كنت تكتب بيدك، **إذًا لارتاب المبطلون**، يقول: لَاتَّهموك. هذا قد ذكرناه. ولكن نقول في قوله: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ،[8] يقول: بل هو اليقين أنك لا تقرأ ولا تكتب عند الذين أوتوا العلم وهم مؤمنو[9] أهل الكتاب من نحو عبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[٤٩]

وقوله: **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**، يحتمل القرآنَ، إذ فيه آيات وحدانية الله وحججه وآيات البعث وحججه.[10] ويحتمل قوله: **بل هو آيات بينات**، رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، [إذ] كان من أوّل ما نشأ[11] إلى آخر أمره آيةً لِما ذُكر من النور في وجه أبيه ما دام في صُلبه،

---

[1] ر م – من.
[2] ر: ووصفك. الرَّصف: ضمّ الشيء بعضه إلى بعض ونَظْمه (*لسان العرب*، «رصف»).
[3] ن: بمترجمة.
[4] ر: ووصفا.
[5] ر: ولا وصفه.
[6] جميع النسخ: وإن كان.
[7] جميع النسخ: كما ذكر. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ٤٨٠و.
[8] من الآية التالية.
[9] جميع النسخ: مؤمنوا.
[10] جميع النسخ + أو آيات. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ١٩٨ظ.
[11] ر: ما أنشأ.

ثم في وجه أمه إذ وقع في رحمها، ثم مِن ضياء الليلة التي وُلِد فيها، ثم من ظِلّ السحاب الذي أظلّه وقتَ ما خرج من وطنه، وأمثالُ ذلك كثير ما لا يُقدَر إحصاؤه. *والله أعلم*. فذلك كلّه يدلّ على رسالته ونبوته لا يرتاب فيه إلا المبطل المعاند المكابر. وقوله: **في صدور الذين أوتوا العلم،** جائز أن يكون قوله: **في صدور الذين أوتوا العلم،** أي أوتوا منافعَ العلم، أي هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا منافع العلم، فأما من لم يؤتَ منافعَ العلم فلا.

وقوله: **وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون،** يحتمل الظالم ظالم الآيات لما لم يضَعْها[١] في موضعها. ويحتمل **الظالمون،** الكافرون.[٢]

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥٠]

وقوله: **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه،** وفي بعض القراءات: آية من ربه، على الوُحدان.[٣] فكأنهم سألوه مرة آية، كقوله: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً.[٤] وإنما يُنزل إذا شاء بعد السؤال؛ ومرة سألوه آيات، كقوله:[٥] لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا،[٦] وكقوله:[٧] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا،[٨] الآية، ونحوها من الآيات التي سألوها. فمرة سألوه آيات ومرة سألوه آية. فقول من قال [و]اختار قراءة "آية"[٩] على قراءة "آيات"[١٠] محال إذ[١١] ثبت أنها[١٢] [أيضًا] قراءة. فأخبر عز وجل على ما كان[١٣] منهم. *والله أعلم*.

---

[١] جميع النسخ: لم يضعوها.
[٢] ن: الكافرين.
[٣] انظر: حجة *القراءات* لابن زَنْجَلَة، ٥٥٢.
[٤] ﴿إن نشأ نُنَزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٤).
[٥] ن ث م: كقولهم.
[٦] سورة الفرقان، ٢٥/٧-٨.
[٧] جميع النسخ: كقولهم. والتصحيح من نسخة عاطف أفندي ٧٧، ورقة ١٠١و.
[٨] سورة الإسراء، ١٧/٩١.
[٩] جميع النسخ: آيات.
[١٠] جميع النسخ: آية.
[١١] جميع النسخ: إذا.
[١٢] جميع النسخ: أنه. أي قراءة "آية".
[١٣] ن: قال.

وقوله: **قل إنما الآيات عند الله**، أي من عنده تجيء[1] الآيات. فكأنهم إنما سألوه آيات قاهرة تقهرهم وتضطرهم[2] على القبول والإقبال إليه، لا[3] الآياتِ[4] [التي] يكون فيها وجه[5] الاختيار، لكن [هو] سؤالُ عناد ومكابرة لا سؤال استرشاد واستهداء.[6] [غير][7] أن الله قد عفا عن هذه الأمّة عن إنزال ما به هلاكهم على إثر سؤال العناد والمكابرة وإن كان في غيرها من الأمم السالفة ينزل عليهم الهلاك والعذاب على إثر سؤال العناد والمكابرة.[8] ***والله أعلم.***

وقوله: **وإنما أنا نذير مبين**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما وإنما أنا نذير من الله مبينٌ، إن الله أمرني بذلك وأرسلني إليكم. والثاني **إنما أنا نذير مبين**، أي ليس عليّ إلا الإنذار لكم، أبيّن النذارة، فأما[9] غير ذلك فليس عليّ، كقوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[10] الآية ونحوه.[11]

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥١]

وقوله: **أولم يَكفِهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلَى عليهم**، هذا يدلّ أنهم إنما سألوه سؤال [٥٧٩و] عناد واستهزاء لا سؤال استرشاد حيث / قال: إن فيما أنزل عليهم من الكتاب كفايةً لمن كانت همّته الاسترشاد والإنصافَ، فأما من كانت همته العنادَ والمكابرة فلا. **إن في ذلك لرحمة**، أي فيما أُنزل من الكتاب عليك، **لرحمةً**، أي رشدًا، **وذكرى**، [أي] عِظة لقوم يؤمنون.

[1] ر ث م: يجيء.
[2] جميع النسخ: يقهرهم ويضطرهم.
[3] ر ث م – لا.
[4] ن: آيات.
[5] ر م: في وجه؛ ن ث: في ذلك وجه.
[6] جميع النسخ + فقال.
[7] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٥٨٠و.
[8] ر م – والمكابرة؛ ن – وإن كان في غيرها من الأمم السالفة ينزل عليهم الهلاك والعذاب على إثر سؤال العناد والمكابرة.
[9] ن: وأما.
[10] سورة الأنعام، ٦/٥٢.
[11] انظر مثلا: سورة النور، ٢٤/٥٤.

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥٢]

وقوله: **قل كفى بِاللهِ بيني وبينكم شهيدًا**، هذا يقال لوجهين. أحدهما عند الإياس من قبول الحجج والآيات،[١] يقول: **كفى بالله** [**بيني وبينكم**] **شهيدًا**، أي حاكمًا بيني وبينكم أيّنا على الحق وأيّنا على الضلال: نحن أو أنتم؟ والثاني **كفى بالله** [**بيني وبينكم**] **شهيدًا**، عالمًا في تبليغ ما أُمرت بتبليغه[٢] إليكم وإتيان ما أتيتُكم به من الآيات والحجج. **يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون.**

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٥٣]

وقوله: **ويستعجلونك بالعذاب**، كان استعجالهم بالعذاب[٣] وسؤالهم الآيات على عِلم منهم أنه لا ينزل ولا يأتيهم يخرج مخرج الاستهزاء بالرسل والتمويه والتلبيس على الأتباع والضعفاء، لأنهم يعلمون أن الله لا يعذّب ولا يهلك هذه الأمة إهلاك استئصال وانتقام كما أهلك الأمم المتقدمة بالعناد والاستهزاء بالرسل، إذ قد أمهلهم إلى وقت. فإذ[٤] علموا ذلك من الإمهال والتأخير سألوا الرسول العذاب الذي أوْعدهم والآياتِ القاهرةَ، ووَعدوا الإيمان لو جاءهم بها[٥] وأقسموا على ذلك، بقوله: وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ،[٦] الآية، تمويهًا وتلبيسًا على أتباعهم وضعفائهم، يُرُونهم أنهم على حق في الإيمان فيما يدعوهم الرسول وأنه لو أتى بآية[٧] وحجة يؤمنون به ويتبعونه، وهم فيما يسألون من الآيات والعذاب عالمون أنهم معاندون كذَبة متمرّدون مُلبِسون[٨] مُمَوّهون على الأتباع والسَّفَلَة لما ذكرنا. ***والله أعلم.***

---

[١] ر – والآيات.

[٢] ر ن ث: تبليغه؛ م: تبليغا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٠ظ.

[٣] ر م – بالعذاب؛ ن ث: العذاب.

[٤] ر م: فإن.

[٥] ر م – بها.

[٦] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليَكُونُنّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).

[٧] ر: بايلتة.

[٨] ر: ملتبسون.

وقوله: **ولولا أجل مسمًّى لجاءهم العذاب وليأتينّهم بغتة**، الآية. فإن قال لنا ملحد:[1] إنه حيث أخر عنهم العذاب وأمهلهم [هل] علم منهم أنهم يستعجلون ذلك[2] أو لم يعلم ذلك؟ فإن قلتم:[3] على غير علْم منهم فقد أثبتم[4] الجهل له. وإن قلتم:[5] على علْم منه ذلك فكيف أمهل ذلك وقد علِم ما يكون منهم؟

قيل: إمهاله العذابَ عنهم وضربُ الأجل رحمةٌ منه لهم وفضل؛ كأنه قال: ولولا رحمته التي جعل لهم على نفسه لجاءهم العذاب كما جاء الأمم الخالية عند سؤالهم الرسل العذاب والآيات بالعناد والاستهزاء، وهو كقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ،[6] حيث لم يستأصلهم كما استأصل أولئك.[7]

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٥٤]

وقوله: **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين**، يحتمل قوله: **وإن جهنم**، أي عذاب جهنم محيط[8] يومئذ بالكافرين، أو النار محيطة بالكافرين. وجائز أن يكون،[9] **يستعجلونك بالعذاب**، وإن أعمال أهل جهنّم وأسبابها التي توجِب[10] لهم جهنّم محيطة بهم، كقوله: فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ،[11] أي ما أصبرهم على الأعمال والأسباب التي توجب لهم النار، وإلا لا أحدَ يصبر على النار. فعلى ذلك جائز أن يكون قوله: **وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين**، أي أسباب جهنم وأعمالهم التي توجِب لهم جهنمَ والنارَ محيطة بهم. *والله أعلم*.

---

[1] ن: ملحدي.
[2] ر م – ذلك.
[3] جميع النسخ: فإن قلت. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٥٨٠ظ.
[4] ر ن ث: أثبتت؛ م: أثبت. والتصحيح من المرجع السابق.
[5] جميع النسخ: وإن قلت. والتصحيح من المرجع السابق.
[6] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.
[7] ر م: إليك؛ ن + والله أعلم.
[8] ن: محيطة.
[9] جميع النسخ: + أي. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠١و.
[10] ن ث: يوجب.
[11] ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرَهم على النار﴾ (سورة البقرة، ١٧٥/٢).

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥٥]

وقوله: **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم،**[١] كقوله: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ،[٢] ظاهر.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[٥٦]

وقوله: **يا عباديَ الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيايَ فاعبدونِ،** في الآية بِشارة ونِذارة. أما البِشارة فقوله: **إن أرضي واسعة،** وعَد لهم السعة في المكان المنتقَل إليه والمتحوَّل إليه[٣] كما كان لهم في مُقامهم. والنذارة والتحذير هو[٤] قوله: **إن أرضي واسعة،** فلا تقيموا في أرضكم.

ثم الأمر بالخروج والهجرة عن أرضهم إلى [أرض] أخرى يخرج على وجهين. أحدهما لما لا يقدرون على إظهار دين الله خوفًا على أنفسهم من أولئك الكفرة، فأُمِروا بالخروج والهجرة عنها إلى أرض يقدرون على إظهاره والقيام به.

والثاني إن كانوا يقدرون على إظهار دينهم لكنهم لا يقدرون القيام على تغيير المناكير عليهم والأمر بالمعروف، فأُمروا بالخروج منها إلى أرض ليس بها مناكير -أو إنْ كانت بها فيقدرون على تغييرها والأمرِ بالمعروف فيها- ففي مثل[٥] هذا جائز أن يُؤمَر الناس بالتحوّل من أرض إلى أخرى إذا لم يقدروا على تغيير المنكر ودفعه. وليسوا كالرسل، لأن سائر الناس إذا كثُر سماعهم المنكرَ يخِفُّ ذلك على قلوبهم وتميل إليه القلوب وتسكن وتطمئن. فيؤمرون بالخروج عنها والتحول إلى أخرى لئلا تميل[٦] ولا تسكن[٧] إليه قلوبهم. وأما الرسل وإن كثُر سماعهم المنكر فإن قلوبهم لا تميل ولا تَلين[٨] ولا تسكن إليه أبدًا، بل يزداد لهم شدّةً وصلابة في ذلك وبُعدًا عن قلوبهم.

---

[١] «هذا إخبار عن شدة عذاب جهنم على أهل العذاب وما يلحقهم من التعيير، وهو كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾» (*شرح التأويلات*، ورقة ٥٨٠ظ).

[٢] سورة الزمر، ١٦/٣٩.

[٣] ر م: لهم؛ ن ث - إليه. والتصحيح من المرجع السابق.

[٤] ن: هم. ث: ثم.

[٥] ر م: فبمثل؛ ن: فمثل؛ ث: فيمثل. والتصحيح من المرجع السابق.

[٦] ر ث م: يميل.

[٧] ث: يسكن.

[٨] ث - ولا تلين.

لذلك اختلف أمر الرسل وغيرهم.[١] أو أن يكون الرسل[٢] لا يؤمرون بالخروج ولا يؤذَن لهم لِما هم إنما بُعثوا إلى أهل الكفر والمنكر ليدعوهم إلى دين الله، فلا يحتمل أن يؤذن لهم بالخروج
|٥٧٩ظ| والهجرة إلى أخرى وهم إليهم / بُعثوا ليدعوهم إلى دين الله.

فقوله: **إن أرضي واسعة**، هو ما ذكرنا: أُمروا بالهجرة ليَسلم لهم دينهم ولا يَمنعَهم عن ذلك خوفُ ضيقِ العَيش في غيره، لما يعتزلون عن أموالهم وحِرَفهم وأهل قرابتهم ومعونتهم، لِما وَعد لهم جلّ وعلا التوسيع عليهم لو خرجوا وهربوا إشفاقًا على دينهم. وكذلك روي عن الحسن عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض أخرى وإن كانت شبرًا وجبت له الجنة[٣] ويُبعث مع أبيه إبراهيم ونبيّه محمد» أو نحوه من الكلام.[٤] وعلى مثل ذلك جاءت الآثار من السلف في تأويل الآية: «إذا دُعيتم إلى المعاصي فاهرَبوا في الأرض فإن أرض الله واسعة».[٥] وقال بعضهم [في تأويل الآية]: إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاهربوا إلى أخرى فإن أرضي واسعة، وهو ما ذكرنا[٦] أنهم[٧] أمروا بالخروج[٨] والهجرة[٩] ليسلم لهم دينهم، ووَعَد لهم السعة والحسنة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم منها وهو[١٠] ما قال: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.[١١]

---

[١] م: وغير.
[٢] ر ث م – الرسل.
[٣] م – الجنة.
[٤] ورد في *تفسير القرطبي* (١٦/٣٨٢): روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قَيْدَ شِبرٍ استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم عليهما السلام». وورد في *الدر المنثور* للسيوطي (١٤/٢٨١): أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فر بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقا، فإذا مات قبضه الله شهيدا» وتلا هذه الآية: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ [سورة الحديد، ٥٦/١٩]، ثم قال: «والفازون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة».
[٥] انظر: *تفسير ابن كثير*، ١٢/١١٧.
[٦] ر ث م: ما ذكروا.
[٧] جميع النسخ – أنهم. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠١ظ.
[٨] ر ث م – بالخروج.
[٩] ر ث م: بالهجرة.
[١٠] ر: وهي.
[١١] سورة النحل، ١٦/٤١.

وقال في هذه الآية: **إن أرضي واسعة فإيايَ فاعبدون**، أي إن أرضي واسعة فإن مُنِعتم[١] عن عبادتي في أرض فاخْرجوا منها[٢] إلى أخرى فاعبدوني ولا تعبدوا غيري، فإن أرضي واسعة فلا عذر لكم بالْمُقام في أرض تُمنعون عن عبادتي وإظهار ديني؛ إلا المستضعفين الذين استثناهم في آية أخرى حيث قال: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا،[٣] عَذَرَهُم[٤] بما فيهم[٥] من الضعف لترك الخروج والْمُقام بين أظهرهم[٦] وكتمان الإيمان والعبادةِ له سرًّا وإن لم يقدروا على إظهاره. فأما من كانت له حيلة الخروج فلم يَعذِره.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٥٧]

وقوله: **كل نفس ذائقة الموت**، ذكر هذا -والله أعلم- على إثر ما ذكر لئلا يمنعهم عن الخروج والهجرة خوفُ ضيقِ العيش. يقول -والله أعلم-: إن[٧] كل نفس تذوق[٨] الموت إذا استوفتْ رزقَها لا مَحالةَ ولا تذوق[٩] قبل استيفائها رزقها، فلا يَمنعْكم خوفُ ضيق العيش فإنها تذوق ذلك لا محالة خرجت أو لم تخرج إذا استوفت رزقها. وهو ما قال: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ،[١٠] أي لو كان المكتوب عليه القتلُ يَبْرُز لا محالة حتى يُقتَلَ، فعلى ذلك المكتوب عليه الموت يذوق لا محالة، خرج[١١] أو أقام. ***والله أعلم***. **ثم إلينا تُرْجَعون**، ظاهر.[١٢]

---

١ ر م: فإن منعتهم؛ ن: وإن منعتم.

٢ ن - منها.

٣ سورة النساء، ٩٨/٤.

٤ جميع النسخ: عذرلهم. والتصحيح من الشرح، ورقة ٥٨٠ظ. وعذرهم: أي قبل معذرتهم ورفع عنهم اللوم.

٥ ن: منهم.

٦ جميع النسخ: من أظهرهم. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٢و.

٧ ر م - إن.

٨ ن: يذوق.

٩ ن: ولا يذوق.

١٠ سورة آل عمران، ١٥٤/٣.

١١ ر م - خرج.

١٢ ر ث م - ظاهر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[٥٨]

وقوله: **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهم**، بالباء والثاء[١] قد قرئ.[٢] **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ**،[٣] أي لَنُهيِّئَنّ لهم[٤] من الجنة غُرَفًا. يقال: بوّأها: أنزل وهيّأ. ولَنُثْوِيَنّهم من الثواء وهو الإقامة. وقال القُتَبِي: هو من ثَوَيت بالمكان[٥] إذا أقمت به.[٦] وبالباء: لَنُبَوِّئَنّهم، أي لنُنزلنّهم.[٧] وقال: أبو عَوْسَجَة: **لَنُبَوِّئَنّهم**،[٨] أي لنُنزلنهم منها منزلا يقيمون فيه. والثواء الإقامة. وقال: أبو معاذ: بوّأها هيّأها، والمثوى المنزل، والثاوي الضيف.[٩] **خالدين فيها نعم أجر العاملين**، أي ثوابهم وجزاؤهم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥٩]

وقوله: **الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون**،[١٠] يحتمل قوله: **الذين صبروا**، أي خرجوا وهاجروا وصبروا على الهجرة، وعلى ربّهم توكّلوا في الخروج والرزق، أو الذين[١١] صبروا على الطاعات وأداء الفرائض. أو أن يكون الصبر كناية وعبارة عن الإيمان، أي الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وبه يثقون[١٢] ويفوّضون، كقوله: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ،[١٣] أي لكل مؤمن.

---

[١] ن + جميعا.

[٢] انظر: حجة *القراءات* لابن زَنْجَلَة، ٥٤٤.

[٣] ر ث م – بالباء والثاء قد قرئ لنبوئنهم.

[٤] جميع النسخ: لنهيئنهم.

[٥] جميع النسخ: بالمقام. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٢و.

[٦] ر ث م: له.

[٧] انظر: *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٣٣٨.

[٨] ر ث م – لنبوئنهم.

[٩] ر م: المضيف.

[١٠] ث + يحتمل قوله الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون.

[١١] ر م: والذين.

[١٢] جميع النسخ: به ويثقون. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٢و.

[١٣] ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ (سورة لقمان، ٣١/٣١).

ومحمد بن إسحاق[١] يقول:[٢] أنزلت الآية بمكة في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان بها فإن أرض المدينة واسعة. فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ،[٣] بها علانية. ثم خوّف بالموت فيها حذرًا[٤] فقال: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.[٥] في الآخرة. ثم نعتهم فقال: **الذين صبروا**، على الهجرة وبالله يثقون في هجرتهم. وذلك أن أحدهم كان[٦] يقول بمكة: كيف أهاجر إلى المدينة وليس لي بها مال ولا معيشة، فوعظهم بما ذكر.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اَللّٰهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٦٠]

وقوله: **وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم**، من الناس من يجعل الآية صلة قوله: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ،[٧] إنهم أمروا بالهجرة من بلدتهم والخروج من مُقامهم ليَسلم لهم دينهم فاشتدّ ذلك عليهم وضاق بذلك ذَرْعُهم لضِيق العيش عليهم[٨] هنالك، لما لم[٩] يتهيأ لهم ولا يتأتّى[١٠] لهم حمل أموالهم والمكاسب التي بها يتعيّشون في بلدهم[١١] ويتّسعون بها. فأخبر أن له خلائق يرزقهم حيث ما توجّهوا وحيث ما كانوا لا يحملون مع أنفسهم شيئًا[١٢] من الرزق، بل يرزقهم حيث ما كانوا. فعلى ذلك هو يرزقكم حيث ما كنتم: حملتم مع أنفسكم شيئًا من الأموال والمكاسب أو لم تحملوا، فلا تَضِيقَنّ[١٣] صدوركم بترككم الأموال والمكاسب في بلدكم.

---

[١] محمد بن إسحاق بن يسار، كنيته أبو عبد الله، المطّلبي القرشي مولاهم المدني، صاحب السيرة النبوية. كان علامة حافظًا أخباريًا، رأى أنس بن مالك وروى عن كثير من التابعين، وروى عنه الكثير. وهو من دوّن العلم. توفي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م. انظر: *الطبقات الكبرى* لابن سعد، ٥٥٢/٧؛ وسير *أعلام النبلاء* للذهبي، ٣٣/٧-٥٥؛ و*تهذيب التهذيب* لابن حجر، ٢٦/٥-٣٠.

[٢] ر: يعقوب.

[٣] الآية السابقة برقم ٥٦.

[٤] جميع النسخ: ليهاجروا. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٢ظ.

[٥] الآية ٥٧ من هذه السورة.

[٦] ر م: كما.

[٧] الآية السابقة برقم ٥٦.

[٨] ر م - عليهم.

[٩] ن ث: لا.

[١٠] ر م: ولا يتأدى.

[١١] ن: في بلدتهم.

[١٢] ر ث: مع شيئا؛ م: معهم شيئا.

[١٣] جميع النسخ: فلا يضيقن.

وجائز أن يكون لا على الصلة بما تقدم ولكن على ابتداء تذكير وتنبيهٍ للبشر لئلا يعلّقوا
[٥٨٠و] قلوبهم بأسباب الرزق، / لأن للبشر فَضلَ تعلّق القلوب بأسباب المعاش والرزق ما ليس ذلك لغيرهم. فيخبر أن الرزق ليس يتعلّق بالأسباب بل يرزق [الله] بسبب وبغير سبب، إذ قد يَرزق ويَبسُط من ليس له من الأسباب شيء، نحوَ ما ذَكَر من رزق الطير والدوابّ وغير ذلك من البشر الذين يُرزقون بلا أسباب ومكاسب، وهو ما قال:[1] ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.[2] وأكثر الأرزاق يكون للناس بلا أسباب ومكاسب.[3] ولذلك ذَكَر -والله أعلم- على إثر ذلك: ﴿اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾،[4] يبسط لمن يشاء وإن لم يكن له سبب ويقدر على من يشاء وإن كان معه سبب لئلا يَعلّقوا قلوبهم في الرزق بالأسباب والمكاسب. وعلى قول المعتزلة: إن[5] الله لا يقدر أن يبسط الرزق لمن يشاء، لأنهم لا يجعلون لله في الأسباب والمكاسب صنعًا وإنما يجعلون منه خلق أصول الأشياء من الإنبات والإخراج من الأرض. فأما[6] غير ذلك فهو كله للخلق على قولهم. فعلى ذلك[7] النبات والخارج منها للكل ليس بعضهم بذلك أولى من بعض. فيذهب فائدة ما ذكر من البسط والتوسيع والتقتير على قولهم.

وقوله: **وهو السميع العليم**، على إثر ما ذكر يخرج على وجوه. أحدها المجيب بكل ما يدعون ويسألون العليمَ بحوائجهم حيث كانوا وأين كانوا. أو **السميع** لقولهم: إنا لا نجد ما نُنفق ونتعيّش، **العليم** بما أضمروا ونحوه.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٦١] ﴿اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦٢] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٦٣]

وقوله: **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولُنّ الله فأنا يؤفكون**، إنهم أعطَوا جميعًا بألسنتهم أن الذي خلق السماوات والأرض وما سخّر لهم من الشمس والقمر

---

[1] ث – وهو ما قال.
[2] ﴿ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا ويرزُقه من حيث لا يحتسب﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/٢-٣).
[3] ر م – وهو ما قال ويرزقه من حيث لا يحتسب وأكثر الأرزاق يكون للناس بلا أسباب ومكاسب.
[4] الآية ٦٢ من هذه السورة.
[5] ن – إن.
[6] ر ث م: وأما.
[7] جميع النسخ: فذلك. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٣و.

وما نزل من السماء من الماء[١] وما أحيى[٢] به الأرض، هو الله لا غيره. فيخرج قوله: **فأنى يؤفكون**، على إثر ما أعطوا بألسنتهم ونطقوا به على وجهين. أحدهما أنى يُصرَفون عما أعطوا بألسنتهم ونطقوا به[٣] إلى صرف الشكر والعبادة إلى الأصنام التي يعلمون أنها لم تَخلق شيئًا مما أعطوا بألسنتهم. والثاني **فأنى يؤفكون**، أي في تسميتهم الأصنام آلهة على علم منهم أنها ليست بآلهة. ***والله أعلم***.

وقوله: **قل الحمد لله**، على إثر ما ذكر يخرج[٤] على وجوه. أحدها أمره[٥] أن يَحمَد ربه فيما لم يُبلَ بما بُلِي أولئك من التكذيب والعناد والكفر بربهم. والثاني أمره أن يحمد ربه لِما في ذلك إظهار سفههم حيث أعطوا باللسان أن ذلك كلّه من الله وأنه خالق ذلك كلّه ثم صرفوا ذلك إلى غيره. والثالث يقول بعضهم: **قل الحمد لله**، على إقرارهم بذلك كله[٦] أنه خَلْق لله وأن ذلك كله منه. ***والله أعلم***.

وقوله: **بل أكثرهم لا يعقلون**، يحتمل قوله: **لا يعقلون**، أي لا ينتفعون بعقولهم. نفى عنهم العقول لِما لم ينتفعوا بها كما نفى عنهم السمع والبصر واللسان[٧] لما لم ينتفعوا بتلك الحواس. فعلى ذلك هذا. والثاني لم يعقلوا لِما تركوا النظر والتفكر في الأسباب التي[٨] بها تُعقَل[٩] الأشياء. ***والله أعلم***.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٦٤]

وقوله: **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب**، كقوله:[١٠] إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ،[١١] لو كان الأمر على ظاهر ما نطق به الكتاب دون معانٍ[١٢] تُودَع فيه وحكمةٍ تُجعل فيه

---

[١] ن - من الماء.

[٢] جميع النسخ: وما أحيا.

[٣] ث - على وجهين أحدهما أن يصرفون عما أعطوا بألسنتهم ونطقوا به.

[٤] ر: على إثر ذلك يخرج.

[٥] ث: أمر.

[٦] ر م - كله.

[٧] يقول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧١).

[٨] جميع النسخ - التي. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٣ظ.

[٩] جميع النسخ: يعقل.

[١٠] جميع النسخ: وقوله.

[١١] ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ (سورة الحديد، ٥٧/٢٠).

[١٢] ن ث: دون معاني.

على ما يحمله بعض الناس لكان لأهل الإلحاد في ذلك مطعن لأنه يقول: **ما [هذه] الحياة الدنيا إلا لهو ولعب**، وهو خلَقها فيقولون: لِم خلقها لهوًا ولعِبًا؟[1] ولهم دعوى التناقض فيه حيث قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا،[2] وقال في آية أخرى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ،[3] فلو جمَع بين هذا وبين الأول فهو في الظاهر متناقض؛ إذ يذكر في بعضها أنه لم يخلقهما وما بينهما باطلاً لعبًا، ويذكر في بعضها أن الحياة الدنيا لهو ولعب[4] وهو خلَقها. لكن تأويل قوله: **وما هذه الحياة الدنيا**، على ما تُقدّرون أنتم وعلى ما عندكم، **إلا لهو ولعب**. فأما ما عند أهل التوحيد وما في تقديرهم فهي حكمة وحق.

ثم هو ما ذكر من اللّهو واللعب عندهم يخرج على وجهين. أحدهما أنهم رأوا أنه خلق الإنسان وجعل بَدْأه من نطفة ثم حوّلها إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى الإنسان الذي صوّر إلى آخر ما حوّله، فلا يحتمل أن يخلقه ويحوّله مِن حال إلى الأحوال التي ذكر ثم يُفنيه بلا عاقبة تُجعل[5] لهم ولا منفعة[6] فيكون كما ذَكَر: وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا.[7] صيّر نقضها الغزلَ من بعد إحكامها إياه بلا انتفاع به لهوًا ولعِبًا. فعلى ذلك خَلْق الحياة الدنيا وخلق ما فيها من العالَم بعد إحكامه وتحويله حالاً بعد حال وتحويلاً بعد تحويل وإحكامًا بعد إحكام للفناء خاصة على ما يُقدّر أولئك الكفرة بلا عاقبة تُجعل[8] لهم أو منفعة لهوٌ[9] ولعب وسفه وباطل على ما ظنّ أولئك وقدّروه. فأما ما في تقدير أهل التوحيد وأهل الإيمان من العاقبة لهم فهو حكمة وحق.

[٥٨٠ظ] والثاني معنى اللهو واللعب الذي / ذَكَر على ما عندهم هو أن الجمع والتسوية بين العدوّ والوليّ وبين العاصي والمطيع وبين المخالف والموافق سفَه وباطل.[10] وقد سوّى بينهم في هذه الحياة[11] الدنيا وأشركهم جميعًا في نعيمها وسَعَتها وشدّتها وخيرها وشرّها،

---

[1] ر ن م + وهو خلقها.
[2] سورة ص، ٣٨/٢٧.
[3] سورة الأنبياء، ٢١/١٦.
[4] ن: لعب ولهو.
[5] ر ن م: يجعل.
[6] م: فلا منفعة.
[7] سورة النحل، ١٦/٩٢.
[8] جميع النسخ: يجعل.
[9] هذه الكلمة خبر "خلق الحياة الدنيا".
[10] ر ث م: باطل.
[11] ر ث م – الحياة.

يتمتع الوليّ فيها كما يتمتع العدوّ ويُبتلَى فيها المطيع كما يُبتلى العاصي. فلو لم تكن[١] دارٌ أخرى فيها يفرّق بين الولي والعدوّ وبين المطيع والعاصي لكان[٢] خلقه إياهم في الحياة الدنيا سفهًا وباطلاً، إذ سوّى بينهم وأشركهم جميعًا في هذه. أو أن تكون[٣] الحياة الدنيا على ما اتخذوها هم وعملوا[٤] فيها لهوًا ولعبًا. أو أن يقال: الحياة الدنيا بـ[مقابل] حياة الآخرة لهو ولعب، لأنها خلقت فانية منقطعة وخُلقت حياة الآخرة باقية دائمةً، فهو كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ [لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً]﴾،[٥] أي متاع الدنيا قليل عند متاع الآخرة، لأن متاع الدنيا فانٍ منقطع ومتاع الآخرة دائم باقٍ.[٦]

وقوله: **وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوان**، أي هي دار الحياة لا موت فيها ولا انقطاع ولا فناء. **لو كانوا يعلمون**، أن الدار الآخرة هي الدار التي لا موت فيها. ***والله أعلم.***

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٦٥] ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٦٦]

وقوله: **فإذا ركبوا في الفلك دعَوا الله مخلصين له الدين**، الآيةُ [تردّ] على المعتزلة في قولهم: إن على الله الأصلحَ لهم في الدين، لأنه أخبر أنهم أخلصوا الدين لله إذا ركبوا في الفلك ولا شكّ أن ذلك لهم[٧] أصلح[٨] في الدين. ثم لم يُبقِهم على تلك الحال ليكونوا على ذلك الإخلاص بل أخرجهم منها فعادُوا إلى ما كانوا، فدلّ ذلك أنْ ليس عليه حفظ الأصلح لهم في الدين.

وقوله: **فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون**، قوله: **ليكفروا**، أي أنجاهم ليكونوا على ما علم منهم أنهم يكونون. وقد علم أنه يكون منهم الكفر فأنجاهم إلى البرّ ليكون منهم ما قد علم أنه يكون ويختارون. وكان إخلاصهم الدعاءَ في الفلك لم يكن إخلاصَ اختيار ولكن إخلاص دفْع البلاء عن أنفسهم،

---

[١] جميع النسخ: فلو لم يكن.
[٢] ر م: لمكان.
[٣] جميع النسخ: أو أن يكون.
[٤] ر: وعملو.
[٥] سورة النساء، ٤/٧٧.
[٦] ر م: باق دائم.
[٧] ر م - لهم.
[٨] ث: أصلح لهم.

إذ لو كان ذلك إخلاصَ اختيار لا دفْعَ البلاء لكانوا لا يتركون ذلك في الأحوال كلِّها. فهذه الآية وإن كانت في أهل الكفر ففي ذلك أيضًا توبيخ لأهل الإسلام، لأنهم لا يقومون بالشكر لله وإخلاص العبادة له[1] في حال السعة[2] والنعمة كما يكونون في حال الضِيق والشدّة، فينبّئهم ليكونوا في الأحوال كلّها مخلصين العملَ لله شاكرين له لئلا يكون عملهم على حرف وجهة كعمل أهل النفاق[3] وكعمل أولئك الكفرة. *والله أعلم*.

وقوله: **فأنى يُؤفكون**، قيل يكذّبون،[4] وقيل يعدِلون، وقيل: يؤفكون: يؤفَنون ويُحمَقون؛ والمأفون الأحمق، والأَفْن الحُمق.

وقوله: **فسوف يعلمون**، أي سوف يعلمون صدقي في قولي: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ.[5] كما عادوا إلى ما كانوا عليه إذا نجاهم من الأهوال التي ابتُلُوا بها، أي سوف يعلمون ما أوعدهم الرسل. وفي قوله:[6] وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ،[7] وجه آخر وهو أن يقال: ما هذه المحاسن والأعمال التي[8] تعملون وتعدّون محاسن وصلاحًا في هذه الدنيا إلا لهو ولعب لِما لا تبقى[9] ولا تنتفعون[10] بها إلا ما ابتُغِيَ بها وجه الله والدار الآخرةُ، وهو ما قال: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ، أي هي الباقية الدائمة، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.[11]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾[٦٧]

وقوله: **أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا**، قد ذكرنا في غير موضع أن الاستفهام من الله يخرج مخرج الإلزام والإيجاب، أو يخرج مخرج الخبر لا على حقيقة الاستفهام،

---

[1] ن – له.
[2] ن ث + له.
[3] لعل الإمام رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ (سورة الحج، ٢٢/١١).
[4] ن: تكذبون.
[5] ﴿بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٨).
[6] ر م: وفي قولهم.
[7] الآية السابقة برقم ٦٤.
[8] ر م – التي.
[9] ن: لما لا يبقى.
[10] جميع النسخ: ولا ينتفعون.
[11] الآية السابقة برقم ٦٤.

لأنه عالم بذاته يعلم ما في باطنهم وظاهرهم وما يُسرّون وما يُعلنون بما كان أو يكون.[١] لا يستفهم عباده شيئًا ولكنه يخرج على ما ذكرنا على الخبر أو على الإلزام والإيجاب. فالخبر[٢] كأنه يقول: قد رأوا وعلموا أن الله جعل الحرم مأمنًا لهم[٣] يأمنون فيه وكان الناس حولهم يُتخطَّفون ويَخافون. والإلزام والإيجاب أن يقول لهم: اعلموا أن الله جعل الحرم لكم مأمنًا تأمنون فيه، والناسُ مِن حولكم على خوف يُسلَبون ويُسبَون ويُقتلون.

ثم يخرج تذكيره إياهم هذا على وجهين. أحدهما أن الله قد جعل لكم الحرم مأمنًا تأمنون فيه لتعظيمكم حرم الله وبيته، والناسُ حولكم على خوف، وأنتم تشاركون مَن حولكم في الدين، فكيف تخافون الاختطاف والاستلاب إذا[٤] دِنتم بدينه واتبعتم رسوله.[٥] فإذ أمَنكم بكونكم في حرم الله وتعظيمكم بيتَه ودَفَع عنكم الاستلاب والاختطاف[٦] فكيف تخافون ذلك إذا دنتم بدينه واتبعتم أمره؟ بل الأمن والسعة إذا دِنتم بدينه واتبعتم أمره[٧] أكثر وأحق. فكأنهم إنما تركوا اتباع دينه خوفًا من الاختطاف،[٨] كقولهم: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا، فقال لهم: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ.[٩] أو يذكر هذا لهم أنه قد أمَنكم وصرف عنكم -مع عبادتكم الأصنامَ وصَرْفِكم الشكرَ إليها-[١٠] كل مكروه وسوء بكونكم في مجاورة بيته وحرمه. فإذا[١١] صرفتم العبادة إليه وشكرتم نعمه [فهذا] أحقّ أن يؤمّنكم ويوسّع عليكم نِعَمه ويدفع عنكم ما لم يدفع عمن حولكم وأنتم شركاؤهم في عبادة الأصنام واتخاذهم إياها آلهة، على هذا يخرج. ***والله أعلم***.[١٢]

---

[١] جميع النسخ: كان ويكون. والتصحيح من نسخة عاطف أفندي، ورقة ١٠٢ظ.
[٢] ن ت: والخبر.
[٣] ت – لهم.
[٤] م: إذ.
[٥] م: لرسوله.
[٦] ر ن: والاختلاب.
[٧] ت – بل الأمن والسعة إذا دنتم بدينه واتبعتم أمره.
[٨] ر: من الاختلاف.
[٩] ﴿وقالوا إن نتّبعِ الهُدى معك نُتَخطَّفْ من أرضنا أوَلم نُمَكِّن لهم حرما آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (سورة القصص، ٥٧/٢٨).
[١٠] جميع النسخ + عند.
[١١] ن ت: فإذ.
[١٢] ت – على هذا يخرج والله أعلم.

وقوله: **أفبالباطل يؤمنون**، يحتمل قوله: **أفبالباطل يؤمنون**، أي بما[1] أوحى إليهم[2] إبليس من الباطل يؤمنون، وهو ما أوحى إليهم أن هؤلاء شفعاؤكم عند الله وعبادتكم إيّاها تقربكم

[٥٨١و] إلى الله زلفى، / كقوله: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ [لِيُجَادِلُوكُمْ]،[3] الآية.

وقوله: **وبنعمة الله يكفرون**، أي بما أوحى إليكم محمد من الله يكفرون.[4] أو أن يكون[5] قوله: **أفبالباطل يؤمنون**، أي بالشرك يؤمنون، **وبنعمة الله يكفرون**، أي بتوحيد الله يكفرون.[6] أو أن تكون[7] النعمة هاهنا هو القرآنَ أو ما ذكرنا وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[٦٨]

وقوله: **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا**، قد ذكرنا أن حرف الاستفهام من الله يخرج على وجهين. على الخبر مرة وعلى الإيجاب والإلزام[8] تارة. فالإلزام[9] [أن يقال لهم]: اعلموا أن ليس أحد من المفترين أظلمَ ممن افترى على الله. وعلى الخبر، أي قد علمتم أنْ ليس أحد من المفترين أظلَمَ ممن افترى على الله، إذ قد عرفتم بعقولكم قبح الافتراء والكذب فيما بينكم، فلا كَذِبَ ولا افتراء أوحش وأقبحَ من الافتراء على الله، فكيف افتريتم عليه وهو أوحش وأقبح.

وقوله: **أو كذّب بالحق**، يحتمل **كذّب بالحق**، برسول الله، أو بالقرآن الذي عجزوا عن إتيان مثله، أو بالتوحيد. **أو كذّب بالحق**، الذي ظهر حقه وصدقه، **لمّا جاءه**.[10]

وقوله: **أليس في جهنّم مثوى للكافرين**، كأنه يقول: اعلم أن جهنّم مثوى للكافرين، يذكّره على التصبّر على أذاهم والتسلّي له بما كان يَضِيق صدره لمكانِ تَرْكِهم الإيمانَ والإياسِ منهم.

---

[1] جميع النسخ: مما. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٥و.
[2] جميع النسخ: إليكم.
[3] سورة الأنعام، ١٢١/٦.
[4] ر م: تكفرون.
[5] ن + النعمة ههنا.
[6] ع ث: تكفرون.
[7] ر ث م: أو أن يكون؛ ن – أو أن تكون، أو أن يكون، صح هـ.
[8] جميع النسخ – والإلزام. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٥و.
[9] ر م: والإلزام.
[10] ث – وقوله أو كذب بالحق يحتمل كذب بالحق برسول الله أو بالقرآن الذي عجزوا عن إتيان مثله أو بالتوحيد أو كذب بالحق الذي ظهر حقه وصدقه لما جاءه.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦٩]

وقوله: **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا**، يشبه أن يكون هذا صلة قوله: وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ،[١] أي ليس لمَن[٢] أجهد نفسه في طلب الدنيا والعمل لها إلا لهو ولعب. وأما من أجهد نفسه لله وطلب مرضاته فهو حق وله دار الحياة التي لا موت فيها ولا انقطاع. ويشبه أن يكون على الابتداء لا[٣] على الصلة بالأول، يقول: والذين جاهدوا أنفسهم في هواها وشهواتها وأمانيّها حقيقةَ ابتغاء مرضاة[٤] الله وطلب الهداية والدين وسبيله، **لنهدينهم سبلنا**، ذِكر السبل[٥] هاهنا لما سبق ذكر الجماعة، يقول:[٦] [والذين] جاهَدوا فينا لنهدينهم كُلًّا سبيلاً، فيكون سبيلاً[٧] للكل. وأما قوله: وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ،[٨] إن السبل على الإطلاق على غير تقدُّم ذكر من الهدى أو شيءٍ من الإضافة إلى الله هي سبل الشيطان. ***والله أعلم***.

وقوله: **وإن الله لمع المحسنين**، يحتمل قوله: **إن الله لمع المحسنين**،[٩] في التوفيق لهم في الإحسان والأعمال الصالحة. أو مع المحسنين في النصر لهم والمعونة لهم[١٠] مع أعدائهم. أو مع المحسنين يحفظهم ويتولّاهم.

ثم لم يفهم أحد من الخلق من قوله: **لمع المحسنين**، ومَعَ الْمُتَّقِينَ،[١١] ما يَفهم من الخلق وذوي الأجسام والجُثَث. كيف فهم بعض الناس من قوله: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ،[١٢] وَجَاءَ رَبُّكَ،[١٣] ويَأْتِيَهُمُ اللهُ[١٤] في كذا، ما يَفهم من استواء الخلق ومجيئهم وإتيانهم. ليُعلمْ أن فهم ذلك منه[١٥] [كـ]ما يفهم[١٦] من الخلق بعيد محال. ***وبالله العصمة***.

---

[١] سورة العنكبوت، ٢٩/٦٤.
[٢] جميع النسخ: من. والتصحيح من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٥ظ.
[٣] ن - لا.
[٤] ن ث: مرضات.
[٥] ر ث: السبيل.
[٦] ن ث: بقوله.
[٧] ن - فيكون سبيلا.
[٨] ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٥٣).
[٩] ن - يحتمل قوله إن الله لمع المحسنين.
[١٠] ن - لهم.
[١١] سورة البقرة، ٦/١٩٤.
[١٢] سورة الأعراف، ٧/٥٤.
[١٣] ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ (سورة الفجر، ٨٩/٢٢).
[١٤] ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغَمام والملائكةِ وقُضي الأمرُ وإلى الله ترجع الأمور﴾ (سورة البقرة: ٢/٢١٠).
[١٥] جميع النسخ - منه. والزيادة من نسخة أحمد الثالث، ورقة ٢٠٥ظ.
[١٦] ر م - ما يفهم.

سورة العنكبوت

مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس، وهي سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾

المسألة الأولى: في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه: الأول: لما قال الله تعالى قبل هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهرًا غالبًا على الكفار ظافرًا طالبًا للثأر، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ولا يؤمروا بالجهاد، الوجه الثاني: هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧]وكان في الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب، لأن النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ الوجه الثالث: هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]يعني ليس كل شيء هالكًا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله. إذا تبين هذا، فاعلم أن منكري الحشر يقولون: لا فائدة في التكاليف فإنها مشاق في الحال ولا فائدة لها في المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال، فلا فائدة فيها. فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه، بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم.

المسألة الثانية: في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجي، ولنقدم عليه كلامًا كليًا في افتتاح السور بالحروف فنقول: الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئًا غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه، ثم يشرع في المقصود. إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلامًا له معنى مفهوم، كقول القائل: اسمع، واجعل بالك إلي، وكن لي، وقد يكون شيئًا هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل: أزيد ويا زيد وألا يا زيد، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتًا غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير

الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه. ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر. ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال: أزيد، والبعيد بـ(يا) فيقال: يا زيد، والغافل ينبه أولاً فيقال: ألا يا زيد. إذا ثبت هذا فنقول إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفًا هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلامًا منظومًا وقولا مفهومًا فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه. أما إذا سمع منه صوتًا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة، فإن قال قائل: فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز، والله أعلم بجميع الأشياء، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول: كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ص: ١] ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [ق: ١]، ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [السجدة: ١، ٢]، ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الجاثية: ١، ٢] إلا ثلاث سور ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظًا أو لم يكن، فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه، وأيضًا فقد وردت سورة فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا﴾ [النور: ١] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] لأنا نقول جوابًا عن الأول لا ريب في أن كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [طه: ١، ٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه: إنا كتبنا إليك كتبًا فيها أوامرنا فامتثلها، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثاني أن قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، ﴿وَتَبَارَكَ

ٱلَّذِى﴾ [الزخرف: ٨٥] تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر إنزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] فنقول هذا ليس واردًا على مشغول القلب بشيء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهًا له فلم ينبه، واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١] لأنها أشياء هائلة عظيمة، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهًا، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن، وذلك لأن القرآن ثقله وعبأه بما فيه من التكاليف والمعاني، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي فإن قيل مثل هذا الكلام، وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦] ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور، وهو أن هذا ابتداء كلام، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال ﴿أَحَسِبَ﴾ وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه، وأما ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] فسيجيء في موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام، الكلام في الحروف.

المسألة الثالثة: في إعراب ﴿الٓمٓ﴾ وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة.

المسألة الرابعة: في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال: الأول: أنها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة، الثاني: أنها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون، الثالث: أنها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر.

المسألة الخامسة: في التفسير قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ يعني: أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم: ﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية؟ واختلف أئمة النحو في قوله: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟﴾ فقال بعضهم: أن يتركوا بأن يقولوا، وقال بعضهم: أن يتركوا يقولون آمنا، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم: آمنا، كما يفهم من قول القائل: تظن أنك

تترك أن تضرب زيد، أي تمنع من ذلك، وهذا بعيد فإن الله لا يمنع أحدًا من أن يقول: آمنت، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون: آمنا، من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بإيجاب الفرائض عليهم.

المسألة السادسة: في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر: «لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالْعِبَادَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١) وكل من كان قلبه أشد امتلاءً من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان، وللسان مصدقات هي الأعضاء، ولهذه المصدقات مزكيات فإذا قال الإنسان: آمنت، باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان، فلا بد له من شهود، فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات، فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله، وزكى بترك ما سواه أعماله، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله، فيحرر في جرائد المحبين اسمه، ويقرر في أقسام المقربين قسمه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين، بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين.

فائدة ثانية: وهي أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلمًا فإن ما دونه دركات الكفر، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فإذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضًا في شغله ماضيًا في فعله، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة، ومنهم من يكون كسلانًا متخلفًا فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدًا مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهي درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة، فينقل إلى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة ومنزلة القساة، وقد يستصغر العيوب

---

(١) أورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٥١٣)، حديث رقم (٣٤٩٨).

وقال: رواه أحمد وفيه عبد الواحد بن قيس مولى عروة وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين وضعفه وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه الطبراني في الأوسط وزاد: (فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها وأذنه التي يسمع بها ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها). والباقي بنحوه ورجاله رجال الصحيح خلا شيخه هارون بن كامل. رواه البزار بنحوه.

قلت: ولكن أصل الحديث في الصحيح عند البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، حديث رقم (٦١٣٧) من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ثم إن الله قال من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محرومًا ويلحق بأهل العناد مرجومًا، ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله، فقال الله بشارة للمطيع الناهض: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ يعني: أظنوا أنهم يتركون في أول المقامات؟ لا، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]. وقال بضده للكسلان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني إذا قال: آمنت، ويتخلف بالعصيان يترك ويرضى منه، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصي أو الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال: كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم. وفي قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وجوه: الأول: قول مقاتل: فليرين الله، الثاني: فليظهرن الله الثالث: فليميزن الله، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان؟ فنقول: الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدًا مثلا سيطيع وعمرًا سيعصي، ثم وقت التكليف والإتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الإتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى، وهو أن المرآة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسًا ثوبًا أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرآة في كونها حديدًا تغيرت، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال، فإن المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ يعني يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني من قال: أنا مؤمن، وكان صادقًا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقًا كذلك يبين، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغة الفعل وقوله: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال: فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل

التكرار والرسوخ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حق الكافر: ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]بلفظ اسم الفاعل، وذلك لأن في اليوم المذكور الصدق قد يرسخ في قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾

لما بين حسن التكليف بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٢]بين أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب وإن لم يعذب في الحال فسيعذب في الاستقبال ولا يفوت الله شيء في الحال ولا في المآل، وهذا إبطال مذهب من يقول: التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزًا عن العذاب عاجلاً فلِمَ كان يؤخر العقاب؟ فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ يعني ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد، وأما الإمهال فلا يفضي إلى الإهمال والتعجيل في جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال.

ثم قال تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيئ فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة.

ثم قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لما بين بقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ٢]أن العبد لا يترك في الدنيا سدى، وبين في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنا ذكرنا في مواضع أن الأصول الثلاثة وهي الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبي المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الإلهي بعضها عن بعض، فقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]فيه إشارة إلى الأصل الأول يعني أظنوا أنه يكفي الأصل الأول وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]يعني بإرسال الرسل وإيضاح

السبل فيه إشارة إلى الأصل الثاني وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ مع قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر.

المسألة الثانية: ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فإن اللقاء والملاقاة بمعنًى وهو في اللغة بمعنى الوصول حتى إن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر.

المسألة الثالثة: قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ من كان يخاف الله، وهو أيضًا ضعيف، فإن المشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال: أرجو فضل الله، ولا يفهم منه: أخاف فضل الله، وإذا كان واردًا لهذا لا يكون لغيره دفعًا للاشتراك.

المسألة الرابعة: يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر، فإن كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الأخبار، وذلك لأن القائل إذا قال: من كان يرجو الخير فإن السلطان واصل، يفهم منه أن متصلاً بوصول السلطان يكون هو الخير حتى إنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل: أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير، فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا﴾ شرط وجزاؤه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتيًا له، وهذا باطل فما الجواب عنه؟ نقول: المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب، يعني: من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده، ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيًا على وجه يثاب هو.

المسألة السادسة: قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما، وذلك لأنه سبق القول في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا﴾[العنكبوت: ٢] وسبق الفعل بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: ٢] وبقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[العنكبوت: ٣] وبقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال: ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾[الأنعام: ١٥٧] وأيضًا عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب، وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته: أحدها: عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت، ولمرئيه ما لا عين رأت، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد، كما وصف في الخبر في وصف الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعدًا وإيعادًا ليس لهما دافع، بين أن طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غني مطلقًا ليس شيء غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له، وذلك لأن من يفعل فعلاً لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح، فنقول: هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فإذا أتى به هو يكون جهادًا نافعًا له ولا نزاع فيه، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره، وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه، حتى إن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان، فنقول: ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

الأولى: تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملاً بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملاً بغيره فيكون محتاجًا إليه وهو غني عن العالمين، وأيضًا أفعاله غير معللة لما بينا.

المسألة الثانية: تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا في مكان وإنه محال.

المسألة الثالثة: لو قال قائل: ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قادريته محتاجًا إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجًا وهو غني، نقول: لم قلتم: إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو

خارج عن مفهوم الإله الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر، والعلم ليس خارجًا عن مفهوم العالم.

المسألة الرابعة: الآية فيها بشارة وفيها إنذار، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنيًّا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنيًّا، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه، وهذا يوجب الرجاء التام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

لما بين إجمالاً أن من يعمل صالحًا فلنفسه بين مفصلاً بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان لأن العطف يوجب التغاير.

المسألة الثانية: أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك في أن عروقها وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج، فكذلك العمل الصالح مع الإيمان وأيضًا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان.

المسألة الثالثة: الإيمان هو التصديق كما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلاً أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحًا بأمره، ولو نهى عنه لما كان صالحًا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه، وقالت المعتزلة: ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في [كتب] الأصول.

المسألة الرابعة: العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي. إذا علم هذا فنقول: العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض، ولا يبقى

بالعامل أيضًا لأنه هالك كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨] فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق، لكن الباقي هو وجه الله لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحًا، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحًا، فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصًا لله.

المسألة الخامسة: هذا يقتضي أن تكون النية شرطًا في الصالحات من الأعمال وهي قصد الإيقاع لله، ويندرج فيها النية في الصوم خلافًا لزفر، وفي الوضوء خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله.

المسألة السادسة: العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فإنه يصعد بنفسه كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل، ولهذا قدم الإيمان على العمل، وهاهنا لطيفة، وهي أن أعمال المكلف ثلاثة: عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته. فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَيَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ»[1] والتائب النادم بقلبه، وكذلك قوله عليه السلام: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم»[2] يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه، فعلم أن لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب.

المسألة السابعة: ذَكَر اللهُ من أعمال العبد نوعين: الإيمان والعمل الصالح، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح، وهذا يقتضي أمورًا: الأول: المؤمن لا يخلد في النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد في العذاب: الثاني: الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو ما لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ٥٢٣/ ٧٥٨) من طريق المصنف... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٨٣)، حديث رقم (٨٩٦٢) من طريق أبي عوانة عن أبي إسحاق... به.

(٢) ذكره العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٣٤)، حديث رقم (٦١٤).

وقال: قال في المقاصد ذكره في البداية للغزالي وقال القاري عقبه ولا يخفى أن الكلام في هذا المقام لم يبلغ الغاية قلت وتمامه «وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلي» ولا أصل لهما في المرفوع انتهى.

عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية. الأمر الثالث: هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الأخرى، والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن في العقبى، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم، والله أعلم.

المسألة الثامنة: قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يستدعي وجود السيئات حتى تكفر ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأسرها من أين يكون لهم سيئة؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء، مثاله: إذا قال الملك لأهل بلد: إذا أطعتموني أكرم آباءكم وأحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن إليكم، لا يقتضي هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب، ويحترم ابن من له ابن، فكذلك يكفر سيئة، من له سيئة الجواب الثاني: ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

المسألة التاسعة: قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: لنجزينهم بأحسن أعمالهم، وثانيهما: لنجزينهم أحسن من أعمالهم. وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي، وعلى الوجه الثاني: معناه قريب من معنى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

المسألة العاشرة: ذكر حال المسيء مجملاً بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] إشارة إلى التعذيب مجملاً. وذكر حال المحسن مجملاً بقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦] ومفصلاً بهذه الآية، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

وفي الآية مسائل:

الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضًا للمكلف على الطاعة، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه، فقال الإنسان إن انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلاً عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شيء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله.

المسألة الثانية: في القراءة قرئ: ﴿حُسْنًا﴾ وَ(إِحْسَانًا) وَ﴿حُسْنًا﴾ أظهر ههنا، ومن قرأ (إِحْسَانًا) فمن قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأبي بالفعل والقول، ونكر حسنًا ليدل على الكمال، كما يقال إن لزيد مالاً.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ دليل على أن متابعتهم في الكفر لا يجوز، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين، فاتباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهم يفضي إلى ترك الإحسان إليهما، وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتي به، فترك هذا الإحسان صورة يفضي إلى الإحسان حقيقة.

المسألة الرابعة: الإحسان بالوالدين مأمور به، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازًا، والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني التقليد في الإيمان ليس بجيد فضلاً عن التقليد في الكفر، فإذا امتنع الإنسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلاً، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول، فإذا لم يشرك تقليدًا ويستحيل الشرك مع العلم، فالشرك لا يحصل منه قط.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني عاقبتكم ومآلكم إلي، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة، وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر.

ثم قوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أني غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتمادًا على غيبتي وعدم علمي بمخالفتكم إياي فإني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في إعادة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مرة أخرى؟ نقول: الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديًا وضالاً بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وذكر حال الضال مجملاً وحال المهتدي مفصلاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَا

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧] ولما تمم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديًا ومضلاً، فقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] يقتضي أن يهتدي بهما وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨] بيان إضلالهما وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ [العنكبوت: ٨] بطريق الإجمال تهديد المضل، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مرة لبيان حال المهتدي، ومرة أخرى لبيان حال الهادي والذي يدل عليه هو أنه قال أولاً: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧]، وقال ثانيًا: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم، وهذا على خلاف الأمور الدنيوية، فإن في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل.

المسألة الثالثة: قيل في معنى قوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لندخلنهم في مقام الصالحين أو في دار الصالحين والأولى أن يقال: لا حاجة إلى الإضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال: الفقيه داخل في العلماء.

المسألة الرابعة: قال الحكماء: عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق إليه الفساد، فإن الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابًا بخلاف الإنسان فإنه يصير ترابًا أو شيئًا آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفاسد فهو صالح، فقوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في المجردين الذين لا فساد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

نقول: أقسام المكلفين ثلاثة: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وبين أحوالهما بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ [العنكبوت: ٤] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧] بين القسم الثالث وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: آمنت، مع أنه وحد الأفعال التي بعده كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمؤمن، ويقول إيماني كإيمانك فقال: ﴿ءَامَنَّا﴾ يعني أنا والمؤمن حقًا آمنا، إشعارًا بأن إيمانه كإيمانه، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال، وهزموا خصومهم يقول الجبان: خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم، فيصح من السامع لكلامه أن يقول: وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول: خرجنا وقاتلنا؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال، وكذا قول القائل: أنا والملك ألفينا فلانًا واستقبلناه ينكر، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقين كان الواحد يقول: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي أنا والمحق.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ هو في معنى قوله: ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ [آل عمران: ١٩٥] غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال ههنا: ﴿أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: في سبيل الله، واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذي المؤمن في سبيل الله، ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئنًا بالإيمان فلا يترك الله، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية، والمؤمن أوذي ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشري: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر، وقيل: جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا في الأمر، وقالوا: إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديدًا، ولا يكون مديدًا لأن العذاب إن كان شديدًا كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديدًا كالحبس والحصر لا يكون شديدًا وعذاب الله شديد وزمانه مديد، وأيضًا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ما له من دافع، وأيضًا عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابًا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابًا.

المسألة الرابعة: قال: ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: عذاب الناس، لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاءً وامتحانًا وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحان الإنسان كالصبر على العبادات.

المسألة الخامسة: لو قال قائل هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازًا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله، فنقول: ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرًا وباطنًا، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرًا وباطنًا، بل في باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ يعني دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية، وفيه فوائد نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل: من الله، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

المسألة الثانية: لم يقل: ولئن جاءكم أو جاءك، بل قال: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء نصر، سواء جاءهم أو جاء المؤمنين، فنقول: هذا الكلام يقتضي أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء النصر، لكن النصر لا يجيء إلا للمؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧] ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة، فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة.

المسألة الثالثة: في (ليقولن) قراءتان إحداهما: الفتح حملاً على قوله: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ يعني من يقول آمنا إذا أوذي يترك ذلك القول، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم، وثانيتهما: الضم على الجمع إسنادًا للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فإن المنافقين كانوا جماعة، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لأن التلبيس إنما يكون عندما يخالف القول القلب، فالسامع يبني الأمر على قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الأمر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور، وهو أعلم بما في صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما في القلب، فالمنافق الذي يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر، والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن، والله أعلم بما في صدور العالمين، ولما بين أنه أعلم بما في قلوب العالمين، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم، والمنافق وإن تكلم فقال: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وقد سبق تفسيره، لكن فيه مسألة واحدة وهي أن الله قال هناك: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾[العنكبوت: ٣] وقال ههنا: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر، والكافر في قوله كاذب،

فإنه يقول: الله أكثر من واحد، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول: الله واحد، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر، فكان الحاصل هناك قسمين صادقًا وكاذبًا وكان ههنا المنافق صادقًا في قوله فإنه كان يقول: الله واحد، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم، وذكر أن الكافر يدعو من يقول: آمنت، إلى الكفر بالفتنة، وبين أن عذاب الله فوقها، وكان الكافر يقول للمؤمن: تصبر في الذل وعلى الإيذاء لأي شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا؟ فكان جواب المؤمن أن يقول: خوفًا من عذاب الله على خطيئة مذهبكم، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ولنحمل صيغة أمر، والمأمور غير الآمر، فكيف يصح أمر النفس من الشخص؟ فنقول: الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم، قال صاحب (الكشاف): هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود، فيقول: ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء، فقوله: ولنحمل، أي ليكن منا الحمل، وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب.

المسألة الثانية: قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ وقال بعد هذا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]فهناك نفى الحمل، وهاهنا أثبت الحمل، فكيف الجمع بينهما، فنقول: قول القائل: فلان حمل عن فلان، يفيد أن حمل فلان خف، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئًا، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارًا بسبب إضلالهم ويحملون أوزارًا بسبب ضلالتهم، كما قال النبي عليه السلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ وِزْرِهِ شَيْءٌ»(١).

المسألة الثالثة: الصيغة أمر، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب، فكيف يفهم قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ نقول: قد تبين أن معناه شرط وجزاء، فكأنهم قالوا: إن تتبعونا نحمل خطاياكم، وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: كان قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾

(١)تقدم مرارًا.

[العنكبوت: ١٢] صادرًا لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء، وثانيها: أن قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] كان عن اعتقاد أن لا حشر، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم: أما قلتم أن لا حشر، وثالثها: أنهم لما قالوا: إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم، يقال لهم: فاحملوا خطاياهم، فلا يحملون فيسألون ويقال لهم: لم افتريتم؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصًا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه، ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما، ثم قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول: كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال: إن نوحًا لبث ألف سنة تقريبًا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك، وأيضًا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم.

المسألة الثانية: قال بعض العلماء: الاستثناء في العدد تكلم بالباقي، فإذا قال القائل: لفلان علي عشرة إلا ثلاثة، فكأنه قال علي سبعة، إذا علم هذا فقوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كقوله تسعمائة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول: قال الزمخشري: فيه فائدتان: إحداهما: أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال: عاش فلان ألف سنة، يمكن أن يتوهم أن يقول: ألف سنة تقريبًا لا تحقيقًا، فإذا قال: إلا شهرًا أو إلا سنة، يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق، الثانية: هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيرًا فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع، فإن مراتب الأعداد هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف.

المسألة الثالثة: قال بعض الأطباء: العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة، والآية تدل على خلاف قولهم، والعقل يوافقها فإن البقاء على التركيب الذي في الإنسان ممكن لذاته، وإلا لما بقي، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر، وينتهي إلى الواجب وهو دائم، فتأثيره يجوز أن يكون دائمًا، فإذن البقاء ممكن في ذاته، فإن لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع، فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل، (ثم نقول): لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون: العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة، ونحن نقول: هذا العمر ليس طبيعيًا بل هو عطاء إلهي، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة، فضلاً عن مائة أو أكثر.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾.

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب، فإن الظلم وجد منه، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، فقوله: ﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ يعني أهلكهم وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

في الراجع إليه الهاء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾ وجهان: أحدهما: أنها راجعة إلى السفينة المذكورة، وعلى هذا ففي كونها آية وجوه: أحدها: أنه اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحًا وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة، وثانيها: أن نوحًا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة، وثالثها: أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية، ولولا ذلك لما حصلت النجاة. والثاني: أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين.

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة أحدهما: النصب وهو المشهور، والثاني: الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم، والأول: فيه وجهان أحدهما: أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم، والثاني: أنه منصوب بمذكور وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [العنكبوت: ١٤] فيكون كأنه قال: وأرسلنا إبراهيم، وعلى هذا.

ففي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف أرسلنا أي أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه، لكن

قوله: ﴿لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ دعوة والإرسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله: وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه، مع أنه يكون مرسلاً قبله؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله: لقومه اعبدوا الله، كان مرسلاً، وهذا كما يقول القائل: وقفنا للأمير إذ خرج من الدار، وقد يكون الوقوف قبل الخروج، لكن لما كان الوقوف ممتدًا إلى ذلك الوقت صح ذلك الوجه، الثاني: هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال، ولما كان هو مشتغلاً بالدعاء إلى الإسلام أرسله الله تعالى، وقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى الإثبات، وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتي بأعظم الجرائم، ويمكن أن يقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى الإتيان بالواجبات، وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ إشارة إلى الامتناع عن المحرمات، ويدخل في الأول الاعتراف بالله، وفي الثاني الامتناع من الشرك، ثم قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني عبادة الله وتقواه خير، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتبارًا، أما عقلاً فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنًا قطعًا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله، وأما التشريك فبطلانه عقلاً وكون خلافه خيرًا وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجبًا فكيف يكون شريكًا وإن كان واجبًا لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل، وأما اعتبارًا فلأن الشرف لن يكون ملكًا أو قريب ملك، لكن الإنسان لا يكون ملكًا للسموات والأرضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[العلق: ١٩]. وقال: «لَنْ يَتَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ» وقال: «لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ بِالْعِبَادَةِ إِلَيَّ» فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلاً، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة، فإذن من يقول: إن ربي لا يماثله شيء، أعلى مرتبة ممن يقول: سيدي صنم منحوت عاجز مثله، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أي خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور، إما لكونه

مستحقًّا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع، وإما لكونه نافعًا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة، وإما لكونه نافعًا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعًا منه أمرًا في المستقبل، وإما لكونه خائفًا منه. فقال إبراهيم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانًا لا شرف لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل، وهذا لأن النفع إما في الوجود، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق، وليس منهم ذلك، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ فقوله: ﴿اللَّهِ﴾ إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله: ﴿الرِّزْقَ﴾ إشارة إلى حصول النفع منه عاجلاً وآجلاً.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ نكرة، وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ معرفًا فما الفائدة؟ فنقول قال الزمخشري: قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلاً، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦] والرزق من الأوثان غير معلوم فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لعدم حصول العلم به وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ الموعود به، ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أي اعبدوه لكونه مستحقًّا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي اعبدوه لكونه مرجعًا منه يتوقع الخير لا غير.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ وفي المخاطب في هذه الآية وجهان: أحدهما: أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وأنا أتيت بما علي من التبليغ فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان، والثاني: أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيرًا ما يقول الحاكي لأي شيء: حكيت هذه الحكاية، فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب

ويرتدعوا خوفًا من التعذيب، فقال في أثناء حكايتهم: يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فإن كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم. وعلى الوجه الأول. **في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ كيف يفهم، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة؟ والجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم، والثاني: أن نوحًا عاش ألفًا وأكثر وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أممًا.

المسألة الثانية: ما ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ وما ﴿ٱلْمُبِينُ﴾؟ فنقول: البلاغ هو ذكر المسائل، والإبانة هي إقامة البرهان عليه.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئًا ولم يبينه فإنه لم يأت بالبلاغ المبين، فلا يكون آتيًا بما عليه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله: ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨] شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر، وقد ذكرنا مرارًا أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإنسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾؟ فنقول: المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقًا أول، فهو من الله، هذا إن قلنا: إن المراد إثبات نفس الخلق، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولاً وبالإعادة خلقه ثانيًا، فنقول: العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه(١) ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام، ويخلقه من نطفة في غاية الإتقان والإحكام، فذلك الذي خلق أولاً معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي ألم يعلموا علمًا ظاهرًا واضحًا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم، فإن من نحت حجارات ووضع شيئًا بجنب شيء فَفَرَّقَه أَمْرٌ ما فإنه يقول: وضعه شيئًا

(١) المراد بنفسه هنا نفس الإنسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن الأول وهلة، تعالى الله عن الشبه والمثل والنظير.

بجنب شيء في هذه النوبة أسهل علي لأن الحجارات منحوتة، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [الروم: ٢٧] وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المسألة الثانية: قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال: أولم يروا أن الله خلق، أو بدأ الخلق؟ والكيفية غير معلومة، فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم، وهو أنه خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا، وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله.

المسألة الثالثة: لم قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فأبرز اسمه مرة أخرى، ولم يقل: إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز؟ نقول: مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضًا بكون ذلك يسيرًا، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر، بقدرة كاملة، لا يعجزه شيء، العالِمُ بِعِلْمٍ مُحيطٍ بذرات كل جسم، نافذ الإرادة لا رادَّ لما أراده، يقطع بجواز الإعادة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [العنكبوت: ١٩] على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية: إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئًا من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة، وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض، أي سَيِّرُوا فِكْرَكم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه؟ نقول: العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضي إلى الرؤية، يقال: نظرت فرأيت، والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء، فقال في الأول: أما حصلت لكم الرؤية؟ فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية.

المسألة الثانية: ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكريًا فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق، وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به.

المسألة الثالثة: أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ١٩]وأضمره عند الإعادة وفي هذه الآية، أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩]كما يقول القائل: ضرب زيد عمرًا ثم ضرب بكرًا، ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسندًا إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقوله القائل: أما علمت كيف خرج زيد؟ اسمع مني كيف خرج، ولا يظهر اسم زيد، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانيًا حيث قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾ مع أنه كان يكفي أن يقول: ثم ينشئ النشأة الآخرة، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسمًا من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال (الله) مظهرًا مبرزًا ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته، فإن قيل: فلِمَ لم يقل: ثم الله يعيده، لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة؟ نقول: لوجهين أحدهما: أن الله كان مظهرًا مبرزًا بقرب منه وهو في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ١٩]ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكورًا عند البدء فأظهره، وثانيهما: أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسي الحاصل لهذا الإنسان من نفسه، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وعندهما تم الدليلان، فأكده بإظهار اسمه، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثاني، فلم يقل: ثم الله يعيده.

المسألة الرابعة: في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ [العنكبوت: ١٩]وهاهنا قال بلفظ الماضي فقال: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ ولم يقل: كيف يبدأ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق، فقال: إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقًا فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقًا، ويحصل المطلوب من هذا القدر فإنه ينشئ كما بدأ ذلك.

المسألة الخامسة: قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]. وفيه فائدتان: إحداهما: أن الدليل الأول هو الدليل النفسي، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام، لأنه بالنظر في نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه، فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال عند الدليل الواحد: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ وهو إعادته ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]الثانية: هي أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثاني أعم وكون الأمر يسيرًا على

الفاعل أتم من كونه مقدورًا له بدليل أن القائل يقول في حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول: إنه سهل عليه، فإذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول: إن ذلك عليه يسير، فنقول: قال الله تعالى: إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا في الأرض لتعلموا أنه مقدور، ونفس كونه مقدورًا كاف في إمكان الإعادة.

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكيًا عنه «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»(١) فنقول: ذلك لوجهين: أحدهما: أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد التهديد بقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ [العنكبوت: ١٨] وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب، وذكر الرحمة وقع تبعًا لئلا يكون العذاب مذكورًا وحده وهذا يحقق قوله: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه في الذكر بل ذكر الرحمة معه.

المسألة الثانية: إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصي وتفريح المؤمن فلو قال: يعذب الكافر ويرحم المؤمن، لكان أدخل في تحصيل المقصود وقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لا يزجر الكافر لجواز أن يقول: لَعَلِّي لا أكون ممن يشاء الله عذابه، فنقول: هذا أبلغ في التخويف، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال: يعذب العاصي، فإنه لا يدل على كمال مشيئته، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه، فإذا لم يفد هذا فيقول الكافر: إذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى، ولنضرب له مثلاً فنقول: إذا قيل: إن الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال: من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه، وإذا قيل: إنه قادر على ضرب المخالفين

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد)، باب: (قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]) (٦/ ٢٧٤٥)، حديث رقم (٧١١٤) من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥١) من طريق الأعرج عن أبي هريرة... به، كلاهما (أبو رافع، والأعرج) عن أبي هريرة... به.

ولا يقدر على ضرب المطيعين، فإذا قال: من خالفني أضربه، يقع في وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع، فلا يقدر علي أيضًا لكوني مثله، وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام، لأن الأمن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي إلى صيرورة المطيع عاصيًا.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها وتقريرها فلِمَ أعادها؟ فنقول: لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين، فقال تعالى: فإن تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات، فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم، ولهذا قال بعدها: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الانفلات منه، وفي تفسير هذه الآية لطائف: إحداها: هي إعجاز المعذَّب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع، وذكر الله القسمين فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك في السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في الإعجاز بالهرب، وإما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذِّب مخالفته فيفوته المعذِّب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال، فإنكم ما لكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز لا بالهروب ولا بالثبات، الثانية: قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولم يقل: لا تعجزون، بصيغة الفعل، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية، فإن من قال: إن فلانًا لا يخيط، لا يدل على ما يدل عليه قوله: إنه ليس بخياط، الثالثة: قدم الأرض على السماء، والولي على النصير، لأن هربهم الممكن في الأرض، فإن كان يقع منهم هرب يكون في الأرض، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء، وأما الدفع فإن العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقي إلى غيره، والشفاعة أجمل. ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لأجله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الكفار بالله، فإن لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته، فإذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فإن من أنكره كفر بلقاء الله فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلاً

للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله، ولما أنكروا الحشر وقالوا: لا عذاب، فناسب تعذيبهم تحقيقًا للأمر عليهم، وهذا كما أن الملك إذا قال: أعذب من يخالفني، فأنكره بعيد عنه وقال: هو لا يصل إلي، فإذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول: هل قدرت وهل عذبت أم لا؟ فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر. ثم إن في الآية فوائد: إحداها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ حتى يكون منبئًا عن حصر الناس فيهم وقال أيضًا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لذلك، ولو قال: أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم، ما كان يحصل هذه الفائدة فإن قال قائل: لو اكتفي بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر، ثم قلنا: لا وذلك لأنه لو قال: أولئك يئسوا ولهم عذاب، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحدًا منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم، فإذا قال: أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب، أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم، الثانية: عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال: رحمتي، وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلامًا لعباده بعمومها لهم ولزومها له، الثالثة: أضاف اليأس إليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ﴾ فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضي أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول: معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنًا بالله لأن الإيمان به لا يصح إلا إذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه، بقي الأمر من جانبهم إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: كيف سمى قولهم ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ جوابًا مع أنه ليس بجواب؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه: جوابكم السيف، مع أن السيف ليس بجواب، وإنما معناه لا أقابله بالجواب، وإنما أقابله بالسيف، فكذلك قالوا: لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه، الثاني: هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب، فتبين أنهم لم يكن لهم

جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات، أما إذا أجاب بجواب فاسد، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه.

المسألة الثانية: القائلون الذين قالوا: اقتلوه، هم قومه والمأمورون بقولهم: اقتلوه، أيضًا هم، فيكون الآمر نفس المأمور؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن كل واحد منهم قال لمن عداه: اقتلوه، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد، لأن كل واحد أمر غيره، وثانيهما: هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء، فإذا قال أعيان بلد كلاما يقال: اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم: اقتلوه، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع.

المسألة الثالثة: ﴿أَوْ﴾ يذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الأول كما يقال: زوج أو فرد، ويقال: هذا إنسان أو حيوان، يعني إن لم يكن إنسانًا فهو حيوان، ولا يصح أن يقال: هذا حيوان أو إنسان، إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فإن لم يكن حيوانًا فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله: اقتلوه أو حرقوه، كقول القائل: حيوان أو إنسان، الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون ﴿أَوْ﴾ مستعملا في موضع بل، كما يقول القائل: أعطيته دينارًا أو دينارين، وكما يقول القائل: أعطه دينارًا، بل دينارين قال الله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢ - ٤] فكذلك هاهنا: اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه، الجواب الثاني: هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فإن من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيًّا يصح أن يقال: احترق فلان وأحرقه فلان وما مات، فكذلك هاهنا قالوا: اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار، وإن ترك مقالته فخلوا سبيله وإن أصر فخلوا في النار مقيله.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ اختلف العقلاء في كيفية الإنجاء، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا﴾ [الأنبياء: ٦٩] وبعضهم قال: خلق في إبراهيم كيفية استبرد معها النار، وقال بعضهم: ترك إبراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه، والكل ممكن والله قادر عليه، وأنكر بعض الأطباء الكل، أما سلب الحرارة عن النار، قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنساني له طرفا تفريط وإفراط، فلو خرج عنهما لا يبقى إنسانًا أو لا يعيش. مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنسانًا فإن صار أحد عشر لا يكون إنسانًا وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنسانًا فإذا صارت أربعة لا يبقى إنسانًا لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السَّمَنْدَل فلو حصل في الإنسان لمات أو لكان ذلك فإن النفس تابعة

للمزاج، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي، والقطنة كما هي ولا تحترق، فنقول: الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل، أما الأول فلوجهين: أحدهما: أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف، فإن النار في الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التي كانت في النار، فإذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهي إلى حد لا يؤذي الإنسان، ولا كذلك الزوجية فإنها لا تشتد ولا تضعف، والثاني: وهو أن في أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارًا وهو نور غير محرق، وأما الثاني فأيضًا ممكن وقولهم مدفوع من وجهين: أحدهما: منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد، وثانيهما: أن نقول على أصلكم: لا يلزم المحال لأن الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة، ألا ترى أن الإنسان إذا مس الجمد زمانًا ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار في إحراق يده مثل ما تؤثر في إحراق يد من أخرج يده من جيبه، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا. فإذا جاز وجود كيفية في ظاهر جلد الإنسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زمانًا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق، وأما الثالث: فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقًا للعادة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ يعني في إنجائه من النار لآيات.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في إنجاء نوح وأصحاب السفينة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً﴾[العنكبوت: ١٥] وقال ههنا: ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شيء تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة، فإنه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما في الغيب، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه: آيات.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[العنكبوت: ١٥] وقال هاهنا: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعوامًا حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد، وأما تبريد النار [فَإِنَّهُ] لم يبق فلم يظهر لمن يعده إلا بطريق الإيمان به والتصديق، وفيه لطيفة: وهي أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة، فقال: إن في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾ وقال هاهنا: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ لأن السفينة ما صارت آية في

نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح سفها، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية، وأما تبريد النار فهو في نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه، وقال: إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه، فليس هذا إلا تقليدًا، فإن بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم . . . مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني ليس بدليل أصلا، وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق، وهو أن يقال قوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم . . . مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي مودة بين الأوثان وبين عبدتها، وتلك المودة هي أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق. والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي. إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم، ولا يمينهم ولا يسارهم، ولا قدامهم ولا وراءهم، ولا يكون جسمًا من الأجسام، ولا شيئًا يدخل في الأوهام، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها، فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد: ما هذا معبودي، ويقول المعبود: ما هؤلاء عبدتي، ويلعن بعضكم بعضًا، ويقول هذا لذاك: أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون، بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال قبل هذا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] على لفظ الواحد، وقال هاهنا على لفظ الجمع: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم عليه السلام قالوا: نحن ننصر آلهتنا، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فقال: أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم، أي للأوثان وعبدتها من ناصرين، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وما ذكر الولي ههنا فنقول: قد بينا أن المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أي ما لكم كلكم لم يقل: شفيع، لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] والشفيع لا يكون له شفيع، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرًا ووليًا هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال ههنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ من غير استثناء فنقول كان ذلك واردًا على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا: لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي إلى حيث أمرني بالتوجه إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عزيز يمنع أعدائي عن إيذائي بعزته، وحكيم لا يأمرني إلا بما يوافق لكمال حكمته.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر، فنقول: إن لوطًا لما رأى معجزته آمن برسالته، وأما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته، وإليه أشار بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وما قال: فآمن لوط.

المسألة الثانية: ما تعلق قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ بما تقدم؟ فنقول: بما بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر: صدق، وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة.

المسألة الثالثة: قال: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ولم يقل: مهاجر إلى حيث أمرني ربي، مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة، فنقول: قوله: مهاجر إلى حيث أمرني ربي، ليس في الإخلاص كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلاني، ثم إن واحدًا منهم سافر إليه لغرض [فِي] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصًا لوجهه فقال: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ يعني توجهي إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلبًا للجهة إنما هو طلب لله.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى:﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧]أن أثر رحمة الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن في الدار الآخرة قطعًا بحكم وعد الله نفي العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لإثباته الواحد، ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا، فإن كثيرًا ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي ﷺ قوله: «**وَقِنَا عَذَابَ الْفَقْرِ وَالنَّارِ**»[1] فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل، وأما الثواب العاجل ففي قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]إذا علم

---

(١)هذا الحديث إشارة إلى الحديث الحسن من رواية عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، حديث رقم (٧٠١)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (ما يقول إذا أصبح) (٤/ ٢١٦٧)، حديث رقم (٥٠٩٠)، والنسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) (١٦/ ٣٨٢/ ٤١٣) من طريق جعفر بن ميمون قال حدثني عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه ثم يا أبت إني أسمعك تدعو كل غداة اللهم عافني في بدني اللهم عافني في سمعي اللهم عافني في بصري لا إله إلا أنت تعيدها ثلاثا حين تصبح وثلاثا حين تمسي فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن فأنا أحب أن أستن بسنته قال عباس فيه وتقول اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت تعيدها ثلاثا حين تصبح وثلاثا حين تمسي فتدعو بهن فأحب أن أستن بسنته قال وقال رسول الله ﷺ دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت وبعضهم يزيد على صاحبه. واللفظ لأبي داود في سننه.

هذا فنقول : إن إبراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار ، ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي الآية لطيفة : وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدًا فريدًا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده ، حتى قيل : إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفًا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملًا ، حتى قال قائلهم : ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠] وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال : ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجًا ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فإن كون العبد صالحًا أعلى مراتبه ، لما بينا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي ، يقال : الطعام بعد صالح ، أي هو باق على ما ينبغي ، ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب ، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب .

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى : أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد لحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال : هو مذكور في قوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحدًا وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحدًا وهو الأظهر كما يقول القائل : إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء الملك الفلاني والأمير الفلاني ولا يعدد الكل لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

المسألة الثانية : أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوي بين ولديه ، فكيف صارت النبوة في أولاد إسحاق أكثر من النبوة في أولاد إسماعيل؟ فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس أجمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاءوا تترى واحدًا بعد واحد ، ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة إسحاق عليه السلام ، ثم في القسم الثاني من الزمان

أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحدًا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد ﷺ وجعله خاتم النبيين، وقد دام الخلق على دين أولاد إسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل مثل ذلك المقدار.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾

الإعراب في لوط، والتفسير كما ذكرنا في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال إبراهيم لقومه ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦] وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فنقول: لما ذكر الله لوطًا عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول: حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن إبراهيم. وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصًا بلوط، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك (في زمنه) ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره.

المسألة الثانية: لِمَ سمى ذلك الفعل فاحشة؟ فنقول: الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب، فإنه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضي إلى بقاء النوع، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنى وإن كان يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فيضيع ويهلك، فلا يحصل مصلحة البقاء، فإذن الزنى شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى بقائه، فاللواطة التي لا تفضي إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة.

المسألة الثالثة: الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة، لأنها مع الزنى اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه، فما شرع زاجرًا هناك يشرع زاجرًا ههنا، وهذا وإن كان قياسًا إلا أن جامعه مستفاد من الآية، ووجه آخر، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلاً، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلاً وهو الرجم، وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر، والثاني: أن قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه، فقال لهم: ما سبقكم بها من أحد، كما يقال: إن فلانًا سبق البخلاء في البخل، وسبق اللئام في اللؤم، إذا زاد عليهم، ثم قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ بيانًا لما ذكرنا، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ [الأعراف: ٨١] يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الإظهار، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ في التفسير، كقوله في قصة إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال قوم إبراهيم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وقال قوم لوط: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وما هددوه، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط، فإن لوطًا كان من قومه، فنقول: إن إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله: لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني، والقدح في الدين صعب، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون: إن هذا واجب من الدين، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم، فقالوا: إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول: لا يعذب، فإن كنت صادقًا فأتنا بالعذاب، فإن قيل: إن الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ﴾ [النمل: ٥٦] وقال هاهنا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا﴾ فكيف الجمع؟ فنقول: لوط كان ثابتًا على الإرشاد مكررًا عليهم التغيير والنهي والوعيد، فقالوا أولاً: ائتنا، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوا، ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإن الله لا يحب المفسدين، حتى ينجز النصر.

واعلم أن نبيًا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال

نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] يعني المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم، فإنهم يضلون في الحال وفي المآل فإنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله، بطلت المصلحة حالا ومآلا، فعدمهم صار خيرًا، فطلب العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

لما دعا لوط على قومه بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ استجاب الله دعاءه، وأمر ملائكته بإهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني أهل سدوم، وفي الآية لطيفتان: إحداهما: أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين، لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالإهلاك أثر الغضب، ورحمته سبقت غضبه، فقدم البشارة على الإنذار. وقال: ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟﴾ الثانية: حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا: إنا نبشرك لأنك رسول، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل، وحين ذكروا الإهلاك عللوا، وقالوا: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لو قال قائل: أي تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار، نقول: لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه.

المسألة الثانية: قال في قوم نوح: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: ١٤] وقد قلت: إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم، ولم يقل: فأخذهم وكانوا ظالمين، وههنا قال: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: وإنهم ظالمون، فنقول: لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضي حيث قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ [العنكبوت: ١٤] وكانوا ظالمين، فقال: أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون، وههنا الإخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟﴾ فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه في إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك، فقالوا: (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين، فحسن أمر الله عند كل أحد، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا

إليه، فإن الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله بإهلاكهم بيانًا لحسن الأمر، وأما أنهم ظالمون في وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم: إن فيها لوطًا، إشفاقًا عليه ليعلم حاله، أو لأن الملائكة لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾ وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قومًا وفيهم رسوله، فقال تعجبًا: إن فيهم لوطًا فكيف يهلكون؟ فقالت الملائكة؟ نحن أعلم بمن فيها، يعني نعلم أن فيهم لوطًا فلننجينه وأهله ونهلك الباقين، وههنا لطيفة: وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير، أعني إبراهيم والملائكة، وكل واحد كان يزيد على صاحبه في كونه خيرًا.

أما إبراهيم فلما سمع قوله الملائكة: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾ أظهر الإشفاق على لوط ونسي نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحًا، وقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ [العنكبوت: ٣٢] ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه، وقالوا: إنك ذكرت لوطًا وحده ونحن ننجيه وننجي معه أهله، ثم استثنوا من الأهل امرأته، وقالوا: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي من المهلكين، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك في الماضي وفي الباقي، يقال: فيما غبر من الزمان، أي فيما مضى ويقال: الفعل ماض وغابر، أي باق، وعلى الوجه الأول نقول: إن ذكر الظالمين سبق في قولهم: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة، فقالت الملائكة: إنها من الغابرين، أي الماضي ذكرهم لا من الذين ننجي منهم، أو نقول: المهلك يفنى ويمضي زمانه والناجي هو الباقي، فقالوا: إنها من الغابرين، أي من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين، وأما على الوجه الثاني فنقول: لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل في الهلاك إلا من ننجي منه فقالوا: إنا ننجي لوطًا وأهله، وأما امرأته فهي من الباقين في الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ۝٣٥﴾

ثم إنهم جاءوا من عند إبراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشرًا فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسيء بهم أي جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعًا كناية عن العجز في تدبيرهم، قال الزمخشري: يقال: طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى ما لا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهًا معقولاً غير ذلك، وهو أن الخوف

والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضًا والقلب هو المعتبر من الإنسان، فكأن الإنسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق، ويقال في الحزين: ضاق ذرعه، والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال: اتسع ذرعه، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه في أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم في ثاني الأمر قالوا: لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا، ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فإن مجرد قول القائل: لا تخف، لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى قال من قبل: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [العنكبوت: ٣١] وقال هاهنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: حكمة بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ وهو لم يكن متصلاً بمجيئهم لأنهم بشروا أولاً ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكو، وأيضًا فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئًا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير، إذا علم هذا فقوله ههنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء، فإن قلت: هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود، وقال: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ من غير (أن)، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩] فقوله هنالك: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ﴾ لا يدل على أن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ [هود: ٧٠] كان في وقت المجيء. وقوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ دل على أن حزنه كان وقت المجيء. إذا علم هذا فنقول: هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩]ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام، ثم قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ولا تحزن ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]فحصل تأخير الإنذار، وبقوله في حكاية لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ حصل بيان تعجيل الحزن، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ﴾ قال في حكاية لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ لما ذكرنا من الفائدة.

المسألة الثانية: قال هنا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ وقال لإبراهيم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] بصيغة الفعل فهل فيه فائدة؟ قلنا: ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً، والذي يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وعدوه بالتنجية ووعد الكريم

آية بينة، نقول: لأن الإنجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل أن الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان، فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم؟.

المسألة الثالثة: قال هناك ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قلنا: لأن السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة ولا يثق أحد بمجرد السفينة، بل يكون دائمًا مرتجف القلب متضرعًا إلى الله تعالى طلبًا للنجاة، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المريد، بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ واختلف المفسرون في مدين، فقال بعضهم: إنه اسم رجل في الأصل وحصل له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وقال بعضهم: اسم ماء نسب القوم إليه، واشتهر في القوم، والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] ولو كان اسمًا للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل في الإضافة التغاير حقيقة، وقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قيل: لأن شعيبًا كان منهم نسبًا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الله تعالى في نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [العنكبوت: ١٤] قدم نوحًا في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك في إبراهيم ولوط، وههنا ذكر القوم أولاً وأضاف إليهم أخاهم شعيبًا، فنقول: الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولاً إلى غير معين، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها، فعرفوا بالنبي فقيل: قوم نوح وقوم لوط، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله: ﴿وَإِلَىٰ

مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥]

المسألة الثانية: لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد، وذكر عن شعيب ذلك؟ قلنا: قد ذكرنا أن لوطًا كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها، وإن كان هو أيضًا يأمر بالتوحيد، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلاً أيضًا في التوحيد فدأبه وقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

المسألة الثالثة: الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟ فنقول: هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيدًا وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد، فإذا قال له: اخدم عمرًا، يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد، وهو يريد أن يعطيه زيدًا، فإذا قيل له: أعطه عمرًا، يفهم منه لا تعطه زيدًا، فنقول: هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب: ضعوها في موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد، ثم قال: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال الزمخشري: معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلاً، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلاً.

وقوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. فيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا يدل على صحة مذهبنا، فإن عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلاً ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده، وإن زاده يكون إحسانًا منه إليه وإنعامًا عليه، فنقول قوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ﴾ بعد قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به.

المسألة الثانية: قال: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ولم يقل: وخافوه، مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده، فنقول: لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال: ﴿اعْبُدُوا﴾ ولم يذكره بطريق النفي وما قال: ولا تعبدوا غيره، قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية إبراهيم أنه قال: إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فتكفرون بها، وقال ههنا لا: تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا

﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يمكن أن يقال: نصب مفسدين على المصدر كما يقال: قم قائمًا، أي قيامًا ويكون قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ كقول القائل: اجلس قعودًا لأن العيث والفساد بمعنى، وجمع الأوامر والنواهي في قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ ثم إن قومه كذبوه بعدما بلغ وبين، فحكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما حكى عن شعيب أمر ونهي والأمر لا يصدق ولا يكذب، فإن من قال لغيره: قم، لا يصح أن يقول له: كذبت، فنقول: كان شعيب يقول: الله واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به.

المسألة الثانية: قال ههنا وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقال في هود[1]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣]. والحكاية واحدة، نقول: لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سببًا للرجفة، إما لرجفة الأرض إذ قيل: إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته، وإما لرجفة الأفئدة فإن قلوبهم ارتجفت منها، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب، إذ يصح أن يقال: روى فقوي، وأن يقال: شرب فقوي، في صورة واحدة.

المسألة الثالثة: حيث قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] قال: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٦٧] وحيث قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قال: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ فنقول: المراد من الدار هو الديار، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الالتباس، وإنما اختلف اللفظ للطيفة، وهي أن الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج إلى مهول، وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع، حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها، وقيل: إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو، والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ

---

(١) نص الآية (٦٧) في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أما قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ فهو في الآية (٧٣ و٨٣) من سورة الحجر.

﴿وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي وأهلكنا عادًا وثمود لأن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ دل على الإهلاك ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ الأمر وما تعتبرون منه، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني عبادتهم لغير الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني عبادة الله ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فإن الرسل أوضحوا السبل. ثم قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ عطفًا عليهم أي: وأهلكنا قارون وفرعون وهامان.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كما قال في عاد وثمود: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي بالرسل، ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي عن عبادة الله وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم، وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف (يَسْتَكْبِرُ) من في الأرض. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لأنا بينا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] أن المراد أن أقطار الأرض في قبضة قدرة الله.

قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب، وقيل: إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج، فإن الصوت قيل: سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذي على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس، والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب، والعذاب بالإغراق وهو بالماء. فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببًا لعدمه، وما به بقاؤه سببًا لفنائه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني لم يظلمهم بالهلاك، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك، وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته.

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبودًا باتخاذ العنكبوت بيتًا لا يجير آويًا ولا يريح ثاويًا، وفي الآية لطائف.

نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال؟ فنقول: فيه وجوه: الأول: أن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط حائل، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين: إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء، الثاني: هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضًا الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئًا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه، الثالث: أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتًا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب.

المسألة الثانية: مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتًا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين:

أحدهما: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوّته ما هو أعظم منه، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت.

الوجه الثاني: هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتًا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتًا وكلاهما باطل.

المسألة الثالثة: كما أن هذا المثل صحح في الأول فهو صحيح في الآخر، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباءً منثورًا، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

المسألة الرابعة: قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقل: آلهة، إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضًا، فإن من عَبَدَ اللهَ رياء لغيره فقد اتخذ وليًا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتًا.

ثم إنه تعالى قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك، وبيته يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قال الزمخشري: هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم، فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلًا؟ وهذا يفهم منه أنه جعل ما نافية، وهو صحيح، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل: إني أعلم أن الله واحد حق، يعني أعلم هذه الجملة، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى هذا لو قال قائل: ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق؟ فنقول: لما قال: إن مثلهم كمثل العنكبوت، فكان للكافر أن يقول: أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي، فقال الله تعالى: الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

قال الكافرون: كيف يضرب خالق الأرض والسماوات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت؟ فيقال: الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيرًا مثل تأثير الدليل، فإذا قال الحكيم لمن يغتاب: إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب، لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له: إنه يوجب العذاب ويورث العقاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

يعني حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه، وفيه معنى حكمي وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرَك ظاهرًا وكون المدرِك عاقلاً، ولا يحتاج إلى كونه عالمًا بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم إنه قد يكون دقيقًا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالمًا. إذا علم هذا فقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ يعني هو ضرب للناس أمثالاً وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء.

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصًا فيها عبر، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل، وحصل يأس الناس عنهم سلّى المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكًا في صحة دينكم، ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم، فإن خلق الله السماوات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر، وبرهان باهر، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر، وفي الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية، وهي أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى أن قال ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فنقول: خلق السماوات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب، وبيانه من حيث النقل والعقل، أما النقل فقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩] أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السماوات والأرض ويعلم أن لهما خالقًا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع

النظر عنهما عند مجرد ذلك، بل يقول إنه خلقهما متقنًا محكمًا وهو المراد بقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون باطلاً، وإذا علم أنه خلقهما متقنًا يقول: إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول: لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السماوات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات، فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحي إليك لتعلم أن نوحًا ولوطًا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال: ﴿ٱتْلُ﴾ وما قال: عليهم، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول: الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك، فإن الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام، وقسم يكون فيه قانون كلي تحتاج إليه الرعية في جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتابًا فيه: إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال، فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال، وكثيرًا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب، ويكون نصب الأعين، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلي فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور، الوجه الثاني: هو أن الكتب على ثلاثة أقسام: كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فإن من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئمه، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما، وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فإنها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضًا لنفس المتكلم فإن كثيرًا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت في القلب وأنفذ حتى يكاد

يبكي من رقته دمًا ولو أورثه البكاء عمى، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة.

المسألة الثانية: لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة؟ فنقول: لوجهين أحدهما: أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له: الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق، فإذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله، فإذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إليّ وأقم الصلاة لوجهي، الوجه الثاني: هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة: وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن من اعتقد شيئًا لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرًا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلاً له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره، لكن الذكر ممكن التكرار، والعبادة البدنية كذلك فأمره بهما فقال: اتل الكتاب وأقم الصلاة.

المسألة الثالثة: كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟ نقول: قال بعض المفسرين: المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ بعيد من الفهم، وقال بعضهم: أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما، فنقول: هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحًا كاملاً للصلاة، لأن غيرها من الأشغال كثيرًا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول: المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقًا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى، حتى نقل عنه ﷺ «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْمَعَاصِي لَمْ يَزْدَدْ بِهَا إِلاَّ بُعْدًا»(١) ونحن نقول: الصلاة الصحيحة شرعًا تنهى عن الأمرين مطلقًا وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعًا وتجب عليه الإعادة، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل: لا يصح، فكيف من نوى بصلاته الله وغيره؟ إذا ثبت هذا فنقول: الصلاة تنهى من وجوه الأول: هو أن من كان يخدم ملكًا عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة، ويرى عبدًا من عباده قد طرده طردًا لا يتصور قبوله، وفاته الخبر بحيث لا يرجى حصوله، يستحيل من ذلك المقرب عرفًا أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبدًا له، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، الثاني: هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر

---

(١) تقدم ولكن بلفظ الفحشاء.

فإذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفًا، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله؛ على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر.

ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع، الثالث: من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصبًا له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين، إذ صار من أصحاب اليمين، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال، وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر، الرابع: وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيدًا عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحدًا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرًا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلًا عن الكبائر، وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك، والتعطيل هو إنكار وجود الله، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله. فنقول: التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء إلا وفيه آية على الله ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسًا إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [المجادلة: ٢] فالمشرك الذي يقول: الملائكة بنات الله، وينسب إلى من لم يلد، ولا يجوز أن يكون له ولد، ولدًا - كيف لا يكون قوله منكرًا؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول: الله أكبر، فبقوله (الله) ينفي التعطيل وبقوله (أكبر) ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك، فإذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ نفى التعطيل، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نفى الإشراك، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق

بالرحمة، والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، أثبت بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خلاف التعطيل وبقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] خلاف الإشراك، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة: ٦] نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له، وبقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها: أشهد أن لا إله إلا الله فينفي الإشراك والتعطيل، وههنا لطيفة وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، ليعلم المصلي أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله، فإن قال قائل: فقد بقي من الصلاة قوله: وأشهد أن محمدًا رسول الله، والصلاة على الرسول والتسليم، فنقول: هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب، فقال: أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل: مع ذكرى محمد رسول الله، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فإن أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلاس، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة، ولا يكون من الذين قال الله في حقهم: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم، لكن ذكر الله أكبر، فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون، وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم، وفي قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة، إذ لا يقال: الجبل أكبر من خردلة، وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل، فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره، وهذا كما يقال في الصلاة: الله أكبر، أي له الكبر لا لغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ قال بعض المفسرين: المراد منه لا تجادلوهم بالسيف، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا، أي إذا ظلموا زائدًا على كفرهم، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨] وقال: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩] إلى غير ذلك. وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم، بخلاف المشرك، ثم على هذا فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تبيين له حسن آخر، وهو أن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فإنهم ضاهوهم في القول المنكر فهم الظالمون، لأن الشرك ظلم عظيم، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، ثم إنه تعالى بين ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتي في كتبكم فهو دليل مضيء، ثم بعد ذلك ذكر دليلاً قياسيًا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ يعني كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس، ثم قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ لوجود النص ومن هؤلاء كذلك، واختلف المفسرون فقال بعضهم: المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة، وقال بعضهم: المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدًا ﷺ زمانًا من أهل الكتاب، ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب، فإن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ صَرْفُه إلى أهل الكتاب أولى، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا، إذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به، وهو أن نقول: المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء، وبقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل الكتاب وهو أقرب، لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما آتى الكتاب إلا

للأنبياء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ٨٩] وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عددًا قليلاً، ويكون المراد بقوله: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ غير المذكورين، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين: أحدهما: المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم، والثاني أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم، والوقت وقت جريان ذكرهم، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفًا إلى أهل الكتاب الذين هم في وصفهم، وإذا قال أولئك يكون منصرفًا إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه، وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك، فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم: هذان الملكان متوافقان متصادقان، فلا معنى لنزاعكم، فكذلك ههنا قال النبي ﷺ: نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تنفيرًا لهم عما هم عليه، يعني أنكم آمنتم بكل شيء، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة، إلا هذه المسألة الواحدة، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم، فإن الجاحد بآية يكون كافرًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفًا فيها كقول القائل: الزكاة تجب في مال الصغير، فإذا قيل له: لِمَ؟ فيقول: كما تجب النفقة في ماله، ولا يذكر أولا الجامع بينهما، فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدي الجامع، فيقول: كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب، فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ثم ذكر الجامع وهو المعجزة، فقال: ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة، فيعرف كونه منزلاً، وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ فيه معنى لطيف، وهو أن النبي إذا كان قارئًا كاتبًا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه، فإن جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل في الإبطال

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قوله: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين، لأن من يكون له كلام مخترع يقول: هذا من قلبي وخاطري، وإذا حفظه من غيره يقول: إنه في قلبي وصدري، فإذا قال: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ لا يكون من صدر أحد منهم، والجاهل يستحيل منه ذلك ظهور له من الصدور ويلتحقون عنده هذه الأمة بالمشركين، فظهوره من الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ قال هـهـنا: ﴿الظَّالِمُونَ﴾، ومن قبل قال: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] مع أن الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة، وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم: إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين، فلفظ الكافر هناك كان بليغًا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم: إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين حكمًا، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين، أي مشركين، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس، فقالوا: إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى، وليس كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئًا منها، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين، فقال: أنا الساعةَ رسولٌ وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنسانًا إلا ويكون قد خلق مكانًا أو يخلقه معه، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل: علم رسالتهم، نقول: من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لِمَ لم ينزل عليه آية؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست

شرطًا حتى تسبقها، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا: يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيًّا ونؤمن بك، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية.

ثم قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا إلا نذير وليس لي عليه حكم بشيء، ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر، وقال: هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني إن كان إنزال الآية شرطًا فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية، وذلك لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه: أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعبانًا وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله، الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلامًا بأنه يكون أمر عام، الثالث: هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول: إنه سحر عمل بدواء، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه.

ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى أنه

معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضبًا على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق : الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم ، كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريرًا وتأكيدًا ، ثم بيَّن كونه كافيًا بكونه عالمًا بجميع الأشياء . فقال : ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وههنا مسألة : وهي أن الله تعالى قال في آخر الرعد : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة قدمها حيث قال : ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول : الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم إن شهادة الله أقوى في إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب ، وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم . ثم إنه تعالى لما بين الطريقين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والإنذار العام فقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الذين آمنوا بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل لأنه هالك بقوله : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وكل ما هلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر أي من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرًا فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيًا بالآخر ، أما الآتي بالإيمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكارًا لله وكفرًا به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلاً بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلاً بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلاً بأن غير الله إله فيكون إثباتًا لغير الله وإيمانًا به .

المسألة الثانية: إذا كان الإيمان بما سوى الله كفرًا به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل : قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد؟ نقول : نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

المسألة الثالثة: هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله؟ نقول: نعم، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا: إنها من عند غير الله، يكون كمن رأى شخصًا يرمي حجارة، فقال: إن رامي الحجارة زيد، يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل؟ يقول: زيد، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمدًا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا: محمد هو الله تعالى، فيكون إيمانًا بالباطل، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذي هو الله ليس بإله فيكون كفرًا به، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد، فإنه أيضًا ينسب فعل الله إلى الغير، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها، فيظن أن راميها زيد فيقول: زيد هو رامي هذه الحجارة، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول: هو زيد، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال: رامي الحجارة زيد، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة، ويقولون بأنها من عند غير الله.

ثم قوله: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كذلك بأتم وجوه الخسران، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء ما أصلاً من المنافع، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣﴾

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهمًا لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم، وإلا لا يكون الخسران درهمًا بل نصف درهم، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] تهديد عظيم فقالوا: إن كان علينا عذاب فأتنا به، إظهارًا لقطعهم بعدم العذاب، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيمًا لا يكون متغيرًا منقلبًا، ولكونه رحيمًا لا يكون غضوبًا منزعجًا، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له

رحمة وحكمة، فيكون غضوبًا منقلبًا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم بالعذاب حين تستعيذون به منه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: ليأتينهم العذاب بغتة، لأن العذاب أقرب المذكورين، ولأن مسئولهم كان العذاب، فقال: إنه ليأتينهم، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أي الأجل، لأن الآتي بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة، وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الأجل آتيًا بغتة حكمة، وهي أنه لو كان وقته معلومًا، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمدًا على التوبة قبل الموت.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: تأكيد معنى قوله (بغتة) كما يقول القائل: أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر، فقوله: بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة.

والثاني: هو كلام يفيد فائدة مستقلة، وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً.

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ذكر هذا للتعجب، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له: هات ما تتوعدني به، فقال هاهنا: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم، فقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ أولاً إخبار عنهم وثانيًا تعجب منهم، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم.

فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لِمَ خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام؟ فنقول: لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم.

المسألة الثانية: قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ ولم يقل: من فوق رءوسهم، ولا قال: من فوقهم ومن تحتهم، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر (تحت) ولم يذكره عند ذكر (فوق)،

فنقول: لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤوس وسواء كان من موضع آخر عجيب، فلهذا لم يخصه بالرأس، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب، وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة: ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن عملهم كان سببًا لجعل الله إياه سببًا لعذابهم، وهذا كثير النظير في الاستعمال.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبًا للمؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج، حتى يقع الطلاق.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ نقول: ليس داخلاً في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ نقول: ليس داخلاً فيه لوجوه: أحدها: أن من قال في حقه: (عبادي) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلاً في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ الثاني: هو أن الخطاب بـ(عبادي) أشرف منازل المكلف، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسمًا عظيمًا وهو اسم الخلافة كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] والخليفة أعظم الناس مقدارًا وأتم ذوي البأس اقتدارًا، ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] ثم إن من أولاده الصالحين من سمي بـ(عبادي) فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال هو بلسانه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] فعلم أن المكلف إذا كان عبدًا لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]

واجتباه بهذا النداء، كما قال في حق داود: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة؟ فلا يدخل في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ إلا المؤمن. الثالث: هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فالمؤمن دعا ربه بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد: إلهي، وقول الله: عبدي، تأكدت بدعاء العبد، لكن الكافر لم يدع فلم يجب، فلا يتناول يا عبادي غير المؤمنين.

المسألة الثانية: إذا كان عبادي لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف، كما يقال: يا أيها المكلفون المؤمنون، ويا أيها الرجال العقلاء، تمييزًا عن الكافرين والجهال، فنقول: الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال: الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة، ومثل هذا قولنا: الله العظيم، وزيد الطويل، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون.

المسألة الثالثة: إذ قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾؟ فنقول: فيه فائدتان: إحداهما: المداومة أي: يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل، الثانية: الإخلاص أي: يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري.

المسألة الرابعة: الفاء في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك؟ فنقول: قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال: إذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني، وأما الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ فهو لترتيب المقتضى على المقتضي كما يقال: هذا عالم فأكرموه، فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله: ﴿فَإِيَّٰىَ﴾ وهو لنفسه يستحق العبادة قال ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾.

المسألة الخامسة: قال العبد مثل هذا في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقال عقيبه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] والله تعالى وافقه في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ ولم يذكر الإعانة نقول: بل هي مذكورة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان في غاية الإعانة.

المسألة السادسة: قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة، قلنا: لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض، فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك، وذلك لأن من يبني بيتًا للسكنى يدخل في ذهنه أولاً فائدة السكنى فيحمله على البناء، لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة، فنقول: الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود، فإن الإعانة قبل العبادة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان، فقال لهم: إن ما تكرهون لا بد من وقوعه فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ﴾ والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه، فإن إلى الله مرجعكم، وفيه وجه أرق وأدق، وهو أن الله تعالى قال: كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦] إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨] فإذًا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي تعلقوا بي، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال عليه السلام: «الْمُؤْمِنُونَ لاَ يَمُوتُونَ بَلْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ»(١) فعلى هذا الوجه أيضًا يتبين وجه التعلق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] فبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران، وبين أن فيها غرفًا تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذابًا أي نارًا، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئًا، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف، وذلك لأن المذكور في الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان، لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار، فيكون فوقه طبقات من النار، فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين، فلم يذكر فوقهم شيئًا إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠] لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار، وههنا ذكر من تحت

---

(١) ذكره بعض أهل التفسير غير الرازي كتفسير اللباب بغير إسناد.

غرفهم الماء، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقًا ما لم تكن في مسامتة الأقدام ومتصلة بها، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتذًا به، فقال في النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان، ومنها أن هناك قال: ذوقوا، لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق بعده، فإن من قال لأجيره: خذ أجرتك، يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه، وأما إذا قال: ما أتم أجرتك عندي أو نعم مالك من الأجر، يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا: خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] فإن قال قائل: ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع، قلنا: ليس كذلك لأن الله إذا قال: ذوقوا، دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائمًا ولا ينقص ولا يزداد، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئًا فلا يتركه مع ماأعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم وإليه الإشارة بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أي الذي يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذي يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام، وأما الخلود وإن لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء، بقي الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال.

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فإن فاته شيء فإنه يتوكل على حي باق، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب، فإن قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ كان لبيان أنه لا مانع من العبادة، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها. فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه، يترك الأوطان ويفارق الإخوان، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيئًا لغد، ويأتيها كل يوم برزق رغد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كأين لغات أربع (لاً) غير هذه (و) كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكي على دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير.

المسألة الثانية: كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب، لأن كأي يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلاً لا كأي رجل يكون، فقد حذف المضاف إليه ويقال: رأيت رجلاً لا كأي رجل، وحينئذ لا يكون كأي مركبًا، فإذا كان كأي ههنا مركبًا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولاً للفرق. وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزًا بينها وبين ثمت.

المسألة الثالثة: كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادرًا وكم يستعمل كثيرًا من غير من، يقال: كم رجلاً وكم من رجل، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأي التي ليست مركبة، وذلك لأن كأي إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال: رأيت رجلاً لا كأي من رجل، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق. قوله تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ قيل: لا تحمل لضعفها وقيل هي كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ بطريق القياس أي لا شك في أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا، فإن قال قائل: من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات في الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى، فنقول: الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظرًا إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظمًا ولحمًا وشحمًا، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذي يرزقها، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعًا من أنواع الغذاء حتى يوضع في فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك، فإن كثيرًا ما يكون البعير لا يعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك، فإن قال قائل، كيف يصح قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئًا وترك بقية يجدها غدًا، ما مد إليه أحد يدًا، والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدًا شيء؟ وأيضًا حاجات الإنسان كثيرة فإنه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضًا قوت الحيوان مهيأ وقوت الإنسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان

يجده وقت الحاجة، فنقول: نحن لا نقول إن الجمع يقدح في التوكل، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراكع الساجد غير متوكل، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده في الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل، ومن يصلي وقلبه مع ما في يد زيد وعمرو هو غير متوكل. وأما قوله: حاجات الإنسان كثيرة، فنقول: مكاسبه كثيرة أيضًا، فإنه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعي وغيره، وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي، وبفهمه كالمهندس والتاجر، وبعلمه كالطبيب والفقيه، وبقوة جسمه كالعتال والحمال، والحيوان لا مكاسب له، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غدًا أو بعد غد، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب، فهو أولى بالتوكل. وأيضًا الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه، فإن الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى، حتى إن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهرًا شاءوا أم أبوا، وليس كذلك حال الحيوان أصلاً، فإن الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه، فإذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سميع إذا طلبتم الرزق، يسمع ويجيب، عليم إن سكتم، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

نقول: لما بين الله الأمر للمشرك مخاطبًا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٥٦] وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشادًا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن، فإن السيد إذا كان له عبدان، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد، ينصح أولاً المفسد، فإن لم يسمع يقول معرضًا عنه، ملتفتًا إلى الرشيد: إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد، فإن قوله: هذا لا يستحق الخطاب، يوجب نكاية في قلبه، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه: إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده، يكون هذا الكلام أيضًا داعيًا له إلى سبيل الرشاد مانعًا له من ذلك الفساد، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن: العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون، وفي الآية لطائف: إحداها: ذكر في السماوات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، وذلك

لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء، فإذًا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما، الثانية: في لفظ التسخير، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافيًا، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين، فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان آلافًا من الفراسخ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة، والأخرى حركتها من المغرب إلى المشرق، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس، والشمس على أفق المغرب، والقمر على أفق المشرق، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا: الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون، ونحن نقول: لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] الثالثة: ذكر أمرين أحدهما خلق السماوات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين، ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض، ولا حقارة فوق حقارة الجماد، لأن الجماد دون الحيوان، والحيوان دون الإنسان، والإنسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات؟!

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها، وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلي البرهان فله العبادة، وإما لكونه ولي الإحسان والله يرزق الخلق فله الطول والإحسان والفضل

والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضًا، قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى كمال الإحسان، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن بإعطاء شخص شيئًا، فإذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك، وأما إن كان مختارًا بأن قال له الملك: إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكرًا تامًّا، وقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يضيق له إن أراد، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفي إثبات العلم ههنا لطائف:

إحداها: أن الرازق الذي هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجًا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان في نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الإطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى، أو لعدم علمه بجوع العبيد.

الثانية: وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ومن أنكرها كفر وهي أربعة: الحياة والقدرة والإرادة والعلم، وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعًا لا كافرًا، وقد استوفى الأربع، لأن قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى شمول علمه، والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حيًّا، ثم إنه تعالى لما قال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ذكر اعترافهم بذلك فقال:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب، فالرزق من الله، ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون كلامًا معترضًا في أثناء كلام كأنه قال: فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فذكر في أثناء هذا الكلام ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لذكر النعمة، كما قال القائل:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ(١)

الثاني: أن يكون المراد منه كلامًا متصلًا، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هي من الله، الثالث: أن يكون المراد

(١) هذا البيت للشاعر ابن الوردي وهو: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي. ٦٩١ - ٧٤٩هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٤٩م. شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب. وتنسب إليه اللامية التي أولها: (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) ا. هـ بتصرف.

أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فـ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور تناقضهم و﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا التناقض أو فساد هذا التناقض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الفرق بين اللهو واللعب، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر؟ فنقول: الفرق من وجهين أحدهما: أن كل شغل يفرض، فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى، فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق لهو، فالدنيا لعب أي إقبال على الباطل، ولهو أي إعراض عن الحق، الثاني: هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والإعراض عن غيره بالكلية، فالأول لعب والثاني لهو، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهي لأنها تلهي الإنسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول: بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة، وللبعض لَهْوٌ يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية.

المسألة الثانية: قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ [الأنعام: ٣٢] ولم يقل: وما هذه الحياة، وقال هاهنا: ﴿وَمَا هَٰذِهِ﴾ فنقول: لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] فقال (هذه) والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فنقول: لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو.

المسألة الرابعة: قال هناك: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ فنقول: لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوي فقال: ﴿ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوي فقال: لا حياة إلا حياة الآخرة، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحًا فحسب، ولو قال: هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء، يكون ترجيحًا مع المبالغة فكذلك هاهنا بالغ لكون المكلف متوغلاً فيها.

المسألة الخامسة: قال هناك: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] ولم يقل هاهنا إلا ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، لأن الآخرة خير للمتقي فحسب أي المتقي عن الشرك، وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم.

المسألة السادسة: كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك؟ فنقول: الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية، فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول: لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك.

المسألة السابعة: قال في سورة الأنعام: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال هاهنا: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيرًا وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هاهنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم وأرجاهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. وفيه وجهان:

أحدهما: أن اللام لام كي، أي يشركون ليكون إشراكهم كفرًا بنعمة الإنجاء، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم.

والثاني: أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد. كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وكما قال: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] فساد ما تعملون.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

التفسير ظاهر، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها، فنقول: الإنسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة إلى الله تعالى ذَكَّرَهم حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم، وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعني أنكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله، وهذا متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الإخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون إلا من الله كيف تكفرون بها؟ والأصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها في حال الأمن؟.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون، لأن الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وضع واحد شيئًا في موضع ليس هو موضعه يكون ظالمًا فإذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكًا فلو كان ذلك في حق ملك مستقل في الملك لكان ظلمًا يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك، وأيضًا من كذب صادقًا يجوز عليه الكذب يكون ظلمًا فمن يكذب صادقًا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله؟ فإذًا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالإلهية، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة، والآية تحتمل وجهًا آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: إني جئت بالرسالة وقلت: إنها من الله وهذا

كلام الله، وأنتم كذبتموني فالحال دائر بين أمرين: أما أنا مفتر متنبئ إن كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن ﴿جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ والمتنبئ كافر، وأنتم كذبتموني فجهنم مثواكم إذ هي مثوى للكافرين، وهذا حينئذٍ يكون كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى ما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ إشارة إلى الحسنى، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته، وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: الذين نظروا في دلائلنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي لنحصل فيهم العلم بنا. ولنبين هذا فضل بيان، فنقول: أصحابنا المتكلمون قالوا: إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق في الناظر علمًا عقيب نظره، ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا: النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية، وعلى هذا يكون الترتيب حسنًا، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والإيمان قال: إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال: من الناس من يكون بعيدًا لا يتقرب وهم الكفار، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبًا منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه؟ فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إشارة إلى الأول، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ إشارة إلى الثاني، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى الثالث.

والله أعلم بأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة العنكبوت

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنيةٌ كلُّها في أحد قولَي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلَّام أنها مكيةٌ إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: نزلت بين مكة والمدينة(١). وهي تسعٌ وستون آية(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾(٣) تقدَّم القولُ في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسمٌ للسورة. وقيل: اسمٌ للقرآن.

﴿أَحَسِبَ﴾ استفهامٌ أُريدَ به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن(٤). ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بـ«حَسِبَ» وفيه وَصِلتُها مقامُ المفعولين على قول سيبويه. و«أنَّ» الثانية من «أن يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأَنْ يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ أحَسِبُوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(٥). قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريشٍ يؤذونهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/ ٤١٢ وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧.

ويُعذِّبونهم على الإسلام، كسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسرٍ أبيه، وسُمية أمِّه، وعدةٍ من بني مخزوم وغيرِهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استُنكِرَ أن يُمكنَ اللهُ الكفارَ من المؤمنين؛ قال مجاهدٌ وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّيةً ومعلِّمةً أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية[1]: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقيةٌ في أمة محمد ﷺ، موجودٌ حكمُها بقية الدهر، وذلك أنَّ الفتنةَ من الله تعالى باقيةٌ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتُبِرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريشٍ هي ما ذكرناه من أمر العدوِّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مِهجَع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيلٍ من المسلمين يوم بَدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، فقال النبيُّ ﷺ يومئذٍ: «سيدُ الشهداء مِهْجَع، وهو أوَّلُ من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾[2]. وقال الشَّعبي: نزل مُفتتحُ هذه السورة في أُناسٍ كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيِّ ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبَلُ منكم إقرارُ الإسلام[3] حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحدٌ قاتلناه. فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾[4].

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، وما قبله منه ومن الوسيط٣/ ٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن يُقنع منهم أن يقولوا: إنَّا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقةُ إيمانهم[١]؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل أُلقي في النار، وكقومٍ نُشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه[٢]. وروى البخاري[٣] عن خَبَّاب من الأرت: قالوا شكَونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجعَلُ فيها، فيُجاء بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُجعَلُ نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرِفُه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ[٤] هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَمَوت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجِلون». وخرَّج ابن ماجه[٥] عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدْتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ ويُضعَّفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثم الصالحون؛ أن كان أحدُهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاَّ العباءَةَ يَجوبُها[٦]، وأن كان أحدُهم لَيفرحُ بالبلاء كما يَفرحُ أحدُكم بالرَّخاء». وروى سعد بن

---

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ٢/ ١٥٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٢-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنَّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٢/ ٤٩٠ وقال: أي: يجعل لها جيباً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُحوِّيها». والتَّحوية فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول سنام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عنقه.

أبي وقَّاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينهِ، فإنْ كان في دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُليَ على حسب دينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١]. وروى عبد الرحمن بن زيد أنَّ عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتُ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجِدْ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»[٢]. وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريِّين: إذا سُلِكَ بكَ سبيلُ البلاء فقرَّ عيناً، فإنه سُلِكَ بِكَ سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بِكَ سبيلُ الرَّخاء فابْكِ على نفسك، فقد خُولِفَ بِكَ عن سبيلهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فليَرَينَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٤] وغيرها. قال الزجَّاج: ليعلمَ صدقَ الصادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد عَلِمَ الصادقَ من الكاذبِ قبل أن يخلُقَهما، ولكنِ القصدُ قصدُ وقوعِ العلم بما يُجازى عليه[٥]. وإنما يعلم صدقَ الصادقِ واقعاً كائناً وقوعُه، وقد علِمَ أنه سيقع. وقال النحَّاس[٦]: فيه قولان: أحدهما ـ أن يكون «صَدَقُوا» مشتقًّا من الصِّدق و«الكاذبينَ» مشتقًّا من الكَذِب الذي هو ضِدُّ الصِّدق، ويكون المعنى: فلَيُبيِّنَنَّ اللهُ الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثلَ ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غيرَ ذلك. والقول الآخر ـ أن يكون صدَقوا مشتقًّا من

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٧ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٧١ .

(٤) ٣/ ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧-٢٤٨ .

الصِّدق: وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقًّا من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ اللهُ الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِه صَدَقَا[١]

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليُبيِّنَنَّ مَجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضمِّ الياء وكسر اللام[٢]، وهي تُبيِّنُ معنى ما قاله النحَّاس. ويَحتملُ ثلاثةَ معان: الأوَّل ـ أن يُعلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني ـ أن يكون المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً تقديرُه: فليُعلمنَّ الناسَ والعالَمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث ـ أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أسرَّ سريرةً ألبَسَهُ اللهُ رداءَها»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي:

---

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٥٤ . عَثَّر: بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٩ ، والشاذة ص١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٦/ ٢٥٥ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦ . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ﵁، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥ : فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٠/ ١٢٧ من حديث عثمان بن عفان ﵁. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٥٠ : قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح .

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل[١]. ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوقٌ والله القادر على كلِّ شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفعٍ بمعنى ساء الشيء، أو الحكمُ حكمُهم. وهذا قول الزجَّاج. وقدَّرها ابنُ كيسان تقديرين آخرين خلاف ذَيِنِكَ: أحدهما ـ أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيءٍ واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعتَ، أي: صنيعُكَ، فـ«ما» والفعل مصدرٌ في موضع رفع، التقدير: ساء حُكمُهم. التقدير: ساء حُكمُهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضعَ لها من الإعراب، وقد قامت مقامَ الاسمِ لِساء، وكذلك نِعْمَ وبِئْسَ. قال أبو الحسن بن كَيْسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كلِّ ما أقدِرُ عليه، نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة: ١٣] وكذا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] «ما» في موضع خفضٍ في هذا كلِّه وما بعده تابعٌ لها، وكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] «ما» في موضع نصبٍ و«بَعُوضَةً» تابعٌ لها[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ «يَرْجُو» بمعنى: يخاف، من قول الهُذَليّ في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[٣]

وأجمع أهل التفسير على أنَّ المعنى: من كان يخافُ الموت فليعمل عملاً صالحاً

(١) الوسيط ٣/ ٤١٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٨، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٢. وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفَها في بيت نُوبٍ عواملِ. وقد سلف ٣/ ٤٣٣.

فإنه لابُدَّ أن يأتيه. ذكره النحَّاس[١]. قال الزجَّاج: معنى «يَرجُو لِقَاءَ الله» ثواب الله[٢]، و«من» في موضع رفعٍ بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ أي: ومَنْ جاهد في الدِّين، وصبرَ على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، أي: ثوابُ ذلك كلُّه له، ولا يرجع إلى الله نفعٌ من ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم. وقيل: المعنى: مَنْ جاهدَ عدوَّه لنفسه لا يريد وجهَ اللهِ فليسَ لله حاجةٌ بجهاده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: لنُغطِّينَّها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم كلُّ معصيةٍ عملوها في الشرك، ويُثابوا على ما عملوا من حسنةٍ في الإسلام[٤]. ويَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم سيئاتُهم في الكفر والإسلام، ويُثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ نزلت في سعد بن أبي وقَّاص فيما روى التِّرمذيُّ قال: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ فذكَر قصةً؛ فقالت أمُّ سعد: أليسَ قد أمرَ الله بالبرِّ؟! واللهِ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أموتَ أو تكفر. قال: فكانوا إذا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣٤٠ .

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها[(١)]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(٢)]. وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ بارًّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدَعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقِيَتْ يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلك أكلَتَ ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية[(٣)]. وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلَتْ أمُّه مثلَ ذلك[(٤)]. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلاَّ صِدِّيق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناه حُسناً. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناه بالحُسن، كما تقول: وصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعل حسناً فيُقَدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونا ... ومن أبي دَهْمَاءَ إذ يُوصينا

خيراً بها كأنَّما خافونا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيراً، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ [ص: ٣٣] أي: يمسحُ مَسْحاً. وقيل: تقديره: ووصَّيناه أمراً ذا حُسنٍ، فأُقيمتِ الصِّفةُ مقامَ الموصوف، وحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه[(٥)]. وقيل: معناه: ألزمناه حسناً[(٦)].

(١) أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْر: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ٤/ ١٨٧٨ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٧، والوسيط ٣/ ٤١٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٧، وزاد المسير ٦/ ٢٥٧ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧٦ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحَّاك: بفتح الحاء والسين[١]. وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أُبيّ[٢]، التقدير: ووصَّينا الإنسانَ أن يُحسنَ إليهما إحساناً[٣]، ولا ينتصبُ بوصَّينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرُّكِ النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغةٌ على معنى: فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصَّلَ للمؤمن هذا الحكم تحصَّلَ ثمرتُه وجزاؤه وهو الجنة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنَّا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه[٥]. وقيل: جزِعَ من ذلك كما يجزَعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذيَّةِ في الله[٦]. ﴿وَلَئِن جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

(١) الشاذة ص١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٦/٢٥٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٠٨، وزاد المسير ٦/٢٥٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.

(٣) إعراب القرآن ٣/٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٠٨.

(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.

(٦) الوسيط ٣/٤١٤.

صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: اللهُ أعلَمُ بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناسٍ كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتُتِنوا[١]. وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك[٢]. وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحِقَهم المشركون، فافتتنَ بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم[٣]. وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرِبَ، فارتَدَّ. وإنما عذَّبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحَسُنَ إسلامه[٤]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر[٦]. قال الفرَّاء والزجَّاج: هو أمرٌ في تأويل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، وزاد المسير ٦/ ٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ٨/ ٣٦٥، وهو في زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٥-٩٦ عن عكرمة. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢، ومجمع البيان ٢/ ٣٣٩.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢.

الشرط والجزاء، أي: إن تتَّبعوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، كما قال:

فـقـلـتُ ادعِـي وأدعُ إنَّ أنـدَى لِـصَـوتٍ أن يُـنَـاديَ داعـيـانِ[1]

أي: إن دعوتِ دعوتُ[2]. قال المهدويّ: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعدَه على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا. أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم[3]. والحمل هاهنا بمعنى الحَمالة لا الحمل على الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة[4].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبيّ ﷺ، وقد تقدَّم في «آل عمران»[5]. قال أبو أمامة الباهلي: «يُؤتى بالرجل يومَ القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزالُ يقتَصُّ منه حتى تفنى حسناتُه، ثم يُطالبُ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصُّوا من عبدي. فتقول الملائكة: ما بَقِيَتْ له حسناتٌ. فيقول: خُذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وِزْرُها وَوِزرُ مَن عملَ بها ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٧/ ٣٣ إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٢/ ٩٠ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ ، واللسان (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩-٢٥٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ .

(٥) ٥/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥][(١)]. ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها وَوِزرُ مَنْ عملَ بها بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء»[(٢)] ورُوِيَ من حديث أبي هريرة وغيره[(٣)]. وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِلَ به فله مثلُ أجورِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها بعدَه فعليه مثلُ أوزارِ مَنْ عملَ بها ممن اتَّبعه لا يَنقُصُ ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾[(٤)].

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم[(٥)]. ونصُّ حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أوزارِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ من أوزارهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ فإنَّ له مثلَ أجور مَنِ اتَّبعَه ولا يَنقُصُ من أجورهم شيئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن[(٦)]. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير[(٧)]. وقد قيل: إنَّ المرادَ أعوانُ الظَّلمة. وقيل: أصحابُ البدع إذا اتُّبِعوا عليها. وقيل: مُحدِثو السنن الجائرة إذا عُمِلَ بها من بعدهم[(٨)]. والمعنى متقاربٌ، والحديث يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢١٦-٢١٧ . وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ. وقد سلف ٣/٣٣٦ .

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جرير ﷺ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوحٍ تسليةً لنبيِّه ﷺ، أي: ابتُلِي النبيون قبلَكَ بالكفار فصبروا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى أهل[1] الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[2]. وأنه لم يلقَ نبيٌّ من قومه ما لقيَ نوحُ على ما تقدَّم في «هود» عن الحسن. ورُويَ عن قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوّلُ نبيٍّ أُرسِلَ نوح»[3] قال قتادة: وبُعِثَ من الجزيرة[4]. واختُلِفَ في مبلَغِ عمره، فقيل: مبلَغُ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبِثَ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة[5]. وقال ابن عباس: بُعِثَ نوحُ لأربعين سنة، ولبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثُرَ الناس وفشَوا[6]. وعنه أيضاً: أنه بُعِثَ وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً[7]، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمِّرَ نوحُ ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأحبار: لبِثَ نوحُ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين

---

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١١/ ١٢٩ .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٣ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨ . وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٥ . وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطُّوفان سبعين عاماً، فكان مبلَغُ عمره ألفَ سنةٍ وعشرين عاما[١]. وقال عون بن أبي شدَّاد: بُعِثَ نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبِثَ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغُ عمره ألفَ سنةٍ وستَّ مئة سنة وخمسين سنة[٢]. ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لمَّا أتى ملَكُ الموت نوحاً ليقبضَ روحه قال: يا نوحُ، كم عشْتَ في الدنيا؟ قال: ثلاث مئةٍ قبل أن أُبعث، وألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطُّوفان. قال ملَكُ الموت: فكيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثلَ دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا[٣]. ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا بَعثَ الله نوحاً إلى قومه بعثَه وهو ابن خمسين ومئتي سنة، فلبثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطُّوفان خمسين ومئتي سنة، فلَّما أتاه ملَكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيتَ الدنيا؟ قال: مثلَ رجلٍ بُنيَ له بيتٌ له بابان، فدخل من واحدٍ وخرجَ من الآخر» وقد قيل: «دخلَ من أحدهما وجلسَ هُنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر»[٤]. وقال ابن الورد[٥]: بَنَى نوحٌ بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيتَ غير هذا. فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت[٦]. وقال أبو المهاجر: لبثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً في بيتٍ من شَعر، فقيل له: يا نبيَّ الله، ابنِ بيتاً. فقال: أموتُ اليوم[٧]، أموتُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ ، وسلف مختصراً ٩/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨١ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٦٣/ ٢٨١ .

(٥) في (د) و(م): الوردي، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً[١]. وقال وهب بن مُنبِّه: مرَّتْ بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقرَبِ النساءَ وَجَلاً من الموت[٢]. وقال مقاتل وجُويبر: إنَّ آدم عليه السلام حين كبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولَدَ لكَ ولدٌ مختون. فوُلِدَ له نوحٌ بعد عشرةِ أبطُنٍ، وهو يومئذٍ ابنُ ألف سنةٍ إلاَّ ستين عاماً. وقال بعضهم: إلاَّ أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنَّما سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم[٣]. ووُلِدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. وولَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير[٤]. وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأُدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولَدِ يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسمِّيه يام[٥]. وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه ناحَ على قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهم[٦]. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخبير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمُه يشكُر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأيُّ شيءٍ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلبٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٩ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٢ .

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/ ٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ٦٩ و٤٢٧ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﷺ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تتمة قول مقاتل وجويبر الآنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحَه! فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنتَ أحسنَ من هذا». وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نوحاً لطول ما ناحَ على نفسه[١]. فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما ـ أنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكرُه الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني ـ ما رُوي أنه أُعطيَ من العمر ألفَ سنة، فوهبَ من عمره خمسين سنةً لبعض ولده، فلمَّا حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر اللهُ تعالى ذلك تنبيهاً على أنَّ النَّقيصةَ كانت من جهته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبير وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. روَته عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفـنـاهـمُ طـوفـانُ مـوتٍ جـارفُ[٢]

قال النحَّاس[٣]: يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طُوفان.

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«ألْفَ سَنَةٍ» منصوبٌ على الظرف «إلَّا خَمسِينَ عَامًا» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنًى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنَّك قلت: استثنيتُ زيداً[٤].

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نَجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيَّب، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٥١ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٤١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧١ ، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢١٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٠ و٢٥٢ .

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضْلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثتُ معكَ ما لبِثَ نوحٌ في قومه ما بلَغْتُ لكَ فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء(٢). ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الكسائي: «وإبرَّاهيمَ» منصوبٌ بـ«أنجَينا» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُرْ إبراهيم(٤). ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتَّقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٥).

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ٢/ ١٨٩، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ١٣٧-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: أصناما[١]. قال أبو عبيدة: الصَّنم: ما يُتَّخذُ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارة[٢]. الجوهري: الوثن: الصنم والجمع وُثنٌ وأوثانٌ، مثل أُسُد وآساد[٣]. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن: معنى «تَخلُقُونَ»: تنحتون[٤]. فالمعنى: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها[٥]. وقال مجاهد: الإفك: الكذب[٦]. والمعنى: تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب[٧]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتخَلَّقُونَ»[٨]. وقُرِئ: «تُخلِّقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَّق و«تَخَلَّقُونَ» من تخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرَّص. وقُرِئ: «أَفِكًا» وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فَعِل أي خَلِقاً أَفِكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل[٩]. و«أوثَانًا» نُصِبَ بِـ«تَعبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوثانٍ على أن تُجعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ و«تَعبُدُونَ» صِلتُه، وحُذفتِ الهاء لطول الاسم، وجُعِلَ أوثان خبر إنَّ. فأمَّا «وتَخلُقُونَ إفكًا» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير[١٠]. وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾أي: اصرفوا رغبتَكم في أرزاقكم إلى الله، فإيَّاه فاسألوه وحدَه دون غيره.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ . ونسبه في زاد المسير ٦/ ٢٦٤ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٤ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦٠ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٠١ . وقراءة: «تُخلِّقون» لم نقف عليها عند غير المصنِّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفِكًا» في المحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢-٢٥٣ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول[١] إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ قراءةُ العامَّة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لِذكْرِ الأمم، كأنه قال: أوَلَم يرَ الأممُ كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثَّاب وحمزة والكسائي: «تروْا» بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾[٢]. وقد قيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ خطابٌ لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أوَ لَم يروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الثمارَ فتحيا، ثم تفنى، ثم يُعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولدِ ولداً، وكذلك سائر الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرتَه على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: سيروا في الأرض

---

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوتِ هيئاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمالَ قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين[1]، وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشِبْهِه[2]. الجوهري: أنشأه اللهُ خلقَه، والاسم النَّشأة، والنَّشاءة بالمدِّ عن أبي عمرو بن العلاء[3]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتُرَدُّون[4].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله. وهو غامضٌ في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان[5]:

فَمَنْ يَهْجو رسولَ اللهِ منكم ... ويَمْدحُهُ ويَنصرُهُ سَواءُ

أرادَ: ومَنْ يمدحه وينصره سواء، فأضمرَ مَنْ[6]. وقاله عبد الرحمن بن زيد[7]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له. والمعنى: إنَّ الله لا يُعجِزُه أهلُ الأرض في الأرض ولا أهلُ السماءِ إن عَصَوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا، بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صارَ إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

(١) السبعة ص٤٩٨ ، والتيسير ص١٧٣ .
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ .
(٣) الصحاح (نشأ).
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ .
(٥) في ديوانه ص٦٤ .
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ .
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢ .

السماء[1]. وقال المبرِّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةً لها، فأُقيمتِ الصفةُ مقام الموصوف. وردَّ ذلك عليُّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلابُدَّ مِنْ وَصْفِها، فصِفَتُها كالصِّلة، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلة؛ قال: والمعنى: إنَّ الناسَ خُوطبوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُم الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨][2]. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِن» زائدة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: من الجنة، ونسبَ اليأسَ إليهم والمعنى: أُويِسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتَّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرِقْه بعد ما أُلقِيَ فيها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أنْ قَالُوا» في محلِّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: «جَوَابُ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أنْ» في موضع الخبر نصباً[3].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةُ

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢ . ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم نقف عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنِكُمْ»[١]. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثّاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَينَكُم»[٢]. الباقون. «مَوَدَّةً بَينَكُم». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجّاج منها وجهين: أحدهما ـ أنَّ المودة ارتفعت على خبر إنَّ، وتكون «ما» بمعنى الذي. والتقدير: إنَّ الذي اتَّخذتموه من دون الله أوثاناً مودَّةُ بينِكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ، أي: هي مودَّةٌ، أو تلك مودَّةُ بينِكم. والمعنى: آلهتكم أو جماعتكم مودَّةُ بينِكم[٣]. قال ابن الأنباري: «أوثَاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفعَ المودَّةَ بإضمار ذلك مودَّة بينكم، ومن رفعَ المودَّةَ على أنها خبرُ إنَّ لم يقف[٤]. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالابتداء و«فِي الحيَاةِ الدُّنيَا» خبره؛ فأما إضافة «مَوَدَّةُ» إلى «بَيْنَكُم» فإنه جعل «بَينَكُم» اسماً غير ظرف، والنَّحويُّون يقولون: جعله مفعولاً على السَّعة. وحكى سيبويه: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار. ولا يجوز أن يُضافَ إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذِكْرُها. ومن رفعَ «مَوَدَّةٌ» ونوَّنَها فعلى معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُم» بالنصب ظرفاً[٥]. ومن نصب «مَوَدَّةَ» ولم ينوِّنْها جعلها مفعولةً بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنَّما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي[٦]. ويجوز نصبُ المودَّة على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُكَ ابتغاءَ الخير، وقصدتُ فلاناً مودَّةً له. «بينكم» بالخفض[٧]. ومن نوَّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذُكِرَ «بَيْنَكُم»

---

(١) السبعة ص٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص١٧٣ .

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص١١٥ ، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم: «مودَّةً بينَكم»، وهي قراءة نافع وابن عامرٍ أيضاً. السبعة ص٤٩٩ ، والتيسير ص١٧٣ . قلنا: وقد نسب ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/ ٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن أبي عبلة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٧ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ . وقول سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ .

بالنصب من غير إضافة[١]. قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةً بَينَكُمْ» و«مَوَدَّةَ بَينِكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقفَ على «الحياة الدنيا»[٢]. ومعنى الآية: جعلتُم الأوثانَ تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عُبَّادها والرؤساء من السَّفلة[٣]، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبَدةِ الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولُوطٌ أوَّلُ مَنْ صدَّق إبراهيمَ حين رأى النارَ عليه برداً وسلاماً[٤]. قال ابن إسحاق: آمنَ لوطٌ بإبراهيمَ وكان ابنَ أخته، وآمنت به سارَّة وكانت بنتَ عمِّه[٥]. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النَّخعيُّ وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ هو إبراهيم عليه السلام[٦]. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قريةٌ من سواد الكوفة إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة[٧]. قال الكلبي: هاجر من أرض حرَّان إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٥.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لوطٌ عليه السلام[١]. ذكر البيهقيُّ عن قتادة قال: أوَّلُ مَنْ هاجر إلى الله عزَّ وجلَّ بأهله عثمان بن عفان ﷺ. قال قتادة: سمعتُ النَّضرَ بن أنس يقول: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعهُ رقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهم، فقَدِمتِ امرأةٌ من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ خَتنكَ ومعه امرأتُه. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتِهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبَّابة[٢] وهو يسوقُها، فقال رسول الله ﷺ: «صحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأوّلُ مَنْ هاجر بأهلِه بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مَبعثِ رسول الله ﷺ[٣]. ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني[٤]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم. وتقدَّم الكلامُ في الهجرة في «النساء»[٥] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: مَنَّ الله عليه بالأولاد، فوهبَ له إسحاق ولداً ويعقوبَ ولدَ ولدٍ. وإنما وهبَ له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من صُلبه. ووحَّدَ الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارةٌ عن الجمع، فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمدٍ من ولده ﷺ وعليهم أجمعين[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.

(٢) أي: الضِّعاف التي تدِبُّ في المشي ولا تسرع. النهاية (دبب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٧. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والآحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨١: فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٦٨.

(٥) ٧/ ٦٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٥٥ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه. قاله عكرمة. وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جُبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلّها تدَّعيه وتقول: هو مِنَّا. فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢] أي: عاقبةً وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أنَّ أهل كلِّ دينٍ يتولَّونه[١]. وقيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ أكثرَ الأنبياء من ولده[٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ داخلاً في الصِّلة وإنما هو تبيين[٣] وقد مضى في «البقرة»[٤] بيانُه. وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدِّينِ الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ٢/ ٤٠٦.

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ[١]. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبِّخاً أو مُحذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدَّم القراءة في هذا وبيانُها في سورة «الأعراف»[٢]. وتقدَّم قصة لوطٍ وقومِه في «الأعراف»[٣] و«هود»[٤] أيضاً.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطْعُ النَّسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء[٥].

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذِفون الناس[٦] بالحصى، ويستَخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم[٧]. وروتْه أمُّ هانئ عن النبيِّ ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسول الله ﷺ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذِفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٨]، وذكره النحَّاس والثعلبي والمهدي والماوردي[٩]. وذكر الثعلبي:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥.

(٢) ٩/ ٢٧٨.

(٣) ٩/ ٢٧٣ فما بعد.

(٤) ١١/ ١٧٣ فما بعد.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨٢

(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥.

(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والنكت والعيون ٤/ ٢٨٢ ولم يسُق لفظه.

وقال معاوية قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قومَ لوطٍ كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلِّ رجلٍ قصعةٌ فيها الحصى للخذف، فإذا مرَّ بهم عابرٌ قذفوه، فأيُّهم أصابَه كان أولى به» يعني: يذهَبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم[١]. وقال منصور عن مجاهد[٢]: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضُهم يرى بعضاً[٣]. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية[٤]: وقد توجد هذه الأمور في بعض عُصاةِ أمة محمدٍ ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرةٌ من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع[٥]، والعمامةُ التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورميُ الجُلاهِق[٦]، والصفير، والخذف، واللُّوطية[٧]. وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوطٍ كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتُم بعضُهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرد والشِّطرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالدِّيَكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحِنَّاء، وتتشبَّه الرجالُ بلباس النساء، والنساءُ بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلِّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطيةُ

---

(١) أخرجه الطبري ٨/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٩١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٤٦٦ مختصراً.

والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج فقالوا: ﴿أْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدِرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كَذِبه. وليس يصِحُّ في الفطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا. ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أوّلاً مبشِّرين بنصرة لوطٍ على قومه حسبما تقدَّم بيانُه في «هود»[1] وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنْجِينَّه وأهلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وأهلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أَنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدَّم[2]. وقرأ ابن عامر: ﴿إِنَّا مُنَزِّلونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف[3]. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أُبقيت[4]. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجَمُ بها قومٌ من هذه الأمة[5]. وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الخَرِبة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض[6]. وكلٌّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

---

(١) ١١/ ١٨٥ .

(٢) ٨/ ٤١٣ .

(٣) السبعة ص٥٠٠ ، والتيسير ص٩٠ و١٧٣ ، والنشر ٢/ ٢٥٩ . وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«مُنجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٣٩٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٨ .

ذِكرُهم وفسادُهم في «الأعراف»[١] و«هود»[٢].

﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال يونس النَّحوي[٣]: أي: اخشوا الآخرةَ التي فيها الجزاء على الأعمال[٤]. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُثُوُّ والعِثيُّ أشدُّ الفساد. عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد[٥]. وقد تقدَّم[٦]. وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوَّل السورة، أي: ولقد فتنَّا الذين من قبلهم وفتنَّا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليّ أن يكون معطوفاً على «فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجَّاج أن التقدير: وأهلكنا عاداً وثموداً[٧]. وقيل: المعنى: واذكُرْ عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذَّبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذَّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحِجْرِ والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم، فَحُذِفَ فاعلُ التبيُّن[٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة.

---

(١) ٩/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ١١/ ١٩١-١٩٧.

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ. الكاشف ٢/ ٤٠٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٩ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٥٠.

(٦) ٩/ ٢٦٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٨.

(٨) الوسيط ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧١-٢٧٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق[(١)]. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحقَّ من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنَّه إنَّما يُقال: فلانٌ مستبصِرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة[(٢)]. قال الفرَّاء[(٣)]: كانوا عقلاءَ ذَوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيَّنَ لهم أن عاقبتَهم العذاب[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ﴾ قال الكسائي: إن شئتَ كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفِرعونَ وهامان[(٥)]. وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الحقِّ وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين[(٦)]. وقيل: سابقين في الكفر[(٧)]. بل قد سبقهم للكفر قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ قال الكسائي: «فَكُلًّا» منصوبٌ بـ«أخذْنا»[(٨)] أي: أخذنا كُلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

والحاصب: ريحٌ يأتي بالحصباء وهي الحصى الصِّغار(١). وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ قوم نوح وقوم فرعون(٢). ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وقفٌ تام، ثم قصَّ قِصَّتها فقال: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «اتَّخَذَتْ بَيتاً» صلةٌ للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يَحسُنُ الوقفُ على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلةٌ للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفرَّاء: هو مثلٌ ضربَه الله سبحانه لمنِ اتَّخذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه؛ كما أنَّ بيتَ العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً. ولا يَحسُنُ الوقفُ على العنكبوت؛ لأنه لمَّا قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشُبِّهتِ الآلهةُ التي لا تنفع ولا تضرُّ به(٣).

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت(٤) ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ﴾ قال الضحاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٨.

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبَّهها ببيت العنكبوت[١]. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «لَوْ» متعلقةٌ ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أنَّ عبادة الأوثان كاتِّخاذِ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأنَّ هذا مثَلُهم لَمَا عبدوها، لا أنَّهم يعلمون أنَّ بيت العنكبوت ضعيف[٢]. وقال النُّحاة: إنَّ تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفرَّاءُ تذكيرها وأنشد:

علـى هَـطَّـالِـهـمْ مـنـهـم بُـيـوتٌ كـأنَّ الـعـنـكـبـوتَ قـدِ ابـتـنـاهـا[٣]

ويُروى:

علـى أهـطـالـهـم مـنـهـم بـيـوتٌ

قال الجوهري: والهَطَّال: اسم جبل[٤]. والعنكبوت: الدُّوَيِّبةُ المعروفةُ التي تنسج نسجاً رقيقاً مُهلهلاً بين الهواء[٥]. ويُجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأعكُب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنكَب[٦] وعَكَنْبَاة[٧]؛ قال الشاعر:

كـأنَّـمـا يَـسـقـطُ مـن لُـغَـامِـهـا[٨] بـيـتُ عَـكَـنْـبَـاةٍ عـلـى زِمَـامِـهـا

وتُصغَّر فيقال: عُنَيكِب[٩]. وقد حُكي عن يزيد بن مَرْثد[١٠] أنَّ العنكبوت شيطانٌ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى[١]. وقال عطاء الخراساني: نسجَتِ العنكبوتُ مرتين مرةً على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرةً على النبيِّ ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها[٢]. ويُروى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْجِ العنكبوت، فإنَّ تركَه في البيوت يُورِثُ الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤]، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى[٥]، والمعنى: إنَّ الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذِكْرِ الأممِ قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذُكِرَ في «البقرة»[٧] و«الحج»[٨] وغيرهما ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نُبيِّنُها ﴿لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العالمُ مَنْ عقَلَ عن الله، فعمِلَ بطاعتِه، واجتنب سخطَه»[٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢/ ٢٤٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٦) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ ، والنشر ٢/ ٣٤٣ .

(٧) ١/ ٣٦٥ .

(٨) ١٤/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨ . والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة[1] والدُّؤوب عليها. وقد مضى في «طه»[2] الوعيدُ فيمن أعرضَ عنها، وفي مقدِّمة الكتاب[3] الأمرُ بالحضِّ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ وأمَّتِهِ، وإقامةُ الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهُّدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»[4] فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٤٣، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠. وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ١/ ٢٠٢. ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢١٩ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٤/ ١٥٧.

(٣) ١/ ٦ فما بعد.

(٤) ١/ ٢٥٣ فما بعد.

الصلاة الخمس هي التي تكفِّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلِكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[1]. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن[2]. والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين»[3] يريد قراءةَ الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي: العبدُ مادامَ في صلاته لا يأتي فحشاءَ ولا منكراً، أي: إنَّ الصلاةَ تنهى ما دمتَ فيها. قال ابن عطية[4]: وهذه عُجمةٌ، وأينَ هذا ممَّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي مع النبيِّ ﷺ ولا يدَعُ شيئاً من الفواحش والسرقة إلَّا رَكِبَه، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ الصلاةَ ستنهاه» فلم يلبَثْ أن تابَ وصلحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم؟»[5].

وفي الآية تأويلٌ ثالث، وهو الذي ارتضاه المحقِّقون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المرادُ بـ«أقِمِ الصَّلاةَ» إدامتُها والقيامُ بحدودها، ثم أخبر حُكماً منه بأنَّ الصلاة تنهى صاحبَها وممتثِلَها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لِما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغَلُ كلَّ بدن المصلِّي، فإذا دخل

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٣) وقد سلف ١/ ١٤٥-١٤٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلّي في محرابه وخشعَ وأخبَتَ لربِّه وادَّكر أنه واقفٌ بين يديه، وأنه مُطَّلعٌ عليه ويراه، صلُحَتْ لذلك نفسُه وتذلَّلت، وخامَرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتُها، ولم يكَدْ يفتر من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنَّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسَه أنَّ هذا ربما يكون آخرَ عمله، وهذا أبلَغُ في المقصود وأتَمُّ في المراد؛ فإنَّ الموت ليس له سِنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلافَ فيه. ورُويَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفَرَّ لونُه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقفٌ بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولابُدَّ عن الفحشاء والمنكر، ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكُّرَ ولا فضائل، كصلاتنا ـ وليتَها تُجزئ ـ فتلك تترك صاحبَها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةِ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركَتْه الصلاةُ يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَّج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلاَّ بُعداً(١). وقد رُويَ أنَّ الحسنَ أرسله عن النبي ﷺ وذلكَ غيرُ صحيح السند(٢). قال ابن عطية(٣): سمعت أبي ﷺ

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص١٩٩، والطبري ١٨/ ٤٠٩، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٠٨ عن ابن عباس ﷺ. والطبري ١٨/ ٤١٠ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٠٩، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص٤٠.

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق ليث ـ وهو ابن أبي سليم ـ عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قرَّرنا ونُظِرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعِدُه من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثِّر في تقريبه من الله، بل تتركُه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبُعد، فلم تزِدْه الصلاةُ إلاَّ تقريرَ ذلك البُعدِ الذي كان بسبيله[١]؛ فكأنَّها بعَّدته حين لم تَكُفَّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفعُ إلاَّ مَنْ أطاعها[٢].

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزِدْه من الله إلاَّ بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلاَّ مقتاً» إشارةٌ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قَدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لِينتَهِ المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنَّها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي: ذِكْرُ الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكرِكم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرَّة وسلما والحسن[٣]، وهو اختيار الطبري[٤]. ورُويَ مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ قال: «ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكرِكم إيَّاه»[٥]. وقيل: ذِكْرُكم

---

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، والطبري ٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وأحمد في الزهد ص٢٦٧، والطبري ١٨/ ٤١٤. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤١١-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٢/ ٤٠٩. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤ عن أبي الدرداء، و١٨/ ٤١٤ عن أبي قرة، و١٨/ ٤١٣ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٤١٧.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠. وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٦.

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء[١]. وقيل: المعنى: إنَّ ذِكْرَ الله أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر[٢]. وقال الضحَّاك: ولَذِكرُ الله: عند ما يُحرِمُ فيتركُ أجَلَّ الذِّكر. وقيل: المعنى ولذِكرُ الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير[٣]. وقال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر[٤]. وقيل: ذِكرُ الله يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يُخالِفه[٥]. قال ابن عطية[٦]: وعندي أنَّ المعنى: ولَذِكرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلَّا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له. وثوابُ ذلك أنْ يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[٧] والحركات التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في نهي، والذِّكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغِه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وذِكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضةُ الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثِّ على المراقبة.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٧) سلف ١٤/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمةٌ فيجوز مجادلةُ أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم، وإلاَّ فكلُّهم ظَلَمةٌ على الإطلاق[١]. وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومَنْ آمن معه[٢]. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمنْ كفرَ وغدرَ من قريظة والنَّضِير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة[٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨][٤] فهؤلاء المشركون[٥]. قال النحّاس وغيره: من قال

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نتبيَّنها.

هي منسوخة، احتجَّ بأنَّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولُ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول(١). واختار هذا القول ابن العربي(٢). قال مجاهد وسعيد بن جُبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري(٤) عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم وقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦]». وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»(٥). وفي البخاري(٦): عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاويةَ يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لَنبلُو عليه الكذب.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٦ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠ ، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٢/ ٤١٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١ . وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ١٨/ ٤٢٣ من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائدٌ إلى الكتاب، وهو القرآن المُنَزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليكَ في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنتَ ممَّن يقرأُ كتاباً، ويَخطُّ حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يخُطُّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية[١]؛ قال النحَّاس[٢]: دليلاً على نبوَّتِه لقريش؛ لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهلَ الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالتِ الرِّيبةُ والشَّكُّ.

الثانية: ذكر النقَّاش في تفسير هذه الآية عن الشَّعبي أنه قال: ما ماتَ النبيُّ ﷺ حتى كتب[٣]. وأسندَ أيضاً حديثَ أبي كَبشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفةً لعُيينَةَ[٤] بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية[٥]: وهذا كلُّه ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعلي: «اكتُبِ الشَّرطَ بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١-٣٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ ، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتُبْ: محمدُ بن عبد الله. فأمرَ عليًا أن يمحوَها، فقال عليٌّ: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانَها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله[1]. قال علماؤنا ﷺ: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله - ﷺ - بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهرَ من هذا، فقال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فكتب[2]. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[3]. فقال جماعةٌ بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي، ورأوا أنَّ ذلك غيرُ قادحٍ في كونه أُميًا، ولا مُعارِضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا لقوله: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[4] بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلكَ أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنَّما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومُها ابنُ عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلين والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغَ في معجزاته، وأعظمَ في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب[5]. فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفقِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعد التوقُّفِ في تكفير المسلمين، ولم يتفطَّنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح[6]، لاسيما

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/ ٢١٦.

(٥) في المفهم ٣/ ٦٣٧-٦٣٨، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله».

رميُ مَنْ شهِدَ له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهِرُ أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعَها.

قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنَّها مناقضَةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أميًّا في أمَّةٍ أميَّةٍ قامت الحجج، وأُفحِمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشُّبهة، فكيف يُطلِقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنَّما الآيةُ ألاَّ يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَعُ بعضُها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كَتَبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً[(١)].

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقِ الدَّواةَ، وحرِّفِ القلَمَ، وأقِم الباءَ، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحَسِّنِ الله، ومُدَّ الرحمنَ، وجَوِّدِ الرحيم»[(٢)] قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ فلا يَبعُدُ أن يُرزَقَ عِلمُ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة[(٣)].

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى. فإن قيل: فقد تهجَّى النبيُّ ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»[(٤)] وقلتُم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أميًّا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية، وقال: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب

(١) الروض الأنف ٤/ ٣٦.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٣٩٤. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية ﷺ. الوليد بن مسلم يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/ ٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتب»[(١)] فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا. وهذا من أوضح ما يكون جليًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعمَ الفرَّاء في قراءة عبد الله: «بَلْ هيَ آياتٌ بَيِّناتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨][(٢)] قال الحسن: أُعطيتْ هذه الأمة الحِفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابَهم إلاَّ نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاَّ النبيُّون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماءُ علماءُ، وهم في الفقه أنبياء[(٣)]. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرَفُ بها دينُ اللهِ وأحكامُه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا[(٤)]. وهذا اختيار الطبري[(٥)]. ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧.

وابن السَّمَيفَع: «بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»[١] وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيِّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوَّته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاَّ أُنزِلَ عليه آيةٌ كآيات الأنبياء[٢]. قيل: كما جاء صالحٌ بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى[٣]، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آيةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون[٥]. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا جوابٌ

---

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٣.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٨.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٢٣، وزاد المسير ٦/ ٢٧٩.

(٥) السبعة ص٥٠١، والتيسير ص١٧٤.

(٦) وردَّ هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٥.

لقولهم: «لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»(١). أي: أوَ لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيتَهُم بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتيتَهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَينة عن عَمرو بن دينار عن يحيى ابن جَعدة قال: أُتيَ النبيُّ ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقومٍ ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميُّ في «مسنده»(٢). وذكره أهل التفسير في كتبهم(٣). وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لَما وسِعَه إلاَّ اتِّباعي»(٤) وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا منْ لم يَتغَنَّ بالقرآن»(٥) أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية(٦). وإذا كان لقارِئهِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وغُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةً في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢.

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣٣، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٥٤١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/ ٢١.

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لكَ: كفى بالله شهيداً يشهدُ لي بالصدق فيما أدَّعِيه من أني رسولُه، وأنَّ هذا القرآنَ كتابُه[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاجٌ عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقِرُّوا بشهادته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال يحيى بن سلاَّم: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجَحْدِهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لمَّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجِّلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتُكَ ألاَّ أُعذِّبَ قومك وأُؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩.

[القمر: ٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا(١). وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلاّم(٢). وقيل: الوقت الذي قدَّره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر(٣). وعلى الجملة فلكلِّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم(٤). ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متَّصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم(٥). وإنما قال: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلَّا فالغشيان من فوق أعَمُّ، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدًا(٦)

وقال آخر:

لقد كان قَوَّادَ الجيادِ إلى العِدا ... عليهنَّ غابٌ من قَنًى ودروعِ(٧)

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١، وقول الضحاك في الوسيط ٣/ ٤٢٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وقد سلف ١/ ٢٩١.

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٤١٠، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: «ذُوقُوا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول الملَكُ بأمرنا: ذوقوا[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بِسَعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُتلمَّسَ عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده[٢]، أي: إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها[٣]. وقال ابن جُبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلمُ والمنكرُ تترتَّبُ فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك[٤]. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا[٥]. وقال مُطرِّف[بن عبد الله] بن الشِّخِّير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسعٌ فابتغوه في الأرض[٦]. قال سفيان الثوري: إذا كنتَ بأرضٍ غاليةٍ

---

(١) السبعة ص٥٠١، والتيسير ص١٧٤. وينظر الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤. وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٢، وزاد المسير ٦/ ٢٨١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٩١. والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢، وزاد المسير ٦/ ٢٨١. وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقِلْ إلى غيرها تملأُ فيها جِرابَكَ خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إنَّ أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها[١]. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ «إيَّايَ» منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: «فإيَّايَ» بمعنى الشرط[٢]، أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوني [في غيره][٣]؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٤]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّرَ اللهُ شأن الدنيا. أي: أنتم لا مَحالةَ ميِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥]. وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن مُحيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عِبادِي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون[٦]. «إنَّ أرضِي» فتحَها ابن عامر، وسكَّنها الباقون[٧].

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قيدَ شبرٍ استوجبَ الجنة، وكان رفيقَ محمد وإبراهيم» عليهما السلام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٢-١٧٣ .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/ ٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص٥٠١-٥٠٢ ، وقراءتهم وقراءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/ ١٧٠ .

(٧) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، والكشاف ٣/ ٢١٠ ، وقد سلف ٧/ ٦٤ .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السُّلميُّ وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[١] وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ... ونحنُ في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنا
لا تَركننَّ إلى الدُّنيا وزَهرتِها ... وإنْ توشَّحْتَ من أثوابِها الحَسنا
أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا ... أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنا
سقَاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ ... صيَّرهم تحتَ أطباقِ الثَّرى رُهُنا

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُثْوِينَّهم﴾ بالثاء مكان الباء من الثُّويِّ: وهو الإقامة[٢]، أي: لَنُعطينَّهم غُرفاً يثوون فيها[٣]. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسُّلمي: «لَيُبَوئنَّهُمْ» بالياء مكان النون[٤]. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي: لَنُنزِلَنَّهم ﴿غُرَفًا﴾[٥] جمع غرفة وهي العُلِّيَّة المُشرِفة[٦]. وفي «صحيح مسلم»[٧] عن سعيد الخدري[٨] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقِهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم. قال: «بلى،

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .
(٤) المشهور عن يعقوب: لنبؤنَّهم. النشر ٢/ ٣٤٤ .
(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .
(٦) الصحاح (غرف).
(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).
(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وخرَّج التِّرمذي[١] عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لَغُرفاً يُرى ظهورُها من بطونِها وبطونُها من ظهورِها» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «هي لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى للهِ بالليلِ والناسُ نِيام» وقد زِدْنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة»[٢] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحديُّ عن يزيد بن هارون قال: حدَّثنا الجرَّاح[٣] بن المِنهال، عن الزُّهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطَّاف[٤] ـ عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلَ بعضَ حيطان الأنصار، فجعلَ يلتقط من الثمر [ويأكل] فقال: «يا ابن عمر، مالَكَ لا تأكل؟» فقلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله. فقال: «لكنِّي أشتهيه، وهذه صبيحةُ رابعةٍ لم أذُقْ طعاماً، ولو شئتُ لَدَعوتُ ربي فأعطاني مثلَ ملك كسرى وقيصر، فكيف بِكَ يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يُخبِئون رزقَ سَنَتهم ويَضْعُفُ اليقين» قال: واللهِ ما بَرِحْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٥].

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضعِفه أنه عليه الصلاة والسلام كان يدَّخِرُ لأهله قوتَ

---

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص٤٦١-٤٦٤ .

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط: عبد الرحيم بن عطاف، والتصويب من تهذيب التهذيب ٢/ ٥٣٤ ، وثقات ابن حبان ٧/ ٧٠ .

(٥) أسباب النزول ص٣٥٨-٣٥٩ ، والوسيط ٣/ ٤٢٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه ـ أيضاً ـ عبد بن حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٧ من طريق يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٠ . وعبد الرحمن بن عطاف مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهم. اتَّفق عليه البخاري ومسلم[١]. وكانت الصحابةُ يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهلُ اليقين والأئمةُ لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجِروا ولا تجاوروا الظَّلَمة» قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَنْ يُطعِمُنا ولا مَنْ يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٢] أي: ليسَ معها رزقُها مُدَّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة[٣]. وهذا أشبهُ من القول الأوَّل. وتقدَّم الكلامُ في «كَأَيِّنْ» وأنَّ هذه «أيّ» دخلت عليه كاف التشبيه وصارَ فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة[٤]. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدَّخِرُ لغد[٥]. وقيل: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تقدِرُ على رزقها[٦] ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجَّهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾[٧]. وقيل: الحملُ بمعنى الحَمالة[٨]. وحكى النقَّاش: أنَّ المُرادَ النبيُّ ﷺ يأكلُ ولا يدَّخر[٩].

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العُرفِ إطلاقُها على الآدميِّ فكيف على النبيِّ ﷺ. وقد مضى هذا في «النمل» عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [الآية: ٨٢]. قال ابن عباس: الدوابُّ: هو كلُّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧)، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٤ بنحوه.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٩ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٧ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٨٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رِزقَه ولا يَدَّخِرُ إلاَّ ابنُ آدم والنملُ والفأر[١]. وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في مِحضَنِه. ويُقال: للْعَقْعَقِ مَخابئ إلاَّ أنه ينساها[٢]. ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يسوِّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتَّر الجَلِدُ أنه مرزوقٌ بجَلَده، ولا يتصوَّرَ العاجزُ أنه ممنوعٌ بَعجزِه[٣]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّكم تَوَكَّلون على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرزقَكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائِكم وقولِكم: لا نجِدُ ما نُنفِقُ بالمدينة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حقٍّ لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إنْ هاجرنا لم نجِدْ ما نُنفِقُ. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيفَ تشكُون في الرزق، فمَنْ بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصلَه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لا يختلف أمرُ الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.

(٤) سلف ٧/ ٢٩٧ و١٠/ ١٥٩.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٣، وزاد المسير ٦/ ٢٨٣.

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليمٌ بما يُصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جَدْبِها وقَحْطِ أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتُم بذلك فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرَّرَ تأكيداً. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحُجج والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون هذه الحجج. وقيل: «الحَمْدُ للهِ» على إقرارهم بذلك[1]. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيءٌ يلْهَى به ويُلعَب. أي: ليس ما أعطاه اللهُ الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحِلُّ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقةَ له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لكَ لم تبْقَ لها. وأنشد:

تروحُ لنا الدنيا بغيرِ الذي غَدَتْ ... وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ ... وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنَّ أنَّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفا اللهُ عَمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً ... وأيقنَ أنَّ الدائراتِ تَدُورُ

قلت: وهذا كلُّه في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوَّةُ على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ما ابتُغِيَ به ثوابه ورضاه. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٥٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

موتَ فيها[١]. وزعم أبو عبيدة: أنَّ الحيوانَ والحياةَ والحيَّ ـ بكسر الحاءِ ـ واحدٌ، كما قال:

وقـد تـرى إذِ الـحـيـاةُ حِـيُّ

وغيره يقول: إنَّ الحِيَّ جمعٌ على فِعول مثل عِصي[٢]. والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَوان حَيَيان، فأُبدِلَتْ إحداهُما واواً؛ لاجتماع المثلين[٣]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نيَّاتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها[٤]. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزِّل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقولَ قائلُهم: لولا اللهُ والرئيسُ أو الملاَّحُ لَغَرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شِركهم أن يجحدوا نِعَم الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد[٥]. أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا. ودليل هذا قراءة أُبيٍّ: «وتَمَتَّعُوا»[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٧، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفليُّ.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بجزم اللام. النحاس: «وَلِيتَمَتَّعُوا» لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها[١]. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام[٢]. وقرأ أبو العالية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[٣] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً[٤]. والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»[٥] وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرماً آمناً أمِنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّبٌ من تناقض أحوالهم.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاَّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاءِ الله وإحسانه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) الشاذة ص١١٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤ .

(٥) ١٦/ ٢٩٩ .

وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى. وحكى النقَّاش: أفبإطعامهم من جوعٍ، وأمنهم من خوفٍ يكفرون. وهذا تعجُّبٌ وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ جعلَ مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السُّدِّي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمدٍ ﷺ(٢). وكلُّ قول يتناول القولين. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدِّيُّ وغيره: إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهادٌ عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ علَّمه اللهُ ما لم يعلم»(٤) ونزع بعضُ العلماء إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهادُ في الآية قتالَ الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سفيان بن عُيَينة لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قدِ اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سُبُلَ الثبات على الإيمان[١]. ثم قال: مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنةَ في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبُلَ ثوابنا[٢]. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميعَ الأقوال، ونحوُه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدْني فليطلُبْني في موضعين: أن يعمل بأحسنَ ما يعلَمُه، ويجتنبَ أسوأ ما يعلَمُه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصنَّ نيَّاتِهم وصدقاتِهم وصلَواتِهم وصيامَهم[٣]. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لامُ تأكيدٍ، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولامُ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيداً لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكِّنتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى[٤]. وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»[٥] وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنُّصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتين بَونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

---

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٥) ٣/ ٢٦٣.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مكية، وهي تِسْعٌ[1] وسِتُّونَ آيةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓمٓ﴾ سبقَ القولُ فيهِ، ووقوعُ الاستفهامِ بعدَهُ دليلُ استقلالِه بنفسِهِ أو بما يُضمَرُ[2] معَه.

(٢) ـ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحُسْبانُ ممَّا يتعلَّقُ بمَضامينِ الجُمَلِ للدَّلالةِ على جِهَةِ ثُبوتِها، ولذلكَ اقتضَى مَفْعولَيْنِ مُتلازِمَيْنِ أو ما يَسدُّ مَسدَّهُما كقولِه: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فإنَّ مَعناه: أَحَسِبُوا تركَهُم غيرَ مَفتونينَ لقَوْلِهم: آمَنَّا، فالتَّركُ أوَّلُ مَفعولَيْهِ و(غيرَ مَفتونينَ) مِن تَمامِه، و(لقَوْلِهم) هو الثَّاني، كقولِكَ: حَسِبتُ ضربَهُ للتَّأديبِ.

أو: أنفسَهُم مَتروكينَ غيرَ مَفتونينَ لقولِهم: آمَنَّا[3]، بل يَمتَحِنُهُم اللهُ بمشاقِّ

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وهي سبع»، والمثبت من بقية النسخ وهو الصواب. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٠٣)، و«تفسير الثعلبي» (٢١/ ٧)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «يضم».

(٣) قوله: «أو أنفسَهم... » عطف على «تَرْكَهم». وشرح هذا الوجه: أن المفعول الأول لـ(حسب) محذوف؛ وهو (أنفسَهم)، و﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ في موضع المفعول الثاني على أنه في تأويل مصدر، والمصدر في تأويل اسم المفعول؛ أي: (متروكين)، و﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ في موضع الحال، وأن يؤمنوا بتقديرِ: لأن يؤمنوا، متعلق بـ﴿يُتۡرَكُوٓاْ﴾. انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠٣).

التَّكاليفِ كالمهاجَرَةِ والمُجاهدَةِ، ورفضِ الشَّهواتِ، ووَظائفِ الطَّاعاتِ، وأنواعِ المصائبِ في الأنفُسِ والأَموالِ ليَتميَّزَ المُخلِصُ مِن المُنافِقِ والثَّابتُ في الدِّينِ مِن المُضطَرِبِ فيه، ولينالوا بالصَّبرِ عليها عواليَ الدَّرجاتِ، فإنَّ مُجرَّدَ الإيمانِ ـ وإن كانَ عن خلوصٍ ـ لا يَقتَضي غيرَ الخَلاصِ مِن الخُلودِ في العَذابِ.

رُوِيَ أنَّها نزلَت في ناسٍ مِن الصَّحابَةِ جَزِعُوا مِن أَذى المُشركينَ[١].

وقيل: في عمَّارٍ قَدْ عُذِّبَ في الله[٢].

وقيل: في مِهْجَعٍ مَولى عُمرَ بنِ الخطَّابِ، رمَاهُ عامِرُ[٣] بن الحَضْرميِّ بسَهمٍ يومَ بدرٍ فقتَلَهُ، فجَزِعَ عليه أبوَاهُ وامرأَتُه[٤].

(٣) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مُتَّصِلٌ بـ﴿أَحَسِبَ﴾[٥]، أو بـ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، والمعنى: أنَّ ذلك سُنَّةٌ قديمةٌ جاريَةٌ في الأُمَمِ كلِّها فلا يَنبَغِي أن يُتوقَّعَ خلافُه.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾: فلَيَتعلَّقَنَّ علمُه بالامتحانِ تعلُّقًا

---

(١) ذكره الواحدي في «الوجيز» (ص: ٨٢٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢)، عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

(٣) في جميع النسخ: «عمار»، وهو تحريفٌ، والصوابُ: «عامر بن الحضرمي»، كما في «الكشاف» (٦/ ٤٨٤)، وبقية المصادر، ونبه الخفاجي في «حاشيته» إلى ذلك.

(٤) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١١) عن مقاتل، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧): (وسنده إلى مقاتل في أول كتابه). وهو بنحوه في «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٢).

وروى ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٧١)، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: (أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر). ورواه ابن سعد أيضا عن الزهري.

(٥) في نسخة التفتازاني: «بحسب».

حاليًّا يتميَّزُ به الذين صدَقوا في الإيمانِ والذين كذَبُوا فيه، وينوطُ به ثوابَهُم وعِقابَهُم، ولذلك قيل: المَعنى: ولَيُميِّزنَّ، أو: لَيُجازِيَنَّ.

وقُرِئَ: (وليُعْلِمَنَّ)[1] من الإعلامِ؛ أي: وليُعرِّفنَّهُم النَّاسَ، أو: ليَسِمَنَّهم بسِمَةٍ يُعرفونَ بها يومَ القيامَةِ كبَياضِ الوجوهِ وسَوادِها.

(٤) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: الكفرَ والمعاصيَ، فإنَّ العملَ يعُمُّ أفعالَ القُلوبِ والجوارِحِ ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾: أن يَفُوتونَا فلا نقدِرُ أَنْ نُجازِيَهُم على مَساوِيهِم، وهو سادٌّ مسدَّ مَفْعولَيْ (حَسِبَ)، و﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ، والإضرابُ فيها لأنَّ هذا الحِسْبانَ أَبْطَلُ مِن الأوَّلِ ولهذا عقَّبَهُ بقَوْلِه:

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئسَ الذي يَحكمونَهُ، أو: حُكْمًا يَحْكُمُونَهُ حكمُهُم هذا، فحُذِفَ المَخصوصُ بالذَّمِّ.

(٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنَّةِ.

وقيل: المرادُ بلقاءِ اللهِ: الوُصولُ إلى ثوابِه، أو إلى العاقبَةِ مِن الموتِ والبَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ، على تمثيلِ حالهِ بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سَيِّدِه بعدَ زمانٍ مَديدٍ وقَد اطَّلَع السَّيِّدُ على أحوالِه، فإمَّا أن يلـقاهُ بِبِشْرٍ لِمَا رَضِيَ مِن أَفعالِه، أو بِسُخْطٍ لِمَا سَخِطَه[2] منها.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: فإنَّ الوقتَ المضروبَ للقائِه ﴿لَأَتٍ﴾ لجاءٍ، وإذا كانَ وقتُ اللقاءِ آتيًا كانَ اللقاءُ كائنًا لا محالةَ، فليُبادِرْ ما يحقِّقُ أملَهُ ويصدِّقُ رجاءَهُ، أو ما يستوجِبُ القُربةَ والرِّضا.

---

(١) قراءة علي بن أبي طالب والزهري، انظر: «المحتسب» (٢/ ١٥٩).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «سخط».

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِ العبادِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعَقائدِهم وأفعالِهم.

(٦) ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسَهُ بالصَّبرِ على مَضَضِ الطَّاعةِ والكفِّ عن الشَّهواتِ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنَّ مَنفعتَه لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ بهِ إلى طاعَتِهم، وإنَّما كلَّفَ عبادَهُ رحمةً عليهِم ومُراعاةً لصَلاحِهِم.

(٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: الكُفرَ بالإيمانِ والمعاصيَ، بما يَتْبعُها مِن الطَّاعاتِ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالِهم.

(٨) ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بإيتائه فعلًا ذا حُسْنٍ، أو كأنَّه في ذاتِه حُسْنٌ لفَرْطِ حُسْنِه، و(وَصَّى) يجرِي مَجْرى (أَمَرَ) معنًى وتَصرُّفًا.

وقيل: هو بمعنى (قَالَ)؛ أي: وقُلْنا له أَحسِنْ بوالديكَ حُسْنًا.

وقيل: ﴿حُسْنًا﴾ مُنتَصِبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ على تَقديرِ قولٍ مُفسِّرٍ للتَّوصِيَةِ؛ أي: قُلنا: أَوْلِهِما ـ أو: افعَلْ بهمَا ـ حُسْنًا، وهو أوفَقُ لِمَا بعدَه، وعليه يحسُنُ الوَقفُ على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

وَقرِئ: (حَسَناً)[1] و: (إِحْسَاناً)[2].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بإلهيَّتِه، عَبَّرَ عن نَفيِها بنَفْيِ العِلْمِ بها؛ إشعارًا بأنَّ ما لا يُعلَمُ صِحَّتُه لا يجوزُ اتِّباعُه وإن لم يُعلَمْ بُطلانُه فضلًا عمَّا عُلِمَ بُطلانُه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) عن عيسى والجحدري.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٦١) دون نسبة. وذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٦) عن مصحف أُبَي رضي الله عنه.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك، فإنَّه لا طاعةَ لِمَخلوقٍ في مَعصِيَةِ الخالقِ، ولا بُدَّ مِن إضمارِ القَوْلِ[١] إنْ لَمْ يُضمَرْ قَبْلُ.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: مرجعُ مَن آمـنَ مِنكُم ومَـن أشركَ، ومَن برَّ بوالديهِ ومَـن عَقَّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بالجزاءِ عليه.

والآيةُ نزَلَتْ في سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ وأمِّه حَمْنَةَ، فإنَّها لَمَّا سَمِعَت بإسلامِه حلفَتْ أن لا تنتقلَ مِن الضِّحِّ[٢] ولا تَطْعَمَ ولا تَشْرَبَ حتَّى يرتَدَّ، ولَبِثَتْ ثلاثةَ أيَّامٍ كذلك، وكذا التي في لُقمانَ والأحقافِ[٣].

(٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: فـي جُمْـلَتِهم، والكمالُ في الصَّلاحِ مُنتهَى دَرجاتِ المُؤمنينَ، ومُتمنَّى أَنبياءِ اللهِ المُرسَلِينَ، أو: في مُدخَلِهِم وهي الجنَّةُ.

(١٠) ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بأَنْ عذَّبَهم الكفرَةُ على الإيمانِ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾: ما يُصيبُهُ مِن أَذِيَّتِهِم في الصَّرفِ عن الإيمانِ ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الصَّرفِ عن الكُفْرِ.

﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: فتحٌ وغَـنيمَـةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ فـي الدِّينِ فأَشرِكُونا فيه.

---

(١) أي: وقلنا إن جاهداك؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ١٨).

(٢) الضِّحُّ: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض. انظر: «النهاية» (مادة: ضحح).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ١٦) دون عزو، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٠) وعزاه للمفسرين. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣) عن قتادة، وأصله عند مسلم (١٧٤٨) كتاب فضائل الصحابة، عقب الحديث (٢٤١٢)، والترمذي (٣١٨٩)، من حديث سعد رضي الله عنه. والتي في لقمان الآيتان (١٤ ـ ١٥)، والتي في الأحقاف الآية (١٥).

والمرادُ: المنافقونَ، أو قومٌ ضَعُفَ[1] إيمانُهُم فارتَدُّوا مِن أَذى المُشركينَ، ويُؤيِّدُ الأوَّلَ: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ مِن الإخلاصِ والنِّفاقِ.

(١١) ـ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقُلوبِهِم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيُجازِي الفَريقَيْنِ.

(١٢) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ الذي نَسْلُكه في دينِنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ إن كانَ ذاك خَطيئَةً أو إنْ كانَ بعثٌ ومؤاخذةٌ، وإنَّما أَمَروا أنفُسَهُم بالحملِ عاطفينَ على أمرِهِم بالاتِّباعِ مُبالغَةً في تَعليقِ الحملِ بالاتِّباعِ والوَعدِ[2] بتَخفيفِ الأَوْزارِ عَنْهُم إن كانَت؛ تَشجيعًا[3] لهم عليه، وبهذا الاعتبارِ ردَّ عليهِم وكذَّبَهُم بقولِه:

﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للتَّبيينِ والثَّانيةُ مَزيدَةٌ، والتَّقديرُ: وما هُمْ بحاملينَ شيئًا مِن خَطاياهُم.

(١٣) ـ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾: أثقالَ ما اقترفَتْهُ أنفُسُهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: وأثقالًا أُخَرَ مَعها؛ لِمَا تَسبَّبُوا له بالإضلالِ والحَمْلِ على المعاصي مِن غيرِ أن ينقصَ مِن أَثقالِ مَن تَبِعَهُم شَيءٌ ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سؤالَ تَقريعٍ وتَبكيتٍ ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مِن الأَباطيلِ التي أضلُّوا بها.

(١٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعدَ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ضعيف».

(٢) قوله: «والوعدِ» بالجر عطفاً على «تعليقِ».

(٣) قوله: «تشجيعاً» مفعول له تعليل لقوله: «مبالغة...»، لا لقوله: «أمروا أنفسهم» أو للوعد. انظر: «حاشية الخفاجي».

المبعَثِ، إذ رُوِيَ أَنَّه بُعِثَ على رأسِ أربعينَ، ودَعَا قومَهُ تِسعَ مئةٍ وخمسينَ عامًا[١]، وعـاشَ بعدَ الطُّوفانِ ستِّينَ[٢].

ولعلَّ اختيارَ هذه العبارةِ للدَّلالةِ على كمالِ العَددِ، فإنَّ (تِسعَ مئةٍ وخمسينَ) قد يُطلَقُ على ما يَقْرُبُ منه، ولِمَا في ذكرِ الألْفِ مِن تَخييلِ طولِ المدَّةِ إلى السَّامعِ، فإنَّ المَقصودَ مِن القصَّةِ تَسليَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ وتثبيتُه على ما يُكابِدُ من الكَفَرةِ، واختلافُ المُميِّزينِ لِمَا في التَّكريرِ مِن البَشاعةِ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾: طوفانُ الماءِ، وهو لِمَا طافَ[٣] بكثرةٍ مِن سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوِهِما ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفرِ.

(١٥) ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛ أي: نُوحًا ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾: ومَن رَكِبَ معَهُ مِن أَولادِهِ وأَتباعِهِ وكانوا ثمانينَ، وقيلَ: ثمانيةً وسبعينَ، وقيلَ: عشرةً نصفُهُم ذكورٌ ونِصفُهُم إناثٌ.

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ أي: السَّفينةَ، أو الحادثةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتَّعِظونَ ويَستَدِلُّونَ بها.

(١٦) ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفٌ على ﴿نُوحًا﴾ أو نصبٌ بإضمارِ (اذكر)، وقُرِئَ بالرَّفعِ على تقديرِ: ومِن المرسلينَ إبراهيمُ[٤].

---

(١) «عاماً» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٩١٨)، والدينوري في «المجالسة» (٣٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.

(٣) في نسخة الخيالي: «وهو ما طاف وأحاط».

(٤) نسبت لأبي جعفر في غير المشهور عنه وإبراهيم النخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«البحر» (١٧/ ١١٣).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: أرسَلْناه حينَ كملَ عَقلُه وتمَّ نَظرُه بحيثُ عرفَ الحقَّ وأمَرَ النَّاسَ بهِ، أو بدلٌ منهُ بدلَ الاشتمالِ إن قُدِّرَ بـ(اذكر).

﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ممَّا أنتُم عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشَّرَّ، وتُميِّزونَ ما هوَ خيرٌ ممَّا هوَ شَرٌّ، أو: كُنتُم تَنظرونَ في الأُمورِ بنظرِ العلمِ دونَ نظرِ الجَهلِ.

(١٧) ـ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذِبونَ كذبًا في تَسمِيَتِها آلهةً وادعاءِ شَفاعَتِها عندَ اللهِ، أو: تعملُونَها وتَنحِتُونَها للإفكِ، وهو استدلالٌ على شرارةِ ما هُمْ عليهِ مِن حيثُ إنَّه زورٌ وباطِلٌ.

وقُرِئَ: (وتُخَلِّقُونَ)[1] مِن خلَّقَ للتَّكثيرِ، و: (تَخَلَّقُونَ) مِن تخلَّقَ للتَّكلُّفِ[2]، و: (أَفِكًا)[3] على أنَّه مَصدرٌ كالكَذِبِ، أو نعتٌ بمعنى: خَلْقًا ذا إفكٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارةِ ذلك مِن حَيثُ إنَّه لا يُجدِي بطائلٍ، و﴿رِزْقًا﴾ يَحتَمِلُ المصدرَ بمعنى: لا يستطيعونَ أَنْ يَرزُقوكُم، وأن يرادَ المرزوقُ وتَنكيرُه للتَّعميمِ ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كلَّه فإنَّه المالِكُ له ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ مُتوسِّلينَ إلى مَطالِبِكُم بعِبادَتِه، مقيِّدينَ لِمَا حَفَّكُم

---

(١) نسبها أبو حيان في «البحر» (١٧/ ١١٣) لزيد بن علي نقلًا عن أبي علي الأهوازي.

(٢) نسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والسلمي وعون العقيلي وزيد بن علي. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢١٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١١)، و«البحر» (١٧/ ١١٣). وقوله: «للتكلف» المراد به لازمه وهو المبالغة. انظر: «حاشية القونوي» (١٥/ ٢٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠)، عن ابن الزبير وفضيل بن مرزوق.

من النِّعَم بشُكْرِه، أو مُستَعِدِّينَ لِلِقائِه بهما فإنَّه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وقُرِئَ بفَتْحِ التَّاءِ[1].

(١٨) - ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾: وإن تكذِّبُوني ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ مَن قَبلي مِن الرُّسلِ فلَمْ يَضرَّهم تَكذيبُهُم، وإنَّما ضَرَّ أَنفُسَهُم حيثُ تسبَّبَ لِمَا حلَّ بهم من العَذابِ، فكذا[2] تكذيبُكُم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي زالَ معَهُ الشَّكُّ، وما عليهِ أن يُصَدَّقَ ولا يُكَذَّبَ[3]، فالآيَةُ وما بعدَها مِن جُملَةِ قِصَّةِ إبراهيمَ إلى قولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾.

ويحتمِلُ أَنْ تكونَ اعتراضًا بذكرِ شأنِ النَّبيِّ ﷺ وقريشٍ، وهَدْمِ مَذهَبِهِم، والوعيدِ على سوءِ صَنيعِهِم، توسَّطَ بينَ طرفَيْ قِصَّتِه من حيثُ إنَّ مَساقَها لتسليَةِ رسولِ اللهِ ﷺ والتَّنفيسِ عنه بأنَّ أباهُ خليلَ اللهِ كانَ مَمْنُوًّا بنحوِ ما مُنِيَ به من شِرْكِ القَوْمِ وتَكذيبِهِم، وتَشبيهِ حالِه فيهِمْ بحالِ إبراهيمَ في قَوْمِه.

(١٩) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ مِن مادَّةٍ ومِن غيرِها.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيّ وأبو بكرٍ بالتَّاءِ على تقديرِ القولِ[4]، وقُرِئَ (يَبْدَأُ)[5].

---

(١) هي قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٠٨).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «وكذا». وقولُه: (فكذا تكذيبكم) إشارةٌ إلى أنَّ ما ذكرَ دليل الجزاء أُقيمَ مقامه، والجزاء في الحقيقةِ لا يضرّني تكذيبكم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الخيالي: «أو يكذّب» وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٣). وذكر في «السبعة» (ص: ٤٩٨) خلافاً عن أبي بكر فيها.

وقوله: «على تقدير القول»؛ أي: قال لهم رسلهم: ﴿أولم تروا﴾؛ لأن الضمير في ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ على قراءة الغيبة هو لـ﴿أُمَمٌ﴾ في قوله: ﴿أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فكذا هو في الخطاب ليتحد معنى القراءتين. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) قرأ بها الزهري كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦١).

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إخبارٌ بالإعادةِ بعدَ المَوْتِ، معطوفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على (يُبْدِئ)؛ فإنَّ الرُّؤيَةَ غيرُ واقِعَةٍ عليه، ويجوزُ أن تُؤوَّلَ الإعادةُ بأن يُنْشِئَ في كُلِّ سنَةٍ مثلَ ما كان في السنَةِ السَّابقَةِ مِن النَّباتِ والثِّمارِ ونحوِهِما وتُعطفَ على ﴿يُبْدِئُ﴾.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى الإعادةِ، أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرينِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يَفتَقِرُ في فعلِه إلى شَيءٍ[1].

(٢٠) ـ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حكايةُ كلامِ اللهِ لإبراهيمَ أو مُحمَّدٍ عليهِمَا السَّلامُ.

﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلافِ الأجناسِ والأَحْوالِ ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بعدَ النَّشأةِ الأولى التي هي الإبداءُ، فإنَّه والإعادةَ نَشْأتانِ مِن حيثُ إنَّ كُلًّا اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ.

والإفصاحُ باسمِ اللهِ مع إيقاعِهِ مُبتدأً بعدَ إضمارِهِ في ﴿بَدَأَ﴾ ـ والقياسُ الاقتِصارُ عليه[2] ـ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ بيانُ الإعادةِ، وأنَّ مَن عُرِفَ بالقُدرَةِ على الإبداءِ ينبغي أن يُحكمَ له بالقُدرَةِ على الإعادةِ لأنَّها أهوَنُ، والكلامُ في العطفِ ما مرَّ.

---

(١) موقعُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآية لفظًا وحُكمًا موقعُ ﴿هو﴾ الثانية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ في أنَّ معناه: أنَّ الإعادةَ على الله أَيْسَرُ من الإبداء فيما يجب عندكم ويَنقاسُ على أصولكم وتَقْتَضيه عقولُكم. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٥٦).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والقياس عليه»، والمثبت ما في نسخة الخيالي والطبلاوي، وفي هامش نسخة الفاروقي والخيالي: «والقياس عكسه».

قال الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٣٨٤): «والقياس الاقتصار عليه»؛ أي: على اسم الله في ﴿بَدَأَ﴾؛ بأن يقال: بدأ الله.

وقال الخفاجي في «الحاشية»: أي: والقياس أن يظهر ثم يضمر كما في الجملة الأولى، وهو معنى قوله: «الاقتصار عليه» وفي نسخة: «عكسه».

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿النَّشَاءَةَ﴾[1] كالرآفةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ لأنَّ قُدرتَهُ لذاتِه، ونسبةُ ذاتِه إلى كلِّ المُمكِناتِ على سواءٍ، فيَقْدِرُ على النَّشأةِ الأخرى كما قَدَرَ على النَّشأةِ الأولى.

(٢١) - ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبَه ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمته ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾: تُرَدُّونَ.

(٢٢) - ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ رَبَّكُم عن إدراكِكُم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إنْ فَرَرْتُم مِن قَضائِه بالتَّوارِي في الأرضِ أو الهُبوطِ[2] في مَهاوِيها، والتَّحصُّنِ في السَّماءِ أو القلاعِ الذَّاهبَةِ فيها.

وقيل: ولا مَن في السَّماءِ[3] كقولِ حسَّان:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ[4]

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ يحرسُكُم عن بلاءٍ يَظهَرُ مِن الأرضِ أو ينزلُ مِن السَّماءِ ويدفعُه عَنْكُم.

(٢٣) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: بدَلائلِ وحدَانيَّتِه أو بكتبِه ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «بالتهاوي».

(٣) قوله: (وقيل: ولا من في السماء)؛ أي: بجعل ﴿مَن﴾ معطوفةً على ﴿أَنتُمۡ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٥).

(٤) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٦٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥). قال الخفاجي في «الحاشية»: والتَّقدير (ومن يمدحه) والحذف فيهِ ظاهر؛ لأنَّهُ لو عطف على صلَةِ (من) الأولى كانَ الهاجي والمادح شخصًا واحدًا، ولا يصحُّ الإخبار عنهُ بـ(سواء) لِما فيهِ من مساواة الشَّيء لنفسِه، إلَّا أنْ يجعلَ الموصول عبارَة عن اثنينِ أو فريقَين، وهوَ خلافُ الظَّاهِرِ أيضًا.

بالبَعثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾؛ أي: ييأسونَ مِنْها يومَ القيامَةِ، فعبَّرَ عنه بالماضي للتَّحقيقِ والمبالغَةِ، أو: أَيِسُوا في الدُّنيا لإنكارِ البعثِ والجزاءِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بكُفرِهِم.

(٢٤) ـ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ قومِ إبراهيمَ له، وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] على أنَّه الاسمُ، والخبرُ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ وكانَ ذلك قولَ بَعضِهِم، لكنْ لمَّا قيل فيهم ورَضِيَ به الباقونَ أُسندَ إلى كُلِّهِم.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: فقذفوهُ في النار فأنجاهُ الله منها بأَنْ جعلَها عليه بَردًا وسلامًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في إنجائِه مِنْها ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ هي حِفظُه مِن أَذى النَّارِ وإخمادُهَا مع عِظَمِهَا في زمانٍ يَسيرٍ، وإنشاءُ رَوْضٍ مَكانَها.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنَّهم المنتفِعونَ بالفَحصِ عَنْهَا والتأمُّلِ فيها.

(٢٥) ـ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: لتَتوادُّوا بينكُم وتَتواصَلُوا لاجتماعِكُم على عبادَتِها، وثاني مَفعولَيْ ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾ محذوفٌ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَّوَدَّةَ﴾ المفعولَ الثَّانيَ بتَقديرِ مُضافٍ، أو بتَأويلِهَا بالمَوْدودَةِ؛ أي: اتَّخذْتُم أوثانًا سببَ المودَّةِ بينكُم.

وقرأَها نافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بَكرٍ مُنوَّنَةً ناصبةً ﴿بَيْنَكُم﴾ والوجهُ ما سبقَ، وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ ورُوَيسٌ مرفوعةً مضافةً[2] على أنَّها خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ؛

---

(١) نسبت لسالم الأفطس والحسن. انظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٢)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠).

(٢) أي: ﴿مودَّةُ﴾ بالرَّفع من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض، وقرأ حفص وحمزة: ﴿مودةَ﴾ بالنَّصب من غير تنوين ﴿بينِكم﴾ بالخفض. انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

أي: هي مَودودَةٌ، أو سببُ مودَّةِ بينِكُم، والجملَةُ صِفَةُ ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أو خبر (إن) على أنَّ (ما) مَصدريَّةٌ أو موصولةٌ والعائدُ مَحذوفٌ وهو المفعولُ الأوَّلُ.

وقُرِئَت مرفوعَةً مُنوَّنَةً ومُضافَةً بفَتحِ (بينكم)(١)، كمَا قُرِئَ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤](٢).

وقُرِئَ: (إنَّما مَودَّةُ بينِكُم)(٣).

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يقومُ التَّناكُرُ والتَّلاعنُ بينكُم، أو بينكُم وبين الأوثانِ على تغليبِ المخاطَبينَ كقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُخلِّصونكُم منها.

(٢٦) ـ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هو ابنُ أختِه، وأوَّلُ مَن آمنَ به، وقيل: إنه آمنَ به حينَ رأى النَّارَ لم تحرِقْهُ(٤).

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِن قَوْمِي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾: إلى حيثُ أمرَني رَبِّي.

---

(١) بالرفع والتنوين ذكرها ابن مجاهد من رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه قرأ: (مَوَدَّةٌ) رفعاً منوناً (بَيْنَكُم) نصباً. وانظر: «تفسير الثعلبي» (٢١/ ٣١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣١٢)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠). وزاد ابن عطية وأبو حيان نسبتها للحسن وأبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي عمرو في رواية الأصمعي.

والرفع مع الإضافة رويت عن عاصم أيضاً كما في «الكشاف» (٦/ ٥٠٦)، و«البحر» (١٧/ ١٢٠).

(٢) بنصب النون قراءة نافع وحفص والكسائي والباقون برفعها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٦)، و«الكشاف» (٦/ ٥٠٦)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٧٩).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَمنَعُني مِن أعدائِي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمُرُني إلا بما فيه صَلاحي.

رُوِيَ أنَّه هاجرَ مِن كُوثَى سوادِ الكُوفَةِ مع لوطٍ وامرأتِه سارةَ ابنةِ عمِّهِ إلى حَرَّانَ، ثمَّ منها إلى الشَّامِ، فنزلَ فِلَسْطينَ ونزل لوطٌ سَدُومَ[1].

(٢٧) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: ولدًا ونافلَةً حين أَيِسَ مِن الولادةِ مِن عَجوزٍ عاقرٍ، ولذلكَ لم يَذْكُر إسماعيلَ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكَثُرَ مِنْهُم الأنبياءُ ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكُتبَ الأربعةَ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هِجرَتِه إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاءِ الولدِ في غيرِ أوانِه، والذُّريَّةِ الطيِّبَةِ، واستمرارِ النُّبوَّةِ فيهم، وانتماءِ أَهْلِ المِلَلِ إليه، والثَّناءِ والصَّلاةِ عليه إلى آخرِ الدَّهرِ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لَفِي عِدادِ الكامِلِينَ في الصَّلاحِ.

(٢٨) ـ ﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أو على ما عُطِفَ عليه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الفَعْلَةَ البالغَةَ في القُبحِ.

وقرأ الحِرْمِيَّانِ وابنُ عامرٍ وحَفْصٌ بهمزةٍ مكسورةٍ على الخبرِ، والباقونَ على الاستفهامِ، وأجمَعُوا على الاستفهامِ في الثَّاني[2].

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لفَحاشَتِها مِن حَيْثُ إنَّها ممَّا اشْمَأَزَّتْ منه الطِّباعُ وتحاشَتْ عنه النُّفوسُ، حتَّى أقدَمُوا عليها لِخُبثِ طِينَتِهِم.

---

(١) انظر: «البدء والتاريخ» لابن طاهر المقدسي (٣/ ٥١ ـ ٥٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٢٩) ـ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾: وتتعرَّضُونَ للسَّابِلَةِ بالقَتلِ وأخذِ المالِ أو بالفاحشَةِ حتَّى انقطعَتِ الطُّرقُ، أو: تقطعونَ سبيلَ النَّسْلِ بالإعراضِ عن الحرثِ وإتيانِ ما ليسَ بحَرْثٍ.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾: في مَجالِسِكُم الغاصَّةِ ولا يقالُ: النَّادِي، إلا لِمَا فيه أهلُه.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماعِ والضُّراطِ وحَلِّ الإزارِ وغيرِها مِن القَبائحِ عدمَ مُبالاةٍ بها. وقيل: الخَذْفُ بالحصَى ورميُ البَنادقِ[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباحِ ذلك، أو في دَعْوَى النبوَّةِ المفهومِ مِن التَّوبيخِ.

(٣٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بإنـزالِ العـذابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتـداعِ الفاحشَةِ وسَنِّها فيمَنْ بعدَهُم، وصفَهُم بذلك مُبالغَةً في استنزالِ العَذابِ وإشعارًا بأنَّهُم أحِقَّاءُ بأَنْ يُعجَّلَ لَهُم العذابُ.

(٣١) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: بالبِشارَةِ بالوَلَدِ والنَّافلَةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: قريةِ سَدُومَ، والإضافةُ لفظيَّةٌ لأنَّ المعنى الاستقبالُ.

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهِم لهم بإصرارِهِم وتَمادِيهِم في ظُلْمِهِم الذي هو الكفرُ وأنواعُ المعاصي.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهِمْ بأنَّ فيها من لم يَظْلِم، أو معارضةٌ للمُوجِبِ[2] بالمانعِ، وهو كونُ النَّبيِّ بينَ أَظهُرِهِم.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠)، عن أم هانئ رضي الله عنها عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذفون أهل الأرض ويسخرون منهم»، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) قوله: «أو معارضة للموجب»؛ وهو كفر أهل القرية. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٩).

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليمٌ لقولِه مع ادِّعاءِ مزيدِ العلمِ به، وأنَّهم ما كانوا غافلينَ عنه، وجوابٌ عنهُ بتخصيصِ الأهلِ بمَنْ عَداهُ وأهلَه، أو تأقيتِ الإهلاكِ[١] بإخراجِهم عنها، وفيه تأخيرُ البَيانِ[٢] عن الخطابِ.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: الباقينَ في العذابِ، أو القريةِ[٣].

(٣٣) ـ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ جاءَتْهُ المساءةُ والغمُّ بسبَبِهم مخافةَ أَنْ يَقصِدَهُم قومُه بسُوءٍ، و(أن) صِلَةٌ لتَأكيدِ الفِعْلَيْنِ واتِّصالِهِما.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ وضاقَ بشَأْنِهم وتَدبيرِ أَمْـرِهِم ذرعُه؛ أي طاقتُه كقولِهم: ضاقَتْ يَدُه وبإزائِه: رَحُبَ ذرعُهُ بكذا إذا كانَ مُطيقًا له، وذلك لأنَّ طَويلَ الذِّراعِ ينالُ ما لا ينالُ قَصيرُ الذِّراعِ.

﴿وَقَالُواْ﴾ لَمَّا رَأَوْا فيه أثرَ الضُّجرَةِ ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ على تمكُّنِهم منَّا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿لنُنْجِيَنَّه﴾، و﴿مُنْجُوكَ﴾ بالتَّخفيفِ، ووافَقَهم أبو بكرٍ وابنُ كثيرٍ في الثَّاني[٤].

وموضعُ الكافِ جرٌّ على المختارِ، ونصبُ (أهلَكَ) بإضمارِ فعلٍ، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأَصلِ.

---

(١) قوله: «أو تأقيت الإهلاك»؛ عطفٌ على «تخصيص الأهل»، ويفارق المعطوف عليه بأن الإهلاك فيه مقيد بالإخراج بخلافه في المعطوف عليه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٨٩).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «تأخيرٌ للبيان».

(٣) «أو القرية»: ليس في نسخة الخيالي، وفي نسخة التفتازاني: «العذاب أو الأمر به».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٣).

(٣٤) ـ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: عذابًا منها، سُمِّيَ بذلك لأنَّه يُقلِقُ المعذَّبَ، مِن قَولِهم: ارتجز، إذا ارتجَسَ؛ أي: اضطَرَبَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿مُنَزِّلُونَ﴾ بالتَّشديدِ[1].

﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾: بسببِ فِسْقِهِم.

(٣٥) ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ هي حِكايَتُها الشَّائعةُ، أو آثارُ الدِّيارِ الخَرِبَةِ.

وقيل: الحِجارَةُ المَمْطورةُ فإنَّها كانَتْ باقيَةً بعدُ[2].

وقيل: بقيَّةُ أَنهارِها المُسْوَدَّةِ[3].

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: يستعملونَ عُقولَهُم في الاستبصارِ والاعتبارِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿تَّرَكۡنَا﴾ أو ﴿ءَايَةَۢ﴾.

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾: وافعَلُوا ما ترجونَ به ثوابَه، فأُقيمَ المسبَّبُ مُقامَ السَّببِ[4].

وقيل: إنَّه مِن الرَّجاءِ بمعنى الخوفِ.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزَّلزلَةُ الشَّديدةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٩٤)، عن قتادة.

(٣) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٤/ ١٧٩) عن مجاهد.

(٤) قوله: «فأقيم المسبب» وهو اليوم؛ أي: ثوابه «مقام السبب»؛ أي: وهو فعل ما يَرجون به ثوابَه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩١).

وقيل: صيحةُ جبريلَ لأنَّ القُلوبَ تَرجُفُ لها.

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾: في بلدِهِم، أو: دُورِهِم، ولم يُجمَع لأمنِ اللَّبسِ ﴿جَٰثِمِينَ﴾: بارِكِينَ على الرُّكَبِ ميتينَ.

(٣٨) ـ ﴿وَعَادًا وثمودًا﴾ مَنصوبانِ بإضمارِ (اذكر)، أو فعلٍ دلَّ عليه ما قبلُ مثلَ: أهلَكْنا.

وقرأ حمزةُ وحفصٌ ويعقوبُ: ﴿وَثَمُودَاْ﴾ غيرَ مَصروفٍ[1] على تأويلِ القَبيلَةِ.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾؛ أي: تبيَّنَ لكُم بعضُ مَساكِنِهم، أو إهلاكُهُم مِن جهةِ مَساكِنِهم إذا نظَرْتُم إليها عندَ مُرورِكُم بها.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السَّوِيِّ ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: مُتمكِّنينَ مِن النَّظرِ والاستبصارِ ولكنَّهُم لم يَفعَلُوا.

أو: مُتبيِّنينَ أنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرُّسُلِ لهم ولكنَّهُم لَجُّوا حتى هَلَكُوا.

(٣٩) ـ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ مَعطوفونَ على (عادًا) وتقديمُ قارونَ لشَرفِ نَسبِهِ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾: فائِتينَ، بَلْ أدركَهُم أمرُ اللهِ، مِن سبقَ طالبَهُ: إذا فاتَهُ.

(٤٠) ـ ﴿فَكُلًّا﴾ مِن المَذكورينَ ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ عاقبنا بذنبِه:

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ ريحًا عاصِفًا فيها حَصْباءُ، أو مَلَكًا رماهُم بها كقَومِ لوطٍ.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كمَدْينَ وثمودَ.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارونَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦١٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩).

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفِرعَوْنَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ليعامِلَهُم مُعاملَةَ الظَّالمِ فيُعاقبَهم بغيرِ جُرمٍ، إذ ليسَ ذلك مِن عادتِه ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتَّعريضِ للعَذابِ.

(٤١) ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فيما اتَّخذوهُ مُعتمَدًا ومتَّكَلًا ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجَتهُ في الوَهْنِ والخَوَرِ، بل ذاك أوهَنُ فإنَّ لهذا حقيقةً وانتفاعًا مّا.

أو: مَثلُهُم بالإضافةِ إلى الموحِّدِ كمَثَلِه بالإضافةِ إلى رَجُلٍ بنَى بيتًا مِن حجرٍ وجَصٍّ[1].

والعنكبوتُ يقَعُ على الواحدِ والجمعِ والمُذكَّرِ والمؤنَّثِ، والتَّاءُ فيه كتَاءِ (طاغوتٍ)، ويُجمعُ على عَناكِيبَ وعَناكِبَ وعِكَابٍ وعِكَبَةٍ وأَعْكُبٍ.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أَوْهَى[2] وأقلُّ وِقايةً للحَرِّ والبردِ منه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: يرجعونَ إلى علمٍ لعَلِمُوا أنَّ هذا مَثَلُهُم، أو أنَّ دِينَهُم أوهنُ[3] مِن ذلك.

---

(١) قوله: «كمثله بالإضافة...»؛ أي: كمثل العنكبوت، وقد اختصر المؤلف هذا الوجه من كلام «الكشاف»، ولفظ «الكشاف» (٦/ ٥١٤): ولقائل أن يقول: مَثَلُ المُشرِك الذي يَعبُدُ الوَثَنَ بالقِيَاس إلى المُؤمنِ الذي يَعبُدُ اللهَ مَثَلُ عَنكبوتٍ يَتَّخِذ بَيْتاً بالإضافةِ إلى رَجُل يَبْنِي بيتاً بآجُرٍّ وجَصٍّ، أو يَنْحِتُهُ من صَخْرٍ، وكمَا أنَّ أَوْهَنَ البيُوت إذَا استَقْرَيْتَها بَيتاً بَيْتاً بيتُ العَنكبُوتِ، كذلك أَضعَفُ الأَدْيانِ إذا استَقْرَيْتَها دِيْناً دِيناً عِبَادةُ الأَوثانِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قلت: ولعل المصنف رحمه الله لم يرتض جعل المشبَّه مقتصراً على عابد الوثن، بل كل من اتخذ أولياء من دون الله مشمول به.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أوهن».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أوهى».

ويجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ ببيتِ العَنْكَبُوتِ دينَهُم، سَمَّاهُ به تحقيقًا للتَّمثيلِ، فيَكونُ المعنى: وإنَّ أَوْهَنَ ما يُعتمَدُ به في الدِّينِ دينُهُم.

(٤٢) ـ ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ من دونه من شيءٍ﴾ على إضمارِ القَوْلِ؛ أي: قُلْ للكَفَرَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾. وقرأ عاصمٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ بالياءِ[1] حَملًا على ما قبلَه.

و﴿مَا﴾ استفهاميَّةٌ مَنصوبةٌ بـ﴿تَدْعُونَ﴾ و﴿يَعۡلَمُ﴾ مُعلَّقَةٌ عنها و﴿مِن﴾ للتَّبيينِ.

أو نافيةٌ و﴿مِن﴾ مَزيدةٌ و﴿شَيۡءٖ﴾ مَفعولُ ﴿تَدْعُونَ﴾[2].

أو مصدريَّةٌ و﴿شَيۡءٖ﴾ مصدرٌ.

أو موصولَةٌ مفعولٌ لـ﴿يَعۡلَمُ﴾ ومفعولُ ﴿تَدْعُون﴾ عائِدُه المحذوفُ.

والكلامُ على الأوَّلَيْنِ تَجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَل، وعلى الأخيرَينِ وعيدٌ لهم.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تعليلٌ عَلى المَعْنَيين، فإنَّ مِن فَرطِ الغَباوةِ إشراكُ ما لا يُعَدُّ شيئًا بمَنْ هذا شأنُه، وأنَّ الجمادَ بالإضافةِ إلى القادرِ القاهرِ على كُلِّ شيءِ البالغِ في العلمِ وإتقانِ الفعلِ الغايةَ كالمعدومِ، وأنَّ مَن هذا وَصْفُه[3] قادرٌ على مُجازاتِهِم.

(٤٣) ـ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ يعني: هذا المثلَ ونَظائِرَهُ ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لِمَا بَعُدَ مِن أفهامِهِم ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾: ولا يَعْقلُ حسنَها وفائِدَتَها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبَّرونَ الأشياءَ على ما ينبغي.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٠ ـ ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤)، و«المبسوط في القراءات» لابن مهران (ص: ٣٤٥).

(٢) والمعنى على هذا الوجه: إنما تدعون من دونه ما يَستحق أن يُطلَق عليه شيء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩٣).

(٣) في نسخة التفتازاني: «هذه صفته».

وعنه عليه السَّلامُ أنَّه تَلا هذه الآيةَ فقال: «العالمُ مَن عَقَلَ عنِ اللهِ فعَمِلَ بطاعَتِه واجتنبَ سخطَهُ»[1].

(٤٤) ـ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾: مُحِقًّا غيرَ قاصِدٍ بهِ باطِلًا، فإنَّ المقصودَ بالذَّاتِ مِن خلقِهَا إفاضَةُ الخيرِ والدَّلالةُ على ذاتِه وصِفاتِه؛ كما أشارَ إليه بقولِه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنَّهم المنتفعونَ بها.

(٤٥) ـ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تقرُّبًا إلى اللهِ بقراءَتِه، وتحفُّظًا لألفاظِه، واستكشافًا لِمَعانيهِ، فإنَّ القارئَ المُتأمِّلَ قَدْ يَنكَشِفُ له بالتَّكرارِ ما لم يَنْكَشِف له أوَّلَ ما قرعَ سمعَهُ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بأَنْ تكونَ سببًا للانتهاءِ عن المعاصي حالَ الاشتغالِ بها، وغيرِها مِن حَيثُ إنَّها تذكِّرُ اللهَ وتورِثُ للنَّفسِ خشيةً منه.

رُوِيَ أنَّ فتًى مِن الأنصارِ كان يُصلِّي معَ رسولِ اللهِ ﷺ الصَّلواتِ ولا يَدَعُ شيئًا من الفَواحشِ إلا رَكِبَه، فوُصِفَ له فقال: «إنَّ صلاتَهُ ستَنْهَاهُ» فلَمْ يَلبَثْ أَنْ تابَ[2].

---

(١) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧)، وعنه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٧ ـ زوائد الهيثمي)، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٣)، وأورد ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٦) عدة أحاديث في فضل العقل، ليس منها هذا الحديث، لكنه نقل عن الدارقطني قوله: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركَّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، فسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أُخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي، فأتى بأسانيد أخر.

(٢) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف»(٣/ ٤٦): «غريب»، وقال ابن حجر في «الكافي =

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ وللصَّلاةُ أكبرُ مِن سائرِ الطَّاعاتِ، وإنَّما عبَّرَ عنها به للتَّعليلِ، فإنَّ اشتمالَها على ذكرِه[1] هي العمدَةُ في كونِها مُفضَّلَةً على الحسناتِ ناهيَةً عن السَّيئاتِ.

أو: ولَذِكرُ اللهِ إيَّاكُم برَحمَتِه أكبَرُ مِن ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعَتِه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ منه ومِن سائرِ الطَّاعاتِ فيُجازيكُمْ بها أحسنَ المُجازاةِ.

(٤٦) ـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إلا بالخَصلَةِ التي هي أحسَنُ؛ كمُعارضَةِ الخُشونَةِ باللِّينِ، والغَضَبِ بالكَظْمِ، والمشاغبَةِ بالنُّصحِ.

وقيل: هو منسوخٌ بآيَةِ السَّيفِ إذ لا مُجادلةَ أشدُّ مِنه[2]، وجوابُهُ أنَّه آخرُ الدَّواءِ[3].

وقيل: المرادُ به: ذَوُو العَهْدِ مِنْهُم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ، أو بإثباتِ الوَلَدِ وقولِهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، أو بنبذِ العَهْدِ ومنعِ الجزيَةِ.

= الشاف» (٢: ١٤٧): لم أجده». وقال الولي العراقي كما في «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٩٧): لم أقف عليه».

قلت: ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٥ ـ ٥٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه، لكن لم نقف على إسناده.

وروى الإمام أحمد في «المسند» (٩٧٧٨)، والبزار في «مسنده» (٩٢١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠) عَن أبي هريرةَ قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ فلانًا يُصلِّي بالليلِ فإذا أصبحَ سرَقَ فقال: «إنَّه سينهاه ما تقول».

(١) في نسخة التفتازاني: «ذكر الله».

(٢) هو قول قتادة كما ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٣٠) ورجحه.

(٣) قوله: «وجوابه أنه»؛ أي: أن الجدالَ بالسيف «آخر الدواء» لهم، بخلاف ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ فإنه أولُه، فلا تنافيَ بينهما، فلا نسخ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٣٩٤).

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هو مِن المُجادلةِ بالتي هيَ أحسَنُ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «لا تُصدِّقُوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبُوهم، وقولوا: آمَنَّا باللهِ[1] وكتبِه ورسلِه، فإن قالوا باطِلًا لم تُصدِّقُوهُم، وإن قالوا حَقًّا لم تُكذِّبُوهُم»[2].

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: مُطيعونَ له خاصَّةً، وفيه تعريضٌ باتِّخاذِهم أحبارَهُم ورهبانَهُم أربابًا مِن دونِ اللهِ.

(٤٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلكَ الإنزالِ ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وحيًا مصدِّقًا لسائرِ الكتبِ الإلهيَّةِ، وهو تحقيقٌ لقولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ هم عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ وأضرابُه، أو مَن تقدَّمَ عهدَ الرسولِ عليهِ السَّلامُ مِن أهلِ الكتابِ.

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ومِن العربِ، أو أهلِ مكَّةَ، أو ممَّنْ في عهدِ الرَّسولِ مِن الكتابِيِّينَ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾: بالقُرآنِ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظُهورِها وقيامِ الحجَّةِ عليها ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: إلا المتوغِّلونَ في الكفرِ، فإنَّ جزمَهُم به يمنعُهُم عن التَّأمُّلِ فيما يفيدُ لهم صدقَها؛ لكونِها معجزةً بالإضافةِ إلى الرَّسُولِ كما أشارَ إليهِ بقولِه:

(٤٨) ـ ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فإنَّ ظُهورَ هذا الكتابِ الجامعِ لأنواعِ العُلومِ الشَّريفَةِ على أُمِّيٍّ لم يُعْرَفْ بالقراءةِ والتَّعلُّمِ

---

(١) في نسخة الطبلاوي زيادة: «وملائكته». وليست في روايات الحديث.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٥٧) من حديث أبي نملة الأنصاري رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾». ورواه من حديث أبي هريرة البخاري (٤٤٨٥)، لكن فيه: «وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]».

خارقٌ للعادَةِ، وذكرُ اليمينِ زيادةُ تصويرٍ للمَنفيِّ(١)، ونفيٌ للتَّجوُّزِ في الإسنادِ.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنتَ ممَّنْ يَخُطُّ ويقرأُ لقالوا: لعلَّهُ تعلَّمَهُ أو التقطَهُ مِن كتبِ الأَقْدمينَ، وإنَّما سَمَّاهُم مُبطلينَ لكُفرِهم، أو لارتيابِهِم بانتفاءِ وَجْهٍ واحدٍ مِن وُجوهِ الإعجازِ المُتكاثِرَةِ.

وقيل: لارتابَ أهلُ الكتابِ لوجدانِهِم نَعْتَكَ على خِلافِ ما في كُتُبِهِم، فيكونُ إبطالُهُم باعتبارِ الواقعِ دونَ المُقدَّرِ.

(٤٩) ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾: بل القرآنُ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يحفَظُونَهُ لا يقدرُ أحدٌ تحريفَه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: إلا المتوغِّلُونَ في الظُّلمِ بالمُكابرَةِ بعدَ وُضوحِ دَلائلِ إعجازِها حتَّى لم يَعتَدُّوا بها.

(٥٠) ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلَ ناقَةِ صالحٍ وعَصا مُوسى ومائدةِ عيسى.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والبَصريَّانِ وحَفْصٌ: ﴿ءَايَٰتٌ﴾(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنزلُها كما يشاءُ، لستُ أَمْلِكُها فآتيكُمْ بما تَقترِحُونَه.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليسَ مِن شَأني إلا الإنذارُ وإبانَتُه بما أُعطِيتُ مِن الآياتِ.

(٥١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آيةٌ مُغْنِيَةٌ عمَّا اقترحُوهُ ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: تدومُ تلاوتُه عليهم مُتَحَدِّينَ به، فلا يزالُ مَعَهُم آيةٌ ثابتَةٌ لا تضمَحِلُّ بخلافِ سائرِ الآياتِ، أو: يُتْلَى عليهم ـ يعني: اليهودَ ـ بتَحقيقِ ما في أيديهِم مِن نَعتِكَ ونعتِ دينِكَ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «للنفي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾: في ذلك الكتابِ الذي هو آيةٌ مُستمرَّةٌ وحجَّةٌ مبينةٌ ﴿لَرَحْمَةً﴾: لنعمةً عَظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: وتذكرةً لِمَن همُّهُ الإيمانُ دونَ التَّعنُّتِ.

وقيل: إنَّ ناسًا مِن المُسلمينَ أتَوا رسولَ اللهِ بكتفٍ كُتِبَ فيها بعضُ ما يقولُ اليهودُ فقال: «كفى بها ضلالَةَ قومٍ أنْ يرغَبُوا عمَّا جاءَهُم به نبيُّهُم إلى ما جاءَ به غيرُ نَبيِّهم» فنزلَتْ[1].

(٥٢)- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بصِدقي وقد صدَّقَنِي بالمُعجزاتِ، أو: بتَبليغِي ما أُرسِلْتُ به إليكُم ونُصحِي ومُقابلتِكُم إيَّايَ بالتَّكذيبِ والتَّعنُّتِ.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفَى عليه حالي وحالُكُم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مِنْكُم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفقَتِهم حيثُ اشتروا الكفرَ بالإيمانِ.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٤٧٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٢)، عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سَمِعُوه من اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «كفى بقوم حمقاً..» الحديث، وهو مرسل.

وفي الباب من حديث جابر رضي الله عنه، رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ٣٢٣): أن عمر أتى النبي ﷺ فقال: إنّا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنّصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلّا اتّباعي».

ورواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٤٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٦)، وإسناده ضعيف، وليس فيه ذكر نزول الآية.

(٥٣) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكلِّ عذابٍ أو قومٍ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلًا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾: فجأةً في الدُّنيا كوقعةِ بدرٍ، أو الآخرةِ عندَ نُزولِ الموتِ بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانِه.

(٥٤) ـ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: ستحيطُ بهم يومَ يأتيهم العذابُ، أو هيَ كالمُحيطةِ بهم الآنَ لإحاطةِ الكُفرِ والمعاصي التي توجِبُها بهم، واللامُ[1] للعَهدِ على وَضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ للدَّلالةِ على موجبِ الإحاطةِ، أو للجنسِ فيكونُ استدلالًا بحكمِ الجنسِ على حُكمِهِم.

(٥٥) ـ ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لـ(محيطةٌ)، أو لمُقدَّرٍ مثلَ: كانَ كيتَ وكيتَ.

﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: مِن جميعِ جوانبِهم.

﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ، أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه؛ لقراءةِ ابنِ كثيرٍ وابنِ عامرٍ والبَصريِّين بالنُّونِ[2]: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاءَه.

(٥٦) ـ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي: إذا لم يَتسهَّلْ لَكُم العِبادَةُ في بلدةٍ ولم يَتيسَّر لَكُم إظهارُ دينِكُم فهاجِرُوا إلى حيثُ يَتمشَّى لَكُم ذلك.

---

(١) قوله: «واللام»؛ أي: في (الكافرين). انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالياء، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٥٠١)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن فَرَّ بدينِهِ مِن أرضٍ إلى أرضٍ ولو كانَ شبرًا استوجَبَ الجنَّةَ، وكانَ رفيقَ إبراهيمَ ومُحمَّدٍ»[1].

والفاءُ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ إذ المعنى: إنَّ أرضيَ واسِعةٌ، إن لم تُخلِصُوا العِبادةَ لي في أرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها.

(٥٧) - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تنالُه لا مَحالةَ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجَزاءِ، ومَن هذا عاقِبَتُه ينبغي أن يجتهدَ في الاستعدادِ له. وقرأَ أبو بَكرٍ بالياءِ[2].

(٥٨) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: لنُنزِلَنَّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: عَلالِيَ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ»[3]؛ أي: لنُقيمَنَّهُم، مِن الثَّواءِ، فيكونُ انتصابُ ﴿غُرَفًا﴾ لإجرائِه مُجرى: لنُنزِلَنَّهم، أو بنزعِ الخافضِ، أو تشبيهِ الظَّرفِ المؤقَّتِ بالمبهَمِ.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقُرِئَ: (فنِعْمَ)[4]، والمَخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(٥٩) - ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذيَّةِ المشركينَ والهجرةِ للدِّينِ، إلى غيرِ ذلك مِن المِحَنِ والمَشاقِّ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: ولا يتوكَّلُونَ إلَّا على اللهِ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٥) عن الحسن البصري مرسلاً. وتقدم عند تفسير الآية (٩٧) من سورة النساء.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١١٥) عن يحيى بن وثاب.

(٦٠) - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾: لا تطيقُ حملَهُ لضَعفِها، أو: لا تَدَّخِرُه وإنَّما تُصبِحُ ولا معيشةَ عندَها.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثمَّ إنَّها مع ضَعفِها وتوكُّلِها وإيَّاكم مع قوَّتِكُم واجتهادِكُم سَواءٌ في أنَّه لا يرزقُها وإيَّاكُم إلا اللهُ؛ لأنَّ رِزقَ الكُلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَهُ، فلا تخافوا على مَعاشِكُم، فإنَّهم لَمَّا أُمِرُوا بالهجرةِ قال بَعضُهُم: كيفَ نَقْدَمُ بلدةً ليسَ لنا فيها مَعيشَةٌ؟ فنزَلَتْ[1].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكُم هذا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضَميرِكُم.

(٦١) - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ المسؤولُ عَنْهم أهلُ مكَّةَ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِمَا تقرَّرَ في العقولِ وجوبُ انتهاءِ المُمكناتِ إلى واحِدٍ واجِبِ الوجودِ.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: يُصرَفُونَ عن توحيدِهِ بعدَ إقرارِهِم بذلك.

(٦٢) - ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الموسَّعُ له والمضيَّقُ عليهِ واحدًا على أنَّ البسطَ والقبضَ على التَّعاقُبِ، وألَّا يكونَ على وضعِ الضَّميرِ موضِعَ (مَن يَشاءُ)، وإبهامُه لأنَّ (مَن يشاءُ) مُبهَمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يَعلمُ مَصالِحَهم ومَفاسِدَهُم.

(٦٣) - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ مُعترِفِينَ بأنه الموجِدُ للمُمكِنَاتِ بأَسرِهَا أُصولِها وفُروعِهَا، ثمَّ إنَّهُم يُشرِكُونَ به بعضَ مَخلوقاتِه الذي لا يقدرُ على شيءٍ مِن ذلك.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصمَكَ مِن مثلِ هذه الضَّلالةِ، أو على تَصديقِكَ

---

(١) ذكره الماوردي: «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٣)، عن ابن عباس وزاد: فهاجروا.

وإظهـارِ حُجَّتِـك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضـونَ حيـثُ يُقـرُّونَ بأنَّـهُ المبدأُ لـكلِّ مـا عداهُ ثـمَّ إنَّهُم يُشـرِكُونَ بـه الصَّنـمَ، وقيـل: لا يعقلونَ مـا تريـدُ بتَحميدِكَ عنـدَ مَقالِهِم.

(٦٤) ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تَحقيرٍ، وكيفَ لا وهي لا تَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ.

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾: إلا كمَا يَلْهَى ويلعبُ به الصِّبيانُ، يجتمعونَ عليه ويَبتَهِجونَ بِهِ ساعةً ثمَّ يتفرَّقونَ مُتعبينَ.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾: لهـي دارُ الحيـاةِ الحقيقيَّـةِ لامتناعِ طَـرَيانِ المـوتِ عليهـا، أو جُعلـت هي فـي ذاتِهـا حيـاةً للمُبالغَةِ.

و(الحَيَوانُ): مَصدرٌ حَيِيَ؛ سُمِّيَ به ذو الحياة، وأصلُه: حَيَيَان؛ فقُلِبَت الياءُ الثَّانيةُ واوًا، وهو أبلَغُ مِن الحياةِ لِمَا في بناءِ فَعَلَان مِن الحركةِ والاضطرابِ اللَّازمِ للحياةِ ولذلك اختيرَ عليها هاهُنا.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثِرُوا عليها الدُّنيَا التي أصلُها عدمُ الحَياةِ، والحياةُ فيها عارضَةٌ سَريعَةُ الزَّوالُ.

(٦٥) ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مُتَّصِلٌ بما دلَّ عليه شَرحُ حالِهِم؛ أي: هُم على مـا وُصِفُوا به مِن الشِّركِ، فإذا ركبُوا البـحرَ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: كائنينَ في صورَةِ مَن أخلَصَ دينَهُ مِن المؤمنينَ حيثُ لا يذكرونَ إلَّا اللهَ ولا يَدْعونَ سِواهُ؛ لعِلْمِهِم بأنَّه لا يكشِفُ الشَّدائدَ إلَّا هو.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾: فاجَؤوا المعاودةَ إلى الشِّركِ.

(٦٦) ـ ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ اللامُ فيه لامُ (كي)؛ أي: يُشرِكُون ليَكونُوا كافرينَ بشِرْكِهِم نعمةَ النَّجاةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ باجتماعِهِم على عبادةِ الأَصنامِ وتوادِّهِم عليها[١].

أو لامُ الأمرِ[٢] على التَّهديدِ، ويُؤيِّدُه قراءةُ ابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكِسائيِّ وقالون عن نافعٍ: ﴿وَلْيَتْمَتَّعُوا﴾ بالسُّكونِ[٣].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك حينَ يُعاقبونَ.

(٦٧) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني: أهلَ مكَّةَ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: جعَلْنا بلدَهُم مَصونًا عن النَّهبِ والتَّعدِّي آمِنًا أهلُه عن القتلِ والسَّبيِ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: يُختَلَسونَ قَتْلًا وسَبْيًا إذ كانت العربُ حولَهُ في تَغاوُرٍ وتناهُبٍ.

﴿أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: أبعدَ هذه النِّعمةِ المَكشوفَةِ وغيرِها ممَّا لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ بالصَّنمِ أو الشَّيطانِ يؤمنونَ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشرَكُوا به غيرَه؟ وتَقديمُ الصِّلَتينِ للاهتمامِ أو الاختصاصِ[٤] على طريقِ المُبالغَةِ.

---

(١) عبارة «الكشاف» (٦/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤): المعنى: أنَّهم يَعُودُونَ إلى شِركهمْ ليَكُونُوا بالعَوْدِ إلى شِرْكهِمْ كافِرِينَ بنعمَةِ النَّجاة، قَاصِدِينَ التَّمتُّعَ بهَا والتَّلذُّذَ لا غَيرُ، على خِلاف ما هو عَادة المؤمِنينَ المُخلِصِيْنَ على الحَقِيْقة إذَا أنْجاهُم اللهُ أن يَشكُروا نعمَةَ اللهِ في إنجَائِهِم، ويَجْعَلُوا نِعْمةَ النَّجاةِ ذَرِيعَةً إلى ازدِيادِ الطَّاعَةِ لا إلى التَّمتُّعِ والتَّلذُّذِ.

(٢) قوله: «أو لام الأمر» معطوف على قوله: «لام كي». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٧٤).

(٤) في نسخة الخيالي: «للاهتمام به أو الاختصاص» وفي نسخة التفتازاني: «للاهتمام والاختصاص»، وفي نسخة الطبلاوي: «للاهتمام أو الاختصار» وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٦٨) ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأَنْ زعَمَ أنَّ لَهُ شَريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ يعني: الرَّسولَ أو الكتابَ، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيهٌ لَهُم بأَنْ لَمْ يَتوقَّفُوا ولم يتأمَّلُوا قَطُّ حينَ جاءَهُم بل سارَعُوا إلى التَّكذيبِ أوَّلَ ما سَمِعُوهُ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ تقريرٌ لثَوائِهم كقولِه:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا[1]

أي: ألا يستوجبونَ الثَّواءَ فيها وقد افترَوْا مثلَ هذا الكذبِ على اللهِ وكَذَّبُوا بالحقِّ مثلَ هذا التَّكذيبِ؟

أو: لاجترائِهم؛ أي: أَلَمْ يعلَمُوا أنَّ في جهنَّمَ مَثْوًى للكافرينَ حتى اجترَؤُوا مثلَ هذه الجُرأَةِ.

(٦٩) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾: في حقِّنَا، فإطلاقُ[2] المُجاهدَةِ لتَعُمَّ جِهادَ الأَعادي الظَّاهرةِ والباطنَةِ بأنواعِه.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: سُبلَ السَّيرِ إلَيْنَا والوصولِ إلى جَنابِنا، أو: لنَزيدنَّهُم هدايةً إلى سبيلِ الخيرِ وتوفيقًا لسُلوكِهَا؛ كقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧].

وفي الحَديثِ: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، ورَّثَه اللهُ عِلمَ ما لم يَعْلَم»[3].

---

(١) صدر بيتٍ لجريرٍ من قصيدةٍ يمدح بها عبد الملك بن مروان، انظر: «ديوان جرير ـ بشرح ابن حبيب» (١/ ٨٩)، وعجزه:

وأنــدى العالميــنَ بُطــونَ راحِ

(٢) في نسخة التفتازاني: «فأطلق».

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٥)، وقال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنَّصرِ والإعانَةِ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ العَنكبوتِ كانَ له مِن الأجرِ عشرُ حسناتٍ بعَددِ كلِّ المؤمنينَ والمنافقينَ»(١).

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/٢١) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة العنكبوت(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ
فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ
فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ
لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ
نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ
وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ الآية، هذه السورة

(١) مكية وهي تسع وستون آية.

مكية وقيل مدنية. ونزل أوائلها في مسلمين بمكة، كرهوا الجهاد حين فُرض بالمدينة. وقيل في مهجع مولى عمر قتل ببدر، فجزع[١] أبوه وامرأته عليه، وقال فيه رسول الله ﷺ[٢] «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنّة». و«الناس» فسّرت بمن نزلت فيه الآية. و«حسب» يطلب مفعولين سدّت «أنْ» وما بعدها من معمولها مسدّ المفعولين. «أن يقولوا» بدل من «أن يتركوا» و«أن» تكون في موضع نصب بعد إسقاط الخافض وقدّروه بأن يقولوا، أو لأن يقولوا. «وهم لا يفتنون» جملة حالية.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: فأين الكلام الدالّ على المضمون[٤] الذي يقتضيه الحسبان؟ قلت: هو في قوله «أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون» وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا. فالتّرك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمنّا هو الخبر. وأما غير مفتونين، فتتمّة للتّرك لأنه من التّرك الذي هو بمعنى التصيير كقوله[٥]: [من الكامل]

فتــركتُــه جَــزَرَ السبــاع يَنُشْنَــه [ما بين قُلّة رأسه والمِعْصمِ]

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم[٦] غير مفتونين لقولهم آمنّا، على تقدير: حاصل ومستقر قبل اللام. فإن قلت: «أن يقولوا» هو علّة تركهم غير مفتونين وكيف يصحّ أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما

(١) ق: فجرح.

(٢) أخرجه ابن حجر في الكافي الشاف ص١٢٧.

(٣) الكشاف ٣: ١٩٥.

(٤) ق: المضمر.

(٥) البيت لعنترة في ديوانه ص٢١٠.

(٦) ق: تركتهم.

تقول: خروجه لمخافة الشّر [وضربه للتأديب. وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر] وضربته تأديباً، تعليلين. وتقول أيضاً: حسبت خروجه[١] لمخافة الشر، وظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً انتهى.

هذا كلام فيه اضطراب: ذكر أولاً أن تقديره: غير مفتونين تتّمة [٤٣٤/أ] يعني أنه حال، لأنه سبك ذلك من قوله «وهم لا يفتنون» وهذه جملة حالية. ثم ذكر «أن يتركوا» هنا من الترك الذي هو التصيير. وهذا لا يصحّ لأن مفعول صيّر [الثاني] لا يستقيم أن يكون لقولهم، إذ يصير التقدير: أن يصيروا لقولهم وهم لا يفتنون، وهذا كلام لا يصحّ. وأمّا ما مثّله من البيت فإنه يصحّ أن يكون: جزر السباع مفعولاً ثانياً لترك، بمعنى صيّر، بخلاف ما قدّر في الآية. وأمّا تقديره: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا على تقدير حاصل و مستقر قبل اللام، فلا يصحّ إذا كان «تركهم» بمعنى تصييرهم، وكان «غير مفتونين» حالاً؛ إذ لا ينعقد من «تركهم» بمعنى[٢] تصييرهم «ولقولهم» مبتدأ وخبر لاحتياج تركهم بمعنى تصييرهم إلى مفعول ثانٍ، لأن: غير مفتونين عنده حال لا مفعول ثانٍ. وأما قوله: فإن قلت: [«أن يقولوا»] إلى آخره، فيحتاج إلى فضلة فهم؛ وذلك أن قوله «أن يقولوا» هو علّة تركهم، ليس كذلك. لأنه لو كان علّة له لكان به متعلّقاً كما يتعلّق بالفعل، ولكنه علّة للخبر المحذوف الذي هو مستقرّ أو كائن، والخبر غير المبتدأ. ولو كان «لقولهم» علّة للتّرك لكان من تمامه، فكان يحتاج إلى خبر. وأما قوله: كما تقول: خروجه لمخافة الشّر، فلمخافة: ليست علّة للخروج بل

---

(١) ق: خروجهم.

(٢) ق: معنى.

للخبر الذي هو مستقر أو كائن.

و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ المؤمنون أتباع الأنبياء، أصابهم من المحن ما فرق به المؤمن بالمنشار فرقتين، ومشط[١] بأمشاط الحديد، ولا يرجع عن دينه.

﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحان. ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم. ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فيه، مِن عَلِم المتعديّة إلى واحد فيهما ويستحيل حدوث العلم لله تعالى. فالمعنى: وليتعلقنّ علمه به موجوداً كما كان يتعلق به حين كان معدوماً. والمعنى: وليميزن الصادق منهم والكاذب.

قال ابن عطية: «أم» معادلة للألف في قوله «أَحَسِب» وكأنه عزّ وجلّ قرّر الفريقين: قرر المؤمنين على ظنّهم أنهم لا يفتنون، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنّهم أنهم يسبقون نقمات[٢] الله ويعجزونه انتهى.

ليست «أم» معادلة للألف في «أحسب» كما ذكر، لأنها إذ ذاك تكون متّصلة، ولها شرطان: أحدهما أن يكون قبلها لفظ همزة الاستفهام، وهذا الشرط هنا موجود. والثاني أن يكون بعدها مفرد أو ما هو في تقدير المفرد. مثال المفرد: أزيد قائم أم عمرو، ومثال ما هو في تقدير المفرد: أقام زيد أم قعد. وجوابها تعيين أحد الشيئين إن كان التعادل بين شيئين، أو الأشياء إن كان التعادل بين أكثر من شيئين. وهنا بعد «أم» جملة، ولايمكن الجواب هنا بأحد الشيئين، بل «أم» هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضطراب، بمعنى الانتقال من قصة إلى قصة، لا بمعنى الإبطال [٤٣٤/ب].

---

(١) ق: ويمشط.

(٢) ق: نعمات.

والاستفهام هنا للتقرير والتوبيخ والإنكار، فلا يقتضي جواباً، لأنه في معنى: كيف وقع حسبان ذلك؟.

و﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل وغيرهما من صناديد قريش. والآية وإن نزلت على سبب، فهي تعمّ جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم.

﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ بمعنى[1] ان يفوتونا.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تقدّم الكلام عليه في البقرة[2].

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ الظاهر أنها على بابها. ومعنى «لقاء الله» الوصول إلى عاقبة الأمر من الموت والبعث والجزاء، مثّلت حاله بحال عبد قدم على مولاه من سفر بعيد، وقد اطلع مولاه على ما يعمل في غيبته عنه، فإن كان عمل خيراً، تلقّاهُ بإحسان، أو شرًّا فبضدّ الإحسان. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ وما أجّله وجعله له أجلاً لآتيه لا محالة، فليبادر لما يصدق رجاءه.

والظاهر أن قوله ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ معناه: ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات فثمرة جهاده وهو الثواب المعدّ له إنما هي له لا لله تعالى، والله تعالى غني عنه وعن العالمين.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ في جامع الترمذي[3] أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص: آلت أمّه أن لا تطعم ولا تشرب حتى تموت أو يكفر بمحمد.

---

(١) ق: معنى.

(٢) بل في الأنعام، انظر تفسير الآية ١٣٦.

(٣) ٨: ٣٣٣، أخرجه من حديث مصعب بن سعد يحدّث عن أبيه.

و﴿ وَوَصَّيْنَا﴾ أي: أمرناه بتعاهدهما ومراعاتهما. وانتصب «حسناً» على أنه مصدر وُصف به مصدر «وصّينا» أي: إيصاءً حُسْناً أي: ذا حُسْن، أو على سبيل المبالغة أي: هو في ذاته حسن.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال ابن زيد: نزلت في المنافقين ولمّا ذكر تعالى ما أعدّه للمؤمنين، ذكر حال المنافقين: ناساً آمنوا بألسنتهم فإذا آذاهم الكفار جعلوا ذلك الأذى - وهو فتنة الناس[١] - صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر.

﴿وَلْنَحْمِلْ ﴾ اللام فيه لام الأمر. وأكثر ما تدخل فيه لام الأمر على المضارع المراد به الغائب كقوله ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج]. وقد جاء في المخاطب قليلاً؛ قرأ بعضهم «فبذلك فلتفرحوا» [يونس:٥٨]. وأما دخولها على المتكلم فهو قليل، وقد جاء في الحديث دخولها على المضارع المتكلّم: «قوموا فَلأُصَلِّ لكم»[٢]. والحمل هنا مجاز؛ شبّه القيام بما يتحصّل من عواقب الإثم بالحمل على الظهر، والخطايا بالمحمول. ولمّا كان الأمر يراد به الخبر، صحّ فيه أن يُكذب.

﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: سؤال توبيخ وتقريع.

قال الزمخشري[٣] بعد كلام: وهذا قول صناديد قريش؛ كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فنحن نتحمّل عنكم

---

(١) ق: للناس.

(٢) انظر صحيح مسلم ١: ٤٥٧، أخرجه من حديث أنس. ولم تدخل لام الأمر على المتكلم ثَمَّ.

(٣) لم أجد هذا النص في الكشاف في هذا الموضع.

الإثم انتهى.

قوله: فإن عسى كان، تركيب أعجمي لا عربي، لأنّ «إنْ» الشرطية لا تدخل على عسى لأنه فعل جامد، ولا تدخل[1] أدوات الشرط على الفعل الجامد. وأيضاً فإنّ عسى [٤٣٥/أ] لا يليها كان، واستعمل عسى بغير اسم ولا خبر ولم يستعملها تامّة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا
ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) ق: يدخل.

﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية، ذكر هذه القصة تسلية لرسول الله ﷺ لما كان يلقى من أذى الكفّار، فذكر ما لقي أول الرسل نوح من أذى قومه المدد المتطاولة، تسلية لخاتم الرسل صلوات الله عليه. والواو في «ولقد» واو عطف، عطفت جملة على جملة. والاستثناء من الألْف استُدلّ به على جواز الاستثناء من العدد، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف مذكور في النحو. واختُلف في مقدار عمره حين بُعث[1] وحين مات اختلافاً كثيراً.

قال ابن عطية: وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته من لدن مولده إلى غرق قومه انتهى.

ليس عندي بمحتمل، لأن اللبث متعقّب[2] بالفاء الدالّة على التعقيب.

والضمير في «وجعلناها» يحتمل أن يعود على السفينة. وأفرد[3] «آية» وجاءت الفاصلة «للعالمين» لأن إنجاء السّفن أمر معهود، فالآية إنجاؤه تعالى أصحاب السفينة وقت الحاجة، ولأنها بقيت أعواماً حتى مرّ عليها الناس ورأوها، فحصل العلم لهم بها، فناسب ذلك قوله «للعالمين».

وانتصب «إبراهيم» عطفاً على «نوحاً».

---

(١) ق: كان بعث.

(٢) ق: يتعلق.

(٣) ق: وإفراد.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ ﴾ هذه القصة تمثيل لقريش وتذكير لهم بحال أبيهم إبراهيم من رفض الأصنام والدعوى إلى عبادة الله تعالى.

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ قال ابن عباس: هو نحت الأصنام وخلقها، سمّاها إفكاً توسّعاً من حيث يفترون بها الإفك في أنها آلهة.

وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان وغير ذلك.

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ ﴿ ثُمَّ [ٱللَّهُ] يُنشِئُ ﴾ هاتان جملتان مستأنفتان، إخبار من الله تعالى بالإعادة بعد الموت. وقدّم ما قبل[١] هاتين الجملتين على سبيل الدّلالة على إمكان ذلك. وإذا أمكن ذلك، وأخبر الصادق بوقوعه صار واجباً مقطوعاً بعلمه لا شكّ فيه.

﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي: تردّون.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: فائتين ما أراد الله بكم. والظاهر أن قوله ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ ﴾ من كلام الله تعالى حكاية عن إبراهيم، إلى قوله ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢]. وقيل: هذه الآيات اعتراض من كلام الله تعالى بين كلام إبراهيم والإخبار عن جواب قومه، أي: وإن تكذبوا محمداً.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ الآية، لمّا أمرهم بعبادة الله تعالى، وبيّن سفههم في عبادة الأوثان، وظهرت حجّته عليهم، رجعوا إلى الغلبة، فجعلوا القائم مقام جوابه فيما أمرهم به قولهم ﴿ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾. والآمرون بذلك إمّا بعضهم لبعض، أو كبراؤهم قالوا لأتباعهم: اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً،

---

(١) ق: قيل.

(٢) الآيات ١٨-٢٣.

أو حرّقوه بالنّار، فإمّا أن يرجع إلى دينكم إذا أمضّته[1] النار، وإمّا أن يموت بها [٤٣٥/ب] إن أصرّ على قوله ودينه. وفي الكلام حذف تقديره: فقذفوه في النار، فأنجاه الله تعالى من النار. وفي ذلك إشارة إلى خلوصه من النار بعد إلقائه فيها. قال كعب: لم يحترق منه[2] بالنّار إلا الحبل الذي أوثقوه به.

وجاء هنا الترديد بين قتله وإحراقه؛ فقد يكون ذلك من قائلَيْن: ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق. وفي الأنبياء ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء] اقتصروا على أحد الشيئين وهو الذي فعلوه: رموه في النار ولم يقتلوه.

وقرىء: مودّةُ، بالرفع من غير تنوين. وبينكم بفتح النون على خبر «إنّ» و«ما» موصولة بمعنى الذي، أي: إن الأوثان التي اتخذتموها مودّة. وقرىء: مودّةً، منصوباً منوّناً. وبينكم، ظرف معمول «المودّة». وقرىء: مودّةَ، نصباً بغير تنوين مضافاً لقوله «بينكم».

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ الآية، لم يؤمن بإبراهيم أحد من قومه إلا لوط عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه، وكان ابن أخيه، وسارة وكانت بنت عمّه. والضمير في «وقال» عائد على إبراهيم وهو الظاهر ليتناسق مع قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾. وكان إبراهيم ابن خمس وسبعين سنة، وهو أول من هاجر في الله تعالى.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ

(١) في المطبوع: مضّته، وهو لغة.

(٢) ق: فيه.

أَئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

وانتصب «ولوطاً» بإضمار: اذكر، أو بالعطف على ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت]، أو بالعطف على ما عطف عليه «إبراهيم». استفهم أولاً وثانياً استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، وبيّن ما تلك الفاحشة المبهمة في قوله ﴿إِنَّكُمْ[1] لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وإن كانت معيّنة أنها إتيان الذكور في أدبارهم - بقوله ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ [فقال ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ يعني في الأدبار].

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: سبيل الولد بتعطيل الفروج ووطء أدبار الرجال.

قال الزمخشري[2]: «ما سبقكم بها» جملة مستأنفة مقرِّرة[3] - يعني لقبح تلك الفعلة انتهى.

ويظهر أنها جملة حالية، كأنه قال: أتأتون الفاحشة[4] مبتدعين لها غير

(١) ق: أئتكم.
(٢) الكشاف ٣: ٢٠٤.
(٣) ق: مقدّرة.
(٤) ق: الفاتحة.

مسبوقين بها. وفي عموم قوله «من أحد من العالمين» دليل على أنه لم يَنْزُ ذكر على ذكر قبل قوم لوط.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: في مجلسكم الذي تجتمعون فيه. وهو اسم جنس إذ أنديتهم في مدائنهم كثيرة، ولا يُسمّى نادياً إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه، لم يُطلق عليه نادٍ إلا بمجاز.

و«المنكر» ما تنكره العقول والشرائع والمروءات من تضارطهم وتصافعهم وغير ذلك. وهم أول من لاط، [ونساؤهم أول] من ساحق[1].

ولمّا وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح أصرّوا على اللجاج في التكذيب، فكان جوابهم له أن قالوا: ائتنا بعذاب الله، قالوا ذلك وهم مصممون على اعتقاد كذبه فيما وعدهم به.

ثم استنصر لوط ربّه عليهم فبعث ملائكة لعذابهم ورميهم بالحاصب.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ تقدم الكلام عليه[2].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّن

(١) ق: ومن سحق.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٧ من هود.

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الآية، أي: وإلى مدين أرسلنا. «وارجوا» أي: خافوا [٤٣٦/ أ] جزاء اليوم الآخر من انتقام الله منكم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ تقدم الكلام عليه[(١)].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ تقدم الكلام عليه[(٢)].

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ فالحاصب لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء، والصيحة لمدين وثمود، والخسف لقارون، والغرق لقوم نوح وفرعون وقومه[(٣)].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾
وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ
إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ والعنكبوت حيوان معروف، ووزنه فَعْلَلُوت،

(١) انظر تفسير الآية ٦٠ من البقرة.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٨ من الأعراف.

(٣) أصل العبارة للزمخشري، انظر الكشاف ٣: ٢٠٦.

ويؤنث ويذكّر. شبّه تعالى الكفّار في عبادتهم الأصنام وبنائهم أمورهم عليها بالعنكبوت التي تبني وتجتهد[١] وأمرها كله ضعيف متى مسّه أدنى هامة أذهبته، فكذلك[٢] أمر هؤلاء وسعيهم مضمحلّ لا قوّة له ولا معتمد.

قال الزمخشري[٣]: والغرض تشبيه ما اتّخذوه متّكلاً ومعتمداً في دينهم، وتولّوه من دون الله بما هو مَثَلٌ عند الناس في الوهن وضعف القوة وهو نسج [العنكبوت]. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله «وإن أوهن[٤] البيوت لبيت العنكبوت» انتهى.

والذي يظهر هو تشبيه المتّخذ من دون الله وليًّا بالعَنبكوت المتّخذة بيتاً[٥]، فلا اعتماد للمتّخذ على وليّه من دون الله كما أن العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في استظلال وسكنى، بل[٦] لو دخلتْ فيه خرقته. ثم بيّن حال بيتها، وأنه في غاية الوهن بحيث لا يُنتفع به، كما أن تلك الأصنام لا تنفع، فلا تحدث شيئاً البتّة.

والإشارة بقوله «وتلك» إلى الأمثال وما تقدّم من الأمثال في السّور.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: لا يعقل صحّتها وحسنها وفائدتها إلا العالمون.

---

(١) ق: يبني ويجتهد.

(٢) ق: فلذلك.

(٣) الكشاف ٣: ٢٠٦.

(٤) ق: أهن.

(٥) عبارة ق: والنصّ يظهر في تشبيه المتّخذ من دون الله ولياً هو بالعنكبوت المتخذة وليًا بيتاً.

(٦) ق: وسلني قل.

وكان جهلة قريش يقولون إن ربّ محمد يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، وما علموا أن الأمثال تبرز[(١)] المعاني الخفيّة في الصّور الجليّة.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ
وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ
وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ
مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ
بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ الآية، «أهل الكتاب» اليهود والنصارى. [و«[بالتي] هي أحسن» الملاطفة[(٢)] في الدعاء إلى الله تعالى والتّنبيه على آياته. «إلا الذين ظلموا» من لم يؤدّ جزية، ونصب الحرب، وصرّح بأن لله تعالى ولداً أو شريكاً، أو يده مغلولة. فالآية منسوخة في مهادنة من لم يحارب. «وقولوا[(٣)] آمنا» هذا من المجادلة.

---

(١) ق: يبرز.

(٢) ق: من الملاطفة.

(٣) ق: وقوله.

وفي صحيح البخاري[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالله».

«وكذلك» أي: مثل إنزل تلك الكتب السابقة[٢]. ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ [ٱلْكِتَٰبَ]﴾ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه. ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: من أهل مكة. ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[٣] أي: بالقرآن إذ هو مذكور في كتبهم أنه ينزل على رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [٤٣٦/ب] مع ظهورها وزوال الشبهة عنها. ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: من بني إسرائيل وغيرهم.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله عليك. «من كتاب» أي: كتاباً، و«مِن» زائدة لأنها في متعلّق النّفي. «ولا تخطه» أي: لا تقرأ ولا تكتب بيمينك، وهي الجارحة التي يُكتب بها. وذكرها زيادة تصوير لما نُفي عنه من الكتابة.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كان يقرأ كتباً قبل نزول القرآن عليه، أو يكتب، لحصلت الريبة للمبطلين، إذ كانوا يقولون: حصّل ذلك الذي يتلوه ممّا قرأه قبلُ، وخطّه، واستحفظه. فكان يكون لهم في ارتيابهم تعلُّقٌ ببعض شبهة. وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجّة فظاهرٌ فساده. و«المبطلون» أهل الكتاب.

(١) ٦: ٢٦٧٩.

(٢) ق: أي مثل ذلك الذي للكتب السابقة.

(٣) ق: يؤمنون به.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: قريش. وبعض اليهود كانوا يُعلّمون[١] قريشاً مثل هذا الاقتراح ويقولون لهم: ألا يأتيكم بآية مثل آية موسى من العصا وغيرها.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الظاهر أنه ردٌّ على الذين قالوا «لولا أنزل». أي: أوَلم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحقّ غير متعنّتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحلّ؟.

[وقيل «أولم يكفهم» يعني اليهود]. ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ[ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك].

روي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد، من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزلت ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾[٢]، أي: قد بلّغت وأنذرت، وأنكم جحدتم وكذّبتم، وهو العالم ما في السماوات والأرض، فيعلم أمري وأمركم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس: بغير الله[٣].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى

---

(١) ق: يعملون.

(٢) لم أجده.

(٣) بعده في ق كلام متصل بالآية ٥٨ التالية، نقلته هناك.

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: قريش في قولهم ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ[1] ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف] وهو استعجال على جهة التعجيز والتكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعّدهم به الرسول عليه السلام. والأجل المسمّى: ما سمّاه الله تعالى وأثبتة في اللوح المحفوظ لعذابهم، وأوجبت الحكمة تأخيره.

ثم كرر فعلهم وقبحه وأخبر أن وراءهم جهنم تحيط بهم.

وانتصب «يوم يغشاهم» بمحيط.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ الآية، أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن قوله «يا عبادي» الآية، نزلت فيمن كان مقيماً بمكة، أُمروا بالهجرة عنها إلى المدينة. أي: جانبوا أهل الشرك واطلبوا أهل الإيمان.

ولمّا أخبر تعالى بسعة أرضه - وكان ذلك إشارة إلى الهجرة - وأمر بعبادته، فكان قد يتوهم متوهم أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلّها من أهل الكفر [٤٣٧/أ] إلى دار الإسلام، لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه، فربما أدّى ذلك إلى هلاكه - أخبر أن كلّ نفس لها أجل تبلغه، وتموت[2] في أي مكان حلّ، وأن رجوع الجميع إلى جزائه يوم القيامة.

---

(١) ليست الآية بهذه الألفاظ من قول كفار قريش.

(٢) ق: ويموت.

أجاز أبو البقاء[١] أن يكون «الذين» منصوباً بفعل محذوف يدلّ عليه «لنبوّئنهم».

وهذا لا يجوز لأنه لا يفسّر إلا ما يجوز له أن يعمل، ولا يجوز أن تقول زيداً لأضربنّ، فلا يجوز أن تقول: زيداً لأضربنّه، لما ذكرنا[٢].

وقرىء: لنبوّئنّهم، من المباءة[٣] وهي المرجع. والمعنى: لنجعلنّ لهم مكان مباءة أي: مرجعاً يأوون إليه.

﴿غُرَفًا﴾ أي: علالي.

وقرىء: لَنُثْوِيَنَّهم، من ثوى أي: أقام[٤]، وهو فعل لازم فدخلت عليه همزة التعدية، فصار يتعدّى إلى واحد. وقرىء مشدّداً[٥]، عدّي بالتضعيف فانتصبت «غرفاً» إما على إسقاط حرف الجر أي: في غرف، ثم اتّسع فحذف. وإما على تضمين الفعل معنى التّبوئة فتعدّى إلى اثنين، أو شبه الظرف المكاني المخصص بالمبهم فوصل إليه الفعل.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: على مفارقة أوطانهم والهجرة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذان جماع الخير كلّه: الصبر وتفويض الأمور إلى الله تعالى.

---

(١) انظر إملاء ٢: ١٨٣.

(٢) ما تقدّم من تفسير هذه الآية ورد في ق في نهاية تفسير الآية ٥٢. وها هنا موضعه الصحيح.

(٣) ق: المياه.

(٤) ق: وأما ثوى فمعناه أقام.

(٥) أي: لَنُثَوِيَنَّهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا
رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ
فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم بمكّة بالهجرة خافوا الفقر فقالوا: أغربة في بلد لا دار لنا فيه ولا عقار ولا من يطعم. فمثّل لهم بأكثر[1] الدّواب التي تقتات ولا تدّخر ولا تروّي[2] في رزقها. و﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ من الحمل التي لا تنقل ولا تنظر[3] في ادّخار. ثم قال ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي: على ضعفها. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: على قدرتكم على الاكتساب وعلى التحيّل في تحصيل المعيشة، ومع ذلك فرازقكم هو الله تعالى.

﴿وَمَا هَٰذِهِ﴾ الإشارة «بهذه» ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها. و﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾

(١) ق: بأكبر.

(٢) روّى في الأمر: نظر فيه وفكّر.

(٣) ق: لا ينقل ولا ينظر.

والحياة بمعنى واحد. وجعلت الدار الآخرة حيواناً[١] على المبالغة بالوصف بالحياة.

ولمّا ذكر تعالى أنهم مقرّون بالله تعالى إذا سئلوا مَن خلق العالم ومن[٢] نزّل من السماء ماءً؟ ذكر أيضاً حالة أخرى يرجعون فيها إلى الله تعالى، ويقرّون بأنه هو الفاعل لما يريد، وذلك حين ركوب البحر واضطراب أمواجه واختلاف رياحه.

﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ جواب «للمّا» أي: فاجأ التّنجية إشراكهم بالله تعالى، أي: لم[٣] يتأخر عنها ولا وقتاً.

والظاهر في «ليكفروا» أنها لام[٤] كي، وعطف عليه «وليتمتعوا». والمعنى: عادوا إلى إشراكهم ليكفروا، أي: الحامل لهم على الشرك كفرهم بما أعطاهم الله تعالى، وتلذّذهم بما مُتّعوا به من عَرَض الدّنيا، بخلاف المؤمنين، فلم يقابلوها إلا بالشكر لله تعالى على ذلك.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمه حيث أسكنهم بلدة أمنوا فيها، لا يغزوهم[٥] أحد، ولا يستلب[٦] منهم، مع كونهم قليلي العدد قارّين في مكان غير ذي زرع. وهذه من أعظم النعم التي كفروا بها، وهي نعمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

---

(١) ق: حيا.

(٢) ق: وما.

(٣) ق: لمن.

(٤) ق: لم.

(٥) ق: يعروهم. وهو وجه؛ يقال: عراه: غشيه وألمّ به وأتاه طالباً.

(٦) ق: ينسلب.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ ﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمتعلّق، ليتناول المجاهدة في النفس. قال ابن عباس: جاهدوا أهواءهم في طاعة الله.

﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ [٤٣٧/ب] أي: لنزيدنّهم هداية إلى سبيل الخير كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]. و«الذين» مبتدأ خبره القسم المحذوف وجوابه وهو «لنهدينّهم».

سورة العنكبوت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ
نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ
سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾
وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

هذه السُّورة مكية؛ قاله جابر وعكرمة والحسن. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية.

وقال يحيى بن سَلَّام: مكية إلا من أوَّلها إلى «وليَعْلَمَنَّ المنافقين»(١).

(١) الأقوال الثلاثة في النكت والعيون ٤/ ٢٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٥٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٣.

ونزل أوَّلُها[١] في مسلمين بمكَّة كرهوا الجهاد حين فُرض بالمدينة، قاله السُّدّي[٢].

أو في عمَّار ونُظَرائه ممَّن كان يُعذَّب في الله. قاله ابن عمر[٣].

أو في مُسلمين كان كُفّار قريش بمكة يؤذونهم. قاله مجاهد[٤]، وهو قريب مما قبله.

أو في مِهْجَع مولى عمر، قُتل ببدر؛ فجزع أبواه وامرأتُه عليه، وقال فيه رسول الله ﷺ: «سيِّد الشُّهداءِ مِهْجَع، وهو أوَّلُ مَن يُدعى إلى باب الجنَّة»[٥].

أو في عيَّاش أخي أبي جَهْل، عُذِّب[٦] فارتدّ.

و«النَّاس» فُسِّر بمَن نزلت فيه الآية. وقال الحسن: الناس هنا المنافقون[٧]، أي: أن يُتركوا بمُجرَّد[٨] قولهم آمنّا.

و«حَسِب» يطلب مفعولين، فقال الحَوْفي وابن عطية وأبو البقاء: سَدَّت «أنْ» وما بعدها من مَعْمولها مَسَدَّ المفعولين[٩]، وأجاز الحَوْفي وأبو البقاء أن يكون:

---

(١) في (أ، ح، يه): أوائلها، والمثبت من (ت).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٣ عن عبد الله بن عبيد بن عمير، وهو كذلك في النكت والعيون ٤/ ٢٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ٤، وزاد المسير ٦/ ٢٥٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥.

(٥) أسباب النزول ٣٥٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ٤، والنكت والعيون ٤/ ٢٧٥، وزاد المسير ٦/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٤ عن مقاتل.

(٦) في (أ، ح، ع) والمطبوع: غدر، ومكانها بياض في (ت)، والمثبت من (يه)، والخبر في النكت والعيون ٤/ ٢٧٥.

(٧) نقله عنه الآلوسي في تفسيره ٢٠/ ٣٠٤، وأخرج ابن أبي حاتم ٦/ ٣٠٣١ ـ وذكره الماوردي ٤/ ٢٧٤ ـ عن الحسن أنه قال: أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا لا إله إلا الله حتى أبتليهم فأعرف الصادق من الكاذب.

(٨) في المطبوع: لمجرد.

(٩) في المطبوع: القولين، وانظر إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥.

«أنْ يقولوا» بدلاً من «أنْ يُتْرَكوا»[١]، وأن يكون[٢] في موضع نَصْب بعد إسقاط الخافض، وقَدَّروه: بأنْ يقولوا، أو لأنْ يقولوا.

وقال ابن عطية وأبو البقاء: وإذا قَدَّرتَ الباء كان حالاً[٣]، قال ابن عطية: والمعنى في الباء واللام مختلف؛ وذلك أنه في الباء كما تقول: تركتُ زيداً بحاله، وهي في اللام بمعنى: من أجل؛ أي: حَسِبوا أن إيمانَهم عِلَّةٌ للتَّرْك[٤]. انتهى.

وقوله: أي: حسبوا أن إيمانهم علةٌ للترك[٥]؛ تفسيرُ معنىً، إذ تفسيرُ الإعراب: حُسبانهم أن التَّرك لأجل تَلَفُّظهم[٦] بالإيمان.

وقال الزمخشري: فإنْ قلت: فأين الكلامُ الدَّالُّ على المضمون الذي يَقتضيه الحُسبان؟ قلت: هو في قوله: «أنْ يُتْرَكوا أنْ يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون»؛ وذلك أن تقديره: أحسبوا تَرْكَهم غيرَ مَفتونين لقولهم آمنا؟! فالتَّركُ أولُ مفعولَي حسب، ولقولهم آمنا هو الخبر، وأمَّا غير مفتونين فتَتَمَّةٌ للتَّرك[٧]؛ لأنه من التَّرك الذي هو بمعنى التَّصْيير، كقوله:

فتركْتُه جَزَرَ السِّباع يَنُشْنَه[٨]

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحُسبان تقدر أن تقول: تركهم[٩] غير مفتونين

---

(١) الإملاء ٢/ ١٨١.
(٢) في المطبوع: يكونوا، وهو خطأ.
(٣) الإملاء ٢/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥.
(٤) في (أ، ح، ع): للشرط، والمثبت من (ت، يه) والمطبوع، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦.
(٥) من قوله: انتهى... إلى هنا ليس في المطبوع.
(٦) في (ت) نطقهم، وهما بمعنى.
(٧) في (أ، ت، ح، ع): فتنة لا الترك، وهو تحريف.
(٨) تمامه: ما بين قُلَّة رأسه والمِعْصَم، وهو من معلقة عنترة، انظر ديوانه ٢١٠ (طبعة مولوي)، يريد: تركت هذا المقتول لحماً للسباع، يتناولنه ويأكلن منه، وقلة رأسه: أعلاه، والمعصم: موضع السوار من الذراع، شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ٣٤٧، وشرح القصائد التسع المشهورات للنحاس ٢/ ٥١٠.
(٩) في المطبوع: تركتهم.

لقولهم آمنا، على تقدير: حاصلٌ ومُستقرّ، قبل اللام.

فإن قلت: «أنْ يقولوا» هو عِلَّةُ تركِهم غير مفتونين، فكيف يصحُّ أن يقع خبرَ مبتدأ؟ قلت: كما تقول: خُروجُه لمخافة الشَّرِّ، وضَرْبُه للتّأديب، وقد كان التأديبُ والمخافة في قولك[1]: خرجتُ مَخافةَ الشرِّ وضربتُه تأديباً تعليلَيْن، وتقول أيضاً: حسبتُ خروجَه لمخافة الشرّ، وظننتُ ضَرْبَه للتَّأديب، فتجعلُهما مفعولَيْن كما جعلتَهما مبتدأ وخبراً. انتهى[2].

وهو كلامٌ فيه اضطراب؛ ذكر أوَّلاً أن تقديره غيرَ مفتونين تتمةٌ، يعني أنه حال؛ لأنه سَبَك ذلك من قوله: «وهم لا يفتنون» وهذه جملةٌ حاليَّة، ثم ذكر «أنْ يتركوا» هنا من التَّرك الذي هو من التَّصيير، وهذا لا يصحّ؛ لأن مفعول صَيَّر الثاني لا يستقيم أن يكون لقولهم؛ إذ يصير التقدير: أن يُصيَّروا لقولهم وهم لا يفتنون، وهذا كلام لا يَصحّ.

وأمَّا ما مَثَّله به من البيت فإنه يصحُّ أن يكون جَزَر السِّباع مفعولاً ثانياً لترك بمعنى صَيَّر، بخلاف ما قدَّر في الآية.

وأمَّا تقديرُه: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا على تقدير حاصِلٍ ومُسْتَقرٌّ قبل اللام فلا يصحّ إذا كان ترْكُهم بمعنى تصييرهم، وكان غير مفتونين حالاً؛ إذ لا يَنْعَقد من تَرْكهم بمعنى تصييرهم وتَقَوُّلِهم[3] مبتدأٌ وخبرٌ؛ لاحتياج ترْكِهم بمعنى تصييرهم إلى مفعولٍ ثان؛ لأن غير مفتونين عنده حالٌ لا مفعولٌ ثان.

وأمَّا قوله: فإن قلت: أن يقولوا... إلى آخره، فيحتاج إلى فَضْلَة فَهْم؛ وذلك أن قوله: «أنْ يقولوا» هو علَّةُ تركِهم فليس كذلك؛ لأنه لو كان علَّةً له لكان به متعلّقاً كما يتعلق بالفعل، ولكنه علَّةٌ للخبر المحذوف الذي هو مُستقرٌّ أو كائنٌ، والخبرُ غير المبتدأ، ولو كان «لقولهم» علَّةً للترك لكان من تمامه فكان يحتاج إلى خبر.

(١) في المطبوع: قوله.
(٢) الكشاف ٣/ ١٩٥.
(٣) في (أ، ح، ع، يه): ولقولهم، وفي (ت): وكقوله، وكله خطأ، والمثبت من المطبوع والدر المصون ٩/ ٧ فقد نقل السمين كلام أبي حيان كله.

وأمَّا قوله: كما تقول: خروجهُ لمخافةِ الشرِّ؛ فلمخافة ليس علَّةً للخروج بل للخبر المحذوف الذي هو مُستقرٌّ أو كائن[1].

«وهم لا يفتنون» قال الشَّعبي: الفِتنةُ هنا ما كُلِّفَه المؤمنون من الهجرة التي لم يُترَكوا دونها[2].

وقال الكلبي: هو مثال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]. وقال مجاهد: يُبْتَلَون في أنفسهم وأموالهم[3].

و«الذين من قبلهم» المؤمنون أتباعُ الأنبياء، أصابهم من المِحَن ما فُرِق به المؤمن بالمِنْشار فِرقتَيْن، ويُمشَط بأمشاط الحديد ولا يرجع عن دينه.

«فليَعلمنَّ الله» بالامتحان «الذين صَدقوا» في إيمانهم «وليَعلمنَّ الكاذبين» فيه، من عَلم المتعدِّية إلى واحد فيهما، ويستحيلُ حُدوثُ العلم لله تعالى، فالمعنى: ولَيَتَعَلَّقَنَّ علمُهُ به موجوداً كما كان متعلِّقاً به حين كان معدوماً. والمعنى: ولَيميزَنَّ الصَّادقَ منهم من الكاذب. أو عَبَّر بالعلم عن الجزاء، أي: ولَيُثيبَنَّ الصَّادق وليعذِّبنّ الكاذب، ومعنى صدقوا في إيمانهم: فطابق[4] قولُهم واعتقادُهم أفعالَهم، والكاذبين ضدُّ ذلك.

وقرأ عليٌّ وجعفر بن محمد: «فلَيُعْلِمَنَّ»[5] مضارع أعلم؛ المنقولة بهمزة التعدّي من علم المتعدية إلى واحد والثاني محذوف، أي: منازلَهم في الآخرة من ثواب وعقاب، أو الأولُ محذوف، أي: فلَيُعْلِمَنّ الناسَ الذين صَدقوا ـ أي:

---

(١) قال السمين في الدر المصون ٩/ ٧: وهذا الذي ذكره الشيخ كله جوابه: أن الزمخشري إنما نظر إلى جانب المعنى، وكلامه عليه صحيح، وأما قوله: ليس علة للخروج ونحو ذلك؛ يعني في اللفظ، وأما في المعنى فهو علة له قطعاً.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٢.

(٤) في (أ، ت، ح): تطابق، وفي (ع) والمطبوع: يطابق، والمثبت من (يه).

(٥) المحتسب ٢/ ١٥٩، ومختصر في الشواذ ١١٤، وأخرجها ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٢ عن علي، وهي في الكشاف ٣/ ١٩٦، وزاد المسير ٦/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٣٧.

يَشْهَرُهم ـ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشرِّ، وذلك في الدُّنيا والآخرة، أو من العَلامة فيتعدَّى إلى واحد، أي: يَسِمُهُم بعَلامةٍ تَصلُحُ لهم، كقوله: «مَنْ أَسَرَّ سَريرةً أَلْبَسَه الله رِداءها»[1].

وقرأ الزُّهري الأولى كقراءة الجماعة، والثانية كقراءة عليّ[2].

«أم حَسِبَ» قال ابن عطية: أم مُعادلةٌ للألف في قوله: «أَحَسِبَ» وكأنّه عز وجل قَرَّر الفريقَيْن؛ قَرَّر المؤمنين على ظَنِّهم أنهم لا يُفْتَنون، وقَرَّر الكافرين الذين يعملون السيِّئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظَنِّهم أنهم يَسبقون نَقِمات الله ويُعجزونه. انتهى[3].

وليست أم هنا مُعادلة للألف في أحسب كما ذكر؛ لأنها إذْ ذاك تكونُ متَّصلة، ولها شَرطان: أحدهما أن يكون قبلَها لفظُ همزة الاستفهام، وهذا الشَّرطُ هنا موجود، والثاني أن يكون بعدها مُفرد أو ما هو في تقدير المفرد، مثالُ المفرد: أزيدٌ قائمٌ أم عمرو؟ ومثال ما هو في تقدير المفرد: أقام زيد أم قعَد؟ وجوابُها تعيين أحد الشَّيئين إن كان التَّعادلُ بين شيئين، أو الأشياء إن كان بين أكثر من شيئين. وهنا بعد أم جملة، ولا يمكن الجوابُ هنا بأحد الشيئين، بل «أم» هنا مُنقطعة بمعنى بل التي للإضراب، بمعنى الانتقال من قضيَّةٍ إلى قضية؛ لا بمعنى الإبطال، وهمزة الاستفهام والاستفهام هنا للتَّقرير[4] والتَّوبيخ والإنكار، فلا يقتضي جواباً لأنه في معنى: كيف وقع حُسبانُ ذلك؟

و«الذين يَعملون السَّيِّئات» قال ابن عباس: يُريد الوليد بن المُغيرة، وأبا جَهْل، والأسود والعاصي بن هشام، وشَيْبَة وعُتْبة، والوليد بن عُتْبة، وعُقبة بن أبي مُعَيْط،

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٠٦، وتفسير القرطبي ١٦/٣٣٧، والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٦) من حديث جندب بن سفيان البجلي، وفيه كذاب ومتروك، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٠/١٢٧، وابن أبي حاتم ١٤٥٨/٥ (٨٣٤٢) من حديث عثمان بن عفان، وفيه متروك.
(٢) المحتسب ٢/١٥٩، والمحرر الوجيز ٤/٣٠٦.
(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٠٦.
(٤) في المطبوع: للتقريع.

وحَنْظلة بن أبي سفيان، والعاصي بن وائل، وأنْظارهم من صَناديد قُريش[١]. انتهى. والآية وإنْ نَزلت على سَببٍ فهي تَعُمُّ جميعَ مَن يَعملُ السّيئات من كافر ومسلم.

وقال مجاهد: «أنْ يسبقونا» أي: يُعْجِزونا فلا نَقدر على الانتقام[٢]، وقيل: أن يُعجلونا محتومَ القضاء، وقيل: أن يَهربوا منّا ويَفوتونا بأنفسهم[٣].

وقال الزمخشري: «أن يسبقونا» أن يفوتونا، يعني: أن الجزاء يَلْحقهم لا محالة وهم لم يَطمعوا في الفَوْت[٤]، ولم يُحَدِّثوا به أنفسَهم، ولكنَّهم لغَفْلَتهم، وقلّةِ فِكرتهم في العاقبة، وإصرارهم على المعاصي في صورة مَنْ يُقَدّر[٥] ذلك ويَطمعُ فيه، ونَظيرُه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٦] [العنكبوت: ٢٢]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فإن قلت: أين مفعولا «حَسب»؟ قلت: اشتمالُ صِلة أنْ على مسند ومُسند إليه سَدَّ مَسَدَّ المفعولين، كقوله[٧]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ويجوز أن تُضَمّن حَسِب معنى قَدَّر وأم مُنقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحُسْبان أَبْطَلُ من الحُسْبان الأول؛ لأن ذلك يُقَدِّر أنه لا يُمْتَحَنُ لإيمانه، وهذا يظنُّ أنه لا يُجازى بمَساويه. انتهى.

أمَّا قوله: وهم لم يطمعوا في الفَوْت إلى آخر قوله: ويَطمعُ فيه، فليس كما ذَكَر، بل هم مُعتقدون أنْ لا بَعْثَ ولا جَزاء، ولا سيّما السَّرِيّة التي نصَّ عليها ابنُ عباس، وما ذكره الزمخشري هو على اعتقاد مَن يعلم أن الله يُجازيه[٨] ولكنْ طَمِع[٩] في عفو الله.

(١) تفسير القرطبي ١٦/٣٣٨، وزاد المسير ٦/٢٥٦.
(٢) أخرجه الطبري ١٨/٣٦١، وابن أبي حاتم ٩/٣٠٣٣ (١٧١٥١).
(٣) انظر النكت والعيون ٤/٢٧٥.
(٤) في (أ، ح، ع): الثواب، وهو تحريف.
(٥) في (أ، ح، ع، يه): يقدم، والمثبت من (ت)، وهو موافق لما في الكشاف ٣/١٩٦.
(٦) في النسخ: وما هم، والمثبت من المطبوع والكشاف ٣/١٩٦.
(٧) في (ع، يه) والمطبوع: قولهم، والمثبت من (أ، ت، ح).
(٨) في (أ، ع، يه): مجازيه.
(٩) في (يه): يطمع.

وأما قوله: اشتمالُ صِلَةِ أنْ. . . إلى آخره؛ فقد كان ينبغي أن يُقَدِّر ذلك في قوله: «أن يُتركوا» فيجعل ذلك سدَّ مسدَّ المفعولين، ولم يُقدر ما لا يصحُّ تقديره.

وأمّا قوله: ويجوز أن تُضمّن حسب معنى قَدَّرَ، فيعني[١]: أنَّ «أنْ» وما بعدها في موضع مفعولٍ واحد، والتَّضمينُ ليس بقياس، ولا يُصار إليه إلا عند الحاجة إليه، وهنا[٢] لا حاجةَ إليه.

«ساء ما يحكمون» قال الزمخشري وابن عطية ما معناه: إنّ «ما» موصولة، و«يحكمون» صلتها، أو تمييز بمعنى شيء، ويحكمون صفته، والمخصوص بالذَّمِّ محذوف، فالتقدير[٣]: أي حُكمُهم. انتهى.

وفي كون «ما» موصولة مرفوعة بساء، أو منصوبة على التَّمييز خلافٌ مذكورٌ في النحو.

وقال ابن كَيْسان: ما مصدريّة[٤]، فتقديره: بئس حكمُهم، وعلى هذا القول يكون التمييز محذوفاً، أي: ساء حُكماً حُكمُهم، وساء هنا بمعنى بئس، وتقدَّم حُكم بئس إذا اتصل بها ما والفعل في قوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ مُشْبَعاً في «البقرة» [الآية: ٩٠].

وجاء بالمضارع وهو «يحكمون» قيل: إشعاراً بأن حُكمَهم مَذمومٌ حالاً واستقبالاً، وقيل: لأجل الفاصلة وقع المضارعُ موقعَ الماضي اتِّساعاً.

والظاهر أن «يرجو» على بابها، ومعنى «لقاء الله»: الوصولُ إلى عاقبةِ الأمرِ من الموت والبَعْث والجزاء، مُثِّلتْ حالُه بحالِ[٥] عبدٍ قَدم على مولاه من سَفرٍ بعيد؛ وقد اطَّلع مولاه على ما عَمل في غيبته عنه، فإنْ كان عَمِل خيراً تلقَّاه بإحسان، أو شرًّا فبضِدِّ الإحسان.

---

(١) في (أ): فمعنى، وفي المطبوع: فتعين.
(٢) في (أ، ح، ع) والمطبوع: وهذا، والمثبت من (ت، يه).
(٣) في النسخ: في التقدير، والمثبت من المطبوع، وانظر الكشاف ٣/١٩٦، والمحرر الوجيز ٤/٣٠٦.
(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٠٦، وتفسير القرطبي ١٦/٣٣٨.
(٥) في (أ، ح، ع): بحالة، والمثبت من (ت، يه)، وكلاهما صحيح، وانظر الكشاف ٣/١٩٧.

«فإنَّ أجَلَ الله لآت» وهو ما أجَّله وجعل له أجَلاً لآتيه[1] لا مَحالَة، فلْيُبادر لما يصَدِّق رَجاءه.

وقال أبو عبيدة: يرجو: يخاف[2].

ويظهر أن جوابَ الشَّرط مَحذوف، أي: مَن كان يرجو لقاءَ الله فلْيُبادر بالعمل الصَّالح الذي يُحَقِّقُ رَجاءه، فإنَّ ما أجَّله الله تعالى من لقاء جزائه لآتٍ.

والظَّاهرُ أن قوله: «ومَنْ جاهد» معناه: ومَن جاهد نفسَه بالصَّبر على الطَّاعات فثمَرَةُ جِهادِهِ ـ وهو الثَّوابُ المُعَدُّ له ـ إنما هي[3] له لا لله، والله تعالى غَنيٌّ عنه وعن العالَمين، وإنما كلَّفهم ما كلَّفهم إحساناً إليهم.

«لنُكَفِّرَنَّ عنهم سَيئاتهم» يَشمل مَن كان كافراً فآمن وعَمل صالحاً، فأسقط عنه عقابَ ما كان قبلَ الإيمان من كُفرٍ ومَعصيةٍ، ومَن نشأ مؤمناً عاملاً للصَّالحات وأساء في بعض أعماله، فكَفَّر عنه ذلك، وكانت سيئاتُهُ مَغمورةً بحسناته.

«ولنَجْزيَنَّهم أحسنَ الذي» أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم.

وقال ابن عطية: فيه حذفُ مُضافٍ؛ تقديرُه: ثوابَ أحسنِ الذي كانوا يعملون[4]. انتهى.

وهذا التقدير لا يَسوغ؛ لأنه يقتضي أن أولئك يُجْزَون ثوابَ أحسنِ أعمالهم، وأما ثوابُ حَسَنها فمَسْكوت عنه، وهم يُجْزَون ثوابَ الأحسنِ والحَسَنِ، إلا إن أخْرَجْتَ أحسنَ عن بابها من التَّفْضيل؛ فيكون بمعنى حَسَن، فإنه يسوغ ذلك. وأما التقدير الذي ذكره[5] فمعناه: إنه يُجزى أحسنَ جزاءِ العَمل، فعَملُهُ يقتضي أن تكونَ الحسنةُ بمثلها، فجوزي أحسنَ جزائها، وهي أنْ جُعِلتْ بعشرِ أمثالها.

(١) في المطبوع: لأنفسه؟! وهو تحريف.
(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٣.
(٣) في المطبوع: هو.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٧.
(٥) في (أ، ح، ع، يه) والمطبوع: قبله، والمثبت من (ت).

وفي هذه الآيات تحريكٌ وهَزٌّ لمن تَخلَّف عن الهجرة أن يُبادِرَ إلى استدراكِ ما فَرَّط فيه منها، وثَناءٌ على المؤمنين الذين بادروا إلى الهجرة، وتَنْويهٌ بقَدْرهم.

«ووَصَّينا الإنسانَ» في «جامع» التِّرمذي أنها نزلت في سعد بن أبي وَقّاص؛ آلَت أمُّه أن لا تَطْعَم ولا تَشْرَبَ حتى تموتَ أو يَكْفُر[١].

وقيل: في عَيَّاش بن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر مع عمر، وكانت أمُّه شديدةَ الحبِّ له، وحَلَفَتْ على مثل ذلك، فتَحيَّل عليه أبو جَهل وأخوه الحارث، فشَدَّاه وَثاقاً حين خرج معهما من المدينة إلى أمِّه قَصْداً لِبرِّها[٢]، وجَلَده كلٌّ منهما مئةَ جَلْدة، ورَدَّاه إلى أمِّه فقالت: لا تزالُ في عَذابٍ حتى تَكْفُرَ بمحمد... في حديث طويل ذُكر في السِّيَر[٣].

«وَوَصَّينا الإنسان بوالدَيْه» أي: أمرناه بتعَهُّدِهما ومُراعاتهما.

وانتصب «حُسْناً» على أنه مَصدرٌ وُصف به مصدر وَصَّينا، أي: إيصاءً حُسْناً، أي: ذا حُسْن، أو على سبيل المبالغة، أي: هو في ذاته حُسْن.

قال ابن عطية: يحتمل أن يَنتصب على المفعول، وفي ذلك تَجَوُّز، ويُسَهِّله كونهُ عامًّا لمعانٍ؛كما تقول: وَصَّيْتُك خيراً وأوصيتُك شرًّا، وعبَّر بذلك عن جُملةِ ما قلتَ له، ويُحَسِّن ذلك دون حرف الجرِّ كونُ حرفِ الجرِّ في قوله: «بوالديه»؛ لأنَّ المعنى: ووَصَّينا الإنسانَ بالحُسْنِ في فِعْله[٤] مع والدَيْه، ونَظيرُ هذا قولُ الشاعر:

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو في مسند أحمد (١٦١٥).
(٢) في (ت) والمطبوع: ليراها.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٧، وطبقات ابن سعد ٤/ ١٢١، والاستيعاب (١٩٢٤)، والتبيين في أنساب القرشيين لابن قدامة ٣٧٥، وذكره مطولاً الثعلبي ٥/ ٦-٧، والطبرسي ٢٠/ ٣٣٩، والزمخشري ٣/ ١٩٨، ومختصراً ابن عطية ٤/ ٣٠٧، وابن الجوزي ٦/ ٢٥٧، والقرطبي ١٦/ ٣٤٠.
(٤) في (أ) والمطبوع: قوله، والمثبت من (ت، ح، يه) وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

عَجِبتُ من دَهْماءَ إذ تشكونا

ومن أبي دَهْماء إذ يُوْصِينا

خيراً بها كأنّنا جافونا[١]

انتهى. ومثلُهُ قولُ الحُطَيْئة يُوصي ابنتَه بَرَّةَ[٢]:

وَصَّيْتُ من بَرَّةَ قَلْباً حُرّا بالكَلْب خَيراً والحَماةِ شَرّا

وعلى هذا التقدير يكون الأصل: بخير وهو المفعول الثاني. والباء في «بوالديه» وفي بالحماة وبالكلب ظَرْفيّة بمعنى في، أي: وَصَّينا الإنسانَ في أمرِ والدَيْه بخير.

قال ابن عطيّة: ويَحتمل أن يكون المفعول الثاني في قوله: «بوالديه» وينتصب «حُسْناً» بفعلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه: يُحْسِنُ حُسْناً، وينتصبُ انتصابَ المَصْدر[٣].

وفي «التَّحرير» حُسْناً، نُصِبَ عند البصريين على التَّكْرير، أي: وَصَّيناه حُسناً، ولا ينتصب انتصابَ المصدر. وفي «التحرير»: وقيل: على القَطْع، تقديرُهُ: ووَصَّيناه بالحُسْن، كما تقول: وَصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. ويعني بالقَطْع؛ أي: عن حرف الجرّ فانتصبَ.

وقال أهلُ الكوفة: ووَصَّينا الإنسانَ أن يفعلَ حُسناً، فيُقَدَّرُ له فعل. انتهى.

وفي هذا القول حذفُ أنْ وصِلتها، وإبقاءُ المعمول، وهو لا يجوز عند البصريّين.

---

(١) الرجز دون نسبة في تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢، والثعلبي ٥/ ٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٤٠، والبيت الأخير أثبتناه من (ت، يه)، وليس في (أ، ح) والمطبوع.

(٢) تابع السمين في الدر المصون ٩/ ١١ أبا حيان في نسبة البيت إلى الحطيئة، وليس في ديوانه، وهو لأبي النجم العجلي في قصة له مع هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، انظر ديوانه ١٨٤، والكامل ٢/ ٩٩٨، والعقد ١/ ٣١٩، والأغاني ١٠/ ١٥٦، والشعر والشعراء ٢/ ٦٠٨، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ٢٧٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

وقال الزمخشري: وَصَّيناه بإيتاء والديْه حُسْناً، أو بإيْلاءِ والديْه حُسناً، أي: فِعْلاً ذا حُسْن، أو ما هو في ذاته حُسْن لفَرْطِ حُسْنِهِ، كقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. انتهى[١].

وهذا التّقدير فيه إعمالُ المصدر مَحذوفاً وإبقاءُ معموله، وهو لا يجوز عند البصريين.

وقال الزمخشري: ويجوز أن تجعل «حُسْناً» من باب قولك: زيداً، بإضمار اضْرِب إذا رأيتَه مُتَهيّاً للضَّرب، فتَنْصِبُه بإضمار أوْلِهِمَا أو افْعَل بهما؛ لأن التَّوصِيةَ بهما دالَّةٌ عليه، وما بعدهُ مُطابِقٌ له، كأنه قال: قُلْنا أوْلِهِمَا مَعْروفاً[٢].

وقرأ عيسى والجَحْدَري: «حَسَناً» بفتحتين[٣]، والجمهور بضمِّ الحاء وإسكان السِّين[٤]، وهما كالبُخْلِ والبَخَل.

وقال أبو الفَضْل الرّازي: وانتصابُه بفعلٍ مُضْمَر دون التَّوْصية المتقدِّمة، لأنها قد أخذتْ مفعولَيها معاً مُطلقاً ومَجروراً، فالحُسْن هنا صفةٌ أُقيم مقامَ الموصوف، بمعنى: أمرَ حُسْنٍ. انتهى. أي: أمراً حسناً، حُذف أمر، وأُقيم حسن مقامه. وقوله: مُطلقاً؛ عنى به الإنسان، وفيه تسامُحٌ، بل هو مفعول به، والمُطْلَق إنما هو المصدر، لأنه مفعول لم يُقَيَّد من حيث التَّفسير بأداة جَرٍّ بخلاف سائر المفاعيل فإنك تقول: مفعول به، ومفعول فيه، ومفعول معه، ومفعول له.

وفي مُصحف أبيّ: «إحسانا»[٥].

«وإنْ جاهداك» أي: وقلنا: إنْ جاهداك «ما ليس لك به عِلْمٌ» أي: بإلاهيته، فالمراد بنَفْي العلم نَفْيُ المعلوم، أي: لتُشْرك به شيئاً لا يصحُّ أن يكون إلهاً[٦]

(١) الكشاف ٣/ ١٩٧-١٩٨.
(٢) الكشاف ٣/ ١٩٨.
(٣) مختصر في الشواذ ١١٤، وزاد الثعلبي ٥/ ٥، وابن الجوزي ٦/ ٢٥٦، والقرطبي ١٦/ ٣٤١ نسبتها إلى أبي رجاء العطاردي وأبي العالية والضحاك.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٤١.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وزاد المسير ٦/ ٢٥٨، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٤١.
(٦) الكشاف ٣/ ١٩٨.

ولا يستقيم، فلا تُطعْهما فيما جاهداك عليه من الإشراك.

«إليَّ مَرْجِعُكم» شاملٌ للمُوْصي والمُوْصَى، والمُجاهِد والمجاهَد.

«فأُنبِّئُكم» فأُجازيكم بما كنتم تَعملون من برٍّ أو عُقوق، وطاعةٍ أو عِصْيان.

وكرَّر سبحانه وتعالى ما رَتّب للمؤمنين من دخولهم في الصَّالحين ليُحَرِّكَ النُّفوسَ إلى نَيْل مراتبهم.

ومعنى «في الصَّالحين» في جُمْلَتهم. ومَرْتَبةُ الصَّلاح شريفةٌ، أخبر الله تعالى بها عن إبراهيم، وسألها سليمان عليهما الصلاة والسلام، وأخبر تعالى أنّه يَجعل مَن أطاع الله ورسوله معهم.

ويجوز أن يكون التقدير: في ثواب الصَّالحين وهي الجنّة.

ولما ذكر تعالى ما أعَدَّه للمؤمنين الخُلَّص ذَكر حالَ المنافقين؛ ناساً آمنوا بألسنتهم، فإذا آذاهم الكُفّار جعلوا ذلك الأذى وهو «فتنة النّاس» صارِفاً لهم عن الإيمان، كما أنّ عذابَ الله صارفٌ للمؤمنين عن الكُفر[1]، وكونُها نزلت في مُنافِقين قولُ ابن زيد[2].

وقال الزَّجاج: جَزِع كما يَجْزع من عذاب الله[3]، وهذا معنى قول مجاهد والضَّحّاك.

وقال قتادة: فيمن هاجر فرَدَّهم المشركون إلى مكة.

وقيل: في مؤمنين أخرجهم إلى بدرٍ المشركون فارتدُّوا، وهم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧][4].

«ولئن جاء نَصْرٌ من ربِّك» أي: للمؤمنين «لَيَقُولُنَّ» أي: القائلون أُوذينا في الله «إنّا كنّا معكم» أي: مُتابعون لكم في دينكم، أو مُقاتلون معكم ناصرون لكم،

(١) الكشاف ٣/ ١٩٨.
(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٨.
(٣) معاني القرآن ٤/ ١٦١.
(٤) أخرج الآثار الطبري ١٨/ ٣٦٥، ٣٦٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٧، ٣٠٣٨، وذكرها الثعلبي ٥/ ٦، وابن عطية ٤/ ٣٠٨، وابن الجوزي ٦/ ٢٥٨، ٢٥٩، والقرطبي ١٦/ ٣٤٢.

قاسِمونا فيما حَصَلَ لكم من الغنائم، وهذه الجملة المُقْسَم عليها مُظهِرةٌ لمُغَالَطَتهم؛ إذ لو كان إيمانُهم صحيحاً لصَبروا على أذى الكفَّار، وإن كانت فيمن هاجر فكانوا يحتالون في أمرهم، وركبوا كلَّ هَوْلٍ في هجرتهم.

وقُرئ: «لَيقولَنَّ» بفتح اللام. ذكره أبو مُعاذ النَّحْوي والزمخشري(١).

و«أَعْلَم» أفْعل تفضيل، أي: من أنفسهم، و«بما في صُدور» أي: بما تُكِنُّ صُدورُهم من إيمانٍ ونِفاق.

وهذا استفهامٌ معناه التَّقرير، أي: قد علم ما انْطَوَتْ عليه الضَّمائرُ من خيرٍ وشرّ.

«ولَيَعْلَمَنَّ المنافقين» ظاهرٌ في أنَّ ما قبل هذه الجملة في المنافقين كما قال ابنُ زيد. وعِلْمُهُ بالمؤمن وَعْدٌ له بالثَّوابِ، وبالمنافق وَعيدٌ له بالعقاب.

ولمَّا ذكَر حالَ المؤمنين والمنافقين ذَكَر مقالةَ الكافرين قولاً واعتقاداً، وهم رؤساء قريش، قال مجاهد: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نُبعث نحن ولا أنتم، فإنْ كان عليكم شيءٌ فهو علينا(٢).

وقيل: قائلُ ذلك أبو سفيان بن حَرْب وأُميَّة بن خَلَف، قالا لعُمر: إنْ كان في الإقامةِ على دين الآباء إثْمٌ فنحن نَحْملُهُ عنك. وقيل: قائلُ ذلك الوليد بن المُغيرة(٣).

قال ابن عطية: وقولهم: «ولْنَحْمِل» إخبارٌ أنَّهم يَحملون خطاياهم على جِهة التَّشبيه بالثِّقَل، لكنهم أخرجوه في صيغةِ الأمْر؛ لأنها أوجَبُ وأشدُّ تأكُّداً في نفس السَّامع من المُجازاة، وهذا نحو(٤) قولِ الشاعر:

---

(١) مختصر في الشواذ ١١٤، والكشاف ٣/ ١٩٩.
(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٤٣.
(٤) في (أ، ت، يه): وهذا نوع، وفي المطبوع: ومن هذا النوع، والمثبت من (ح) وهو موافق لما في المحرر ٤/ ٣٠٩.

فــقــلــتُ ادْعــي وأدْعُ فــإنّ أنــدى لِــصَــوتٍ أن يُــنــاديَ داعــيــانِ[١]

ولكونه خبراً حَسُن تكذيبُهم فيه[٢].

وقال الزمخشري: أمروهم باتِّباع سبيلِهم؛ وهي طريقتُهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسَهم بحمل خطاياهم، فحُمل[٣] الأمرُ على الأمر، وأرادوا: ليَجْتمع هذان الأمران في الحصول: أن تَتَّبعوا سبيلَنا وأن نَحملَ خطاياكم، والمعنى تعليقُ الحَمْلِ بالاتّباع، وهذا قولُ صَناديد قريش، كانوا يقولون لمن آمنَ منهم: لا نُبعثُ نحن ولا أنتم، فإنْ عسى كان ذلك فإنَّا نتَحَمَّل عنكم الإثْمَ. انتهى.

وقوله: فإنْ عسى كان تركيبٌ أعجميٌّ لا عربيّ؛ لأنَّ إنْ الشَّرطية لا تدخل على عسى لأنه فعلٌ جامد، ولا تدخل أدوات الشَّرط على الفعل الجامد، وأيضاً فإنَّ عسى لا يَليها كان، واستعملَ عسى بغير اسم ولا خبر، ولم يستعملْها تامَّة.

وقرأ الحسن وعيسى ونوحٌ القارئ: «ولِنَحْمِل»، بكسر لام الأمر[٤]، ورُويت عن عليّ، وهي لغة الحجاز[٥] في لام الأمر.

والحَمْلُ هنا مَجازٌ، شبَّه القيام بما يَتَحصَّل من عواقب الإثم بالحَمْلِ على الظَّهر، والخَطايا بالمحمول، وقال مجاهد: الحَمْل هنا من الحَمَالة لا من الحَمْل[٦].

---

(١) البيت دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤، ومجالس ثعلب ٤٥٦، وتفسير الطبري ١٨/ ٣٦٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٩، ومعاني القرآن له ٥/ ٢١٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ٨، والقرطبي ١٦/ ٣٤٣.
ونسبه سيبويه ٣/ ٤٥ للأعشى، وليس في ديوانه، ونسبه الزمخشري في المفصل ٧/ ٣٣ (بشرح ابن يعيش) لربيعة بن جشم، ونسبه القالي في أماليه ٢/ ٩٠ للفرزدق، ورد عليه البكري في لآليه ٢/ ٧٢٦ بأنه لدثار بن شيبان النمري، وهو له ضمن قصيدة في الأغاني ٢/ ١٩٠. قال الطبري: يريد: ادعي ولأدع، ومعناه: إن دعوتِ دعوتُ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.

(٣) في (ت): فحملوا، ومكانها في (يه) بياض، وفي الكشاف ٣/ ١٩٩: فعطف.

(٤) مختصر في الشواذ ١١٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩، وزاد المسير ٦/ ٢٦٠.

(٥) في (أ، ح) والمطبوع: الحسن، والمثبت من (ت، يه).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.

وقرأ الجمهور: «من خَطاياهم». وقرأ داود بن أبي هِنْد فيما ذكر أبو الفَضْل الرّازي: «من خَطيئَتهم» على التَّوحيد، قال: ومعناه الجِنْس، ودَلَّ على ذلك اتِّصافُه بضمير الجماعة.

وذكر ابن خالَويه وأبو عَمرو الدَّاني أنّ داود هذا قرأ: «من خَطيآتهم» بجَمع خَطيئة جمعَ السَّلامة بالألف والتاء.

وذكر ابنُ عطية عنه أنه قرأ: «من خَطَيِهم» بفتح الطّاء وكسر الياء[١]، وينبغي أن يُحملَ كسرُ الياء على أنّها همزةٌ سُهِّلت بَيْن بين فأشبهت الياء؛ لأن قياسَ تسهيلها هو ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف سمَّاهم كاذِبين وإنما ضَمِنوا شيئاً علم الله أنهم لا يَقدرون على الوفاء به؟ وضامنُ ما لا يَقدر[٢] على الوفاء به لا يُسمَّى كاذباً لا حين ضَمِنَ ولا حين عَجز؛ لأنه في الحالَين لا يدخل تحت حَدِّ الكاذب، وهو المُخبِر عن الشيء لا على ما هو عليه.

قلت: شَبَّهَ الله حالهم ـ حيث عَلم أنَّ ما ضَمِنوه لا طريقَ لهم إلى أنْ يَفُوا به، فكان ضَمانُهم عنده لا على ما عليه المَضْمون ـ بالكاذبين الذين خَبَرُهم لا على ما عليه المُخْبَرُ عنه.

ويجوز أن يُريد أنَّهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبُهم على خِلافه، كالكاذبين الذي يَعِدون[٣] الشَّيءَ وفي قلوبهم نِيَّةُ الخُلْف. انتهى.

وتقدَّم من قول ابنِ عطية أن قولَه: «ولْنَحْمِل» خبرٌ يعني أمراً معناه الخبر.

وهذان الأمران تَنزَّلا مَنزلةَ الشَّرطِ والجَزاء إذِ المعنى: إنْ تتَّبعوا سبيلَنا ولَحِقَكم في ذلك إثْمٌ على ما تزعمون فنحن نَحمل خطاياكم، وإذا كان المعنى على هذا كان إخباراً في الجزاء بما لا يُطابِق فكان كَذِباً.

---

(١) مختصر في الشواذ ١١٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.
(٢) في (أ. ع) والمطبوع: ومن ضمن شيئاً لا يقدر، وفي (يه): ومن ضمن ما لا يقدر، والمثبت من (ت، ح)، وهو موافق لما في الكشاف ٣/ ١٩٩.
(٣) في (أ، يه) والمطبوع: يصدقون، والمثبت من (ت، ح).

«وليَحْمِلُنَّ أثقالَهم» أثقالَ أنفُسهم من كُفرهم ومَعاصيهم. و«أثقالاً» أي: أُخَر، وهي أثقالُ الذين أغْوَوْهم فكانوا سبباً في كُفرهم.

ولم يُبَيِّن مَن الذي تَحَمَّلوا أثقاله، فأمْكَن اندِراجُ أثقالِ المظلوم بحَمْلها للظَّالم، كما جاء في الحديث أنه يُقْتَصُّ من الظَّالم للمظلوم بأنْ يُعطى من حَسنات ظالمه، فإنْ لم يَبْقَ للظالم حَسنةٌ أُخِذَ من سيّئات المظلوم فطُرح عليه[1].

وفي «صحيح مسلم» ما معناه: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضَلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِل بها بعده فعليه مثلُ أوْزارِ مَن عَمِلَ بها ممَّن اتَّبعه، لا يَنْقُص ذلك من أوزارِهم شيئاً»[2].

«ولَيُسْئَلُنَّ يومَ القيامة» أي: سؤالَ توبيخٍ وتَقْريع.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْءَاخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٣٠٢٩ من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) لفظه في صحيح مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».
وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٤٥.

ذكر هذه القصَّةَ تَسليةً لرسول الله ﷺ لما كانَ يلقى من أذى الكُفّار، فذكر تعالى ما لقي أولُ الرُّسُل وهو نوحٌ عليه السلام من أذى قومه المُدَدَ المُتطاولة؛ تسليةً لخاتَم الرُّسُل صلوات الله وسلامهُ عليه.

والواو في «ولقد» واوُ عطف، عطفت جُملةً على جملة.

قال ابن عطية: والقسم فيها بعيد[1]، يعني: أن يكون المُقْسَم به قد حُذف ويقي حرفُه وجوابُه، وفيه حذفُ المجرور وإبقاءُ الحرفِ الجارّ، وحرفُ الجرّ لا يُعَلَّق عن عمله؛ بل لا بدَّ له من ذكره.

والظاهر أنه أقام في قومه هذه المدَّةَ المذكورة يدعوهم إلى الله تعالى، وقال ابن عطية: وقد يحتمل أن تكون المدَّةُ المذكورة مُدَّةَ إقامته في قومه من لَدُن مولدِهِ إلى غرق قومه[2]. انتهى.

وليس عندي بمُحتمل؛ لأن اللَّبْثَ مُتَعَقِّبُ الفاءَ الدَّالةَ على التَّعقيب.

واختلف في مقدار عُمره حين كان بُعث وحين مات اختلافاً مُضطرباً مُتكاذِباً تركنا حكايتَه في كتابنا، وهو في كُتب التفسير[3].

والاستثناء من الألفِ استُدِلَّ به على جواز الاستثناء من العَدد، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلافٌ مذكور في النَّحو، وقد عَمِل الفُقهاء المسائلَ على جواز ذلك[4].

وغاير بين تمييز المُستثنى منه وتمييز المستثنى لأنَّ التَّكرارَ في الكلام الواحد مُجتَنَب في البلاغة، إلا إذا كان لغَرَضٍ من تَفخيمٍ أو تَهويلٍ أو تنويه.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.
(٣) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٣٧٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤١، والثعلبي ٥/ ٨، والماوردي ٤/ ٢٧٨، والقرطبي ١٦/ ٣٤٥، وزاد المسير ٦/ ٢٦١، والكشاف ٣/ ٢٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.
(٤) انظر الاستغناء في الاستثناء للقرافي ٤٣٠ فما بعدها، والبحر المحيط للزركشي ٣/ ٢٩٢ فما بعدها، والتذييل والتكميل للمصنف ٨/ ١٦٣ فما بعدها.

وكان التَّعبير عن المدة المذكورة بما عبَّر به لأنَّ ذِكرَ رأس العدد الذي لا رأسَ أكبرُ منه أوقَعُ وأوْصَلُ إلى الغرض من استطالة السَّامع مدَّةَ صبره، ولإزالة التَّوهُّم الذي يجيء مع قوله: تسع مئة وخمسون عاماً بأن ذلك على سبيل المبالغة لا التَّمام، والاستثناء يَرفعُ ذلك التَّوهم المجازي.

وتقدَّمت قصّة[1] نوح عليه السلام بأكملَ مما هنا، والخلافُ في عدد من آمن ودخل السَّفينة.

والضّمير في «وجَعَلْناها» يَحتمل أنْ يَعود على السَّفينة، وأن يَعود على الحادثة والقصَّة.

وأفرد «آية» وجاء بالفاصِلة «للعالَمين» لأنَّ إنجاء السُّفن أمرٌ مَعهود، فالآيةُ إنجاؤه تعالى أصحابَ السفينة وقتَ الحاجة، ولأنها بقيتْ أعواماً حتى مرَّ عليها الناسُ ورأوْها، فحصل العلمُ بها لهم، فناسبَ ذلك قوله: «للعالَمين».

وانتصب «إبراهيمَ» عَطْفاً على «نوحاً». قال ابن عطية: أو على الضَّمير في «فأنجيناه». وقال هو والزمخشري: بتقدير اذْكُر، وأبدل منه «إذْ» بدلَ اشتمال؛ لأن الأحيان تَشتمل على ما فيها[2].

وقد تقدّم لنا[3] أنَّ إذْ ظَرْفٌ لا يَتَصَرَّف فلا يكون مفعولاً به. وقد كَثُر تمثيل المُعْرِبين إذ في القرآن بأنَّ العاملَ فيها: اذكر، وإذا كانت ظرفاً لما مضى فهو لو كان مُتَصرِّفاً لم يَجُز أن يكون معمولاً لأُذْكُر؛ لأن المستقبلَ لا يقع في الماضي، لا يجوز قُم[4] أمْسِ، فإن كان خُلع من الظَّرفيَّة الماضية وتُصرِّفَ فيه جاز أن يكون مفعولاً به ومعمولاً لاذكر.

---

(١) في (ح) والمطبوع: وقعة.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.
(٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ من سورة الأعراف، الآية (١٦٣).
(٤) في (أ، ت، ح، ع) والمطبوع: ثم، والمثبت من (يه)، وقد نقل الآلوسي ٢٠/ ٢٢٣ كلام أبي حيان.

وقرأ النَّخَعي وأبو جعفر وأبو حَنيفة: «وإبراهيمُ» بالرفع[١]، أي: ومن المرسلين إبراهيم.

وهذه القصة تمثيلٌ لقريش، وتذكيرٌ لحال أبيهم إبراهيم من رَفْضِ الأصنام، والدَّعوى إلى عبادة الله تعالى، وكان نُمرود وأهلُ مدينته عُبَّادَ أصنام.

وقرأ الجمهور: «وتَخْلُقون» مضارع خَلَق «إِفْكاً» بكسر الهمزة وسكون الفاء.

وقرأ عليٌّ والسُّلَمي وعَوْنٌ العُقَيليّ وعُبادة وابنُ أبي ليلى وقتادة وزيد بنُ عليّ: بفتح التاء والخاء واللام مُشدَّدة. قال ابنُ مُجاهد: ورُويت عن ابن الزُّبير[٢]. أصلُه تَتَخَلَّقون بتاءين، فحُذفت إحداهما على الخلاف الذي في المحذوفة.

وقرأ زيد بن عليّ أيضاً فيما ذكر الأهوازي: «تُخَلِّقون» من خَلَّق المُشَدَّد[٣].

وقرأ ابن الزُّبير وفُضَيل بن زرقان: «أَفِكا» بفتح الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر مثل الكَذِب[٤].

قال ابن عباس: «وتَخْلُقون إفْكاً» هو نَحْتُ الأصنام وخَلْقُها، سَمَّاها إِفْكاً توسُّعاً من حيث يَفترون بها الإفْكَ في أنّها آلهة.

وقال مجاهد: هو اختِلاقُ الكَذِب في أمر الأوْثان وغير ذلك[٥].

وقال الزمخشري: «أفِكاً» فيه وجهان: أحدهما أن يكون مصدراً نحو: كَذِب

---

(١) مختصر في الشواذ ١١٥، والكشاف ٣/ ٢٠١.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥، وللنحاس ٥/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٣٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦٠، ومختصر في الشواذ ١١٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ٩، والقرطبي ١٦/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٤٦.

(٣) ذكرها القرطبي ١٦/ ٣٥٠، والزمخشري ٣/ ٢٠١ دون نسبة، ونقلها عن أبي حيان السمين ٩/ ١٤، والآلوسي ٢٠/ ٣٢٥.

(٤) مختصر في الشواذ ١١٤ عن ابن الزبير، والمحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١، وذكرها الزمخشري والقرطبي دون نسبة، ونقلها عن أبي حيان السمين والآلوسي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١، وأخرجهما الطبري ١٨/ ٣٧٤، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤٤.

ولَعِب، والإفْكُ مُخَفَّفٌ منه، كالكذب واللعب من أصلهما، وأن يَكون صفةً على فِعْل، أي: خَلْقاً إفْكاً، أي: ذا إفْك وباطل.

واختلاقُهم الإفك تسميةُ الأوثان آلهةً وشركاءَ لله وشفعاءَ إليه، أو سَمَّى الأصنامَ إفْكاً وعَملَهم لها ونَحْتَهم خَلْقاً للإفْك[1]. انتهى.

وهذا التَّرديد منه في: «وتَخْلُقون إفْكا» قولان لابن عباس ومجاهد، وقد تقدَّم لنا نقلُهما عنهما.

وَقَفهم بقوله: «لا يَملِكون لكم رِزْقاً» على جِهةِ الاحتجاج بأمرٍ تَفْهمه عامَّتُهم وخاصَّتُهم، فقرَّر أن الأصنامَ لا تَرزُق.

والرِّزق يحتمل أن يُريد به المَصْدر، أي: لا يَملكون أن يَرزقوكم شيئاً من الرِّزق، واحتَمل أن يكون اسمَ المَرْزوق، أي: لا يملكون لكم إيتاءَ رِزْق ولا تحصيلَه. وخَصَّ الرِّزقَ لمكانته من الخلق.

ثم أمرَهم بابتغاء الرِّزق ممَّن هو يَملكهُ ويؤتيه. ونكَّر الرِّزقَ لأنَّ المقصودَ أنهم لا يَقْدرون على شيءٍ منه، وعَرَّفَه بعدُ لدلالته على العُموم، لأنه تعالى عنده الأرزاقُ كلُّها.

«واشكروا له» على نِعَمه السَّابِغَةِ من الرِّزق وغيره. و«إليه تُرْجَعون» أي: إلى جَزائه، أخْبَرَ بالمَعاد والحَشْر. ثم قال: «وإن تُكَذِّبوا» أي: ليس هذا مُنْكَراً منكم وقد سبق ذلك من أُمم الرُّسُلِ قبلي: قومِ شِيْث وإدريسَ وغيرهم.

وروي أنَّ إدْريسَ عليه السلام عاش في قومه ألفَ سنة، فآمَن به ألفُ إنسان على عددِ سنيّه وباقيهم على التَّكذيب[2].

«وما على الرَّسول إلا البَلاغُ المُبين» تقدَّم الكلامُ على مثل هذه الجملة[3].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠١.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٠١، وانظر مرآة الزمان (آخر قصة إدريس من الجزء الأول) فقد نقله عن كعب الأحبار.
(٣) في تفسير الآية (٩٢) من سورة المائدة.

وقرأ حَمزة والكسائي وأبو بكر بخلافٍ عنه: «تَرَوْا» بتاء الخطاب، وباقي السَّبعة بالياء[١].

والجمهور. «يُبْدِئُ» مضارع أَبْدَأ. والزُّبيريّ وعيسى وأبو عمرو بخلاف عنه: «يَبْدأ» مضارع بَدَأ[٢].

وقرأ الزُّهري: «كيف بَدَا الخَلْقَ» بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً فذهبتْ في الوَصْل، وهو تخفيفٌ غيرُ قياسيّ كما قال:

فارْعَيْ فَزَارَةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ[٣]

وقياسُ تخفيف هذا التَّسهيلُ بَيْنَ بَيْن[٤].

وتقريرُهم على رُؤية بَدْءِ الخَلْق في قوله: «أولم يَرَوْا» وفي «فانظروا كيف بدأ الخَلْق» هو لمُشاهدتهم إحياءَ الأرضِ بالنَّبات، وإخراجَ أشياءَ من العَدَم إلى الوجود.

وقولهُ: «ثمَّ يُعيدُه» وقوله: «ثمَّ اللهُ ينشئ» ليس داخلاً تحت الرُّؤية ولا تحت النَّظَر، فليس «ثمَّ يُعيده» معطوفاً على «يُبْدئ» ولا «ثمَّ يُنْشئ» داخِلاً تحت كيفيَّةِ النَّظَر في البَدْء؛ بل هما جُملتان مُستأنفتان إخباراً من الله تعالى بالإعادة بعد الموت، وقَدَّم ما قبل هاتين الجملتين على سبيل الدِّلالة على إمكان ذلك، فإذا أمكنَ ذلك وأخبر الصَّادقُ بوقوعه صار واجباً مَقْطوعاً بعلمه، لا شَكَّ فيه.

وقال قتادة: أولم يَرَوْا بالدَّلائل والنَّظَر كيفَ يَجوز أن يُعيدَ الله الأجسامَ بعد الموت؟

وقال الرَّبيع بن أنس: المعنى: كيف يَبدأ خلقَ الإنسان، ثم يُعيده إلى أحوالٍ أُخَر حتى إلى التُّراب.

---

(١) السبعة ٤٩٨، والتيسير ١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١، ونقلها السمين في الدر المصون ٩/ ١٥ عن أبي حيان.

(٣) صدره: راحت بمسلمةَ الرِّكابُ عَشيَّةً، وهو للفرزدق، وسلف عند تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة، وقد توسع الطناحي رحمه الله في تخريجه في كتاب الشعر ص١٤٥ فانظره إن أحببت.

(٤) نقل القراءة والشعر والتوجيه عن أبي حيان: السمين ٩/ ١٥، والآلوسي ٢٠/ ٣٣٠.

وقال مُقاتل: الخَلْق هنا اللَّيل والنَّهار[(١)].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَة» هنا وفي «النَّجْم» وفي «الواقعة» على وَزْن فَعَالَة، وباقي السَّبْعة: «النَّشْأَة» على وَزْن فَعْلَة، وهما كالرَّآفَة والرَّأْفَة، وهما لُغتان والقَصْر أشْهَر[(٢)].

وانتصابُه على المَصْدر؛ إمَّا على غير المَصْدر قام مقام الإنشاء، وإما على إضمار فِعْله، أي: فتَنْشَؤون النَّشْأة.

وفي الآية الأولى صرَّح باسمه تعالى في قوله: «كيف يُبْدئ الله الخلْقَ» ثم أضْمَره في قوله: «ثمَّ يُعيدُهُ» وهنا عَكَس، أضمر في «بدأ» ثمَّ أبْرزَهُ في قوله: «ثمَّ الله يُنْشئ» حتى لا تَخلوَ الجملتان من صريح اسمه، ودلَّ إبرازُه هنا على تَفخيم النَّشْأة الآخِرة، وتعظيم أمرها، وتقريرِ وجودِها؛ إذْ كان نِزاعُ الكُفَّار فيها، فكأنَّه قيل: ثم ذلك الذي بدأ الخَلْقَ هو الذي يُنشئ النَّشْأةَ الآخِرة، فكان التَّصريحُ باسمه أفْخَم في إسنادِ النَّشْأة إليه.

و«الآخِرَة» صِفَةٌ للنَّشْأة، فهما نَشْأتان: نَشْأةُ اختراعٍ من العَدَم، ونَشْأةُ إعادة.

ثمَّ ذكر الصِّفةَ التي النَّشْأةُ هي بعضُ مَقْدوراتها، ثم أخبر بأنَّهُ «يُعذِّبُ مَنْ يشاء» أي: مَنْ يشاء تَعْذيبَه «ويرْحَمُ مَنْ يشاء» أي: رَحْمتَه، وبدأ بالعذاب لأنَّ الكلامَ هو مع الكُفَّار مُكَذِّبي الرُّسُل، «وإليه تُقْلَبون» أي: تُرَدُّون.

وقال الزمخشري: ومُتَعَلَّقُ المشيئَتَيْن مُفَسَّرٌ مُبَيَّنٌ في مواضعَ من القرآن، وهو مُستوجبُهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا، ومن المعصوم والتَّائب[(٣)]. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال.

«وما أنتم بمُعْجِزين» أي: فائتين ما أراد الله سبحانه وتعالى بكم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١، وأخرج الطبري ١٨/ ٣٧٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤٥ قول قتادة والربيع، وردّ الآلوسي ٢٠/ ٣٢٨ قول مقاتل.
(٢) السبعة ٤٩٨، والتيسير ١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، والمحرر ٤/ ٣١١، والقرطبي ١٦/ ٣٥٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٣.

«في الأرض ولا في السَّماء» إنْ حُمل السَّماء على العُلُوِّ فجائز، أي: في البُروجِ والقِلاعِ الذَّاهبة في العُلوِّ، ويكون تَخْصيصاً بعد تَعميم، أو على المُظِلَّةِ فيحتاج إلى تقدير، أي: لو صِرْتم فيها، ونظيرُه قولُ الأعشى:

ولو كُنتَ في جُبٍّ ثمانينَ قامَةً ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ
لَيَعْتَوِرَنْكَ القولُ حتَّى تَهُرَّه وتَعلمَ أنِّي لستُ عنك بمُحْرِمِ[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على تقدير: لو كنتم فيها، ﴿وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقال ابنُ زيد والفَرَّاء: التقدير: ولا مَنْ في السَّماء، أي: يُعْجِزُ إنْ عَصى. وقال الفرَّاء: وهذا من غَوامض العربية، وأنشد قولَ حسَّان:

فَمَنْ يَهْجو رسولَ الله منكم ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَواءُ

أي: ومَنْ يَنْصُرُه[2].

وهذا عند البصريين لا يكون إلا في الشِّعر؛ لأن فيه حَذْفَ الموصول وإبقاءَ صلتِهِ.

وأبْعَدُ من هذا القول قولُ مَنْ زعم أن التَّقدير: وما أنتم بمُعْجِزينَ مَن في الأرض من الإنْس والجِنّ ولا مَنْ في السَّماء من الملائكة، فكيف تُعْجِزون الله عزَّ وجلَّ[3]؟.

وقرأ الجمهور: «يئسوا» بالهمز، والذِّماري وأبو جعفر بغير همز بل بياء بدَلَ الهمزة[4]. وهو وعيد، أي: يَيْأسون يومَ القيامة.

وقيلَ: من جَنَّتي، وقيل: من دِيني فلا أَهْديهم، وقيل: هو وَصْفٌ لحالهم؛

(١) سلف البيتان وما يتعلق بهما في تفسير الآية (١٨٢) من سورة الأعراف.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥، وتفسير الطبري ١٨/ ٣٧٨-٣٧٩، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤٧، والثعلبي ٥/ ٩-١٠، والقرطبي ١٦/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢، وسلف بيت حسان في تفسير الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.
(٣) نقله عنه السمين ٩/ ١٦، والآلوسي ٢٠/ ٣٣٤.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.

لأن المؤمن يكون دائماً راجياً خائفاً، والكافر لا يَخْطر بباله ذلك، فشبَّه حالَهم في انتفاء رَحْمته عنهم بحال مَن يئس من الرَّحمة.

والظَّاهر أن قوله: «وإنْ تُكذِّبوا» من كلام الله حكاية عن إبراهيم إلى قوله: «عذابٌ أليم».

وقيل: هذه الآياتُ اعتراضٌ من كلام الله بين كلام إبراهيم، والإخبارِ عن جواب قومه، أي: وإنْ تُكذِّبوا محمداً، فتقدير هذه الجملِ اعتراضاً يَردُّ على أبي علي الفارسي حيث زَعم أن الاعتراض لا يكون جُملتين فأكثر[1].

وفائدة هذا الاعتراض أنه تسليةٌ لرسول الله ﷺ حيث كان قد ابتُليَ بمثل ما كان أبوه إبراهيم عليه السلام قد ابتُلي من شِرْك قومه، وعبادتِهم الأوثان، وتكذيبهم إياه، ومحاولتهم قتلَه.

وجاءت الآيات بعد الجملة الشَّرطية مُقَرِّرةً لما جاء به الرسول ﷺ من توحيد الله ودلائله، وذِكرِ آثار قُدرتهِ والمَعاد.

❀ ❀ ❀

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ
وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ

(١) انظر الشيرازيات ١٨٧، ٦٢٢، والحجة ٦/ ٨٧، ومغني اللبيب ٥١٥، وشرح أبياته ٦/ ٢٢٥ للبغدادي، ونقل ابن جني عنه في الخصائص ١/ ٣٣٧ أنه يجيز ذلك.

رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما أَمَرهم بعبادة الله، وبيَّن لهم سَفَهَهم في عبادة الأوثان، وظَهرت حُجَّتُه عليهم رجعوا إلى الغَلَبة، فجعلوا القائمَ مقام جوابه فيما أَمَرهم به قولَهم: «اقتلوه أو حَرِّقوه».

والآمرون بذلك إما بعضُهم لبعض، أو كُبراؤهم قالوا لأتباعهم: اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً، أو حَرِّقوه بالنار، فإمَّا أن يَرجِعَ إلى دينكم إذا أَمَضَّتْه النار، وإما أن يموتَ بها إنْ أصَرَّ على قولِهِ ودِينِهِ.

وفي الكلام حذفٌ تقديره: فرَمَوْه[1] في النار فأنجاه الله من النّار، وتقدَّمتْ قصَّةُ التَّحريق[2] في سورة: «اقترب للناس حسابُهم»[3].

وجمع هنا فقال: «لآيات» لأنَّ الإنجاءَ من النار، وجَعْلَها برداً وَسَلاماً، وأنَّها أثَّرتْ في الحَبْلِ الذي كانوا أوثقوه به دون الجسم، وإنْ صحَّ ما نُقل من أن مكانَها حالةَ الرَّمْي صار بُستاناً يانِعاً[4]: هو مجموعُ آيات فناسب الجمع، بخلاف الإنجاء من السَّفينة فإنه آيةٌ واحدة، وتقدَّم الكلامُ على ذلك[5].

---

(١) في (أ، ح، ع) والمطبوع: حذف أي حرقوه، وفي (ت): حذف أي فرموه، والمثبت من (يه).

(٢) في (أ، ت، ع) والمطبوع: قصته في تحريقه، وفي (يه): قصة في تحريقه، والمثبت من (ح).

(٣) في تفسير الآيتين (٦٨-٦٩) من سورة الأنبياء.

(٤) ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ كلام ابن عباس والسدي أنه نبت حول المكان الذي ألقي فيه أشجار وخضرة، وصار دوحة خضراء، وردّه ابن عطية.

(٥) في تفسير الآية (١٥) من هذه السورة.

وفي «ذلك» إشارةٌ إلى خُلوصه من النار بعد إلقائه فيها؛ قال كعب: لم يحترق بالنار إلا الحبلُ الذي أوثقوه به[١].

وجاء هنا التَّرديدُ بين قتله وإحراقه، فقد يكون ذلك من قائلين: ناسٍ أشاروا بالقتل وناسٍ بالإحراق، وفي «اقترب» قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] اقتصروا على أحد الشَّيئين وهو الذي فعلوه؛ رَمَوه في النار ولم يَقتلوه.

وقرأ الجمهور: «جوابَ» بالنَّصب، والحسن وسالم الأفطس بالرفع اسماً لكان[٢].

وقرأ الحسن وأبو حَيْوَة وابن أبي عَبْلة وأبو عمرو في رواية الأصمعي والأعشى عن أبي بكر: «مَوَدَّةٌ» بالرفع «بينكم» بالنَّصب[٣]، فالرَّفع على خبر إنَّ، وما موصولة بمعنى الذي، أي: إن الأوثان التي اتَّخذتموها مَوْدُودةٌ أو سببُ مَودَّة، أو مَصدريَّة؛ أي: إن اتِّخاذَكم أوثاناً مَودَّةٌ، ومودةٌ خبر إن، وذلك على حذف مضاف؛ أي: إن سبب اتخاذكم أوثاناً مَودَّةٌ، أو على خبر مبتدأ، أي: هي مودةٌ بينكم، و«ما» إذْ ذاك مُهيِّئة.

ورُوي عن عاصم «مَودَّةُ» بالرفع من غير تنوين، و«بينَكم» بفتح النون[٤]، جعله مبنيّاً لإضافته إلى مَبنيّ، وهو في موضع خَفْضٍ بالإضافة؛ ولذلك سقط التنوين من مَوَدّة.

وقرأ أبو عمرو والكسائي وابنُ كثير كذلك إلا أنه خفض نون «بينكم»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٨١.
(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ١٠، والقرطبي ١٦/ ٣٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.
(٣) السبعة ٤٩٩، والحجة ٥/ ٤٢٨، ومعاني القراءات للأزهري ٢/ ٢٥٧، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ٢/ ١٨٤، ومختصر في شواذ القراءات ١١٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٠، والقرطبي ١٦/ ٣٥٤، وزاد المسير ٦/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٤) انظر الكشاف ٣/ ٢٠٣، ونقلها عن أبي حيان الآلوسي ٢٠/ ٣٣٨.
(٥) السبعة ٤٩٨، والتيسير ١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، والحجة ٥/ ٤٢٧، وإعراب القراءات السبع ٢/ ١٨٤، ومعاني القراءات للأزهري ٢/ ٢٥٧، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٠، والقرطبي ١٦/ ٣٥٣، وزاد المسير ٦/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بنصب «مَوَدّةً» مُنَوَّناً ونصب «بينَكم»[1]، وحمزة كذلك إلا أنه أضاف «مودَّةَ» إلى «بينكم» وخفض «بينِكم»[2]، فما في قراءة مَن نصب مَودّة مُهَيِّئة.

واتَّخذ يحتمل أن يكون مما تعدَّت إلى اثنين والثاني هو مودّة، أي: اتَّخذتم الأوثانَ سببَ المودَّة بينكم على حذف المضاف، أو اتَّخذتموها مَودَّةً بينكم، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أو مما تعدَّت إلى واحد، وانتصب «مودة» على أنه مفعول له، أي: لِيتوادُّوا ويتواصلوا ويجتمعوا على عبادتها؛ كما يجتمع ناسٌ على مذهب فيقَعُ التَّحابُّ بينهم.

وذكروا عن ابن مسعود قراءةً شاذّة تُخالف سوادَ المصحف، مع أنه قد رُوي عنه ما في سواد المصحف بالنَّقل الصَّحيح المستفيض؛ فلذلك لم أذكر تلك القراءة[3].

«ثم يوم القيامة» يقع بينكم التَّلاعُن، أي: يتلاعن العَبَدَةُ، أو يتلاعن العَبَدةُ والمعبوداتُ[4] الأصنامُ، كقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

و«بينكم» و«في الحياة» يجوز تعليقُهما بلفظ «مَودّة»، وعمل في ظَرفين لاختلافهما؛ إذ هما ظرفا مكان وزمان، ويجوز أن يتعلّقا بمحذوفَين، فيكونان في موضع الصِّفة؛ أي: كائنةً بينكم كائنةً في الحياة، ويجوز أن يكون «بينكم» في موضع الصفة، و«في الحياة» في موضع الحال من الضّمير المُسْتَكِنِّ في «بينكم» المنتقل إليه من العامل في بينكم.

---

(١) السبعة ٤٩٩، والتيسير ١٧٣، والحجة ٥/ ٤٢٨، وإعراب القراءات السبع ٢/ ١٨٤، ومعاني القراءات ٢/ ٢٥٧، وزاد المسير ٦/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.

(٢) وهي قراءة حفص عن عاصم، وروح، انظر السبعة، والتيسير، والنشر ٢/ ٣٤٣، والحجة، وإعراب القراءات، ومعاني القراءات، وزاد المسير، والمحرر الوجيز، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٠، والقرطبي ١٦/ ٣٥٣.

(٣) قراءة ابن مسعود التي ذكرها المصنف هي: إنما مودةُ بينكم، ذكرها عنه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣١٦، وابن خالويه في إعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ١٨٥، ومختصر في الشواذ ١١٥، والزمخشري ٣/ ٢٠٣، وابن عطية ٤/ ٣١٣.

(٤) في (أ، ت، يه): والمعبودون، وهما بمعنى.

وأجاز أبو البقاء أن يتعلَّق «في الحياة» بـ «اتَّخذتم» على جَعْل ما كافَّة ونَصْب مَودّة، لا على جَعْل ما موصولة بمعنى الذي أو مصدرية ورَفْعِ مودة، لئلا يؤدّي إلى الفَصل بين الموصول وما في الصِّلة بالخبر[١].

وأجاز قوم منهم ابن عطية أن يتعلّق في الحياة بـ «مَوَدّة» وأن يكون «بينكم» صفة لـ «مودة»[٢]. وهو لا يجوز؛ لأن المصدر إذا وُصف قبل أخذ مُتعلَّقاته لا يعمل، وشُبهتهم في هذا أنه يُتَّسع في الظَّرْف بخلاف المفعول به.

وأجاز أبو البقاء أن يتعلَّق بنَفْس «بينكم» قال: لأن معناه اجتماعُكم أو وَصْلُكم.

وأجاز أيضاً أن يجعله حالاً من «بينكم»، قال: لتَعَرُّفِه بالإضافة[٣]. انتهى، وهما إعرابان لا يُتَعَقَّلان.

«فآمن له لوط» لم يؤمن بإبراهيمَ أحدٌ من قومه إلا لوطٌ عليه السلام حين رأى النَّار لم تحرقْه وكان ابنَ أخيْه، وسارة وكانت بنتَ عمه.

والضَّمير في «وقال» عائد على إبراهيم، وهو الظاهر ليَتناسق مع قوله: «ووهَبْنا له إسحاق» وهو قولُ قتادةَ والنَّخعيّ[٤].

وقالت فرقة: يعود على لوط، وهاجَرَ وإبراهيمَ عليهما السَّلام من قريتهما كُوثى ـ وهي في سَواد العراق من أرض بابل ـ إلى فلسطين من أرض الشأم، وكان إبراهيم ابنَ خمسٍ وسبعين سنة، وهو أوَّل مَن هاجر في الله.

وقال ابنُ جُريج: هاجر إلى حرَّان ثم إلى الشام[٥]، وفي هجرته هذه كانت معه سارة.

والمُهاجِر: النَّازعُ عن الشيء، وهو في عُرف الشَّريعة: مَن تَرك وَطَنه رغبةً في

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٨٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٣) الإملاء ٢/ ١٨٢.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٥٥.
(٥) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٣٨٥، والقرطبي والمحرر الوجيز.

رضى الله، وعُرف بهذا الاسم أصحابُ رسول الله ﷺ المهاجرون قبل فتح مكة.

«إلى ربِّي» أي: إلى الجهة التي أمرني ربِّي بالهجرة إليها. وقيل: إلى حيث لا أُمنَع من عبادة ربِّي. وقيل: مُهاجرٌ مَن خالفني من قومي، مُتقرباً إلى ربِّي.

ونزل إبراهيم قريةً من أرض فلسطين، ونزل لوطٌ في سَدُوم - وهي المؤتَفِكَة - على مسيرة يوم وليلة من قرية إبراهيم عليهما السلام.

«إنه هو العَزيز» الذي لا يَذِلُّ مَنْ عَبَده «الحكيم» الذي يَضع الأشياءَ مواضعَها.

والضَّمير في «ذُرِّيَّتِهِ» عائدٌ على إبراهيم. «النُّبُوَّة» إسحاق ويعقوب وأنبياءَ بني إسرائيل وإسماعيلَ ومحمداً خاتَمهم صلى الله عليهم أجمعين.

و«الكتاب» اسمُ جِنْس يَدخل فيه التَّوراة والزَّبور والإنجيل والقرآن.

«وآتيناه أجْرَه في الدُّنيا» أي: في حياته، قال مجاهد: نجاتَه من النار ومن الملك الجَبَّار، والعملَ الصَّالح، والثَّناءَ الحسَن؛ بحيث تَتَولّاه كلُّ أمَّة. وقاله ابنُ جُرَيج.

أو الولد الذي قَرَّتْ به عينُه. قاله الحسن.

وقال السُّدِّي: إنّه أُريَ مكانَه من الجنة. وقال ابنُ أبي بُرْدَةَ: ما وُفِّق له من عمل الآخرة.

وقال الماوردي: بقاءُ الصَّلاة[1] عند قبره، وليس ذلك لنبيٍّ غيره.

وقيل: النبوة والخُلَّة[2]. وقيل: الصَّلاة عليه إلى آخر الدَّهر[3].

وانتصب «لوطاً» بإضمار أُذْكُر، أو بالعطف على إبراهيم، أو بالعطف على ما عُطف عليه إبراهيم.

---

(١) في النسخ: ضيافته، وهو تحريف، والمثبت من النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وانظر تفسير الآلوسي ٢٠/ ٣٤٢.

(٢) في (يه) والمطبوع: والحكمة.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٣٨٦، ٣٨٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٥٢، ٣٠٥٣، والقرطبي ١٦/ ٣٥٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.

والجمهور على الاستفهام في «أئنَّكم» معاً، وقُرئ: «إنَّكم» الأوَّل على الخبر، والثاني على الاستفهام(١). قال أبو عُبيد: وجدتُه في الإمام بحرفٍ واحدٍ بغير ياء، ورأيت الثاني بحرفَين الياء والنون(٢).

ولم يأت في قصّة لوط أنه دعا قومَه إلى عبادة الله كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شُعيب، لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وسبقه إبراهيم إلى الدُّعاء إلى عبادة الله وتوحيده، واشتَهر أمرُه بذلك عند الخلق، فذَكر لوط ما اختصَّ به من المنع عن الفحشاء وغيرها. وأما إبراهيم وشُعيب فجاءا بعد انقراض مَن كان يعبدُ الله؛ فلذلك دَعَوا إلى عبادة الله.

قال الزّمخشري: «ما سَبقكم بها» جملةٌ مُستأنفة مُقرِّرة لفاحشةِ تلك الفَعْلة، كأن قائلاً قال: لمَ كانت فاحشة؟ فقيل: لأن أحداً قبلَهم لم يُقدم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراطِ قُبحها، حتى أقدم عليها قومُ لوط لخُبثِ طِينتهم، قالوا: لم يَنْزُ ذَكَرٌ على ذكر قبل قوم لوط(٣). انتهى.

ويظهر أن «ما سبقكم بها» جملةٌ حالية، كأنه قال: أتأتون الفاحشة مُبتدعين لها غيرَ مسبوقين بها، استفهم أولاً وثانياً استفهامَ إنكار وتوبيخ وتَقْريع.

وبَيَّن ما تلك الفاحشة المُبْهَمَة في قوله: «أئنّكم لتأتون الفاحشة» وإنْ كانت مُعَيَّنة أنها إتيانُ الذُّكور في الأدبار بقوله: «ما سبقكم بها» فقال: «أئنّكم لتأتون الرّجال» يعني في الأدْبار «وتقطعون السَّبيل» أي: سبيلَ الولد بتَعْطيل الفروج، وَوَطْءِ أدبارِ الرجال، أو بإمساك الغُرباء لذلك الفعل حتى انقطعت الطُّرُق، أو بالقتل وأخْذِ المال، أو بقُبْحِ الأُحدوثة حتى تنقطعَ سُبُل الناس في التِّجارات.

«وتأتون في ناديكم» أي: في مَجْلسكم الذي تجتمعون فيه، وهو اسمُ جنس إذْ

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب وحفص بالإخبار في الأول، وقرأ الباقون بالاستفهام وهم أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر، وأجمعوا على الاستفهام في الثاني، انظر النشر ١/ ٣٧٣، والتيسير ١٧٣، والسبعة ٤٩٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٤.

أنديتُهم في مدائنهم كثيرة، ولا يُسمَّى نادياً إلا ما دام فيه أهلُهُ، فإذا قاموا عنه لم يُطلَق عليه نادٍ إلا مجازاً.

والمُنْكَر: ما تُنْكره العقول والشَّرائع والمروءات؛ حَذْف الناس بالحَصْباء، والاستخفاف بالغريب الخاطر، وروتْه أمُّ هانئ عن النبيّ ﷺ(١).

أو إتيان الرِّجال في مجالِسهم يَرى بعضُهم بعضاً. قاله منصور، ومجاهد، والقاسم بن محمد، وقتادة، وابن زيد.

أو تَضارُطُهم وتصافُعهم فيها. قاله ابن عباس.

أو لَعِب الحَمام، وتَطْريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخَذْف، ونَبْذ الحَياء في جميع أمورهم. قاله مجاهد أيضاً.

أو الحَذْف بالحصى، والرَّمي بالبنادق، والفَرْقَعَة، ومَضْغ العِلْك والسِّواك بين الناس، وحَلُّ الأزرار، والسُّباب، والفُحْش في المزاح. قاله ابن عباس.

وقال أيضاً: مع شِركهم بالله كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة: تظالمٌ فيما بينهم، وتَشاتُم، وتضارُطٌ في مَجالسهم، وحَذْفٌ، ولَعِبٌ بالنَّرْد والشِّطْرَنج، ولُبْس المُصَبَّغات، ولباس النِّساء للرجال ولباس الرجال للنساء، والمُكوسُ على كلِّ عابر، وهم أوَّلُ مَنْ لاط ومَن سَحَق(٢).

ولما وَقَفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح أصَرُّوا على اللَّجاج في التَّكذيب، فكان جَوابُهم له أنْ قالوا: «ائتِنا بعذاب الله إنْ كنتَ من الصَّادقين» فيما تَعِدُنا به من نزول العَذاب، قالوا ذلك وهم مُصَمِّمون على اعتقادِ كَذِبه فيما وَعَدَهم به، وفي آية

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥، وأخرج الطيالسي (١٦١٧)، وأحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، فذاك المنكر الذي كانوا يأتون».

(٢) في المطبوع: ساحق، وانظر الأقوال السابقة في: تفسير الطبري ١٨/ ٣٨٩-٣٩٢، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٥٤-٣٠٥٥، والثعلبي ٥/ ١٢، والماوردي ٤/ ٢٨٢، والقرطبي ١٦/ ٣٥٨-٣٦٠، وزاد المسير ٦/ ٢٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٥، والكشاف ٣/ ٢٠٤، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٦.

أخرى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦] والجمع بينهما أنهم أولاً قالوا: «ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين»، ثم إنه كَثُر منه الإنكارُ عليهم، وتكرَّرَ ذلك منه نَهْياً ووَعْظاً ووَعيداً قالوا: «أخرجوا آل لوط»[1].

ولما كان إنما يأمرُهم بتَرْك الفَواحش وما كانوا يَصنعونَه من قَبيح المعاصي، ويَعِدُ على ذلك بالعذاب، وكانوا يقولون إن الله لم يُحَرِّم هذا ولا يُعذِّب عليه، وهو يقول إن الله حَرَّمه ويُعَذِّب عليه؛ قالوا: «ائتنا بعذاب الله» فكانوا ألطَفَ في الجواب من قوم إبراهيم بقولهم: «اقتُلوه أو حَرِّقوه» لأنَّه كان يَذُمُّ آلهتَهم، وعَمَد إلى أصنامهم فكَسَرها، فكان فِعْلُه هذا معهم أعظمَ من قول لوط لقومه، فكان جوابُهم له أنْ قالوا: «اقتلوه أو حَرِّقوه».

ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه عليهم، فبعثَ ملائكةً لعذابهم ورَجْمِهم بالحاصب.

وإفسادُهم بحَمْل النَّاس على ما كانوا عليه من المعاصي طَوْعاً أو كَرْهاً، وخُصوصاً تلك المَعْصية المُبْتَدَعَة.

«بالبُشرى» هي بشارتُه بوَلَده إسحاق، وبنافِلَته يعقوب، وبنَصْر لوط على قومه وإهلاكِهم.

والقَرْية سَدُوم، وفيها قيل: أجْوَرُ من قاضي سَدُوم[2].

«كانوا ظالِمِين» أي: قد سَبَقَ منهم الظُّلم واستمرَّ في الأيام السَّالفَة، وهم مُصِرّون. وظُلْمُهم: كُفْرُهم وأنواعُ معاصيهم.

ولما ذكروا لإبراهيم «إنا مُهلكو أهلِ هذه القرية» أشْفَقَ على لوط فقال: «إن فيها لوطاً» ولمَّا عَلَّلوا الإهْلاكَ بالظُّلم قال لهم: فيها من هو بريءٌ من الظُّلم «قالوا نحن أعلمُ بمَن فيها» أي: منك، وأخْبَرُ بحالِهِ، ثم أخبروه بإنجائهم إيَّاه وأهلَه إلا امرأتَه.

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ٥٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٥، والمثل في الدرة الفاخرة لحمزة الأصبهاني ١/ ١١٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٣٣، ومجمع الأمثال ١/ ١٩٠.

وقرأ حمزة والكسائي: «لَنُنْجِيَنَّه» مضارع أَنْجى، وباقي السَّبعة مضارع نَجَّى[١]. والجمهور بشَدِّ النُّون وفرقةٌ بتخفيفها[٢].

«ولما أن جاءت رُسُلُنا لوطاً سِيء بهم وضاق بهم ذَرْعاً» تقدَّم الكلام على مثلِ هذه الجملة[٣]؛ إلا أنَّ هنا زيدت «أنْ» بعد «لمّا» وهو قياسٌ مُطَّرِد، وقال الزمخشري: «أنْ» صِلَةٌ أَكَّدَتْ وجودَ الفعلين مُتَرَتِّباً أحدهما على الآخر في وقتين مُتجاورَيْن لا فاصلَ بينهما كأنَّهما وُجِدا في جُزءٍ واحدٍ من الزَّمان، كأنه قيل: لما أحسَّ بمَجيئهم فاجَأتْه المَساءةُ من غير رَيْثٍ خِيفةً عليهم من قومه[٤]. انتهى.

وهذا الذي ذكره في التَّرتيب ليس مَذهبَ[٥] سيبويه، إذْ مَذْهبُهُ أن لمَّا حَرفٌ لا ظَرْف خلافاً للفارسي، وهذا مذكور في علم النّحو[٦].

وقرأ العَرَبيّان ونافع وحَفص: «مُنَجُّوك» مُشَدَّداً، وباقي السبعة مخفَّفاً[٧].

والكاف في مذهب سيبويه في موضع جَرّ، «وأهلَك» منصوبٌ على إضمار فعل، أي: ونُنَجِّي أهْلَك، ومَن راعى هذا الموضع عَطفه على موضع الكاف، والكاف على مذهب الأخفش وهشام في موضع نَصْب، و«أهلَك» معطوف عليه، لأن هذه النون كالتنوين، وهما على مذهبهما يحذفان للَطافة الضَّمير، وشِدَّةِ طلَبه الاتِّصالَ بما قبله[٨].

---

(١) السبعة ٥٠٠، والتيسير ١٧٣.
(٢) يعني نون التوكيد الثقيلة، انظر المحرر ٤/ ٣١٦، وتفسير الآلوسي ٢٠/ ٣٤٩.
(٣) في تفسير الآية (٧٧) من سورة هود.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٠٥.
(٥) في (أ، ت، يه) والمطبوع: هو مذهب، وهذا خطأ، والمثبت من (ح)، وانظر الحاشية التالية.
(٦) انظر الكتاب ٤/ ٢٢٢، ٢٣٤، وكتاب الشعر للفارسي ٧٠، ٨٩، والبغداديات ٣١٦، والإيضاح بشرح عبد القاهر الجرجاني ١٠٩٢، ومغني اللبيب ١٠٩٢.
(٧) السبعة ٥٠٠، والتيسير ١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩، وانظر أيضاً الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٢، ومعاني القراءات للأزهري ٢/ ٢٥٩، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ٢/ ١٨٦.
(٨) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٨٣، وانظر كتاب سيبويه ١/ ١٦٤، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٥.

وقرأ الجمهور: «سِيءَ» بكسر السِّين، وأشَمَّها الضمَّ نافع وابن عامر والكسائي[١]. وقرأ عيسى وطلحة: «سُوء» بضمّها[٢]، وهي لغةُ بني هُذَيل وبني دُبَيْر[٣]، يقولون في قِيل وبِيع ونحوهما: قُول وبُوع.

وقرئ: «مُنْزِلون» مُخَفَّفاً ومُشَدَّداً[٤]، وابن مُحَيْصِن: «رُجزاً» بضمِّ الراء، وأبو حَيْوَة والأعْمَش بكسر سين «يَفْسِقون»[٥].

والظاهر أن الضَّمير في «منها» عائدٌ على القرية؛ فقال ابن عباس: منازلُهم الخَرِبَة. وحكى أبو سليمان الدّمشقي أن الآية في قريتهم أنّ أساسَها أعلاها، وسُقوفَها أسفلها إلى الآن[٦].

وقال الفرَّاء: المعنى تركناها آية، تقول: إن في السَّماء لآية؛ تُريد إنها آية[٧]. انتهى.

وهذا لا يَتَّجه إلا على زيادة مِن في الواجب نحو قوله:

أمْهَرْتُ منها جُبَّةً وتَيْسا[٨]

---

(١) التيسير ١٢٥، والنشر ٢/٢٠٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣١٦.

(٣) في (أ، ح، ع) والمطبوع والآلوسي (طبعة الرسالة): وبير، وفي (يه): دهر، وكله تصحيف، والمثبت من (ت)، ودبير: هو كعب بن عمرو بن قُعَين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة، حمل على ظهره حملاً فدبر، وهم قوم فصحاء، لهم رجز وشعر، كتب عن امرأة منهم الفراء النحوي وابن الأعرابي.
انظر أنساب الأشراف ١٠/٩٨، وجمهرة أنساب العرب ١٩٥، وتوضيح المشتبه ٤/١٦، وقد سلف كثيراً في البحر نقل عن بني دبير.

(٤) قرأ ابن عامر والكسائي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم بالتشديد، والباقون بإسكان النون والتخفيف، انظر السبعة ٥٠٠، والتيسير ٩٠، والنشر ٢/٣٤٣.

(٥) القراءتان في المحرر الوجيز ٤/٣١٦، ونقلهما عن أبي حيان السمين في الدر ٩/٢٠، والآلوسي ٢٠/٣٥٠.

(٦) تفسير الثعلبي ٥/١٣، والقرطبي ١٦/٣٦٠، وزاد المسير ٦/٢٧١.

(٧) زاد المسير ٦/٢٧١ وعنه نقل كلام الفراء، ونقله عن أبي حيان السمين ٩/٢٠، والآلوسي ٢٠/٣٥٠.

(٨) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/٤٨٦، وارتشاف الضرب ٢٣٩٥ على تحريف فيه

يريد: أمْهَرْتُها، وكذلك «ولقد تركناها آية».

وقيل: الهاء في «منها» عائدة على الفَعْلَة التي فُعلت بهم، فقيل: الآية: الحِجارة التي أدْرَكَتْها أوائلُ هذه الأمَّة. قاله قتادة.

وقيل: الماءُ الأسود على وَجْه الأرض. قاله مجاهد، وقيل: الخبر بما صُنِع بهم[1].

و«لقوم» متعلِّقٌ بـ «تركنا» أو بـ«بيِّنة».

* * *

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

= يصحح من هنا، والمقاصد الشافية للشاطبي ٣/ ٦٠٢، وقوله: جبة تحريف صوابه لَجْبَة كما في البيان والتبيين ٤/ ٣٥، وهي الشاة التي أتى على نتاجها أربعة أشهر فخف لبنها وقل، انظر الغريب المصنف ٢/ ١٥٩، والبيت لجزء أخي الشماخ، وله قصة طريفة ذكرها الجاحظ، انظرها ثمة إن أحببت، أوقفني على صواب ذلك كله أخي الدكتور محمد عبد الله قاسم، جزاه الله خيراً، وزاده علماً وفضلاً.

(١) انظر الأقوال في تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٥٨، والثعلبي ٥/ ١٣، والقرطبي ١٦/ ٣٦٠، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٠.

«وإلى مَدْيَنَ» أي: وإلى مَدْيَنَ أرْسلنا أو بَعَثْنا، مما يتعدَّى بإلى.

أمرَهم بعبادة الله والإيمانِ بالبعثِ واليوم الآخر.

والأمرُ بالرَّجاء أمرٌ بفعلِ ما يترتَّب الرّجاءُ عليه، أقام المُسَبَّب مقامَ السَّبب، والمعنى: وافعلوا ما تَرْجُون به الثَّوابَ من الله، أو يكون أمراً بالرَّجاء على تقدير تَحْصيلِ شَرْطِهِ وهو الإيمانُ بالله.

وقال أبو عُبيدة: وارْجُوا: خافوا جَزاءَ اليومِ الآخر من انتقام الله منكم إنْ لم تعبدوه[(١)].

وتضمَّن الأمرُ بالعبادةِ والرَّجاءِ أنه إنْ لم يفعلوا ذلك وقع بهم العذاب، لذلك جاء: «فكَذَّبوه»، وجاءتْ ثَمرةُ التَّكذيب وهي: «فأخذَتْهم الرَّجْفَةُ فأصبحوا في دارِهم جاثمين» وتقدَّم تفسيرُ مثل هذه الجُمل[(٢)].

وانتصب «وعاداً وثموداً» بإضمار أهْلَكْنا لدلالة فأخَذَتْهم الرَّجْفَة عليه، وقيل: بالعطف على الضَّمير في «فأخذَتْهم»، وأبعدَ الكسائي في عَطْفه على الذين من قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣][(٣)].

وقرأ «وثَمودَ» بغير تنوين حَمزة وشَيْبَة والحَسَن وحَفْص، وباقي السبعة بالتنوين[(٤)].

وقرأ ابنُ وَثَّاب: «وعادٍ وثَمودٍ» بالخَفْضِ فيهما والتنوين عطفاً على «مَدْيَنَ» أي: وأرسلنا إلى عادٍ وثمودٍ.

«وقد تَبيَّن لكم» أي: ذلك، أي: ما وُصِفَ لكم من إهلاكِهم من جهةِ مَساكنهم إذا نظرتُم إليها عند مُروركم بها، وكان أهلُ مكَّةَ يمرُّون عليها في أسفارهم.

وقرأ الأعمش: «مساكنُهم» بالرفع من غير من[(٥)]، فيكون فاعلاً بتَبَيَّن.

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١١٥.

(٢) في تفسير الآية (٧٨) من سورة الأعراف.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٦١.

(٤) السبعة ٣٣٧، والتيسير ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.

(٥) قراءة ابن وثاب والأعمش في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧، ونقلهما عن أبي حيان السمين ٩/ ٢١، والآلوسي ٢٠/ ٣٥٤.

«وزَيَّن لهم الشيطان» أي: بوَسْوسته وإغوائه أعمالَهم القَبيحة. «فَصَدَّهم عن السَّبيل» وهي طريقُ الإيمان بالله ورُسُله.

«وكانوا مُسْتَبصِرين» أي: في كُفرهم، لهم به بَصَرٌ وإعجاب، قاله ابن عباس ومُجاهد والضحَّاك[1]، وقيل: عُقلاء يعلمون أن الرِّسالة والآيات حقٌّ، ولكنهم كفروا عِناداً؛ كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

«وقارونَ» معطوفٌ على ما قبله، أو منصوبٌ بإضمار اذْكُر.

«فاستكبروا» أي: عن الإقرار بالصَّانع وعبادته «في الأرض» إشارةٌ إلى قلَّة عقولهم؛ لأن مَن في الأرض يَشعر بالضَّعف، ومَن في السَّماء يَشعر بالقوَّة، ومَن في السماء لا يَستكبرُ عن عبادة الله فكيف مَن في الأرض؟!.

«وما كانوا سابقين» أي: مُفْلِتين، أدركهم أمر الله سبحانه وتعالى فلم يفلتوا، وقيل: وما كانوا سابقين[2] الأُممَ إلى الكفر، أي: تلك عادةُ الأمم مع رُسُلهم.

والحاصِب لقوم لوط، وهي ريحٌ عاصفٌ فيها حَصْباء، وقيل: مَلَك كان يَرْميهم، والصَّيحة لمَدْيَن وثَمود، والخَسْف لقارون، والغَرَق لقوم نوح وفرْعَون وقومه.

وقال ابن عطية: ويُشبه أن يَدخلَ قومُ عاد في الحاصِب؛ لأن تلك الرِّيح لا بُدَّ كانت تَحْصِبُهم بأمورٍ مؤذية، والحاصِب: هو العارضُ من ريحٍ أو سَحابٍ إذا رمى بشيء، ومنه قولُ الفرزدق:

مُسْتَقْبِلينَ شَمالَ الشَّام تَضْرِبُهم ... بحاصِبٍ كنَديفِ القُطْنِ مَنْثورِ[3]

ومنه قول الأخطل:

تَرمي العِضاهَ بحاصِبٍ من ثَلْجِها ... حتَّى يَبيتَ على العِضاهِ جُفالا[4]

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٩، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٠، والثعلبي ٥/ ١٣، والقرطبي ١٦/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.

(٢) من قوله: أي مفلتين.. إلى هنا زيادة من (ت، يه).

(٣) سلف في تفسير الآية (٦٨) من سورة الإسراء.

(٤) ديوان الأخطل ٨٦ (بتحقيق فخر الدين قباوة)، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٧٠، ١٨/ ٤٠٠، =

«العنْكبوت» حيوان معروف، ووزنه فَعْلَلوت، ويؤنَّث ويُذَكَّر، فمن تذكيره قولُ الشاعر:

على هَطَّالِهم منهم بيوتٌ كأنَّ العَنْكبوتَ هو ابْتَناها[1]

ويجمع: عَناكِب، ويُصَغَّر: عُنَيْكِب[2].

شبَّه تعالى الكُفَّار في عبادتهم الأصنامَ، وبنائهم أمورَهم عليها؛ بالعَنْكبوت التي تَبني وتَجتهد وأمرُها كلُّه ضعيف، متى مَسَّته أدنى هَامَّةٍ أو هابَّةٍ أذْهَبَتْه، فكذلك أمرُ أولئك وسَعْيُهم مُضمَحِلّ لا قُوَّةَ له ولا مُعْتَمَد[3].

وقال الزمخشري: الغَرَضُ: تشبيهُ ما اتَّخذوه مُتَّكَلاً ومُعْتَمداً في دينهم وتَوَلَّوه من دون الله بما هو مَثَلٌ عند الناس في الوَهْن وضَعْف القُوَّة، وهو نَسْجُ العنكبوت، ألا تَرى إلى مَقْطَع التَّشبيه وهو قوله: «وإنَّ أوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العَنْكبوت» انتهى[4].

يعني بقوله: ألا ترى إلى مَقطع التشبيه: ما ذَكَر أوّلاً من الغَرَض تشبيه المُتَّخِذ بالبيت، لا تشبيهُ المتَّخِذ بالعنكبوت، والذي يَظهر هو تَشبيهُ المتَّخِذ من دون الله وليّاً بالعَنْكبوت المتَّخِذَةِ بيتاً، أي: فلا اعتمادَ للمتَّخذ على وَليِّه من دون الله؛ كما أن العنكبوت لا اعتمادَ لها على بيتها في استِظْلالٍ وسُكْنَى، بل لو دخَلَتْ فيه خَرَقَتْه.

ثمَّ بَيَّنَ حالَ بيتها وأنَّه في غاية الوَهْن بحيث لا يُنْتَفَعُ به، كما أنَّ تلك الأصنام لا تَنفع ولا تُجدي شيئاً الْبَتَّة.

= وتهذيب الآثار له ١/ ٤٧ (مسند ابن عباس)، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٧. العضاه: شجر عظيم له شوك، وضمير ترمي لريح الشمال في البيت قبله، والجفال: ما تراكب وتراكم.

(١) المذكر والمؤنث للفراء ١٠٢، ومعاني القرآن له ٢/ ٣١٧، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري ١/ ٣٩٦، والصحاح (هطل)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٥٧، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٢٧٣، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٣، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٦٤. والهطال: اسم جبل.

(٢) في (ت) والمطبوع: عنيكيب، وهو صحيح أيضاً، والمثبت من (أ، ح، ع).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٠٦.

وقوله: «لو كانوا يعلمون» ليس مُرتبطاً بقوله: «وإنَّ أوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت» لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعلم ذلك، فلا يُقال فيه: «لو كانوا يعلمون» وإنما المعنى: لو كانوا يَعلمون أنَّ هذا مَثَلُهم، وأن أمرَ دينِهم بالغٌ من الوَهْن هذه الغاية لأقلَعوا عنه، وما اتَّخذوا الأصنامَ آلهة.

وقال الزمخشري: إذا صحَّ تشبيهُ ما اعتَمدوه في دينهم ببيتِ العنكبوت - وقد صَحَّ أنَّ أوْهَنَ البيوت بيتُ العنكبوت - فقد تبيَّن أنّ دينَهم أوْهَنُ الأديان لو كانوا يعلمون، أو أخْرجَ الكلامَ بعد تصحيح التَّشْبيهِ مخرج المَجاز، فكأنه قال: وإن أوْهَنَ ما يُعْتَمد عليه في الدِّين عبادةُ الأوثان لو كانوا يَعلمون. ولقائلٍ أن يقول: مَثَلُ المُشْرِك الذي يَعْبُد الوَثَنَ بالقياس إلى المؤمن الذي يَعبد الله مَثَلُ عَنْكبوتٍ يَتَّخذ بيتاً؛ بالإضافة إلى رجلٍ يبني بيتاً بآجُرٍّ وجِصٍّ، أو يَنحِتُه من صَخْرٍ، فكما أن أَوْهَنَ البيوت إذا استَقْرَيْتَها بيتاً بيتاً بيتُ العنكبوت؛ كذلك أضعفُ الأدْيان إذا استَقْرَيْتَها دِيناً ديناً عبادةُ الأوثانِ لو كانوا يعلمون[1]. انتهى.

وما ذكره من قوله: ولقائلٍ أن يقول.. الخ؛ لا يَدُلُّ عليه لفظُ الآية، وإنما هو تحميلٌ للَّفظِ ما لا يَحتملُهُ كعادته في كثيرٍ من تفسيره[2].

وقرأ أبو عمرو وسَلَّام: «يَعْلمُ ما» بالإدغام، والجمهور بالفَكّ[3]. والجمهور «تَدْعون» بتاء الخطاب، وأبو عمرو وعاصم ـ بخلاف ـ بياء الغَيْبة[4].

وجَوَّزوا في «ما» أن تكون مفعولاً بـ «يَدْعون» أي: يعلم الذين يَدعون من دونه من جميع الأشياء، أي: يعلم حالَهم وأنَّهم لا قُدرةَ لهم. وأن تكون نافية، أي: لستم تدعون من دونه شيئاً له بالٌ ولا قَدْرٌ فيَصْلُح أن يُسمَّى شيئاً. وأن تكون

---

(١) الكشاف ٣/٢٠٦.
(٢) نقل الآلوسي ٢٠/٣٥٩ كلام أبي حيان، ثم عقب عليه بقوله: وهذه مجازفة على صاحب الكشاف كما لا يخفى.
(٣) المحرر الوجيز ٤/٣١٨.
(٤) قرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وابن عامر والأعشى والجعفي عن أبي بكر عن عاصم بالتاء، وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بالياء، انظر السبعة ٥٠١، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/٣٤٣، والمحرر الوجيز ٤/٣١٨.

استفهاماً، كأنه قَرَّر على جهة التَّوبيخ على هذا المَعْبودَ من جميع الأشياء، وهي في هذين الوَجْهين مُقْتَطَعَةٌ من يَعلم واعتراضٌ بين يعلم وبين قوله: «وهو العزيز الحكيم».

وجَوَّز أبو علي أن تكون «ما» استفهاماً منصوباً بـ «تَدْعون» و«يعلم» مُعَلَّقة، فالجملة في موضع نصبٍ بها، والمعنى: إن الله يعلم أوثاناً تَدْعون من دونه أم غيرَها؟ لا يخفى عليه ذلك، والجُملةُ تأكيدٌ للمثَل[1].

وإذا كانت «ما» نافية كان في الجملة زيادةٌ على المثَل؛ حيث لم يجعل تعالى ما يدعونه شيئاً.

«وهو العزيز الحكيم» فيه تَجْهيلٌ لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جَماد ليس معهُ مصَحِّحُ العلمِ والقُدرةِ أصلاً، وتركوا عبادةَ القادرِ القاهر الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا لحِكمة.

«وما يَعقِلُها إلا العالمون»، أي: لا يَعْقِلُ صِحَّتَها وحُسْنَها وفائدتها.

وكان جَهَلَةُ قريش يقولون: إن ربَّ محمد يَضربُ المثَل بالذُّباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، وما عَلِموا أن الأمثالَ والتَّشبيهات طُرُقٌ إلى المعاني المُحْتَجِبَة، فتُبْرِزها وتُصَوِّرُها للفَهْم؛ كما صَوَّر هذا التَّشبيهُ الفرقَ بين حال المُشركِ وحالِ المُوَحِّد[2].

والإشارة بقوله: «وتلك الأمثال» إلى هذا المثَل وما تقدَّم من الأمثال في السُّوَر.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية فقال: «العالم مَنْ عَقَل عن الله، فعَمِل بطاعته، واجتَنَب سَخَطه»[3].

---

(١) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٤، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٧.

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٨٣٧) (بغية الباحث)، ومن طريقه الثعلبي في تفسيره ٥/ ١٥، والبغوي ٣/ ٤٦٨، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠، وفيه داود بن المحبّر، قال الدارقطني: متروك، وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث غير ثقة. ميزان الاعتدال (٢٥٢٧).

«خلق الله السموات والأرض» فيه تنبيهٌ على صِغَر قَدْر الأوثانِ التي عبدوها، ومعنى «بالحقّ» بالواجب الثَّابت، لا بالعَبَث واللَّعِب، إذْ جعلها مساكنَ عبادِهِ، وعِبْرةً ودلائلَ على عظيم قُدرته وباهرِ حكمته.

والظَّاهر أن «الصَّلاة» هي المعهودةُ، والمعنى: من شأنها أنها إذا أُدِّيَتْ على ما يَجب من فُروضها وسُنَنها، والخُشوع فيها، والتَّدَبُّرِ لما يَتلو فيها، وتقدير المُثول بين يدي الله تعالى أنْ تَنهى عن الفَحْشاء والمنكر.

وقال ابن عباس والكلبي وابن جُرَيج وحمَّاد بن أبي سُليمان: تَنْهى ما دام المُصَلِّي فيها.

وقال ابن عمر: الصّلاةُ هنا القُرآن. وقال ابن بَحْر: الصلاة الدُّعاء، أي: أَقِم الدُّعاء إلى أمر الله[١].

وأما مَنْ تراه من المُصلِّين يَتعاطى المعاصي فإنَّ صَلاتَه تلك ليست بالوصف الذي تقدَّم، وفي الحديث أنَّ فتىً من الأنصار كان يُصلّي مع النبي ﷺ ولا يَدَعُ شيئاً من الفَواحش والسَّرقة إلا رَكِبَه، فقيل ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «إن صلاته سَتَنْهاه» فلم يَلْبَث أن تاب وصَلُحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم»[٢].

ولا يَدُلُّ اللَّفظُ على أن كلَّ صلاةٍ تَنهى، بل المعنى أنه يُوجَد ذلك فيها، ولا يكون على العُموم، كما تقول: فلانٌ يأمُرُ بالمعروف، أي: من شأنه ذلك، ولا يَلزم منه أنّ كلَّ مَعروفٍ يأمُرُ به.

والظاهر أنَّ «أكْبَر» أفْعَل تفضيل، فقال عبد الله وسَلْمان وأبو الدَّرْداء وابنُ عباس وأبو قُرَّة: معناه: ولَذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذِكرِكم إيّاه.

وقال قتادة وابنُ زيد: أكبر من كلِّ شيء.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٤٠٨، ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٩/٣٠٦٦، ٣٠٦٧، ومعاني القرآن للنحاس ٥/٢٢٨، وتفسير الثعلبي ٥/١٥، والماوردي ٤/ ٢٨٤، والقرطبي ١٦/٣٦٧، وزاد المسير ٦/ ٢٧٤، والمحرر الوجيز ٤/٣١٩-٣٢٠.

(٢) ذكره عن أنس بهذا السياق الثعلبي ٥/١٥، والزمخشري ٣/٢٠٧، وابن عطية ٤/ ٣٢٠، والقرطبي ١٦/٣٦٧، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٨: لم أجده.
وروي نحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه أحمد (٩٧٧٨)، وابن حبان (٢٥٦٠).

وقيل: ولَذِكْرُ الله في الصَّلاة أكبرُ منه خارجَ الصَّلاة، أي: أكبر ثَواباً، وقيل: أكبرُ من سائر أركان الصلاة.

وقيل: ولذكر الله: نَهْيُه، أكبرُ من نَهْي الصلاة. وقيل: أكبر من كلِّ العبادات[١].

وقال ابن عطية: وعندي أن المعنى: ولَذِكْرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي يَنهى عن الفحشاء والمُنكر، والجزءُ الذي منه في الصلاة يَنهى كما ينهى في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ لله مُراقبه، وثَواب ذلك الذِّكْرِ: أن يَذكُرَه الله في مَلأٍ خيرٍ من مَلَئه، والحركاتُ التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في النَّهْي، والذِّكْرُ النَّافع هو مع العلم وإقبالِ القلب وتَفرُّغِه إلا من الله، وأمَّا ما لا يتجاوز اللِّسان ففي رُتبةٍ أخرى[٢].

وقال الزمخشري: يريد: والصلاةُ أكبرُ من غيرها من الطَّاعات، وسمَّاها بذكر الله كما قال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وإنما قال: ولَذِكْرُ الله ليَسْتقِلَّ بالتَّعليل، كأنه قال: والصَّلاةُ أكبرُ لأنها ذِكرُ الله[٣].

«ما تصنعون» من الخير والشَّرّ فيُجازِيكم، وفيه وَعيدٌ وحَثٌّ على المُراقبة.

❋ ❋ ❋

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا

(١) انظر الأقوال السابقة في: تفسير الطبري ١٨/ ٤١١-٤١٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٧-٣٠٦٨، والثعلبي ٥/ ١٥-١٨، والماوردي ٤/ ٢٨٥، والزمخشري ٣/ ٢٠٧، والقرطبي ١٦/ ٣٦٩-٣٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٧.

لَٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ
ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

و«أهلَ الكتاب» هم اليهود والنَّصارى. «إلا بالتي هي أَحْسَن» من المُلاطَفة في الدُّعاء إلى الله والتَّنبيه على آياته.

«إلا الذين ظَلَموا» مَنْ لم يُؤَدِّ جِزْيَةً، ونَصَبَ الحَرْبَ، وصَرَّح بأن لله ولداً أو شريكاً أو يَدَه مَغْلولة؛ فالآية مَنْسوخة في مُهادَنَة مَنْ لم يُحارب. قاله مجاهد.

أو مؤمنو أهل الكتاب، «إلا بالتي هي أحسن» أي: بالموافَقَة فيما حَدَّثوكم به من أخبار أوائلِهم، «إلا الذين ظَلموا» مَنْ بقي منهم على كُفْرِه وغَدَر كقُرَيْظَة والنَّضِير. قاله ابنُ زيد، والآية على هذا مُحْكَمَة.

وقيل: إلا الذين آذَوْا رسولَ الله ﷺ.

وقال قتادة: الآية مَنْسوخة بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية[1] [التوبة: ٢٩].

وقرأ الجمهور «إلَّا» حَرْفُ استثناء، وابن عباس «أَلا» حرفُ تنبيه واستفتاح[2]، وتقديره: ألا جادِلوهم بالتي هي أَحْسَن.

و«قولوا آمَنَّا» هذا من المُجادَلة بالأَحْسَن «بالذي أُنزِل إلينا» وهو القرآن «وأُنزِل إليكم» وهو التَّوراة والزَّبور والإنجيل.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١، وانظر تفسير الطبري ١٦/ ٤١٨-٤٢٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٩-٣٠٧٠، والثعلبي ٥/ ١٩، والماوردي ٤/ ٢٨٦، والزمخشري ٣/ ٢٠٨، والقرطبي ١٦/ ٣٧١-٣٧٢، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، ونقله عن أبي حيان السمين ٩/ ٢٣، والآلوسي ٢٠/ ٣٧٢.

وفي «صحيح» البخاري عن أبي هريرة: كان أهلُ الكتاب يقرؤون التَّوراة بالعِبْرانيَّة، ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكَذِّبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم»[1].

«وكذلك» أي: مِثْلُ ذلك الإنْزال الذي للكُتب السَّابقة «أنزلْنا إليك الكتاب» أي: القرآن «فالذين آتيناهم الكتاب» هم عبد الله بن سلام ومَن آمن معه «ومن هؤلاء» أي: من أهل مكة.

وقيل: «فالذين آتيناهم الكتاب» أي: الذين تَقدَّموا عَهْدَ الرسول «يؤمنون به» أي: بالقرآن إذْ هو مَذْكورٌ في كُتبهم أنه يَنْزل على رسول الله ﷺ، «ومن هؤلاء» أي: ممَّن في عهده منهم.

«وما يَجْحَد بآياتنا» مع ظُهورِها وزَوالِ الشُّبْهَةِ عنها «إلا الكافرون» أي: من بني إسرائيلَ وغيرهم.

قال مجاهد: كان أهلُ الكتاب يَقرؤون في كُتبهم أن محمداً ﷺ لا يَخُطُّ، ولا يقرأ كتاباً، فنزلت: «وما كنتَ تَتْلُو»[2].

«من قبله» أي: من قبل نزوله عليك «من كتاب» أي: كتاباً، ومن زائدة لأنها في مُتَعَلَّق النَّفي «ولا تَخُطُّه» أي: لا تقرأ ولا تكتب بيمينك، وهي الجارِحةُ التي يُكْتَبُ بها، وذِكْرُها زيادةُ تصويرٍ لما نَفى عنه من الكتابة.

لمَّا ذكر إنزالَ الكتاب عليه مُتَضمِّناً من البلاغة والفصاحة، والإخبار عن الأمم السابقة والأمور المُغَيَّبة ما أعجز البشرَ أنْ يأتوا بسورةٍ مثله: أخذ يُحَقِّق كونَه نازلاً من عند الله بأنه ظَهَر عن رجلٍ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ولا يُخالِط أهلَ العلم، وظُهور هذا القرآن المُنْزَل عليه أعظمُ دليل على صِدقه.

وأكثرُ المسلمين على أن رسول الله ﷺ لم يكتب قطُّ ولم يقرأ بالنَّظَر في كتاب.

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٨٥)، وسلف في تفسير الآية (١٣٦) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧١، وذكره الماوردي ٤/ ٢٨٧، وابن عطية ٤/ ٣٢٢، والقرطبي ١٦/ ٣٧٣.

ورُوي عن الشَّعبيِّ أنه قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى كَتب[١].

وأسند النَّقاش حديثاً إلى أبي كَبْشَةَ السَّلُولي أنه ﷺ قَرأ صَحيفةً لعُيَيْنَةَ بن حِصْن وأخبر بمعناها[٢].

وفي «صحيح» مسلم ما ظاهرُه أنه كتب مُباشرة[٣].

وقد ذهب إلى ذلك جماعةٌ منهم أبو ذَرّ عَبْدُ بن أحمد الهَرَوي، والقاضي أبو الوليد الباجي وغيرُهما[٤]، واشتدَّ نَكيرُ كثيرٍ من عُلماء بلادنا على أبي الوليد الباجي، حتى كان بعضُهم يَسُبُّه ويَطْعُن فيه على المِنْبر.

وتأوَّل أكثرُ العلماء ما ورد من أنه كتب على أن مَعْناه أمرَ بالكتابة، كما تقول: كتب السُّلطان لفُلانٍ بكذا، أي: أمَرَ بالكَتْب.

«إذاً لارْتَاب المُبطلون» أي: لو كان يقرأ كُتباً قبل نزول القرآن عليه أو يكتب لحَصَلَتْ الرِّيْبَةُ للمُبْطِلين؛ إذ كانوا يقولون: حَصَّلَ ذلك الذي يتلوه ممَّا قرأه قبلُ وخَطَّه واستَحْفَظَه، فكان يكون لهم في ارتيابهم تَعلُّقٌ ببَعْضِ شُبْهة، وأما ارتيابُهم مع وُضوحِ هذه الحجَّة فظاهرٌ فسادُه.

و«المُبْطِلون» أهلُ الكتاب. قاله قتادة. أو كُفَّار قُريش. قاله مجاهد[٥]. وسُمُّوا مُبْطِلين لأنَّهم كفروا به وهو أُمِّيّ بعيدٌ من الرِّيْب، ولما لم يكن قارئاً ولا كاتباً كان ارتيابُهم لا وَجْهَ له.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواته جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٢٩)، والبيهقي ٧/ ٢٥، وانظر مسند أحمد (١٧٦٢٥).

(٣) إشارة إلى حديث البراء بن عازب (١٧٨٣) (٩٢) في قصة صلح الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي: «اكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فأمر علياً أن يمحاها، فقال علي: لا والله لا أمحاها، فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه مكانها، فمحاها، وكتب: ابن عبد الله.

(٤) انظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٦/ ١٥١، وترتيب المدارك له ٤/ ٨٠٥-٨٠٦، والمفهم لأبي العباس القرطبي ٣/ ٦٣٧، وتفسير ابن عطية ٤/ ٣٢٢، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٧٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٦، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧١.

«بل هو» أي: القرآن «آياتٌ بيِّناتٌ» واضحاتُ الإعجاز «في صُدور الذين أوتوا العلم» أي: مُسْتَقِرَّةٌ، مؤمَنٌ بها، محفوظةٌ في صدورهم، يتلوها أكثرُ الأمة ظاهراً، بخلاف غيره من الكتب فليس بمُعْجِز، ولا يُقْرأ إلا من الصُّحُف.

وجاء في صِفة هذه الأُمَّة: «صُدورُهم أناجيلُهم»[١].

وكونُه للقرآن يُؤيِّدهُ قراءةُ عبد الله: «بل هي آيات».

وقيل: «بل هو» أي: النبي ﷺ، وأمورُه آيات بيِّنات. قاله قتادة، وقرأ «بل هو آيةٌ بيِّنة» على التَّوحيد.

وقيل: «بل هو» أي: كونُه لا يقرأ ولا يكتب[٢].

ويقال: جَحَدْتُهُ وجَحَدْتُ به، وكَفَرْتُه وكَفَرْتُ به. قيل: والجُحود الأوَّل مُعَلَّقٌ بالوَحْدانية، والثاني مُعَلَّقٌ بالنبوَّة.

وختمت تلك بالكافرين لأنه قسيم المؤمنين في قوله: «يؤمنون به ومن هؤلاء مَن يؤمن» وهذه بالظَّالمين لأنه جَحْدٌ بعد إقامة الدَّليل على كون الرَّسول صدر منه القرآن مُنزلاً عليه وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فهم الظالمون بعد ظهور المُعجزة.

«وقالوا لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربِّه» أي: قُريش وبعضُ اليهود كانوا يُعلِّمون قريشاً مثلَ هذا الاقتراح؛ يقولون لهم: ألا يأتيكم بآية مثل آية موسى من العصا وغيرها.

وقرأ العَربيَّان ونافع وحَفْص: «آيات» على الجمع، وباقي السَّبعة على التوحيد[٣].

«قل إنما الآياتُ عند الله» يُنَزِّل أيَّتها شاء، ولو شاء أن يُنزل ما يَقترحونه لفَعل. «وإنما أنا نَذيرٌ» بما أُعطيتُ من الآيات.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٠٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٥٨، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٠، والماوردي ٤/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، وزاد المسير ٦/ ٢٧٨.

(٣) قرأ بالتوحيد «آية»: ابن كثير والكسائي وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر. والعربيان: أبو عمرو وابن عامر، السبعة ٥٠١، والتيسير ١٧٤.

وذكر يحيى بن جَعْدَة أن ناساً من المسلمين أتَوْا رسول الله ﷺ بكُتُبٍ قد كتبوا فيها بعضَ ما يقول اليهود، فلما نَظر إليها ألقاها وقال: «كفى بها حَماقةُ قوم ـ أو ضَلالةُ قوم ـ أنْ يَرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به غيرُ نبيِّهم» فنزلت: «أولَم يَكْفِهم»(١).

والذي يَظهر أنّه ردٌّ على الذين قالوا: «لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربّه» أي: أوَلم يَكْفِهم آيةً مُغْنيَةً عن سائر الآيات ـ إنْ كانوا طالبين للحقّ غيرَ مُتَعَنِّتين ـ هذا القرآن الذي تدوم تلاوتُه عليهم في كلِّ مكان وزمان، فلا يَزال معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تَزولُ ولا تَضْمَحِلُّ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعد وُجودها، وتكون في مكانٍ دون مكان.

«إنَّ في» هذه الآيةِ الموجودة في كلِّ مكان وزمانٍ «لَرَحْمَةً» لَنِعْمَةً عظيمة لا تُشْكَر، وتذكِرة.

وقيل: «أوَلم يَكفهم» يعني اليهود «أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم» بتحقيقِ ما في أيديهم من نَعْتك ونَعْتِ دِينك.

ورُوي أنَّ كَعْبَ بن الأشْرَف وأصحابَه قالوا: يا محمد، مَنْ يَشْهد بأنَّك رسولُ الله؟ فنزلت(٢) «قُلْ كَفى بالله بيني وبينكم شهيداً» أنّي قد بَلَّغْتُ وأنْذَرْتُ، وأنكم جَحَدْتُم وكَذَّبْتُم، وهو العالم ما في السَّماوات والأرض، فيعلم أمري وأمرَكم.

«والذين آمنوا بالباطل» قال ابن عباس: بغير الله. وقال مقاتل: بعبادة الشَّيطان. وقيل: بالصَّنَم(٣).

«ويَسْتعجلونك» أي: كُفَّار قريش في قولهم: «ائتنا بما تَعِدُنا» وقول النَّضر: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢](٤)، وهو استعجالٌ على جِهة التَّعجيزِ والتَّكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كانَ يتوعَّدُهم به الرسول.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٤٩٥)، وأبو داود في المراسيل (٤٥٤)، والطبري ١٨/ ٤٢٩، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٢-٣٠٧٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٩، وتفسير الآلوسي ٢٠/ ٣٨٢.
(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠، وتفسير القرطبي ١٦/ ٣٧٩.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٠٥-٥٠٣ (شاكر)، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٠، والقرطبي ١٦/ ٣٧٩، والكشاف ٣/ ٢٠٩، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

والأجَلُ المسمَّى: ما سَمَّاه الله وأثْبَتَه في اللَّوح المحفوظ لعذابهم، وأوجَبَتْ الحِكمةُ تأخيرَه.

وقال ابن جُبير: يوم القيامة. وقال ابن سَلَّام: أجَلُ ما بين النَّفْخَتَين. وقيل: يوم بدر[١].

«ولَيَأْتِيَنَّهم بَغْتَةً» أي: فجأة، وهو ما ظهر يوم بدر وفي السّنين السَّبْع[٢].

ثم كرَّر فعلَهم وقبَّحه، وأخبر أنَّ وراءهم جَهنَّم تُحيط بهم.

وانتصب «يومَ يَغشاهم» بمُحيطة.

وقرأ الكوفيُّون ونافع: «ويقول» أي: الله، وباقي السَّبعة بالنُّون[٣] نون العَظَمة، أو نون جماعة الملائكة.

وأبو البَرَهْسَم بالتاء، أي: جَهَنَّم؛ كما نُسبَ القولُ إليها في ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠][٤].

وقرأ ابنُ مسعود وابنُ أبي عَبْلَة: «ويُقال» مَبنيًّا للمفعول[٥].

❁ ❁ ❁

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٤، والثعلبي ٥/ ٢١، والماوردي ٤/ ٢٩٠، والقرطبي ١٦/ ٣٨٠، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

(٢) إشارة إلى دعائه ﷺ على قريش طمعاً في إيمانهم بأن يصيبهم القحط سبع سنين كسني يوسف، أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وأحمد (٧٢٦٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالياء، وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون. السبعة ٥٠١، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣.

(٤) مختصر في الشواذ ١١٥، ونقله عن أبي حيان: السمين في الدر المصون ٩/ ٢٤، والآلوسي ٢٠/ ٣٨٦.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٣.

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن
دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾
فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أكثر المفسِّرين ذهبوا إلى أن قولَه: «يا عبادي» الآية نزلت فيمن كان مُقيماً بمكّة، أُمروا بالهجرة عنها إلى المدينة، أي: جانِبوا أهلَ الشِّرك، واطلبوا أهلَ الإيمان.

وقال أبو العالية: سافروا لطلب أوليائه.

وقال ابن جُبَير وعطاء ومُجاهد ومالك بن أنس: الأرض التي فيها الظُّلم والمُنْكر تترتَّب فيها هذه الآية، وتَلْزَمُ الهجرةُ عنها إلى بلدِ حَقٍّ.

وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير: «إن أرضي واسعة» عِدَةٌ بسَعَةِ الرِّزق في جميع الأرض.

وقيل: أرضُ الجنة واسعةٌ أُعطيكم. وقال مجاهد: سافروا لجهاد أعدائه(١).

«فإيَّاي فاعْبُدون» من باب الاشتغال، أي: فإيايَ اعبدوا فاعبدون.

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى الفاء في «فاعبدون» وتقديم المفعول؟

(١) انظر الأقوال في: تفسير الطبري ١٨/ ٤٣٣-٤٣٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٥-٣٠٧٦، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٣-٢٣٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢، والماوردي ٤/ ٢٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨١، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٧٦.

قلت: الفاء جوابُ شَرْطٍ مَحذوف؛ لأن المعنى: إن أرضي واسعةٌ؛ فإنْ لم تُخْلِصوا العبادة في أرضٍ فأخْلصوها في غيرها، ثمَّ حذَفَ الشَّرْط وعَوَّض من حذفه تقديمَ المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص[١]، انتهى.

ويحتاج هذا الجوابُ إلى تأمُّل.

ولما أخبر تعالى بسَعَةِ أرْضِهِ ـ وكان ذلك إشارةً إلى الهجرة ـ وأمر بعبادته؛ فكان قد يَتَوَهَّم مُتَوَهِّمٌ أنه إذا خرج من أرضه التي نَشأ فيها لأجلِ مَنْ حَلَّها من أهل الكُفْرِ إلى دار الإسلام لا يَستقيمُ له فيها ما كان يستقيم له في أرضه، فرُبَّما أدَّى ذلك إلى هَلاكه: أخبرَ أنَّ كلَّ نَفْسٍ لها أجلٌ تَبْلُغُهُ وتموت في أيِّ مكانٍ حَلَّ، وأن رُجوعَ الجَمْع إلى جَزائه يوم القيامة.

وقرأ عليّ: «تَرْجِعون» مَبنيَّاً للفاعل[٢]. والجمهور مَبنيَّاً للمفعول بتاء الخطاب. ورُوي عن عاصم بياء الغَيْبَة[٣].

وقرأ أبو حَيْوة: «ذائقةٌ» بالتنوين «الموتَ» بالنَّصْب[٤].

وقرأ[٥] «لَنُبَوِّئَنَّهم» من المَباءةِ.

وقرأ علي وعبد الله والرَّبيع بن خُثَيْم وابن وَثَّاب وطَلْحَة وزيد بن عليّ وحَمْزة والكسائيّ من الثَّواء[٦].

وبَوَّأ يتعدَّى لاثنين، قال تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٠.
(٢) مختصر في شواذ القراءات ١١٥، وهي قراءة يعقوب من العشرة، انظر النشر ٢/ ٣٤٣.
(٣) هي رواية يحيى بن آدم، عن عاصم، وابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم، انظر السبعة ٥٠٢، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤، والقرطبي ١٦/ ٣٨٣.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.
(٥) الجمهور، انظر السبعة ٥٠٢، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٤.
(٦) قرؤوا: لَنُثْوِيَنَّهم، انظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٧ (على تصحيف فيه)، والسبعة ٥٠٢، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٤، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢، والماوردي ٤/ ٢٩٢، والقرطبي ١٦/ ٣٨٣، وزاد المسير ٦/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.

وقد جاء مُتعدِّياً باللام قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] والمعنى: لنَجْعَلَنَّ لهم مكانَ مَباءة، أي: مَرْجِعاً يأوون إليه. «غُرَفاً» أي: عَلالي.

وأما ثَوى فمعناه أقام، وهو فعلٌ لازم، فدخلت عليه همزةُ التَّعْدية فصار يَتعدَّى إلى واحد، وقد قُرِئ مُشَدَّداً[١]، عُدِّي بالتَّضعيف، فانتصب «غُرَفاً» إمَّا على إسقاط حرف الجرّ، أي: في غُرَف، ثم اتَّسَع فحذف، وإما على تَضْمين الفعل معنى التَّبْوِئة فتعدَّى إلى اثنين، أو شبه الظَّرف المكاني المختصّ بالمُبْهَم يوصل إليه الفعل.

ورُوي عن ابن عامر: «غُرُفاً» بضمِّ الرَّاء[٢].

وقرأ ابنُ وثَّاب: «فنِعْمَ» بالفاء[٣]، والجمهور بغير فاء.

«الذين صبروا» أي: على مُفارَقةِ أوطانهم، والهجرةِ، وجميعِ المَشاقِّ من امتثالِ الأوامر واجتناب المَناهي.

«وعلى ربِّهم يَتوكَّلون» هذان جِماعُ الخير كلِّه: الصَّبرُ وتفويضُ الأمور إلى الله تعالى.

ولما أمر رسولُ الله ﷺ مَن أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقرَ فقالوا: غُربةٌ في بلادٍ لا دارَ لنا فيها ولا عَقار، ولا مَن يُطعِم، فمَثَّل لهم بأكثر الدَّوابِّ التي تَتَقوَّت، ولا تدَّخِر، ولا تَرَوَّى في رِزقها.

«ولا تَحمل رزقَها» من الحَمْل، أي: لا تَنْقُل ولا تَنْظُر في ادِّخار، قاله مجاهد وأبو مِجْلَز وعليُّ بن الأقْمر[٤].

والادِّخار جاء في الحديث: «كيف بكَ إذا بَقيتَ في حُثالةٍ من حُثالَةِ الناس،

---

(١) بفتح الثاء وتشديد الواو: لَنُثَوِّيَنَّهم، انظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٠، وذكر ابن خالويه في مختصر في الشواذ ١١٥ عنه أنه قرأ: فنَعِم، بفتح النون.

(٤) أخرجها عنهم الطبري ١٨/ ٤٣٧-٤٣٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٩، وانظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥.

يَخْبَؤون رِزقَ سنةٍ لضعفِ اليقين؟»[(١)].

قيل: ويجوز أن يكون من الحَمَالَة، أي: لا تَتَكَفَّل لنفسها ولا تُرَوّي[(٢)].

وقال الحسنُ: لا تَحْمِلُ رِزقَها: لا تَدَّخِر؛ إنما تُصبح فيَرزقُها الله.

وقال ابن عباس: لا يَدَّخِر إلا الآدميُّ والنَّملُ والفأرةُ والعُقْعُق.

وقيل: البُلْبُل يَحتكر في حِضْنَيه.

ويقال: للعُقْعُق مَخابئ إلا أنه ينساها[(٣)].

وانتفاءُ حَمْلِها لرزقها إمَّا لضَعْفها وَعَجْزها عن ذلك، وإمَّا لكونها خُلِقَت لا عَقلَ لها فتُفَكِّرَ فيما تَخْبَؤه للمستقبل.

«الله يرزُقُها» على ضَعْفها «وإيّاكم» أي: على قُدرتكم على الاكتساب وعلى التَّحَيُّل في تحصيل المَعيشة، ومع ذلك فرازِقُكم هو الله «وهو السَّميعُ» لقولكم: نَخشى الفَقْر «العَليم» بما انطوت عليه ضمائرُكم.

ثم أعقب تعالى ذلك بإقرارِهم بأن مُبْدِعَ العالَم ومُسَخِّرَ النَّيِّرَيْن هو الله، وأَتْبَعَ ذلك ببَسْط الرِّزق وضِيْقَتِه فقال: «الله يَبْسُطُ الرِّزقَ لمَنْ يَشاء» أي: أنْ يَبْسُطَه «ويَقْدِرُ» لمَنْ يشاء أن يَقْدِرَه.

والضَّمير في «له» ظاهِرُه العَودُ على مَن يَشاء، فيكون ذلك لواحدٍ يُبْسَطُ له في وقتٍ ويُقْدَرُ في وقت، ويجوز أن يكون الضَّمير عائداً عليه في اللَّفْظ والمُراد «لمن يَشاء» آخر، فصار نَظير: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١]، أي: من عُمر مُعَمَّرٍ آخر، وقولِهم: عندي دِرهمٌ ونصفُهُ، أي: ونصفُ درهمٍ آخر، فيكون المَبْسوطُ له الرِّزق غيرَ المُضَيَّقِ عليه الرِّزقُ.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (المنتخب) (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٣٠٧٨، والواحدي في أسباب النزول ٣٥٨، والثعلبي في تفسيره ٥/ ٢٢ من حديث ابن عمر ﵄، وفي إسناده مقال.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥.

(٣) انظر الأقوال في: معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٥، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٣، والماوردي ٤/ ٢٩٣، والزمخشري ٣/ ٢١١، والقرطبي ١٦/ ٣٨٥-٣٨٦، وزاد المسير ٦/ ٢٨٢.

وقرأ عَلْقَمَةُ الحمصي: «ويُقَدِّر» بضمّ الياء وفتح القاف وشدِّ الدَّال[١].

«عليم» يعلم ما يُصْلِحُ العبادَ وما يُفْسِدُهم.

ولمَّا أخبر بأنّهم مُقِرُّون بأن مُوجِدَ العالَم، ومُسَخِّرَ النَّيِّرَيْن، ومُحييَ الأرضَ بعد موتها هو الله؛ كان ذلك الإقرارُ مُلزِماً لهم أنَّ رِزْقَ العبادِ إنما الله هو المُتَكَفِّلُ به، وأمر رسولَه بالحَمْدِ له تعالى؛ لأنَّ في إقرارهم توحيدَ الله بالإبداع، ونَفْيَ الشُّرَكاء عنه في ذلك، وكان ذلك حُجَّةً عليهم حيث أسندوا ذلك إلى الله وعَبدوا الأصنام.

«بل أكثرُهم لا يَعْقِلون» حيثُ يُقِرُّونَ بالصَّانِع الرَّازِق المُحيي، ويَعبدون غيرَه.

«وما هذه الحياةُ الدُّنيا» الإشارةُ بـ «هذه» ازْدِراءٌ للدُّنيا، وتصغيرٌ لأَمْرِها، وكيف لا وهي لا تَزِنُ عندَ الله جَناحَ بَعوضة؟ أي: ما هي في سُرعةِ زَوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يَلعبُ الصِّبيانُ ساعةً ثم يَتَفَرَّقون.

و«الحَيَوان» والحَياة بمعنى واحد، وهو عند الخليل وسيبويه مَصدر حَيِيَ، والمعنى: لَهي دارُ الحياة، أي: المُسْتَمِرَّةُ التي لا تَنقطع، قال مجاهد: لا موتَ فيها[٢].

وقيل: «الحَيَوان»: الحَيُّ، وكأنَّه أُطلق على الحَيِّ اسمُ المَصْدر، وجُعلت الدَّارُ الآخرةُ حَيّاً على المُبالغة بالوَصْف بالحياة.

وظهورُ الواو في الحَيَوان وفي حَيْوَة ـ عَلَمٌ لرجل ـ استَدلَّ به مَنْ ذهبَ إلى أن لامَ الكلمة واوٌ، ومذهب سيبويه أن لام الكلمة ياءٌ.

ولا حجَّة في حَيِي؛ لأن الواو في مثل هذا التَّركيب تُبدل ياءً لكَسْرِ ما قبلها، نحو: شَقِي من الشِّقْوَة.

ومَنْ ذهب إلى أنّ لامَ الكلمةِ ياءٌ زعم أنّ ظهور الواو في حَيَوان وحَيْوَة بدلٌ من ياء شُذوذاً.

---

(١) مختصر في الشواذ ١١٥، ونقله عن أبي حيان الآلوسي ٢٠/ ٣٩١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥، وانظر الكتاب ٤/ ٤٠٩، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٨/ ٤٤٠، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨١.

وجواب «لو» محذوف، أي: لو كانوا يعلمون لم يُؤثروا دارَ الفَناء عليها.

وجاء بناءُ مَصدر حَيِيَ على فَعَلان لأنه يدلُّ على الحرَكةِ والاضْطِراب؛ كالغَلَيان والنَّزَوان واللَّهَبان والجَوَلان والطَّوَفان، والحَيّ كثيرُ الاضطراب والحركة، فهذا البناءُ فيه لكثرةِ الحركة.

ولـمَّا ذَكر تعالى أنهم مُقرُّون بالله إذا سُئلوا: مَن خلَق العالَم، ومَنْ نَزَّل من السماء ماءً؟ ذكر أيضاً حالةً أخرى يَرْجِعون فيها إلى الله، ويُقرُّون بأنه هو الفاعلُ لما يُريد، وذلك حينَ رُكوبِ البحر، واضطرابِ أمواجِهِ، واختلافِ رِياحه.

وقال الزمخشري: فإنْ قلت: بِمَ اتّصل قولهُ: «فإذا ركبوا في الفُلك»؟ قلت: بمحذوفٍ دلَّ عليه ما وَصَفهم به وشرَحَ من أمرهم، مَعْناه: على ما وُصفوا به من الشِّركِ والعِناد «فإذا ركبوا في الفُلك دَعَوُا الله مخلصين له الدِّين» كائنينَ في صورة مَنْ يُخْلِص الدِّينَ لله من المؤمنين، حيث لا يَذكرون إلا الله، ولا يَدْعون مع الله إلهاً آخر، وفي «مُخْلِصين» ضَربٌ من التَّهَكُّم. انتهى[١].

و«إذا هم يُشركون» جوابُ لَمَّا، أي: فاجَأ التَّنْجِيةَ إشراكُهم بالله، أي: لم يتأخَّرْ عنها ولا وَقْتاً.

والظاهر أن اللام في «لِيَكْفروا» لامَ كي، وعطف عليه «ولِيَتَمتَّعوا» في قراءة مَنْ كسر اللام، وهم العَرَبيّان ونافع وعاصم.

والمعنى: عادوا إلى شركهم ليكفروا، أي: الحامِلُ لهم على الشِّرك هو كُفرُهم بما أعطاهم الله تعالى، وتَلَذُّذهم بما مُتِّعوا به من عَرَضَ الدنيا، بخلاف المؤمنين؛ فإنهم إذا نَجَوا من مثل تلك الشدّة كان ذلك جالبَ شُكرِ الله تعالى، وطاعةً له مُزْدادة.

وقيل: اللام في «ليكفروا، وليَتمتَّعوا» لامُ الأمرِ، ويؤيِّده قراءةُ مَنْ سكَّن لام «وَلْيَتَمتَّعوا» وهم ابن كثير والأعمش وحمزة والكسائي[٢]. وهذا الأمر على سبيل التَّهديدِ كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢.

(٢) انظر في قراءة كسر اللام وتسكينها: السبعة ٥٠٢-٥٠٣، والتيسير ١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٤.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف جازَ أن يأمُرَ الله تعالى بالكفر، وبأن يَعملَ العُصاةُ ما شاؤوا وهو ناهٍ عن ذلك ومُتَوَعِّدٌ عليه؟ قلت: هو مَجازٌ عن الخِذْلان والتَّخْلية، وأن ذلك الأمرَ مُتَسَخَّطٌ إلى غاية[(١)]. انتهى. والتَّخْلية والخِذْلان من ألفاظ المعتزلة.

وقرأ ابن مسعود: «فتَمَتَّعوا فسوف تَعلمون» بالتاء فيهما[(٢)]، أي: قيل لهم: تمتَّعوا فسوف تعلمون، وكذا في مُصحف أُبيّ[(٣)].

وقرأ أبو العالية: «فيُمَتَّعوا» بالياء مبنيّاً للمفعول[(٤)].

ومَن قرأ «ولْيَتَمَتَّعوا» بسكون اللام وكان عنده اللام في «ليكفروا» لامَ كي فالواو عاطفةٌ كلاماً على كلام، لا عاطفة فعلٍ على فعل.

وحكى ابن عطية عن ابن مسعود: «لسوف تعلمون» باللام[(٥)].

ثم ذَكَّرهم تعالى بنِعَمه[(٦)] حيث أسكنَهم بلدةً أَمِنوا فيها[(٧)]، لا يغزوهم أحدٌ ولا يَستلِب منهم، مع كونهم قليلي العَدد، قارِّين في مكانٍ لا زَرْعَ فيه، وهذه من أعظم النِّعم التي كفروها، وهي نعمةٌ لا يَقدر عليها إلا اللهُ تعالى.

وقرأ الجمهور: «يؤمنون، ويكفرون» بالياء فيهما. وقرأ السُّلَمي والحسن بتاء الخطاب فيهما[(٨)].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٢.

(٢) نقلها عن أبي حيان السمين في الدر ٩/ ٢٧، وورد في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٦٣ (طبعة مصر) أنها قراءة أبي العالية، ووقع في طبعة مؤسسة الرسالة ١٦/ ٣٨٩ تحريف فيها يُصحح من هنا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥.

(٤) مختصر في الشواذ ١١٥، ونقله السمين في الدر ٩/ ٢٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥.

(٦) في (ت): بنعمته.

(٧) في (ت): بلدة هم آمنون فيها.

(٨) وهي قراءة عاصم الجحدري أيضاً، انظر مختصر في الشواذ ١١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥، وزاد المسير ٦/ ٢٨٥.

وافتراؤهم الكذب زَعْمُهم أن لله شريكاً[١]، وتكذيبُهم بالحقّ كُفرُهم بالرسول والقرآن.

وفي قوله: «لما جاءه» إشعارٌ بأنهم لم يَتوقَّفوا في تكذيبه وقتَ مجيءِ الحقّ لهم؛ بخلاف العاقل، فإنه إذا بلغه خبرٌ نظر فيه وفكَّر حتى يتبين له أصِدقٌ أم كَذِب.

و«أليس» تقريرٌ لمقامهم في جهنَّم، كقوله:

ألَسْتُم خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا[٢]

و«للكافرين» من وَضْعِ الظَّاهر مَوْضعَ المُضْمَر، أي: مثواهم.

و«الذين جاهَدوا فينا» أطلقَ المُجاهدَةَ ولم يُقَيِّدها بمُتَعَلَّق؛ ليتناولَ المجاهدةَ في النَّفسِ الأمَّارة بالسُّوء، والشّيطانِ، وأعداءِ الدِّين، وما ورد من أقوال العلماء فالمقصودُ بها المِثال، قال ابن عباس: جاهدوا أهواءهم في طاعةِ الله، وشُكرِ آلائه، والصَّبرِ على بلائه.

«لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا» لَنَزيدَنَّهم هدايةً إلى سبيل الخير، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]

وقال السُّدِّي: جاهدوا فينا بالثَّباتِ على الإيمان، لنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا إلى الجنَّة.

وقال أبو سُليمان الدَّاراني: جاهدوا فيما عَلِموا، لنهدينَّهم إلى ما لم يَعلموا.

وقيل: جاهدوا في الغَزْوِ، لنهدينَّهم سُبُلَ الشَّهادة والمَغْفرة.

وقال ابن عباس: «المُحسنين» المُوَحِّدِين، وقال غيره: المجاهدون.

وقال عبد الله بن المُبارك: مَن اعْتاصَت عليه مسألةٌ فلْيَسأل أهلَ الثُّغور عنها، لقوله تعالى: «لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا»[٣].

---

(١) في (ح): شركاء.

(٢) تمامه: وأندى العالمين بطون راح، وهو لجرير، وسلف في تفسير الآية (٦) من سورة البقرة.

(٣) انظر تفسير الثعلبي ٥/ ٢٤، والماوردي ٤/ ٢٩٤-٢٩٥، والزمخشري ٣/ ٢١٣، والقرطبي ١٦/ ٣٩٠، ٣٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥، وزاد المسير ٦/ ٢٨٥.

و«الذين» مبتدأ خبرُهُ القَسَمُ المحذوف، وجوابُه: «لَنَهْدينَّهم» وبهذا ونَظيرِه رُدَّ على أبي العباس ثعلب في مَنْعه أن تقعَ جُملةُ القَسَم والمُقْسَم عليه خبراً للمبتدأ، ونظيرُه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ [العنكبوت: ٥٨][1].

(١) انظر شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ١/ ٢٣٨، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٣١٠، والتذييل والتكميل ٤/ ٢٧، وارتشاف الضرب ٣/ ١١١٥، ومغني اللبيب ٥٢٩، والدر المصون ٩/ ٢٨.
وجاء بعد الآية في نسخة المحمودية (ح): والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب. وانتهى بهذا الجزء منها، وفقد الجزء بعده الذي يتضمن تفسير سورة الروم ولقمان.

(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[1] استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال في البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ إلا لنرى، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود، وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم: أن ﴿آلم أحسب ...﴾ نزلت في أناس كانوا بمكة. أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة أن لا يقبل منهم حتى يهاجروا، فخرجوا إلى المدينة فردهم المشركون، وأخرج ابن سعد: أنها نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، كما في اللباب.

أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما يظنون.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات. ولهذا قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف، ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنـه يكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال ههنا: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين، بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي وإن حرصا أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصـلحين لا في زمرة والديك، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾. عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات فذكر قصته، وقال، قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها

شجروا[1] فاها، فنزلت: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[2] الآية .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه – إلى قوله – ذلك هو الضلال البعيد﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أي إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ الآية، وقوله تعالى مخبراً عنهم ههنا: ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟ وقوله تعالى: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي آثامكم إن كانت لكم آثام، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم﴾، وقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر،

---

(١) فتحوا فمها بعود .

(٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير في قصة (سعد بن أبي وقاص) مع أمه، ورواه أيضاً مسلم والإمام أحمد وأبو داود والنسائي .

بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ الآية، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»، وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل». وقوله تعالى: ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان.

وفي الحديث: «إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ، ثم يأمر المنادي، فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم نزع ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾[1] وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه».

* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية؛ إما عينها - كما قال قتادة - إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً.

في الفلك المشحون﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقال ههنا: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨)﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله (إبراهيم) إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسْدِي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي مخلوقة مثلكم، قال ابن عباس: ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي تنحتونها أصناماً[1]، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ولهذا قال: ﴿فابتغوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وقال قتادة في قوله: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾، قال: يعزي نبيه ﷺ، **والظاهر** من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه؛ ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير وهو الأظهر.

الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، وكقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟ * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، وقوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغني عما سواه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، إنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿فقالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، ثم أضرموا فيها النار، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان، وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾، يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عباداتها في الدنيا صداقة وألفة منكم ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً، ثم ﴿يكفر بعضكم ببعض﴾

---

(١) أخرجه أصحاب السنن.

أي تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾، وقال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾، وقال ههنا: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار﴾ الآية، أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله.

* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له (لوط) يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن آزر، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي، وقوله تعالى: ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وقال﴾ على (لوط) لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى (إبراهيم) وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فآمن له لوط﴾ أي من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام، روى الإمام أحمد عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة (يزيد بن معاوية) قدمت الشام، فأخبرت بمقام يقومه (نوف البكالي) فجئته إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف منهم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج قرن قطع - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - حتى يخرج الدجال في بقيتهم»[1].

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾، كقوله: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً﴾ أي لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي زيادة، كما قال تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما، فأما ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد.

إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، فقام مبشراً بالنبي العربي سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة (إسماعيل بن إبراهيم) عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام، وقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، وكما قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين - إلى قوله - وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه (لوط) عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتباعهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، روى الإمام أحمد عن أم هانيء قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: «يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»[1]. وعن مجاهد ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: الصفير ولعب الحمام وحل أزرار القباء، وقوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قال ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

(١) أخرجه أحمد ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لما استنصر (لوط) عليه السلام بالله عزَّ وجلَّ عليهم بعث الله لنصرته ملائكة، فمروا على (إبراهيم) عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون؛ لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قال إن فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على (لوط) في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم إلّا في الساعة الراهنة ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي واضحة ﴿لقوم يعقلون﴾، كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ ؟

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (شعيب) عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قال ابن جرير: معناه واخشوا اليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء، وقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد ألقي بعضهم على بعض.

﴿* وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون (الأحقاف) وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون (الحجر) قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة والكنوز الثقيلة، وفرعون ووزيره (هامان) القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة على تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر، ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي فيما فعل بهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم .

۞ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا

العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[1]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلٰهية، ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس، ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً».

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾؟ قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وعن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»[2]. وروى الحافظ أبو بكر البزار قال، قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول»[3]، وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم، وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهاه، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه[4]. وعنه أيضاً قال: لها وجهان: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه، وعن عبد الله بن ربيعة قال، قال لي ابن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الطبراني بنحوه.

(٣) أخرجه البزار والإمام أحمد في مسنده.

(٤) وهو قول مجاهد وبه قال غير واحد من السلف.

عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾؟ قال، قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولا عجيباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ الآية. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم، قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف، قال مجاهد: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية، وقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً، أخرج البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾. وروى ابن جرير عن (عبد الله بن مسعود) قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وحدّث معاوية رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[1].

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال ابن كثير: معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف هو يحسن الظن فيها وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته، من أحبارهم العلماء الأذكياء كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) وأشباههما، وقوله تعالى: ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ثم قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتّاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي تقرأ ﴿من قبله من كتاب﴾ لتأكيد النفي ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ تأكيد أيضاً وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.

وقوله تعالى: ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، وقد قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، قال الله تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ الآية، وقال ههنا ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»، وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إني مبتليك ومبتل بك، ومنزلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»، أي لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة (أناجيلهم في صدورهم)، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿إلا الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم، وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله، كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و﴿من يهد الله فهو المهتد﴾، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾[1] أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿لرحمة﴾ أي بياناً للحق وإزاحة للباطل ﴿وذكرى﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون، ثم قال تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية، ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

(١) أخرج ابن جرير وغيره قال: جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى ما جاء به غيره» فنزلت ﴿أولم يكفهم ...﴾. (٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين، في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، وقال ههنا: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة، ﴿وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، كقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾، وقال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: ﴿ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾. عن الزبير بن العوام قال، قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم»[1]، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك (أصحمة النجاشي) ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المطهرة، ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولا، ﴿نعم أجر العاملين﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الذين صبروا﴾ أي على دينهم وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام.

وفي الحديث: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»[1] ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي الله يقيّض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قال، قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه وهذا صبح رابعةٍ منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين؟» قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد»[2]، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا»[3]. وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم وسكناتهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم وأرزاقهم فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلمَ يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى «**مقام الإلهية**» بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ضعف كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (سافروا تصحوا وتغنموا).

المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة، الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فلا يكون هـذا منهم دائماً ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن (عكرمة بن أبي جهل) أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ هذه اللام (لام العاقبة) لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً، فهو أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش﴾ إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾(١) أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، ﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ فكفروا بنبي الله ورسوله فكذبوه، فقاتلوه، فأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم

(١) في اللباب: أخرج جويبر: أنهم قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس، والأعراب أكثر منا، فنزل: ﴿أولم يروا أنا ...﴾ الآية.

به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر؛ ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم، ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾ ؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾. ثم قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الشعبي قال، قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة العنكبوت، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة العنكبوت

[وهى] (١) مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة ».

وقوله : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء »(٢) وهذه الآية كقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**(٣) ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ،ومثلها فى سورة « براءة » وقال فى البقرة : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون (٤) . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : ﴿ **إِلاَّ لِنَعْلَمَ** ﴾ [البقرة :١٤٣] : إلا لنرى ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية، فإنه [يتعلق] (٥) بالمعدوم والموجود .

وقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أى : لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) المسند (١ / ١٧٢) ، والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨)،من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٣) هكذا وقعت الآية فى جميع المخطوطات ، والصواب بعدم إثبات قوله تعالى : ﴿ **وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ؛ لأنها ليست نهاية تزييل الآية ونهاية تزييل الآية : ﴿ **وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

(٤) فى ف ، أ : « كيف كان يكون » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال :﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أى :يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى : بئس ما يظنون .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ .

يقول تعالى :﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً (١) ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات (٢) ؛ ولهذا قال :﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وقوله :﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد] (٣) منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما (٤) كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان ،ولهما عليه (٥) غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل

---

(١) فى أ : « موفراً » .
(٢) فى ت : « بصير بالكائنات » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ،ف ، أ : « الذى » .
(٥) فى أ : « إليه ».

لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال: **﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾** أي : وإن حَرَصا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين ،فإياك وإياهما ، لا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أي:حباً دينيا ؛ ولهذا قال :**﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾**.

وقال (١) الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب قال : سمعت مُصعَب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فيَّ أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فاها ،فأنزل الله(٢) **﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾** الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي أيضا(٣) ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من [المكذبين] (٤) الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال :**﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾** .

قال ابن عباس: يعني: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله .وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى :**﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾** [الحج : ١١] .

ثم قال : **﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾** أي : ولئن جاء نصر قريب من ربك ـ يا محمد ـ وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم ،أي [كنا] (٥) إخوانكم في الدين، كما

---

(١) في ت : « وروى » . (٢) في ت ، ف : « فنزلت ».
(٣) سنن الترمذي برقم (٣٠٧٩) ، والمسند (١/ ١٨١) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) ، وسنن أبي داود برقم (٢٧٤٠) .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) زيادة من ف .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ،وما تُكنّه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرنّ الله الناس بالضراء والسراء،ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[محمد : ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] ، [والله أعلم] (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى :ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ،﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم ـ إن كانت لكم آثام فى ذلك ـ علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى ». قال الله تكذيبا لهم : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[فاطر : ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ،وأوزاراً أخَر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

وفى الصحيح :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم

(١) زيادة من ف .

القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » [١] وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفْل من دمها ؛ لأنه أول من سَنّ القتل» [٢] .

وقوله : ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان .

وقد ذكر [٣] ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فقال: حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ،حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى [٤] ، عن أبى أمامة ،رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال :« إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتى لا يجوزنى اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان ابن فلان؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الله الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى [٥] : من كانت له تِبَاعة ـ أو : ظُلاَمة ـ عند فلان ابن فلان ، فهلمّ . فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدى الرحمن، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدى . فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » . ثم نَزَع النبى ﷺ بهذه الآية الكريمة :﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد [٦] فى الصحيح [٧] من غير هذا الوجه .

وقال [٨] ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة [٩] الثمالى ، عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ،قال: قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كُحْل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه [١٠] ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك [١١] الله منك» [١٢] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ .

هذة تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يخبره عن نوح [١٣] ، عليه السلام ، : أنه مكث [١٤] فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، وسراً ، وجهاراً ،

(١) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(٣) فى ت: « روى » . (٤) فى أ : « البخارى » . (٥) فى ت ، ف : « أن ينادى » .

(٦) فى ف ، أ : « شواهد » .

(٧) بعدها فى ت ، أ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « عن أبى النسائى » .

(١٠) فى أ : « بإصبعه » . (١١) فى ت ، ف : « أتاه » .

(١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان عن أحمد بن أبى الحوارى به .

(١٣) فى ت : « قوم نوح» . (١٤) فى أ : « لبث » .

ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ،وإعراضا عنه وتكذيبا له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال :﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع (١) الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهَك(٢) ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ،وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة :يقال إن عمره كله [كان] (٣) ألف سنة إلا خمسين عاماً ،لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة،ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما .

وقال عون بن أبى شداد : إن الله أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضا غريب ، رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .

وقال الثورى ،عن سلمة بن كُهَيْل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر:كم لبث نوح فى قومه ؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ. إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ،وقال هاهنا : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

---

(١) فى ف : « يرجع » . (٢) فى أ : « وائل » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] أي : وجعلنا نوعها ، فإن التي يرمى [١] بها ليست هي التي زينة للسماء [٢] وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله : ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا** [٣] ﴾ ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجهاً ، والله أعلم .

﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)** ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر [٤] ، فإنه المشكور على النعم ، لا مُسْدىَ لها غيره ، فقال لقومه: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ** ﴾ أي : أخلصوا له العبادة والخوف ، ﴿ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ أي:إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتموها [٥] آلهة،وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدي .

وروى الوالبي [٦] ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أي : تنحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد ـ في رواية ـ وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

وهي لا تملك لكم رزقا ، ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ** ﴾ وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ** ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَابْتَغُوا** ﴾ أي فاطلبوا ﴿ **عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ** ﴾ أي : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ **وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾ أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده [٧] ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ **وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ** ﴾ أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ يعني : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى

(١) في ف : « ترمى » . (٢) في أ: « السماء » . (٣) في ت : « وجعلناها آية للعالمين » .
(٤) في أ : « الشرك » . (٥) في ف :« فسميتموها » . (٦) في أ : « البخاري » .
(٧) في ف ، أ : « وحده لا شريك له » .

به من الرسالة ،والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا [١] لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ قال : يُعزى نبيه ﷺ . وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ . وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا [٢] .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام [لقومه] [٣] يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ ، والله أعلم .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة [٤] من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارىّ وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذى يقول للشىء : كن ، فيكون ؛ولهذا قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : هوالحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فَعَدْلٌ ؛ لأنه

---

(١) فى ت : « فاخلصوا » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠ / ٨٩) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى أ : « الباهرة » .

المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن :« إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم »[(١)] ولهذا قال تعالى :﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾ أى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شىء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ** ﴾ أى : جحدوها[(٢)] وكفروا بالمعاد ، ﴿ **أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي** ﴾ أى : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أى :موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان،﴿ **إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ** ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿ **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ** ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حَشَدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ،وحَوّطوا حولها ،ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء : ولم توقد[(٣)] نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفَّة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً . ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجَسَده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله :﴿ **فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ** ﴾ أى : سَلَّمه[الله][(٤)] منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿**مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم[(٥)] هذا يُحَصّل لكم المودة

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٧٧) من حديث أبى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما.

(٢) فى ت ، ف ، أ : « جحدوا بها ».

(٣) فى ت : « توجد ».

(٤) زيادة من ت ، ف .

(٥) فى ف ، أ : « إنما اتخذتم » .

فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ،فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا ، فـ ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجاحدون ما كان بينكم ،﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون [١] الأتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨]، وقال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا :﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال [٢] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأَحْمَسى[٣] ،حدثنا أبو عاصم الثقفى [حدثنا][٤] الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هُبَيْرة المخزومى ، عن أبيه ، عن جده [٥] ، عن أم هانئ ـ أخت على بن أبى طالب ـ قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان [٦]»، فقالت الله ورسوله أعلم « ثم ينادى مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون » قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم « ثم ينادى يا أهل التوحيد، ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم » قال: « فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظُلامات الدنيا ـ يعنى : المظالم ـ ثم ينادى: يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب » [٧] .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم :أنه آمن له لوط ، يقال :إنه ابن أخى إبراهيم ،يقولون هو:لوط ابن هاران بن آزر ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة [إبراهيم] [٨] الخليل .لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية ،وبين الحديث الوارد فى الصحيح [٩] : أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال: [هى] [١٠] أختى،ثم جاء إليها فقال لها: إنى قد قلت له : « إنك: أختى» ، فلا تكذبينى ، فإنه ليس على وجه الأرض[أحد] [١١] مؤمن غيرك وغيرى [١٢] ، فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا ـ والله وأعلم ـ أنه ليس على وجه

(١) فى ت، ف : « المتبوعين » وهو خطأ . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « الأحمصى » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « الطرفين » .
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسى به ، وقال :« لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٥٥) : « فيه أبو عاصم ـ الربيع بن إسماعيل ـ منكر الحديث، قاله أبو حاتم » .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٧١) .
(١٠) زيادة من ت .
(١١) زيادة من ت ، أ . (١٢) فى ت : « غيرى وغيرك» .

الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل فى حياة الخليل إلى أهل « سَدوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم (١) ما تقدم وما سيأتى .

وقوله :﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله :﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه(٢) أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ـ قال(٣) ابن عباس ، والضحاك: هو المكنى عنه بقوله :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ،﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهى من سواد (٤) الكوفة إلى الشام . قال : وذُكر لَنا أن نبىّ الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها ،حتى تلفظهم أرضهم وتقذرُهم روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير،تبيت معهم إذا باتوا ، وتَقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم ».

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بْن العاص ، قال(٥) :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكَالى ، فجئته؛ إذ جاء رجل ، فانتبذَ الناس وعليه خَميصة ، وإذا (٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد اللهَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إنها ستكون هجرة بعد هجرة ،فينحاز الناس إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم (٧) أرضوهم ، تقْذَرهم نفسُ الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتَقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تَخَلَّف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس (٨) من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقيهم ،كلما خرج منهم قرن قُطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى عَدّها زيادة على عشرين مرة « كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم »(٩) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدَّسْتُوائى ، عن قتادة ، به (١٠) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ،حدثنى [أبى] (١١) ، عن قتادة ، عن شهر بن

---

(١) فى ت : « إبراهيم » . (٢) فى ت ، ف :« الذى هو » . (٣) فى أ : « قاله » .
(٤) فى ف ، أ : « من أرض سواد » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف : « فإذا » .
(٧) فى ف : « تلفظهم » . (٨) فى ت : « ناس » .
(٩) المسند (٢/ ١٩٨) .
(١٠) المسند (٢/ ٢٠٩) .
(١١) زيادة من سنن أبى داود .

حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتَقْذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد ،أخبرنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى حيَّة ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت (٣) عبد الله بن عُمَر يقول (٤) : لقد رأيتُنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخِرَة الآن ،والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ،ليلزمنكم الله مذلَّة فى أعناقكم ، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل» . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مُهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى فى الأرضين (٥) إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (٦) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:« يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال يزيد : لا أعلمه إلا قال ـ : يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم ،وطوبى لمن قتلوه .كلما طلع منهم قرن قَطعَه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة ، أو أكثر،وأنا أسمع (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى ابن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع ـ وقال أبو النضر ، عمن حدثه ، عن نافع ـ عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجَر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون (٨) وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ،كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومَه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولد له ولد صالح] (٩) فى حياة جده .وكذلك (١٠) قال الله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

(١) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٢) .
(٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « عن » . (٤) فى أ : «سمعت عبد الله بن عمرو قال » .
(٥) فى ت ، ف : « الأرض » . (٦) فى ، هـ، ت ، ف ، أ : « تقيل معهم حيث قالوا » والمثبت من المسند .
(٧) المسند (٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبى وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١١ / ٣٨٠) : «سنده لا بأس به ».
(٨) فى ف : « الأرض » . (٩) زيادة من ت ، ف . (١٠) فى ف : « ولذلك ».

ويَعقُوبَ نافلة ﴾ [الأنبياء : ٧٢] أى: زيادة ، كما قال: ﴿ **فَبشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب** ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين :« إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم يوسفُ بنَ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم» [(١)] .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** [**نَافِلَةً**] [(٢)] ﴾ ، قال: « هما ولدا إبراهيم » . فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولـد ؛ فإن هـذا أمـر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ ، هذه خلْعَة [(٣)] سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبى بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملئهم مبشراً بالنبى العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبى من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام [من الله تعالى] [(٤)] .

وقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنىّ والمنزل الرَّحْب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ [النجم : ٣٧]، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « خلقة » . (٤) زيادة من ت ، وفى أ : « من الله » .

الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم ،وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، فى إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ،﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ**﴾ ، أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملأ ، قاله مجاهد. ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة ، رضى الله عنها ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة ،أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ،حدثنا سِمَاك بن حرب، عن أبى صالح ـ مولى أم هانئ ـ عن أم هانئ [(١)] قالت :سألت رسول الله ﷺ عن قَوله عز وجل : ﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ**﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ،ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة عن أبى يونس القُشَيرى ، حاتم بن أبى صَغيرة [(٢)] ، به [(٣)] . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة [(٤)] ، عن سِمَاك .

وقال [(٥)] ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم [(٦)] ، عن مجاهد :﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾ قال : الصفير ، ولعب الحمام [(٧)] والجُلاهق ، والسؤال فى المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال :﴿ **رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** [(٨)]﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده عن أم هانئ ».
(٢) فى أ : « حيوة » .
(٣) المسند (٦ / ٣٤١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٠) .
(٤) فى أ : « حيوة » . (٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى ت : « بإسناده » .
(٧) فى أ : « الحمار » . (٨) فى أ : « الفاسقين » وهو خطأ .

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾ .

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، فى هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نكرَهم وأوجس منهم خيفة ،فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ـ وكانت حاضرة ـ فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه فى سورة « هود » و « الحجر» . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون،لعل الله أن يهديهم ،ولما قالوا : ﴿ **إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ** ﴾ ﴿ **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شباب حسان ،فلما رآهم كذلك ، ﴿ **سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا** ﴾ ، أى : اهتم [1] بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف [2] عليهم من قومه،وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة . ﴿ **قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنَان السماء ،ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل [الله][3]مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد (٤) ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً** ﴾ أى : واضحة ، ﴿ **لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ ، كما قال : ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه أهل مَدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ .

قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه :واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى :﴿ **لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ [الممتحنة : ٦] .

ثم نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد ،وهو السعى فيها والبغى على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله

---

(١) فى ف ، أ : « اغتم ». (٢) فى أ : « خوفا » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٤) فى ت : « القيامة » .

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها [(١)] ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ٠وقد تقدمت قصتهم مبسوطة فى سورة « الأعراف ، وهود ، والشعراء »٠

وقوله :﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ، قال قتادة : ميتين ٠ وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض ٠

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم،فأخذهم [(٢)] بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة [(٣)] من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ٠ وكانت العرب تعرف مساكنهما [(٤)] جيدا ، وتمر عليها كثيراً ٠ وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ٠وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ،﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ أى : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنَان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر [(٥)] . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم [(٦)] الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبى الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ٠ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، وهم [(٧)] فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : إنما فعل ذلك

---

(١) فى ت : « حناجرهم » ٠ (٢) فى ت ، ف : « وأخذهم » ٠ (٣) فى أ : « قرية » ٠
(٤) فى ت : « مساكنهم » ٠ (٥) فى ف ، أ : « خاوية » ٠ (٦) فى ف ، أ : « عليهم » ٠
(٧) فى ف ، أ : « وهو » ٠

بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم ·

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال: ﴿ فَكُلاًّ (١) أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ [الآية] (٢) ، أى : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نَبهتُ على هذا لأنه قد روى أن ابن جُرَيج قال : قال (٣) ابن عباس فى قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، قال : قوم لوط · ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، قال : قوم نوح ·

وهذا (٤) منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جُرَيج لم يدركه · ثم قد ذكر فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة :﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال:قوم لوط ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، قوم شعيب · وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم ·

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ ·

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه (٥) فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو عَلموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك (٦) بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها ·

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ·

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُون ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه ·

قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنى ابن لَهيعة ، عن أبى قَبيل (٨) ، عن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل (٩) ·

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ حيث يقول [الله] (١٠) تعالى :

---

(١) فى ت : « فمنهم » وهو خطأ · (٢) زيادة من أ · (٣) فى ت : « عن » ·
(٤) فى ت : « وهو » · (٥) فى ت : « وذهابه » · (٦) فى ف : « متمسك » ·
(٧) فى ت : « روى » · (٨) فى ت : « بإسناده » ·
(٩) المسند (٤/٢٠٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٦٤) : « إسناده حسن » ·
(١٠) زيادة من ت ، وفى ف :« تبارك و » ·

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

وقال (١) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن سنَان ، عن عمرو بن مُرّة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزننى ، لأنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبراً][٢] عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥]، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عمْران، وابن عباس مرفوعا : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعدا »[٣].

[ذكر الآثار الواردة فى ذلك][٤] :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمى الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبى عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حُصين قال : سُئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » [٥] .

---

(١) فى ت : « رواه » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبى حاتم ـ كما سيأتى ـ من طريق عمر بن أبى عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٥٤) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس به .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألبانى فى الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن ـ وهو البصرى ـ وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا فى سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعنته الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

٢ ـ جهالة عمر بن أبى عثمان ، ذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣/١/١٢٣) وقال : « سمع طاوساً قوله ، روى عنه يحيى ابن سعيد » .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعى حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عمن ذكره ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقوف (٢) .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا على بن هاشم بن (٣) البريد ، عن جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال: وقال سفيان : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : ٨٧] قال: فقال سفيان : أى والله ، تأمره وتنهاه (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مرّة : عن عبد الله ـ : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاه ، وطاعة الصلاة تنهاه (٥) عن الفحشاء والمنكر » (٦) .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيل الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها (٧) .

وقال ابن جرير : قال على: حدثنا إسماعيل بن مسلم (٨) ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً » (٩) .

والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جَرير ـ يعنى ابن عبد الحميد ـ عن الأعمش ، عن أبى صالح قال : أراه عن جابر ـ شك الأعمش ـ قال : قال رجل للنبى ﷺ : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه (١٠) ما يقول » (١١) .

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٥٤) وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : « إسناده لين » .

(٢) تفسير الطبرى (٢٠/ ٩٩) .

(٣) فى ف : « عن » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وفيه جويبر وهو متروك .

(٥) فى ف : « تنهى » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٤٦٥) مرفوعا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

(٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٣ / ٢٩٨) من طريق زائدة عن عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : « لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .... ﴾ الآية » .

(٨) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « وقال ابن جرير : حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » والمثبت من الطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وهو من مراسيل الحسن .

(١٠) فى ف : « ستنهاه » .

(١١) مسند البزار برقم (٧٢١) « كشف الأستار » . وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله ثقات » .

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشى [١] ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش عن أبى صالح ، عن جابر ، عن النبى ﷺ بنحوه ـ ولم يشك[٢] ـ ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا فى إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أو غيره ،وقال قيس عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزياد : عن عبد الله، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن جابر ·

وقال الإمام أحمد :حدثنا وَكيع ، حدثنا الأعمش قال :أنا أبو صالح [٣] ، عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول [٤] » [٥] .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الأول ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم·

وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال [٦] ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شىء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية،وذكر الله· فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه ·

وقال ابن عَوْن الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر ·

وقال حماد بن أبى سليمان :﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها ·

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر،إذا ذكروه من ذكرهم إياه ·

وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره ·

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبى هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك ·قلت : فإن صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول: قال : وأى شىء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة :١٥٢] ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه · قال :صدق ·

قال : وحدثنا أبى ، حدثنا النفيلى ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس

(١) فى ف ، أ : « الجرشى » ·

(٢) مسند البزار برقم (٧٢٢) « كشف الأستار » ·

(٣) فى هـ ، ت ، ف : « أبو صالح أخبرنا » ،والمثبت من المسند ·

(٤) فى ف : « ستنهاه ما تقول » ·

(٥) المسند (٢ / ٤٤٧)،ورواه البزار فى مسنده برقم (٧٢٠) « كشف الأستار » من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » ·

(٦) فى أ : « خلال » ·

في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ،قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ·

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال:قال لي ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر ﴾ ؟ قال : قلت : نعم · قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن، ونحو ذلك . قال: لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه [١] ·

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس · وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم · واختاره ابن جرير ·

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ .

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف ·

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتى هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعال :﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير [٢] ، وحكاه عن ابن زيد ·

وقوله :﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى :حادوا عن وجه الحق [٣] ،وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] ·

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ·

قال مجاهد : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ﴾ ، يعنى: أهل الحرب ،ومن امتنع منهم عن أداء الجزية ·

وقوله :﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ ، يعنى: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ،

(١) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) ·
(٢) تفسير الطبرى (٢١ / ٢) ·
(٣) فى ف ، أ : « الحجة » ·

ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً .

وقال البخارى ، رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة (١) ، رضى الله عنه ، قال : كان أهل الكتاب (٢) يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »: وهذا الحديث تفرد (٣) به البخارى (٤) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا يونس، عن الزهرى ، أخبرنى ابن أبى نملة (٥) : أن أبا نَمْلَةَ الأنصارى أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ ، جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » : قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله وكتبه ، فإن كان حقاً لم (٦) تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم (٧) تصدقوهم » (٨) .

قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمَارة . وقيل : عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصارى ، رضى الله عنه .

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدّثون به غالبُه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حُرَيْث (٩) بن ظُهَيْر ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية ، تدعوه إلى دينه كتالية المال (١٠) .

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل (١١) ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبيْد الله بن عبد الله (١٢) ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ أحدث (١٣) تقرؤونه محضا لم يُشَب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو (١٤) من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن (١٥) مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم (١٦) .

(١) فى ت : « روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة » .
(٢) فى هـ ، ت ، ف : « كان أهل التوراة » والمثبت من البخارى .
(٣) فى ت : « انفرد » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) .
(٥) فى ت : « روى الأمام أحمد بإسناده » .
(٦ ، ٧) فى ت : « فلا » .
(٨) المسند (٤/١٣٦) .
(٩) فى أ : « حرب » .
(١٠) تفسير الطبرى (٢١ / ٤) .
(١١) فى أ : « سليمان » .
(١٢) فى ت : « روى البخارى بإسناده » .
(١٣) فى ت : « أحدث الكتب » .
(١٤) فى ف ، أ : « وقالوا : هذا هو » .
(١٥) فى ف : « من » .
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣) .

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى،أخبرنى حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ـ وذكرَ كعبَ الأحبار ـ فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب [(١)] .

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت [(٢)] أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك ، كُلٌّ بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكُتُب [(٣)] على من قبلك ـ يا محمد ـ من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب .

وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط [(٤)] جيد .

وقوله : **﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾** أى : الذين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ،وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله: **﴿ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾** ، يعنى العرب من قريش وغيرهم ، **﴿ومايَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾** ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

ثم قال تعالى : **﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾** ، أى: قد لبثت فى قومك ـ يا محمد ـ ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب [(٥)] . وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى: **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾** الآية [الأعراف: ١٥٧] . وهكذا كان، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً أبداً] [(٦)] إلى يوم القيامة [(٧)] ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٣٦١) .

(٢) فى ت : « وضعفت » .

(٣) فى أ : « الكتاب » . (٤) فى ف : « ومناسبته وارتباطه » . (٥) فى ف : « لا يقرأ ولا يكتب » .

(٦) زيادة من ف ، و فى أ : « دائماً » . (٧) فى ف ، أ : « الدين » .

يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ،عليه السلام [١] ،كتب يوم الحديبية : «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر فكتب ».ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجى، وتبرؤوا منه، وأنشدوا فى ذلك أقوالا ، وخطبوا به فى محافلهم :وإنما أراد الرجل ـ أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه ـ أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ،لا أنه كان يحسن الكتابة ،كما قال ،عليه الصلاة والسلام [٢] ، إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن» [٣] ،وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ، عليه السلام [٤] ،حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له؛قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو ﴾ أى : تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ ، لتأكيد النفى، ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضا ، وخرج مخرج الغالب ،كقوله تعالى :﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[الأنعام : ٣٨] .

وقوله :﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى:لو كنت تحسنها [٥] لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء ،مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ،وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : [هذا] [٦] القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يَسَّره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ: « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » [٧].

وفى حديث عياض بن حمار [٨] ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظانَ » [٩] . أى : لو غسل الماء المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار» [١٠] لأنه محفوظ فى الصدور، ميسر [١١] على الألسنة ، مهيمن على القلوب ،معجز لفظا ومعنى؛ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة :« أناجيلهم فى صدورهم» .

---

(١) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٢) فى ف ، أ : « ﷺ » .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣١) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٤) فى أ : « ﷺ » . (٥) فى ت : « تحسن الكتابة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وسيأتى إن شاء الله .

(٨) فى أ : « حماد » .

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .

(١٠) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٥١) من حديث عقبة بن عامر وتقدم الكلام عليه فى فضائل القرآن .

(١١) فى ت : « وميسر » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك ، آياتٌ بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب (١) . ونقله عن قتادة ، وابن جُرَيج . وحكى الأول عن الحسن [البصرى] (٢) فقط .

قلت: وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أى :المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ،كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمدا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد :﴿ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾[الإسراء : ٥٩] .

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: إنما بعثت نذيراً لكم بَيِّنَ النِّذارة فَعلَيَّ أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[الكهف : ١٧]،وقال تعالى:﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم [به] (٣) ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذى هو أعظم من كل معجزة ،إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٥) .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) زيادة من ف .

من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ (١) مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه (٢) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامه ». أخرجاه (٣) من حديث الليث (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل و ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ بما فيه حلول النّقْمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: قل: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا (٥) ﴾ أى: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه ، بأنه أرسلنى ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [أى] (٦) : لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل

---

(١) فى جميع النسخ : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .

(٤) المسند (٢ / ٣٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) .

(٥) فى أ : « كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » وهو خطأ .

(٦) زيادة من ت ، أ .

عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وقال هاهنا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه .

ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة،عن سِمَاك ،عن عِكْرِمة قال فى قوله :﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ،قال: البحر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبى ؛ أنه سمع ابن عباس يقول :﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ :وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ،وتُكور فيه الشمس والقمر،ثم يستوقد فيكون هو جهنم .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم،حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حُيَى ، حدثنا [(١)] صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « البحر هو جهنم » ، قالوا : ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف : ٢٩] ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ، ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل [(٢)] .

هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقال : ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦]،وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله:﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٤٨ ، ٤٩] ، وقال:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦] .

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده عن » .

(٢) المسند (٤ / ٢٣٣) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ،حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثنى جُبَيْر بن عمرو القرشى ، حدثنى أبو سعد الأنصارى ، عن أبى يحيى مولى [١] الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ،والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » [٢] .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، رحمه الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سُيُوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة [٣] .

---

(١) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(٢) المسند (١ / ١٦٦) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٢) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(٣) بعدها فى ت ـ وأظنها من الناسخ ـ ما يلى : « أما قصة هجرة الحبشة ، فقال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أمه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار النجاشى ، آمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ، ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم ، أن يبعثوا إلينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا إلى النجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى ، ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجنا حتى قدمنا عليه ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار فلم يبق بطريق من بطارقته إلا دفعوا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لكل بطريق : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ؛ فقالوا لهما : نعم ، ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا :أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك ، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم وآباءهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى،فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ،فغضب النجاشى وقال : لاها الله لا أسلمهم إليهم أبدا ولا أُكادُ ،قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان الرجلان . فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى بلادهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى ونزلوا بلادى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون لهذا الرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً فى ذلك ما هو كائن ، قال : فلما جاؤوه وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ،فلما دخلوا عليه سألهم ،فقال: ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل . =

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله

= قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث، وآداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله عز جل ، فعبدنا الله لا نشرك به شيئاً ،وحرمنا ما حرم علينا،وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ،فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال له النجاشى : وهل عندك مما جاء به من عند الله شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ .

قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما يتلى عليهم . وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . لا والله لا أسلمهم إليكما ولا أُكاد . قالت : فلما خرجا من عنده . قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم . فقال بعضهم لبعض: ما تقولون فى عيسى إن سألكم عنه .قالوا : نقول فيه ما قال الله عز وجل ، وما جاء به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه . قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ . يقول فيه : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشى يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال له : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن تناخرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم : الآمنون . من سبكم غُرِّم ، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم . والدبر : بلسان الحبشة الجبل . وردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ،وما أطاع الناس فىَّ، فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما . قالت أم سلمة : فكنت أتعرض لهم ليسبونى فأغرمهم ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله ما أغلا لعلى ذلك ، إذ انبرى له رجل من الحبشة ينازعه ملكه . قالت : فوالله، ما أعلمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى . فيأتى رجلاً لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . قالت : وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يشهد وقعة القوم ثم يأتينا بخبر القوم ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا، قالت : وكان من أحدث القوم سناً . قالت : فنفخوا له قربة فجعلوها فى صدره ، ثم سبح حتى خرج إلى النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله عز وجل للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له من بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك الحال متوقعين لما هو كائن ، إذا طلع الزبير يسعى ، ويليح بثوبه ،ألا أبشروا ، قد ظهر النجاشى، وقد أهلك الله عدوه ، فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة .

وروى عن الزبير قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أهل أرضه ، جاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم فنقاتل معك، وترى جراتنا ، ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، فأنى ذلك عليهم » .

المرجع [والمآب] (١) ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم (٢) الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكننهم منازلَ عاليةً فى الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ، ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنى أبى ، حدثنا صفوان المؤذنَ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبى سلام الأسود ، حدثنى أبو معَاتق (٣) الأشعرى ،أن أبا مالك الأشعرى حدثه أن (٤) رسول الله ﷺ حدثه أن فى الجنة غُرَفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة (٥) والناس نيام (٦) .

[قوله] (٧) : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ،فى أحوالهم كلها ، فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم (٨) بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الأقطار والأمصار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر (٩) شيئاً لغد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ،حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا يزيد ـ يعنى ابن هارون ـ حدثنا الجراح بن منْهاَل الجزرى ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهرى ، عن رجل(١٠) ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ،فجعل يلتقط من التمر ويأكل ،فقال لى : « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ،قال :« لكنى أشتهيه ،

---

(١) زيادة من أ .

(٢) فى ت : « ووفاه تمام » .

(٣) فى هـ ، ت : « أبو معاوية » ،والصواب ما أثبتناه من ف ، أ ،والمسند (٥ / ٣٤٣) .

(٤) فى ت : «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن أبى مالك الأشعرى » .

(٥) فى أ : « وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل » .

(٦) ورواه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٤٣) من طريق أبى معانق عن أبى مالك به ، وسيأتى عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٧) زيادة من ت .

(٨) فى ف : « فهم » .

(٩) فى أ : « ولا يدخر » .

(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

وهذه صبح رابعة منذ لم أزق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بَقيتَ فى قوم يَخْبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال : فو الله ما برحنا ولا رِمْنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ،ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما،ولا أخبئ رزقا لغد (١) » (٢) .

وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزرى ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فَقسَ عن فراخه البَيض ، خرجوا وهم بيضٌ فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ، فيقيض الله له طيراً (٣) صغاراً كالبَرغَش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يارازق النعَّاب (٤) فى عُشه وجَابر العَظْم الكَسير المهيض

وقد قال الشافعى فى جملة كلام له فى الأوامر ،كقول النبى ﷺ :« سافروا تصحوا وترزقوا» .

قال البيهقى أخبرنا إملاء أبو الحسن على بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثنى محمد بن سِنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبد الله بن دينار (٥) ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :« سافروا تصحوا وتغنموا ». قال : ورويناه عن ابن عباس (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن دَرّاج ، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :«سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا »(٧) .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً (٨) . وفى

---

(١) فى ت : « إلى غد » .

(٢) ورواه البغوى فى تفسيره (٦ /٢٥٣) من طريق إسماعيل بن زرارة عن الجراح بن المنهال به ـ وقال الشوكانى فى فتح القدير (٤/٢١٣) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى ﷺ فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك فى كتب الحديث المعتبرة ، وفى إسناده أبو العطوف الجزرى وهو ضعيف » . أ . هـ مستفاداً من حاشية تفسير البغوى .

(٣) فى ت : « طيوراً » .

(٤) فى ت : « البغاب » وفى أ : « النعام » .

(٥) فى ت : « وروى البيهقى بسنده » .

(٦) السنن الكبرى (٧ / ١٠٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦ / ١٩٠) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، وعامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢ / ٣٠٦) : « سألت أبى عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٧) المسند (٢ / ٣٨٠) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

(٨) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٠٢)، من طريق بسطام بن حبيب عن القاسم عن أبى حازم عن ابن عباس مرفوعا ، ورواه ابن عدى فى الكامل (٧ / ٥٧) من طريق نهشل، عن الضحاك،عن ابن عباس،مرفوعاً .وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفاً ، وسيأتى مرفوعاً ، وجاء من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً . ورواه ابن عدى فى الكامل (٣ / ٤٥٤) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً وقال : « سوار هذا عامة مايرويه غير محفوظ » .

لفظ : « سافروا مع ذوى الجدود والميسرة » [(١)] .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول تعالى مقررا [(٢)] أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين ـ الذين يعبدون معه غيره ـ معترفون أنه [(٣)] المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر،وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده،ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء [(٤)] المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وذكره السيوطى فى الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

(٢) فى ت : « مخبراً » . (٣) فى ف : « بأنه » . (٤) فى ت : « الأصنام » .

منهم دائما ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ،كقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ (١) إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ·وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : ياقوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنَجّى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضا ، اللهم لك علىَّ عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعَنَّ يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيما ، وكان (٢) كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ : هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ .

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والبادى، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[قريش : ١ ـ ٤] .

وقوله : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه [غيره من] (٣) الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديقَ الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم ببدر ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ ، أى : لا أحد أشد

---

(١) فى ت : « أنجاكم » وهو خطأ .

(٢) فى ت ، ف : « فكان » . (٣) زيادة من أ .

عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ، يعنى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، أي: لنُبَصرنهم سبلنا ، أي : طرقنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوارى ، حدثنا عباس الهمدانى أبو أحمد ـ من أهل عكا ـ فى قول الله [1] : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى : فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه [2] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا عيسى بن جعفر ـ قاضى الرى ـ حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن المغيرة ، عن [3] الشعبى قال : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس [4] الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . [وفى حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرنى عن الإحسان » . قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

[انتهى تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة [5]] [6]

---

(١) فى ت ، أ : « قوله تعالى » . (٢) فى أ : « قلبه » .
(٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى » .
(٤) فى ت : « وليس » . (٥) فى هـ : « والله أعلم » . (٦) زيادة من ت .

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول «**سورة البقرة**».

وقوله: ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ استفهام إنكار ومعناه أن الله - سبحانه وتعالىٰ - لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان كما جاء في الحديث الصحيح(١) : « **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء** ». وهذه الآية كقوله: ﴿ **أم حسبتم أن تُتركوا ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ ومثلها في «سورة براءة». وقال في البقرة: ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه متىٰ نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ ، أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان ممن[١] هو كاذب في قوله ودعواه . والله - سبحانه وتعالىٰ - يعلم ما كان وما يكون [وما لم][٢] يكن لو كان كيف كان يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل: ﴿ **إلا لنعلم**[٣] ﴾ إلا لنرىٰ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

---

(١) المسند (١٧٢/١) ، والترمذي حديث (٢٣٩٨) من طريق مصعب ، عن أبيه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح ».

---

[١] - في خ ، ز: « فيمن ».
[٢] - في خ ، ز: « ولو لم ».
[٣] - في ز: « ليعلم ».

وقوله : ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ ، أي : لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطَمُّ ، ولهذا قال : ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا** ﴾ أي : يفوتونا ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أي : بئس ما يظنون !

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله** ﴾ أي : في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملا موفورًا ، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ؛ ولهذا قال : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ كقوله : ﴿ **من عمل صالحًا فلنفسه** ﴾ : أي : من عمل صالحًا فإنما يعود نفع عمله علىٰ نفسه . فإن الله غني عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم علىٰ أتقىٰ قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا ؛ ولهذا قال :﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾ .

قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يومًا من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من [إحسانه وبره] بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف ، ويجزي علىٰ السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا** ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون** ﴾ .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالىٰ آمرًا عباده بالإحسان إلىٰ الوالدين بعد الحث علىٰ التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان ، ولهما عليه[١] غاية الإحسان ، [فالوالد][٢] بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾ ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، في مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ ، أي : وإن حَرَصَا عليك أن تتابعهما في دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك علىٰ دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أي : حبا دينيًا ؛ ولهذا قال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين** ﴾ .

وقال الترمذي(٢) عند تفسيره هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنىٰ ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن سماك بن حرب [قال][٣] : سمعت مُصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فيَّ أربع آيات . فذكر قصة وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتىٰ أموت أو تكفر ، قال : فكانوا[٤] إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاها(*) ؛ فأنزل الله : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا وإن جاهداك** ﴾ الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم. وأبو داود والنسائي أيضا ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١)

---

(٢) سنن الترمذي حديث (٣٠٧٩) ، والمسند (١/١٨١) ، وصحيح مسلم حديث (١٧٤٨) ، وسنن أبي داود حديث (٢٧٤٠) .

(*) - أي : فتحوا فمها .

---

[١] - في ز ، خ : « إليه » .

[٢] - في خ : « قالوا الوالد » .

[٣] - سقط من : خ ، ز .

[٤] - في ز : « وكانوا » .

يقول تعالىٰ مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين[١] الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة اللَّه - تعالىٰ - بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا باللَّه فإذا أوذي في اللَّه جعل فتنة الناس كعذاب اللَّه** ﴾.

قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في اللَّه. وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿ **ومن الناس من يعبد اللَّه علىٰ حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين** ﴾.

ثم قال: ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾ أي: ولئن[٢] جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي إخوانكم في الدين، كما قال تعالىٰ: ﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من اللَّه قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين** ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ **فعسىٰ اللَّه أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا علىٰ ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾ وقال تعالىٰ مخبرًا عنهم هاهنا: ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾ ثم قال تعالىٰ: ﴿ **أو ليس اللَّه بأعلم بما في صدور العالمين** ﴾، أي: أو ليس اللَّه بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة؟

وقوله: ﴿ **وليعلمن اللَّه الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾، أي: وليختبرن اللَّه الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع اللَّه في الضراء والسراء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿ **ولنبلونكم حتىٰ نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾، وقال تعالىٰ بعد وقعة أحد التي كان فيها [ما كان][٣]: ﴿ **ما كان اللَّه ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيب** ﴾ الآية.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كفار قريش: إنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدىٰ: ارجعوا عن دينكم إلىٰ ديننا واتبعوا سبيلنا، ﴿ **ولنحمل خطاياكم** ﴾، أي: وآثامكم - إن كانت لكم آثام

---

[١] - سقط من: خ، ز.

[٢] - في ت: «لئن».

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من ز، خ.

في ذلك - علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك في رقبتي » . قال الله تكذيبًا لهم : ﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون** ﴾ ، أي : فيما قالوه : إنهم يحملون[١] عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿ **وإن تدع مثقلة إلىٰ حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربىٰ** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾ إخبار عن الدعاة إلىٰ الكفر والضلالة أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، [وأوزارًا أخرىٰ][٢] بسبب من[٣] أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون** ﴾ .

وفي الصحيح(٣) : « **من دعا إلىٰ هدىٰ ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلىٰ يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلىٰ يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا** » .

وفي الصحيح(٤) : « **ما قتلت نفس ظلمًا إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفلٌ (*) من دمها ، لأنه أول من سَنّ القتل** » .

وقوله : ﴿ **وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ أي : يكذبون ويختلقون ، من البهتان .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثًا فقال : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا [عثمان أبو حفص بن أبي العاتكة][٤] حدثني سليمان بن حبيب المحاربي ، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : إن[٥] رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - بلغ ما أرسل به ثم قال : إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتي لا يجوزني اليوم ظلم ! ثم

---

(٣) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(*) - الكفل : الحظ ، والنصيب .

(**) - التِباعة : الحقوق في المال .

---

[١] - في ز : « يحملوا » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز، خ : « أوزار أخر » . [٣] - في ز، خ : « ما » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : [عثمان بن حفص بن أبي العالية] وجاء في تفسير ابن أبي حاتم : عثمان ابن حفص بن أبي العاتكة . وكلاهما تحريف .

[٥] - في خ ، ز : « قال » .

ينادي مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال . فيشخص(***) الناس إليها أبصارهم حتىٰ يقوم بين يدي الله الرحمن - عز جل - ثم يأمر المنادي فينادي : مَنْ كانت له تِباعة - أو : ظُلامة - عند فلان بن فلان ، فهلمّ . فيقبلون حتىٰ يجتمعوا قيامًا بين يدي الرحمن . فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي . فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا[١] يزالون يأخذون منها حتىٰ لا يبقىٰ له حسنة وقد بقي من أصحاب الظلامات . فيقول اقضوا عن عبدي . فيقولون : لم يبق[٢] له حسنة . فيقول : خذوا[٣] من سيئاتهم فاحملوها عليه . ثم نَزَع النبي صلىٰ الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم(٥) : حدثني[٤] أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة البيساني[٥] ، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - : « **يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيام عن جميع سعيه ، حتىٰ عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه ، فلا أُلفِيَنَّكَ[٦] تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك** » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ (١٥) ﴾

هذه تسلية من الله تعالىٰ لعبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - يخبره عن نوح - عليه السلام - : أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلىٰ الله ليلًا ونهارًا ، [سرًا وإجهارًا][٧] ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن الحق ، وإعراضًا عنه وتكذيبًا له ، ما آمن معه منهم إلا قليل ، ولهذا قال : ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان**

(***) شخص إليه ببصره : فتح عينيه ولم يطرف بهما ، متأملًا أو منزعجًا .

(٥) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبي حسان ، عن أحمد بن أبي الحواري به .

---

[١] - في ز ، خ: « ولا » .
[٢] - في ز ، خ : « تبق » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز : « حدثنا »
[٥] - في ت : الثمالي .
[٦] - في ز ، خ : « فلاألفينك » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ت : « وسرًا وجهارًا » .

وهم ظالمون ﴾ ، أي : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين قال حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن ماهك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة : يقال : إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عامًا لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، ، ودعاهم ثلاثمائة ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا .

وقال عون بن أبي شداد : إن الله أرسل نوحًا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضًا غريب رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب والله أعلم .

وقال الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال: قلت : ألف سنة إلا خمسين عامًا . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله: ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي : الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وقد تقدم ذكر ذلك مفصلًا في « سورة هود » وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ ، أي : وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف نجاهم زمن[١] الطوفان كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعًا إلى حين ﴾ وقال تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ وقال ههنا : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين ﴾ ، أي : وجعلنا نوعها ، فإن

[١] - في ت : « من » .

التي يرمىٰ بها ليست هي التي زينة للسماء . وقال تعالىٰ : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾ ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل إن الضمير في قوله : ﴿ **وجعلناها** ﴾ عائد إلىٰ العقوبة ، لكان وجها والله أعلم .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالىٰ عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوىٰ ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر فإنه المشكور علىٰ النعم لا مُسْدي لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ **اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أي : أخلصوا له في[١] العبادة والخوف ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدي .

وروىٰ الوالبي عن ابن عباس : وتصنعون إفكًا ، أي : تنحتونها أصنامًا . وبه قال مجاهد - في رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

وهي لا تملك لهم رزقًا﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ وهذا أبلغ في الحصر كقوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ﴿ **رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **فابتغوا** ﴾ ، أي : فاطلبوا ﴿ **عند الله الرزق** ﴾ ، أي : لا تعبدوا[٢] غيره ، فإن غيره لا يملك شيئًا ، ﴿ **واعبدوه واشكروا له** ﴾ أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له علىٰ ما أنعم به عليكم ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ ، أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

---

[١] - سقط من ت .   [٢] - في ت : « عند » .

وقوله : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ ، أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ ، يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله - تعالىٰ - به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن[١] تكونوا من السعداء .

وقال قتادة(٦) في قوله : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ ، قال : يُعزي نبيه صلىٰ الله عليه وسلم . وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلىٰ قوله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ .

وهكذا نص علىٰ ذلك ابن جرير أيضًا والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل - عليه السلام - [ ][٢] يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ ، والله أعلم .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن الخليل - عليه السلام - : إنه أرشدهم إلىٰ إثبات المعاد الذي ينكرونه ، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين . فالذي بدأ هذا قادر علىٰ إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه .

ثم أرشدهم إلىٰ الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت[٣] ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ،

---

(٦) تفسير الطبري (٢٠/٨٩) .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز،خ : « لقوله » .
[٣] - في ز ، خ: « والثوابت » .

وأودية وبراريّ وقفار ، وأشجار ، وأنهار ، وثمار ، وبحار . كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء : كن ، فيكون ، ولهذا قال : ﴿ **أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة** ﴾ ، أي : يوم القيامة ، ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ **أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ ، أي : هو الحاكم المتصرف ، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فَعَدل ؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن(٧) : « **إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم** » . ولهذا قال تعالى : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون** ﴾ ، أي : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء** ﴾ ، أي : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شيء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغني عما سواه .

﴿ **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه** ﴾ ، أي : جحدوها وكفروا بالمعاد ، ﴿ **أولئك يئسوا من رحمتي** ﴾ ، أي : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ ، أي : موجع في الدنيا والآخرة .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٧) رواه أبو داود في السنن حديث (٤٦٩٩) ، وابن ماجة في السنن حديث (٧٧) من حديث أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما .

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : إنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة علىٰ الهدىٰ والبيان ﴿ **إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه** ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلىٰ استعمال جاههم وقوة ملكهم ، ﴿ **فقالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم * وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ ، وذلك أنهم حَشَدُوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحَوّطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلىٰ عَنَان السماء . ولم توجد[١] نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلىٰ إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفَّة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها اللّٰه عليه بردًا وسلامًا ، وخرج منها سالمًا بعد ما مكث فيها أيامًا ولهذا وأمثاله جعله اللّٰه للناس إمامًا . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجَسَده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع علىٰ محبته جميع أهل الأديان .

وقوله : ﴿ **فأنجاه اللّٰه من النار** ﴾ ، أي : سَلَّمه منها ، بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا ، ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال إنما اتخذتم من دون اللّٰه أوثانًا مودة بينكم في الحياة الدنيا** ﴾ ، يقول لقومه مقرّعًا لهم وموبخًا علىٰ سوء صنيعهم ، في عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا علىٰ عبادتها في الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، [بعضكم لبعض][٢] في الحياة الدنيا . وهذا علىٰ قراءة من نصب ﴿ **مودة بينكم** ﴾(*) ، علىٰ أنه مفعول له ، وأما علىٰ قراءة الرفع فمعناه[٣] : إنما اتخاذكم هذا يُحَصِّل لكم المودة في الدنيا فقط ، ﴿ **ثم يوم القيامة** ﴾ ينعكس هذا الحال ، فتبقىٰ هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا ، فـ ﴿ **يكفر بعضكم ببعض** ﴾ [أي : تتجاحدون ماكان بينكم][٤] ، ﴿ **ويلعن بعضكم بعضًا** ﴾ ، أي : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون[٥] الأتباع ، ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ وقال هاهنا : ﴿ **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ ، أي : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلىٰ النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب اللّٰه . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال ابن أبي حاتم(٨) : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا أبو عاصم الثقفي الربيع ابن إسماعيل[٦] عن[٧] عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي، عن أبيه ، عن جده ، عن

(*) انظر القراءات في هذه الآية في كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص٤٩٨ - ٤٩٩)

(٨) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط حديث (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي به ، وقال : « لا يروى عن أم هانىء إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٥٥) : =

---

[١] - في ت : « توقد » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ: «لبعضكم بعضًا» . [٣] - في ز ، خ: « معناه » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٥] - في ز ، خ: « المتبوعين » .

[٦] - في ز، خ : « سليمان » . [٧] - في ز : خ : ابن . وهو تحريف .

أم هانئ - أخت علي بن أبي طالب - قالت: قال لي النبي صلىٰ الله عليه وسلم « **أخبرك أن الله - تعالىٰ - يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، فمن يدري أين الطرفان**[١] **؟ فقالت : الله ورسوله أعلم . ثم ينادي مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون** - قال أبو عاصم : يرفعون رءوسهم - **ثم ينادي : يا أهل التوحيد . ثم ينادي الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم . قال : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظُلامات الدنيا - يعني : المظالم - ثم ينادي : يا أهل التوحيد ، ليعف**[٢] **بعضكم عن بعض وعلىٰ الله الثواب** ».

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم : إنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آزر يعني : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح (٩) : « **أن إبراهيم حين مرّ علىٰ ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هي منه ؟ فقال : أختي . ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له : إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيرك وغيري ، فأنت أختي في الدين** » . وكأن المراد من هذا - والله أعلم -أنه ليس علىٰ وجه الأرض زوجان علىٰ الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطًا - عليه السلام - آمن به من قومه ، وهاجر معه إلىٰ بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلىٰ أهل « **سَدُوم** » وإقليمها ، وكان من أمرهم[٣] ما تقدم وما سيأتي .

وقوله : ﴿ **وقال إني مهاجر إلىٰ ربي** ﴾ ، يحتمل عود الضمير في قوله ﴿ **وقال** ﴾ علىٰ لوط ، لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلىٰ إبراهيم - قال ابن عباس والضحاك : هو المكنى عنه بقوله: ﴿**فآمن له لوط**﴾ أي: من قومه ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **إنه هو العزيز** ﴾ أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعًا من « **كوثى** » وهي من سواد الكوفة إلىٰ الشام . قال : وذُكر لنا

= «فيه أبو عاصم - الربيع بن إسماعيل - منكر الحديث ، قاله أبو حاتم » .

[١] - في ز ، خ : « الطرفين » . [٢] - في ز ، خ: « يعفوا » .

[٣] - في ز ، خ: « إبراهيم » .

أن نبي اللَّه - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - قال : « **إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلىٰ مُهاجر إبراهيم ، ويبقىٰ في الأرض شرار أهلها حتىٰ تلفظهم أرضهم وتَقْذرهم روح اللَّه ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم إذا باتوا[١] ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم** .

وقد أسند الإمام أحمد(١٠) هذا الحديث فرواه مطولًا من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، فقال[٢] :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي ، فجئته إذ جاء رجل ، فانتبذ الناس ، وعليه خميصة وإذا هو عبد اللَّه بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد اللَّه : سمعت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول : « **إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلىٰ مُهَاجر إبراهيم ، لا يبقىٰ في الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم أرضوهم ، تقْذَرَهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت[٣] معهم إذا باتوا[٤] ، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل منهم من تخلف** » . قال : وسمعت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول : « **سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم - كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى عدها زيادة[٥] على عشرين مرة -كلما - خرج منهم قرن قطع[٦] حتىٰ يخرج الدجال في بقيتهم** » .

ورواه أحمد(١١) عن أبي داود ، وعبد الصمد كلاهما ، عن هشام الدستوائي[٧] عن قتادة به .

وقد رواه أبو داود في سننه(١٢) ، فقال في كتاب الجهاد: باب ما جاء في سكنى الشام . حدثنا عبيد اللَّه بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني [أبي][٨] ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد اللَّه بن عمرو قال : سمعت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول :

(٩) صحيح مسلم حديث (٢٣٧١) .

(١٠) المسند (٢/٢٠٩) .

(١١) المسند (٢/٢٠٩) .

(١٢) سنن أبي داود حديث (٢٤٨٢) .

[١] - في ز،خ : « ناموا » .

[٢] - في ت : « قال » .

[٣] - في ت : « فتبيت » .

[٤] - في ز،خ : « ناموا » .

[٥] - في ز ، خ: « زياد » .

[٦] - سقط من : ت .

[٧] - في ز ، خ: « بن سوائي » .

[٨] - سقط من : خ ، ز . وثبتناه من سنن أبي داود

« ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار[١] أهل الأرض ألزمهم مُهاجر إبراهيم ، ويبقىٰ في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتَقْذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » .

وقال الإمام أحمد أيضًا(١٣) : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جَناب يحيىٰ بن أبي حَيَّة ، عن شهر ابن حوشب قال : سمعتُ عبد الله بن عُمر قال[٢] : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم[٣] لقد رأيتُنا بأخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلىٰ أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : « **لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد في سبيل الله ؛ ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم [ثم لا تنزع][٤] منكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلىٰ الله عز وجل** » . وسمعت رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - يقول : « **لتكونن هجرة بعد هجرة إلىٰ مهاجر أبيكم إبراهيم ، حتىٰ لا يبقىٰ في الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون[٥] ، وتبيت حيث يبيتون وما سقط منهم فلها[٦]** ». ولقد سمعت رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - يقول : « **يخرج من أمتي قوم يسيئون الأعمال ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم** - قال يزيد : لا أعلمه إلا قال : **يحقر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإِسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبىٰ لمنَ قتلهم وطوبىٰ لمن قتلوه . كلما[٧] طلع منهم قرن قَطَعه الله . فردد ذلك رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - عشرين مرة ، أو أكثر ، وأنا أسمع** .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو الحُسين بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد ، وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيىٰ بن حمزة ، حدثنا الأوزاعي ، عن نافع - وقال أبو النضر ، عمن حدثه ، عن نافع - عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - قال : « **سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلىٰ مهاجر إبراهيم ، حتىٰ لا يبقىٰ إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن ؛ وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم** » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله

(١٣) المسند (٢/٨٤) ، وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبي وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٣٨٠) : « سنده لا بأس به » .

[١] - في ز ، خ: « يختار » .
[٢] - في ت : « يقول » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « لا ترجع » .
[٥] - في خ ، ز : « قالوا » .
[٦] - في خ ، ز : « مثلها » .
[٧] - في ز : « وكلما » .

أعلم . وروايته من حديث عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص أقرب إلىٰ الحفظ .

وقوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون اللّٰه وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيًا** ﴾ . أي : إنه لما فارق قومه أقرّ اللّٰه عينه بوجود ولد صالح نبي [وولد له وَلَد صالح نبي][١] في حياة جده . وكذلك قال اللّٰه : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ ، أي : زيادة ، كما قال : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ . أي : ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولدًا لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال اللّٰه : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهًا واحدًا ونحن له مسلمون** ﴾ .

وفي الصحيحين(١٤) : « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** » .

فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : هما ولد إبراهيم . فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فإن هذا أمر لا يكاد يخفىٰ علىٰ من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ **وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب** ﴾ ، هذه خلعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ اللّٰه إياه خليلًا وجعله للناس إمامًا ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم - عليه السلام - إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتىٰ كان آخرهم عيسىٰ ابن مريم فقام في ملئهم مبشرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي ، خاتم الرسل علىٰ الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي اصطفاه اللّٰه من صميم العرب العَرْباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام . ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿ **وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ ، أي : جمع اللّٰه له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة اللّٰه من جميع الوجوه كما قال تعالىٰ : ﴿ **وإبراهيم الذي وفىٰ** ﴾ ، أي : قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ ، كما قال

(١٤) صحيح البخاري حديث (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

تعالىٰ : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين * شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلىٰ صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نبيه لوط - عليه السلام - أنه أنكر علىٰ قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلىٰ هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾ أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم علىٰ بعض شيئًا من ذلك ، فَمِنْ قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ . قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون . قالته عائشة - رضي الله عنها - والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شرًا من ذلك .

وقال الإمام أحمد(١٥) : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب ، عن أبي صالح - مولىٰ أم هانئ - عن أم هانئ ، قالت : سألت رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - عن قوله عز وجل : ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾ قال : « **يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه** » .

ورواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة ، عن[١] أبي يونس القُشَيري - حاتم بن أبي صَغيرة - به . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة ، عن سماك .

---

(١٥) المسند (٣٤١/٦) ، وسنن الترمذي حديث (٣١٩٠) .

---

[١] - سقط من : ز، خ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم ، عن مجاهد : ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾ ، قال : الصفير ، ولعب الحمام ، والجُلاهق(*) والسؤال في المجلس وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبيُّ الله فقال : ﴿ **رب ، انصرني على القوم المفسدين** ﴾ .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لما استنصر لوط - عليه السلام - الله عليهم بعث[١] الله لنصرته ملائكة فمروا على[٢] إبراهيم - عليه السلام - في هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى أنه لا همّة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة « **هود** » و« **الحجر** » . فلما جاءت إبراهيم البشرى[٣] ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم . ولما قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ **قال إن فيها لوطًا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ ، أي : من الهالكين ؛ لأنها كانت تُمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿ **سيء بهم وضاق بهم ذرعًا** ﴾ أي : اهتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضيفهم[٤] خشي عليهم منهم ، ولم

(*) قال في القاموس : الجُلاهِقُ - كعُلابط - البندق الذي يرمى به .

[١] - في خ : « بعثه » .
[٢] - في ز ، خ: « مع » .
[٣] - في ت : « بالبشرى » .
[٤] - في ت : « يضفهم » .

يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة . ﴿ **قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون علىٰ أهل هذه القرية رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ ، وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم[١] من قرار الأرض، ثم رفعها إلىٰ عَنان السماء ثم قلبها عليهم . وأرسل اللّٰه عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلىٰ يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد تركنا منها آية بينة** ﴾ ، أي : واضحة ، ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ ، كما قال : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالىٰ عن عبده ورسوله شعيب - عليه السلام - : أنه أنذر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس اللّٰه ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال : ﴿ **يا قوم اعبدوا اللّٰه وارجوا اليوم الآخر** ﴾ .

قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه : واخشوا اليوم الآخر . وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ **لمن كان يرجو اللّٰه واليوم الآخر** ﴾ ثم نهاهم عن العيث[٢] في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي علىٰ أهلها وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق علىٰ الناس ، هذا مع كفرهم باللّٰه ورسوله ، فأهلكهم اللّٰه برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في « **سورة الأعراف** » و« **هود** » و«**الشعراء**» .

وقوله : ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقي بعضهم على بعض .

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟

[١] - في خ : « قرارهم » . [٢] - في خ : « العبث » .

سَٰبِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

يخبر تعالىٰ عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، فأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرىٰ ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدًا ، وتمر عليها كثيرًا . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة . وفرعون ملك مصر في زمان موسىٰ ووزيره هامان القبطيان الكافران باللَّه ورسوله ، ﴿ **فكلًّا أخذنا بذنبه** ﴾ ، أي : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا** ﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟!! فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جدًّا ، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلىٰ عَنَان السماء ثم تنكسه علىٰ أم رأسه فتشدخه فيبقىٰ بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر . ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة ، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا علىٰ طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبيَّ اللَّه صالحًا ومن آمن معه ، وتوعَّدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات . ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ ، وهو قارون الذي طغىٰ وبغىٰ وعتا وعصىٰ الرب الأعلىٰ ، ومشىٰ في الأرض مرحًا وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف اللَّه به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة . ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا في صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ **وما كان اللَّه ليظلمهم** ﴾ ، أي : فيما فعل بهم ، ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ ، أي: إنما [فعل] ذلك بهم جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم .

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ **فكلًّا أخذنا بذنبه** ﴾ ، أي : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نبهتُ علىٰ هذا لأنه قد روي أن ابن جُريج[١] قال : قال ابن عباس في قوله : ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا** ﴾ ، قال : قوم لوط . ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ قال : قوم نوح . وهذا منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر اللَّه في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط

[١] - في خ ، ز : « جرير » .

بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياقُ والفصل بين ذلك وبين هذا السياق .

وقال قتادة : ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا** ﴾ ، قال[١] : قوم لوط ، ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ : قوم شعيب . وهذا بعيد أيضًا لما تقدم ، والله أعلم .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للمشركين في اتخاذهم آلهةً من[٢] دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه[٣] ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئًا ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء . وهذا بخلاف [المسلم المؤمن] قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالىٰ متوعدًا لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالىٰ يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم وما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ ، أي : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه .

قال الإمام أحمد(١٦) : حدثنا إسحاق بن عيسىٰ ، حدثني ابن لهيعة ، عن أبي قَبيل ، عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : عَقَلْتُ عن رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - ألف مثل .

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حيث يقول تعالىٰ : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

---

(١٦) المسند (٤/٢٠٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٦٤) : « إسناده حسن » .

---

[١] - سقط من : ز، خ .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز ، خ : « ووهائه » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عليٌّ بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن سنان ، عن عمرو بن مُرة ، قال : ما مررت بآية من كتاب اللّٰه لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت اللّٰه تعالىٰ يقول : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا[١] عن قدرته العظيمة : إنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني : لا علىٰ وجه العبث واللعب ﴿ **لتجزىٰ كل نفس بما تسعىٰ** ﴾ .﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾ .

وقوله : ﴿**إن في ذلك لآية للمؤمنين**﴾ . أي : لدلالة[٢] واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالىٰ آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس ، ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكر اللّٰه أكبر** ﴾ ، يعني : أن الصلاة تشتمل علىٰ شيئين : علىٰ ترك الفواحش والمنكرات ، أي : إن مواظبتها تحمل علىٰ ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث[٣] من رواية عِمْران ، وابن عباس ، مرفوعًا : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من اللّٰه إلا بعدًا** »(١٧) .

[ذكر الآثار الواردة في ذلك]

قال ابن أبي حاتم(١٨) : حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حُصين ، قال : سُئل

(١٧) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم - كما سيأتي - من طريق عمر بن أبي عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٤/١١) من طريق ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس به .

(١٨) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألباني في الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن - وهو البصري - وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا في سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعنة الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

---

[١] - سقط من : خ ، ز . [٢] - في ت : « له دلالة » .

[٣] - في ز ، خ: « حديث » .

النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ ، قال : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له** » .

وحدثنا عليُّ بن الحسين[١٩] ، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي ، حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعدًا** » . ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية .

وقال ابن جرير[٢٠] : [حدثنا القاسم][١] ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عمن ذكره ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه[٢] عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا » . فهذا موقوف .

قال ابن جرير[٢١] : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا عليُّ بن هاشم بن البريد ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا صلاة لمن لم يطع الصلاة . وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر** » . قال : وقال سفيان : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك** ﴾؟ قال : فقال سفيان : إي و الله ، تأمره وتنهاه .

وقال ابن أبي حاتم[٢٢] : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن جويبر ، عن الضحاك ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقال أبو خالد مَرَّةً : عن عبد الله - : « **لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر** » .

والموقوف أصح كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، قال : قيل لعبد الله : إن فلانًا ليطيل الصلاة ؟ قال : إنّ الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها[٢٣] .

---

٢ - جهالة عمر بن أبي عثمان ، ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٢٣/١/٣) وقال : « سمع طاوسًا ، روى عنه يحيى بن سعيد » .

(١٩) المعجم الكبير (٥٤/١١) وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : « إسناده لين » .

(٢٠) تفسير الطبري (٩٩/٢٠) .

(٢١) تفسير الطبري (٩٩/٢٠) وفيه جويبر وهو متروك .

(٢٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦٥/٦) مرفوعًا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ، وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز : « تنهاه » .

وقال ابن جرير(٢٤) : [قال عليٌّ، حدثنا إسماعيل بن مسلم][١] ، عن الحسن ، قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **من صلىٰ صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من اللَّه إلا بعدًا** » . والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم ، واللَّه أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار (٢٥) : حدثنا يوسف بن موسىٰ ، حدثنا جَرير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش ، عن أبي صالح ، قال : أراه عن جابر - شك الأعمش - قال : قال رجل للنبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم : إن فلانًا يصلي فإذا أصبح سرق ، قال : « **سينهاه ما يقول** » .

وحدثناه(٢٦) محمد بن موسىٰ الحَرَشي[٢] ، حدثنا زياد بن عبد اللَّه ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم بنحوه - ولم يشك - ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش ، واختلفوا في إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هُريرة أو غيره ، وقال قيس : عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، قال جرير وزياد : عن عبد اللَّه ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن جابر .

وقال الإمام أحمد(٢٧) : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش قال [أبو صالح أخبرنا][٣] عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلىٰ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم فقال[٤] : إنّ فلانًا يصلي بالليل[٥] فإذا أصبح سرق فقال : « **إنه سينهاه ما يقول** » . وتشتمل الصلاة أيضًا علىٰ ذكر اللَّه تعالىٰ ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ولذكر اللَّه أكبر** ﴾ ، أي : أعظم من الأول ، ﴿ **واللَّه يعلم ما تصنعون** ﴾ أي : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية في قوله : ﴿ **إنّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر** ﴾ قال : إن الصلاة فيها

---

(٢٣) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٨/١٣) من طريق زائدة ، عن عاصم ، عن شقيق ، عن ابن مسعود قال : « **لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَا وَالْمُنكَر ...﴾الآية** » .

(٢٤) تفسير الطبري (٩٩/٢٠) وهو من مراسيل الحسن .

(٢٥) مسند البزار حديث (٧٢١) « كشف الأستار » . وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢) : « رجاله ثقات» .

(٢٦) « كشف الأستار حديث (٧٢٢) » .

(٢٧) المسند (٤٤٧/٢) ، ورواه البزار في مسنده كما في « كشف الأستار » حديث (٧٢٠) من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : ثنا علي بن إسماعيل بن مسلم ، وهو تحريف . والمثبت من تفسير ابن جرير .

[٢] - في ز ، خ : أرى أبا صالح ، والمثبت من المسند .[٣] - في خ ، ز : « الجرشي » .

[٤] - في ز : « قال » . [٥] - في ز : « في الليل » .

ثلاث خلال[١] ، فكلّ[٢] صلاة لا يكون فيها شيء من هذه[٣] الخلال فليست بصلاة : الإخلاص، والخشية، وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه .

وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر .

وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ يعني : ما دمت فيها .

وقال عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده إذا [ذكروه][٤] أكبر من ذكرهم إياه ، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس. [وبه قال مجاهد وغيره.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبي هند ، عن رجل ، عن ابن عباس][٥] : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ، قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك . قلت : فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ؟ قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه . قال : صدق .

قال : وحدثنا أبي ، حدثنا النفيلي ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عِنْدَ مَا حرَّمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وقال ابن جرير (٢٨) : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالىٰ : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ؟ قال[٦] : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولًا عجبًا ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عِنْدَ مَا أَمَر به أو نهىٰ عنه - إذا ذكرتموه - أكبر من ذكركم إياه ، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروي أيضًا عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

(٢٨) تفسير الطبري (٢٠/٩٩) .

[١] - في ت : « خصال » .
[٢] - في ز ، خ: « فعل » .
[٣] - في ز ، خ: « هذا » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من ز ، خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ، ز : « في قوله » .
[٦] - سقط من : ز، خ .

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف .

وقال آخرون : بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار[١] منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ، ليكون أنجع[٢] فيه كما قال تعالىٰ : ﴿ **ادع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ، وقال تعالىٰ لموسىٰ وهارون حين بعثهما إلىٰ فرعون : ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشىٰ** ﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير(٢٩) وحكاه عن ابن زيد .

وقوله : ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ ، أي : حادوا عن وجه الحق ، وعَمُوا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل عن[٣] الجدال إلىٰ الجلاد ، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قويّ عزيز** ﴾ قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف .

قال مجاهد : ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ ، يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من[٤] أداء الجزية .

وقوله : ﴿ **وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم** ﴾ ، يعني : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نُقدم علىٰ تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًّا ولا علىٰ تصديقه فلعله أن يكون باطلًا ، ولكن نؤمن به إيمانًا مجملًا معلقًا على شرط ، وهو أن يكون منزلًا لا مبدلًا ولا[٥] مؤولًا .

قال البخاري رحمه الله(٣٠) : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمر، ثنا[٦] عليُّ بن

---

(٢٩) تفسير الطبري (٢/٢١) .

(٣٠) صحيح البخاري حديث (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) .

---

[١] - في ز ، خ: « الاستنصار » .

[٢] - في خ ، ز : « الجمع » .

[٣] - في ت : « من » .

[٤] - في ت : « عن » .

[٥] - سقط من : ز ، خ.

[٦] - في ت : « أخبرنا » .

المبارك، عن يحيىٰ بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان أهل الكتاب[١] يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون**». وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد (٣١): حدثنا عثمان بن عُمر[٢]، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**الله[٣] أعلم**». قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم - : «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله وكتبه، فإن كان حقًّا لم تكذبوهم، وإن كان باطلًا لم تصدقوهم**».

قلت: وأبو نملة هذا هو: عمارة. وقيل: عَمّار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرارة الأنصاري، رضي الله عنه.

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدّثون به غالبه كذب وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقلَّ الصدقَ فيه! ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحًا!

قال ابن جرير(٣٢): حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو[٤] عاصم، حدثنا سفيان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة[٥] بن عمير، عن حريث بن ظهير، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن [تكذبوا بحق أو تصدقوا][٦] بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه[٧] تالية[٨] تدعوه إلى دينه كتالية[٩] المال.

---

(٣١) المسند (٤/١٣٦).

(٣٢) تفسير الطبري (٢١/٤).

---

[١] - في خ، ز: «التوراة».

[٢] - في خ، ز: «عمرو». وهو تحريف.

[٣] - سقط من: خ.

[٤] - سقط من: خ، ز.

[٥] - في ت: «عمار».

[٦] - في ز: «يكذبوا الحق أو يصدقوا».

[٧] - سقط من: خ.

[٨] - في ز، خ: «مالية». والمثبت من تفسير الطبري. وجاء في النهاية (١/١٩٦) تليت له تلية من حقه وتُلاوة، أي بقيت له بقية.

[٩] - في ز، خ: «كمالية».

وقال البخاري (٣٣) : حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبيد[١] الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم علىٰ رسوله - صلىٰ الله عليه وسلم - أحدثُ ، تقرءونه محضًا لم يُشَب ، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلًا يسألكم عن الذي أنزل عليكم .

وقال البخاري (٣٤) : وقال أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني حُميد[٢] بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة - وذكر كعب الأحبار - فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب ، وإنْ كنا مع ذلك لنبلو[٣] عليه الكذب .

قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل ومن منحه الله علمًا بذلك ، كل بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالىٰ : كما أنزلنا الكتب علىٰ من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب . وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد .

وقوله : ﴿ **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾ ، أي : الذين أخذوه فتلَوه[٤] حق تلاوته

(٣٣) صحيح البخاري حديث (٧٣٦٣) .

(٣٤) صحيح البخاري حديث (٧٣٦١) .

[١] - في خ ، ز : « عبد » .

[٢] - في خ ، ز : « عبيد » .

[٣] - في ز ، خ: « لنتلوا » .

[٤] - في خ ، ز : « يتلوه » .

من أحبارهم العلماء الأزكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي ، وأشباههما .

وقوله : ﴿ **ومن هؤلاء من يؤمن به** ﴾ . يعني : العرب من قريش وغيرهم ، ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون** ﴾ ، أي : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحقّ بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات !

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك** ﴾ ، أي : قد لبثت في قومك - يا محمد - [من][١] قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمرًا لا تقرأ كتابًا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أميّ لا تقرأ ولا تكتب . وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالىٰ : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ الآية . وهكذا كان صلىٰ الله عليه وسلم - إلىٰ يوم القيامة - لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلىٰ الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه - عليه السلام - كتب يوم الحديبية : « **هذا ما قاضىٰ عليه محمد بن عبد الله** » فإنما حمله علىٰ ذلك رواية في صحيح البخاري : « **ثم أخذ فكتب** » . وهذه محمولة علىٰ الرواية الأخرىٰ : « **ثم أمر فكتب** » ولهذا اشتد النكير من فقهاء المغرب والمشرق علىٰ من قال بقول الباجي ، وتبرءوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم وإنما أراد الرجل - أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه - أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - إخبارًا عن الدجال(٣٥) : « **مكتوب بين عينيه كافر** » . وفي رواية : « **ك ف ر ، يقرؤه[٢] كل مؤمن** » .

وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت - عليه السلام - حتىٰ تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ **وما كنت تتلو** ﴾ أي : تقرأ ﴿ **من قبله من كتاب** ﴾ لتأكيد النفي ﴿ **ولا تخطه بيمينك** ﴾ ، تأكيد أيضًا و[٣]خرج مخرج الغالب ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾ وقوله : ﴿ **إذًا لارتاب المبطلون** ﴾ ، أي : لو كنت تخطها[٤] لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أميّ لا يحسن الكتابة: ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلًا** ﴾، قال الله تعالىٰ : ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا** ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم** ﴾ ، أي:

---

(٣٥) رواه البخاري في صحيحه حديث (٧١٣١) من حديث أنس رضي الله عنه .

---

[١] - في ت : ومن .

[٢] - في ت : « يقرؤها » .

[٣] - في ز ، خ: «أو » .

[٤] - في ت : « تحسنها » .

القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يَسَّره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا، كما قال تعالى: ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم(٣٦) -: « **ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على**[١] **مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا** ».

وفي حديث عياض بن حمار - في صحيح مسلم(٣٧) -: « **يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا يقظان** ». أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل كما جاء في الحديث الآخر(٣٨): « **لو كان القرآن في إهاب لما**[٢] **أحرقته النار** » لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظًا ومعنى. ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: « **أناجيلهم في صدورهم** ».

واختار ابن جرير(٣٩) أن المعنى في قوله تعالى: ﴿ **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم** ﴾، بل العلم بأنك[٣] ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة وابن جريج، وحكي الأول عن الحسن فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾، أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ

(٣٦) رواه البخاري في صحيحه حديث (٧٢٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله.
(٣٧) صحيح مسلم حديث (٢٨٦٥).
(٣٨) رواه أحمد في مسنده (١٥١/٤) من حديث عقبة بن عامر، وتقدم الكلام عليه في فضائل القرآن.
(٣٩) تفسير الطبري (٥/٢١).

[١] - في ز، خ: « عليه ». [٢] - في ت: « ما ».
[٣] - في خ: « يماثل ».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدهم إلىٰ أن محمدًا رسول الله كما جاء صالح بناقته .

قال الله تعالىٰ : ﴿ **قل** ﴾ يا محمد: ﴿ **إنما الآيات عند الله** ﴾ ، أي : إنما أمر ذلك إلىٰ الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلىٰ سؤالكم ، لأن ذلك سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلىٰ ذلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإنما أنا نذير مبين** ﴾ ، أي : إنما بعثت نذيرًا لكم بيِّنَ النِّذَارة فَعَليّ أني[١] أبلغكم رسالة الله ، و﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا** ﴾ وقال تعالى : ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء**﴾ .

ثم قال تعالىٰ مبينًا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم علىٰ صدق محمد فيما جاءهم - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالىٰ : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلىٰ عليهم** ﴾ ، أي : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أميٌ لا تقرأ ولا تكتب ، ولا[٢] تخالط أحدًا من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولىٰ ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البيِّن الجليّ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولىٰ**﴾ .

وقال الإمام أحمد(٤٠) : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد ، عن

(٤٠) المسند (٢/٣٤١) ، وصحيح البخاري حديث (٤٩٨١) ، وصحيح مسلم حديث (١٥٢) .

[١] - في ت : « أن » . [٢] - في ت : « ولم » .

أبيه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي [من الآيات][١] ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة** » . أخرجاه من حديث الليث .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ **إن في ذلك لرحمة وذكرىٰ لقوم يؤمنون** ﴾ ،أي : إن في هذا القرآن ﴿ **لرحمة** ﴾ ، أي : بيانًا[٢] للحق ، وإزاحة للباطل ، و﴿ **ذكرىٰ** ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ **لرحمة وذكرىٰ لقوم يؤمنون** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **قل كفىٰ بالله بيني وبينكم شهيدًا** ﴾ أي : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه ، بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذبًا عليه لانتقم مني ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ؛ ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

﴿ **يعلم ما في السموات والأرض** ﴾ لا تخفى عليه خافية ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ ، أي : يوم معادهم سيجزيهم علىٰ ما فعلوا ، ويقابلهم علىٰ ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة علىٰ صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم علىٰ ذلك ، إنه حكيم عليم .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمىٰ لجاءهم العذاب** ﴾ ، أي : لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبًا سريعًا كما استعجلوه .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .   [٢] - في ز ، خ: « بيان » .

ثم قال : ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ . أي : فجأة ﴿ وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي : يستعجلون العذاب[١] ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة : عن سماك ، عن عكرمة قال في قوله : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ قال : البحر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبي ، عن مجالد ، عن الشعبي : أنه سمع ابن عباس يقول : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ، وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ، وتُكور فيه الشمس والقمر ، ثم يستوقد فيكون هو جهنم .

وقال الإمام أحمد(٤١) : حدثنا أبو عاصم؛ حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثني محمد بن حُيي[٢] ، حدثنا صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : « البحر هو جهنم » قالوا ليعلى ؟ فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿ نارًا أحاط بهم سرادقها ﴾ ، قال : لا ، والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدًا حتىٰ أعرض علىٰ الله ، ولا يصيبني منها قطرة حتىٰ أعرض علىٰ الله - عز وجل - هذا تفسير غريب وحديث غريب جدًّا ، والله أعلم .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ وقال : ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ وقال : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ فالنار تغشاهم من[٣] سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي .

وقوله : ﴿ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي علىٰ النفوس ، كقوله : ﴿ يوم يسحبون في النار علىٰ وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ، وقال : ﴿ يوم يُدعون إلىٰ نار جهنم دعًّا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ، ﴿ ذوقوا فتنتكم هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ

(٤١) المسند (٤/٢٣٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

[١] - في ت : « بالعذاب » .
[٢] - في خ ، ز : « جني » . [٣] - في ت : « عن » .

ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ، ولهذا قال : ﴿ **يا عبادي [الذين آمنوا][١] إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون** ﴾ .

قال الإمام أحمد(٤٢) : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني جُبير بن عمرو القرشي ، حدثني أبو سعد الأنصاري ، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام ، عن الزبير العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرًا فأقم** » . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة - رحمه الله - آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سُيُومًا[٢] (*) ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون** ﴾ ، أي : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لابد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء ، [ووفاه تمام][٣] الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، أي : لنسكننهم[٤] منازل عاليةً في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا . ﴿ **خالدين فيها** ﴾ ، أي : ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ﴿ **نعم أجر العاملين** ﴾ نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين ﴿ **الذين صبروا** ﴾ أي : على دينهم وهاجروا إلى الله ، ونابذوا

(٤٢) المسند (١٦٦/١) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧٢/٤) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(*) - أي : آمنين ، وهي كلمة حبشية ، وتُروى بفتح السين . وقيل : سيوم : جمع سائم ، أي تسومون في بلدي كالغنم السائمة لا يعارضكم أحد (النهاية ٤٣٤/٢، ٤٣٥) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - في خ : « سهوما » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « ووافاه أتم » . [٤] - في ز ، خ: « لنسكننكم » .

الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه اللّٰه ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبي حاتم رحمه اللّٰه(٤٣) : حدثني أبي ، حدثنا صفوان المؤذن ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبي سلام الأسود ، حدثني أبو معانق[١] الأشعري : أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم حدثه[٢] « **أن في الجنة غُرفًا يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها اللّٰه لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة والناس نيام** » .

﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ثم أخبرهم تعالىٰ أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالىٰ عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ، ولهذا قال : ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها** ﴾ ، أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تؤخر شيئًا لغد ﴿ **اللّٰه يرزقها وإياكم** ﴾ أي : اللّٰه يُقيض لها رزقها علىٰ ضعفها ، وييسره عليها ، فيبعث إلىٰ كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتىٰ الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء . قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا علىٰ اللّٰه رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم(٤٤) : حدثنا محمد بن عبد الرحمن[٣] الهروي ، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن[٤] منهال الجزري - هو أبو العطوف - عن الزهري ، عن رجل ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول اللّٰه - صلىٰ اللّٰه عليه وسلم - حتىٰ دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال لي : « **يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟** » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول اللّٰه . قال : « **لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعامًا ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرىٰ ، فكيف**[٥] **بك يا ابن عمر ، إذا بقيتَ في قوم يَخبَئون رزق سنتهم بضعف**[٦] **اليقين ؟** » قال : فواللّٰه ما برحنا ولا رِمْنا حتىٰ نزلت : ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها اللّٰه يرزقها وإياكم وهو السميع**

(٤٣) ورواه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٣/٥) من طريق أبي معانق ، عن أبي مالك به ، وسيأتي عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٤٤) ورواه البغوي في تفسيره (٢٥٣/٦) من طريق إسماعيل بن زرارة ، عن الجراح بن المنهال به - وقال الشوكاني في فتح القدير (٢١٣/٤) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي - صلى

[١] - في ت : « معاوية » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ابن أبي حاتم : عبد الرزاق .
[٤] - في ز : « عن » .
[٥] - في ز : « وكيف » .
[٦] - في ز : « لضعف » .

العليم ﴾ . فقال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **إن اللّٰه لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد اللّٰه ، ألا وإني لا أكنز دينارًا ولا درهمًا ولا أخبأ رزقًا لغد**[١] » .

هذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزري ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فَقَس عن فراخه البيض ، خرجوا وهم بيض ، فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفر عنهم أيامًا حتىٰ يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحًا فاه [يتفقد][٢] أبويه فيقيض الله[٣] له طيرًا صغارًا كالبِرْغَش(*) فيغشاه[٤] فيتقوت منه تلك الأيام حتىٰ يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه[٥] ، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النَّعَّاب(**) في عشه   وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر ، كقول النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **سافروا تصحوا وترزقوا** » .

قال البيهقي(٤٥) : أخبرناه إملاء أبو الحسن[٦] علي [بن محمد][٧] بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدّاد[٨] - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد اللّٰه بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **سافروا تصحوا وتغنموا** » . قال : ورويناه عن ابن عباس .

وقال الإمام أحمد(٤٦) ، حدثنا قتيبة : حدثنا ابن لَهيعة ، عن دَرّاج ، عن عبد الرحمن بن

اللّٰه عليه وسلم - فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة ، وفي إسناده أبو العطوف الجزري وهو ضعيف » .ا.هـ مستفادًا من حاشية تفسير البغوي .

(*) البرغش : البعوض اللساع .

(**) - النعاب : فَرْخ الغراب .

(٤٥) السنن الكبرى (١٠٢/٧) ، ورواه ابن عدي في الكامل (١٩٠/٦) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، عامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبي حاتم في العلل (٣٠٦/٢) : « سألت أبي عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٤٦) المسند (٣٨٠/٢) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

---

[١] - في خ ، ز : « لأحد » .
[٢] - في خ ، ز : « وقال » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ز،خ : « فتغشاه » .
[٥] - سقط من : ز، خ .
[٦] - في ز : « الحسين » .
[٧] - في ز،خ : « ابن أحمد » . والمثبت من البيهقي .
[٨] - في ز ، خ : « وارد » .

حُجيرة[١] ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **سافروا تربحوا وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا** » .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعًا ، وعن معاذ بن جبل موقوفًا[٢] (٤٧) . وفي لفظ : « **سافروا مع ذوي الجدود والميسرة** »(٤٨) .

وقوله تعالى: ﴿**وهو السميع العليم**﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالىٰ مقررًا أنه لا إله إلا هو . لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلًا منهم ، ومن يستحق الغنىٰ ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل علىٰ غيره ؟فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيرًا ما يقرر[٣] تعالىٰ مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : « **لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك** » .

---

(٤٧) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠٢/٧) ، من طريق بسطام بن حبيب ، عن القاسم ، عن أبي حازم ، عن ابن عباس مرفوعًا ، ورواه ابن عدي في الكامل (٥٧/٧) من طريق نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، مرفوعًا . وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفًا ، وسيأتي مرفوعًا ، وجاء من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا . ورواه ابن عدي في الكامل (٤٥٤/٣) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، مرفوعًا وقال : « سوار هذا عامة ما يرويه غير محفوظ » .

(٤٨) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديث (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وذكره السيوطي في الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

---

[١] - في ز ، خ: « حجير » .
[٢] - في خ : « مرفوعًا » .
[٣] - في ز ، خ: « يقدر » .

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾ أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد .

وقوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أي : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائمًا ، ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم**[١] **إلىٰ البر أعرضتم** ﴾ وقال هاهنا : ﴿ **فلما نجاهم إلىٰ البر إذا هم يشركون** ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبي جهل : أنه لما فتح رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مكة ذهب فارًّا منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلىٰ الحبشة اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ؛ أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنجِّي هاهنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي أيضًا غيره في البر ، اللهم ؛ لك علي عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعنّ يدي في يد محمد فلأجدنه رءوفًا رحيمًا . وكان كذلك .

وقوله : ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا** ﴾ ، هذه « اللام » يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول « **لام العاقبة** » ، لأنهم لا يقصدون[٢] ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلىٰ تقدير الله عليهم ذلك[٣] وتقييضه إياهم لذلك[٤] فهي « **لام التعليل** » . وقد قدمنا [تقرير ذلك][٥] في قوله تعالىٰ : ﴿ **ليكون لهم عدوًّا وحزنا** ﴾ .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ

---

[١] - في ز ، خ: « أنجاكم » .
[٢] - في خ ، ز : « يعدون » .
[٣] - سقط من : ز ، خ.
[٤] - في ت : « ذلك » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ت : « تقريرًا لذلك » .

﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ قريش فيما أحلهم من حرمه[١] ، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي ومن دخله كان آمنًا ، فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا ، ويقتل بعضهم بعضًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ .

وقوله : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ ، أي : أفكان شكرهم علىٰ هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه الأصنام والأنداد ، و﴿ **بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ ، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم[٢] إخلاص العبادة لله ، وأن لا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم ببدر ، وصارت الدولة(*) لله ولرسوله وللمؤمنين[٣] ، ففتح الله علىٰ رسوله مكة ، وأرغم آنافهم[٤] وأذل رقابهم .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ومن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه** ﴾ ، أي: لا أحد أشدّ عقوبة ممن كذب علىٰ الله فقال : إن الله أوحىٰ إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ، ولهذا قال : ﴿ **أليس في جهنم مثوى للكافرين** ﴾؟ .

ثم قال : ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ ، يعني الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين ، ﴿ **لنهدينهم سبلنا** ﴾ ، أي : لنُبصرنّهم سبلنا أي : طرقنا[٥] في الدنيا والآخرة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا عباس الهمداني أبو أحمد - من أهل عكا - في قول الله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين** ﴾ ، قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم لما لا[٦] يعلمون . قال أحمد بن أبي

(*) - الدولة : الغلبة .

[١] - في خ ، ز : « حريمه » .
[٢] - في ز ، خ: « لهم » .
[٣] - سقط من : ز، خ .
[٤] - في ز ، خ: « آنافيهم » .
[٥] - في خ ، ز : « طريقنا » .
[٦] - سقط من : خ .

الحواري : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس[١] ينبغي لمن ألهم شيئًا من الخير أن يعمل به[٢] حتىٰ يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد اللَّه حين وافق ما[٣] في نفسه .

وقوله : ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ . قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا عيسىٰ بن جعفر قاضي الري ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن المغيرة ، عن الشعبي قال : قال عيسىٰ ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلىٰ من أساء إليك[٤] ، و[٥]ليس الإحسان أن تحسن إلىٰ من أحسن إليك . واللَّه أعلم .

☆ ☆ ☆

انتهى بحمد الله وحسن توفيقه المجلد العاشر

ويليه إن شاء الله تعالى المجلد الحادي عشر وأوله تفسير سورة الروم

---

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ ، ز : « فيما » .
[٤] - في خ : « عليك » .
[٥] - سقط من : ز .

/ سورة العنكبوت [٢٩٠و]

مكيّة سوى عشر آيات مِن أوّلها،[١] وهي تسع وستّون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ مرارًا في نظائره مِن الفواتح الكريمة، خلا أنّ ما بعده لا يحتمل أن يتعلّق به تعلّقًا إعرابيًّا.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحِسبان ونظائره لا يتعلّق بمعاني المفردات؛ بل بمضامين الجمل المفيدةِ لثبوت شيء لشيء أو انتفاءِ شيء عن شيء، بحيث يتحصّل منها مفعولاه، إمّا بالفعل كما في عامّة المواقع، وإمّا بنوع تصرّف فيها كما في الجمل المصدَّرة بـ"أنّ"، والواقعةِ صلة للموصول الاسمي أو الحرفي، فإنّ كلًّا منها صالحة لأن يُسْبَكَ منها مفعولاه؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ في قوّة أن يقال: أَحَسِبوا أنفسَهم متروكين بلا فتنةٍ بمجرّد أن يقولوا: "آمنّا"؟ أو أن يقال: أَحَسِبوا تركَهم غير مَفتونين بقولهم: "آمنّا" حاصلًا متحقِّقًا؟

والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعادُه، وتحقيقُ أنّه تعالى يمتحنهم بمَشاقّ التكاليف، كالمهاجَرة، والمجاهَدة، ورفضِ ما تشتهيه النفس، ووظائفِ الطاعات، وفنونِ المصائب في الأنفس والأموال؛ ليتميّز المخلص مِن المنافق، والراسخُ في الدين مِن المتزلزِل فيه، ويُجازيَهم بحسب مراتب أعمالهم، فإنّ مجرّد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص مِن الخلود في النار.

---

[١] ط س - سوى عشر آيات مِن أوّلها.

رُوي أنّها نزلت في ناس مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين،[١] جَزِعوا مِن أذيّة المشركين.[٢] وقيل: في عمّار قد عُذِّب في الله.[٣] وقيل: في مِهجَع[٤] مولى عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى[٥] عنه، رماه عامر بن الحضرمي[٦] بسهمٍ يوم بدر، فقتله، فجَزِع عليه أبواه وامرأته، وهو أوّل مَن استشهد يومئذ مِن المسلمين، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سيّد الشهداء مِهْجَع، وهو أوّلُ مَن يُدعى إلى باب الجنّة مِن هذه الأمّة».[٧]

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ﴾،[٨] أو بقوله تعالى: ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾.[٩] والمعنى أنّ ذلك سنّة قديمة مبنيّة على الحِكم البالغة، جاريةٌ فيما بين الأمم كلّها، فلا ينبغي أن يُتوقّع خلافُها. / والمعنى: أنّ الأمم [٢٩٠ظ] الماضية قد أصابهم مِن ضروب الفتن والمِحَن ما هو أشدّ ممّا أصاب هؤلاء فصبروا، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾... الآيات [آل عمران، ١٤٦/٣]. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «قد كان مَن قبلكم يُؤخَذُ فيوضع المِنشار على رأسه فيُفْرق فِرقتَين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون عظمه مِن لحم وعصَب، ما يصرفه ذلك عن دينه».[١٠]

---

١ س - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ س + رضي الله عنهم.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٩/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٨٨/٤.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٥٣/١٨؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧٠/٧.

٤ هو مِهجَع العَكّي مولى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. قال ابن هشام: «أصله مِن عَكّ، فأصابه سباء فمَنّ عليه عمر فأعتقه»، وكان مِن السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرًا، واستشهد بها. وقال موسى بن عقبة: «كان أوّلَ مَن قُتل ذلك اليوم». **الإصابة** لابن حجر، ١٨٢/٦.

٥ س - تعالى.

٦ س: الخضرمي.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٧٠/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٩/٣.

٨ في الآية السابقة.

٩ في الآية السابقة.

١٠ **صحيح البخاري**، ٢٠/٩ (٦٩٤٣)؛ **وسنن أبي داود**، ٢٨٦/٤ (٢٦٤٩). وتمامه: «واللهِ لَيَتِمّنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب مِن صَنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون».

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾،[١] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ في ذلك. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما يُفصح عنه ما قبلها مِن وقوع الامتحان، و"اللام" جواب القسم. والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المَهابة. وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير، أي: فواللهِ ليتعلّقنّ علمه بالامتحان تعلّقًا حاليًا يتميّز به الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرّون على الكذب، ويترتّب عليه أجزيتهم مِن الثواب والعقاب، ولذلك قيل: المعنى: ليُميِّزَنّ، أو ليُجازِيَنّ.

وقُرئ: "وَلَيُعْلِمَنَّ"[٢] مِن "الإعلام"، أي: وليُعرِّفنّهم الناسَ، أو ليَسِمَنّهم بسِمةٍ يُعرَفون بها يومَ القيامة، كبياض الوجوه وسوادها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمَساوئ أعمالهم. وهو سادّ مَسَدَّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾، لاشتماله على مسنَد ومسنَد إليه. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حِسبانهم متروكين غيرَ مَفتونين إلى التوبيخ بإنكار ما هو أبطل مِن الحِسبان الأوّل، وهو حِسبانهم أن لا يُجازَوا بسيّئاتهم، وهم وإن / لم [٢٩١و] يحسَبوا أنّهم يفوتونه تعالى ولم يحدّثوا نفوسهم بذلك لكنّهم حيث أصرّوا على المعاصي ولم يتفكّروا في العاقبة نُزّلوا منزلةَ مَن يطمع في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤].

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الذي يحكمونه حكمُهم ذلك، أو بئس حكمًا يحكمونه حكمُهم ذلك.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتوقّع ملاقاةَ جزائه ثوابًا أو عقابًا، أو ملاقاةَ حكمه

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وجعفر بن محمّد والزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

يوم القيامة. وقيل: يرجو لقاء الله عزّ وجلّ في الجنّة. وقيل: يرجو ثوابه. وقيل: يخاف عقابه. وقيل: لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة مِن تلقّي ملك الموت والبعثِ والحسابِ والجزاءِ على تمثيل تلك الحال بحال عبدٍ قَدِم على سيّده بعد عهد طويل، وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذَر، فإمّا أن يلقاه ببِشرٍ وكرامة لِما رضي مِن أفعاله، أو بضِدّه لِما سَخِطه.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجل عبارة عن غاية زمانٍ ممتدٍّ عُيِّنَت لأمرٍ مِن الأمور، وقد يطلق على كلّ ذلك الزمان، والأوّل هو الأشهَر في الاستعمال، أي: فإنّ الوقت الذي عيّنه تعالى لذلك ﴿لَأٓتٍ﴾ لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه، ولا عاطفٍ يَثنيه؛ لأنّ أجزاء الزمان على التقضّي والتصرّم دائمًا، فلا بدّ مِن إتيان ذلك الجُزء أيضًا البتّة، وإتيانُ وقته موجِب لإتيان اللقاء حتمًا.

والجواب محذوف، أي: فليَختر مِن الأعمال ما يؤدّي إلى حسن الثواب، ولْيَحذَر ما يسوقه إلى سوء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف، ١٨/ ١١٠]. وفيه مِن الوعد والوعيد ما لا يخفى. وقيل: فليبادِر ما يحقّق أملَه ويصدّق رجاءَه، أو ما يوجب القُربة والزلفى.

[٢٩١ظ] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالهم مِن / الأعمال الظاهرة والعقائد.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعة الله عزّ وجلّ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ لِعَود منفعتها إليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ له إلى طاعتهم، وإنّما أمرَهم بها تعريضًا لهم للثواب بموجَب رحمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ الكفرَ بالإيمان والمعاصِيَ بما يتبعُها مِن الطاعات، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم، لا جزاءَ أحسنِ أعمالهم فقط.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: بإيتاء والدَيه وإيلائِهما فِعلًا ذَا حُسن، أو ما هو في حدِّ ذاته حُسنٌ لِفَرط حُسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة، ٨٣/٢].

و"وَصَّى" يجري مَجرى "أَمَرَ" معنًى وتصرّفًا، غيرَ أنّه يُستعمل فيما كان في المأمور به نَفعٌ عائد إلى المأمور أو غيره. وقيل: هو بمعنى "قال"، فالمعنى: وقلنا: أحسِن بوالدَيك حُسنًا. وقيل: انتصاب ﴿حُسْنًا﴾ بمُضمَر على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصية، أي: وقلنا أَوْلِهما أو افعل بهما حُسنًا، وهو أوفَق لِما بعده، وعليه يَحسُن الوقف على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾. وقُرئ: "حَسَنًا"،[1] و"إِحْسَانًا".[2]

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلاهِيّته، عبّر عن نفيها بنفي العلم بها للإيذان بأنّ ما لا يُعلَم صحّته لا يجوز اتّباعه وإن لم يُعلم بطلانه، فكيف بما عُلم بطلانه؟

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فإنّه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"،[3] ولا بدّ مِن إضمار القول إن لم يُضمَر فيما قبلُ. وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف إشعارٌ بأنّ موجَب النهي فيما دونها مِن التكليف ثابت بطريق الأولويّة.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مرجعُ مَن آمن منكم ومَن أشرك، / ومَن برّ بوالديه [٢٩٢و] ومَن عَقّ، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيَ كلًّا منكم بعمله؛ إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشَرّ.

والآية نزلت في سعد بن أبي وقّاص عند إسلامه، حيث حلفَت أمّه حَمنة بنت أبي سفيان بن أُميّة أن لا تنتقل مِن الضِّحّ[4] إلى الظلّ، ولا تَطعم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[2] قراءة شاذّة، رُوي عن الجحدري أنّها في الإمام كذلك بالألف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[3] حديث في مسند أحمد، ٣٣٣/٢ (١٠٩٤)؛ والمعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٤ (٣٩١٧).

[4] الضِّحّ: الشمس. الصحاح للجوهري، «ضحح».

ولا تشرب حتّى يرتدّ، فلَبِثَت ثلاثة أيّام كذلك.[١] وكذا التي في سورة لقمان[٢] وسورة الأحقاف.[٣]

وقيل: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه هاجر مع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حتّى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل والحارث أخواه لأمّه أسماءَ، فنزلا بعيّاش، وقالا له: «إنّ مِن دين محمّد صلّى الله عليه وسلّم صلةَ الأرحام وبِرَّ الوالدين، وقد تركتَ أمّك لا تَطعَم ولا تشرب ولا تأوي بيتًا حتّى تراك، فاخرج معنا»، وفَتَلا منه في الذِّروة والغارِب،[٤] واستشار عمر رضي الله تعالى[٥] عنه، فقال: «هما يَخدعانِك، ولك عليَّ أن أقسِم مالي بيني وبينك»، فما زالا به حتّى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: «أمّا إذا عصَيتني فخذ ناقتي، فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابَك منهما رَيب فارجع»، فلمّا انتهَوا إلى البيداء قال: «إنّ ناقتي قد كلَّت، فاحملني معك»، فنزل ليوطئ لنفسه وله، فأخذاه، فشدّاه وَثاقًا، وجلده كلّ واحدٍ مائة جلدة، وذهبا به إلى أمّه، فقالت: «لا تزال في عذابٍ حتّى ترجع عن دين محمّد».[٦]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح. والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين، وغايةُ مأمول أنبياءِ الله المرسلين. قال[٧] تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام:

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٣.

٢ لقمان، ١٤/٣١.

٣ الأحقاف، ١٥/٤٦.

٤ قولهم: «فَتَلَ في الذِّروة والغارِب»؛ يقال ذلك للرجل لا يزال يَخدع صاحبه حتى يظفر به. وذِروة البعير: أعلاه، وكذلك ذِروة كلّ شيء، والغارب: مقدَّم السنام. جمهرة الأمثال للعسكري، ٩٨/٢.

٥ س - تعالى.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/٣. وأخرج القصّة البزّار في مسنده، ٢٥٨/١ (١٥٥).

٧ ط س + الله.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، ١٩/٢٧]، وقال في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، أو في مدخل الصالحين، وهي الجنّة.

/ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى [٢٩٢ظ]
بأن عذّبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ما يصيبه مِن أذيّتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدّة والهول، فيرتدّ عن الدين مع أنّه لا قدرَ لها عند نفحة مِن عذابه تعالى أصلًا.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فتحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضمّ "اللام" نظرًا إلى معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق بالنظر إلى لفظها. وقُرئ بالفتح.[1] ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مشايِعين لكم في الدين، فأشرِكُونا في المَغنم، وهم ناس مِن ضَعَفة المسلمين، كانوا إذا مسّهم أذًى مِن الكفّار وافقوهم، وكانوا يكتمونه مِن المسلمين، فَرَدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ[2] ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بأعلمَ منهم بما في صدورهم مِن الإخلاص والنفاق حتّى يفعلوا ما يفعلون مِن الارتداد والإخفاء عن المسلمين، وادّعاءِ كونهم منهم لنَيل الغنيمة. وهذا هو الأوفَق لِما سبَق وما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإخلاص، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بإذيّة الكفرة أو لا، أي: لَيَجزِيَنّهم بما لهم مِن الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم لهم عليه بالأذيّة والوعيد. ووصفُهم بالكفر هٰهنا دون ما سبَق لِما أنّ مَساق الكلام لبيان جنايتهم، وفيما سبَق لبيان جناية مَن أضلّوه.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة، قال أبو حيّان: «ذكره أبو معاذ النحوي والزمخشري». البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٨.

٢ م ط س: أليس.

و"اللامُ" للتبليغ، أي: قالوا مخاطبين لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي: اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين، عُبِّر عن ذلك بالاتّباع الذي هو المَشي خلفَ ماشٍ آخر تنزيلًا للمَسلك منزلةَ السالك فيه، أو اتّبعونا في طريقتنا.

[٢٩٣و] / ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي: إن كان ذلك خطيئة يُؤاخَذُ عليها بالبعث كما تقولون، وإنّما أَمروا أنفسهم بالحَمل عاطفين له على أمرهم بالاتّباع للمبالغة في تعليق الحَمل بالاتّباع، والوعدِ بتخفيف الأوزار عنهم، إن كان ثمّة وِزرٌ.

فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ وقُرئ: "مِنْ خِطِيئَاتِهِمْ"،[١] أي: وما هم بحاملين شيئًا مِن خطاياهم التي التزموا أن يحملوا كلَّها، على أنّ ﴿مِنۡ﴾ الأولى للتبيين، والثانيةَ مزيدة للاستغراق، والجملة اعتراض أو حال.

﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أَخبَروا في ضمن وَعدِهم بالحمل بأنّهم قادرون على إنجاز ما وَعدوا، فإنّ الكذب كما يتطرّق إلى الكلام باعتبار مَنطوقه يتطرّق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، ٣١/٢].

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ بيان لِما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة مِن المَضرّة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطَبيهم أصلًا. والتعبير عن الخطايا بـ"الأثقال" للإيذان بغاية ثِقَلها وكونِها فادِحةً. و"اللام" جواب قسَم مُضمَر، أي: وبالله ليَحملُنّ أثقال أنفسهم كاملة، ﴿وَأَثۡقَالٗا﴾ أُخرَ ﴿مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ لمّا تسبّبوا بالإضلال والحملِ على الكفر والمعاصي مِن غير أن ينتقص مِن أثقال مَن أضلّوه شيء ما أصلًا.

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه في الدنيا مِن الأكاذيب والأباطيل التي مِن جملتها كذِبُهم هذا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن داود بن أبي هند، حكاها عنه أبو عمرو. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٠٩/٤.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ⑭﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ شروع في بيان افتتان الأنبياء عليهم السلام / بأذيّة أممهم إثرَ بيان افتتان المؤمنين [٢٩٣ظ] بأذيّة الكفّار، تأكيدًا للإنكار على الذين يحسَبون أن يُتركوا بمجرّد الإيمان بلا ابتلاء، وحثًّا لهم على الصبر، فإنّ الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلُوا بما أصابهم مِن جِهة أممهم مِن فنون المَكاره وصبروا عليها فلأَن يصبر هؤلاء أَولى وأَحرى.

قالوا: كان عمُر نوح عليه السلام ألفًا وخمسينَ عامًا، بُعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا،[1] وعاش بعد الطوفان ستّين سنة.[2] وعن وهب: أنّه عاش ألفًا وأربعمائة سنةٍ. ولعلّ ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد، فإنّ تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرُب منه، ولِما في ذكر الألْف مِن تخييل طول المدّة، فإنّ المقصود مِن القصّة تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[3] وتثبيتُه على ما كان عليه مِن مكابدة ما يناله مِن الكفرة، وإظهارُ رَكاكة رأي الذين يحسبون أنّهم يُتركون بلا ابتلاء. واختلافُ المميّز لِما في التكرير مِن نوع بشاعة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: عقيب تمام المدّة المذكورة. و"الطوفان" يطلق على كلّ ما يطوف بالشيء على كثرةٍ وشدّةٍ مِن السيل والريح والظلام، وقد غلَب على طوفان الماء.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: والحال أنّهم مستمِرّون على الظلم، لم يتأثّروا بما سمعوا مِن نوح عليه السلام مِن الآيات، ولم يَرْعَوُوا عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي هذه المدّةَ المتمادية.

---

١ م ط س - بُعث على رأس أربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عامًا ["صح" في هامش م].

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٤/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١٥/٣.

٣ ط س: عليه السلام.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: ومَن ركِب فيها معه مِن أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين. وقيل: ثمانيةً وسبعين. وقيل: عشرةً. وقيل: ثمانيةً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ، أو الحادثةَ والقصةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ / يتعظون بها. [٢٩٤و]

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦﴾

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على ﴿نُوحًا﴾.[1] وقيل: بإضمار "اذكر". وقُرئ بالرفع[2] على تقدير: ومِن المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ على الأوّل ظرف للإرسال، أي: أرسلناه حين تكامل عقله وقدَر على النظر والاستدلال، وترقّى مِن رتبة الكمال إلى درجة التكميل، حيث تصدّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحقّ. وعلى الثاني بدل اشتمال مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئًا، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ممّا أنتم عليه. ومعنى التفضيل مع أنّه لا خيريّةَ فيه قطعًا باعتبار زعمهم الباطل.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرَ والشرَّ، وتميّزون أحدهما مِن الآخر، أو إن كنتم تعلمون شيئًا مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه، فإنّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريّة ما ذكر مِن العبادة والتقوى.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بيان لبطلان دينهم وشَرّيّته في نفسه بعد بيان شَرّيّته بالنسبة إلى الدين الحقّ، أي: إنّما تعبدون مِن دونه تعالى أوثانًا هي في نفسها تماثيلُ مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك.

---

[1] العنكبوت، ١٤/٢٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ أي: وتكذبون كذِبًا حيث تسمّونها آلهةً وتدّعون أنّها شفعاؤكم عند الله تعالى، أو تعملونها وتنحتونها للإفك. وقُرئ: "تُخَلِّقُونَ" بالتشديد،[١] للتكثير في "الخَلق" بمعنى الكذب والافتراء، و"تَخَلَّقُونَ" بحذف إحدى التاءين،[٢] مِن "تَخَلَّقَ" بمعنى "تكذَّب وتَخرّص". وقُرئ: "أَفِكًا"[٣] على أنّه مصدر كـ"الكذِب" و"اللعِب"، أو نَعت بمعنى: خَلقًا ذا إفك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان لشَرّيّة ما يعبدونه مِن حيث إنّه لا يكاد يُجديهم نفعًا، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ أي: لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئًا مِن الرزق، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ كُلّه، فإنّه هو الرزّاق ذو القوّة المتين، ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ / على نَعمائه متوسّلين إلى مطالبكم بعبادته، [٢٩٤ظ]
مقيّدين بالشكر للعتيد،[٤] ومستجلبين للمزيد.

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: بالموت ثمّ البعث، لا إلى غيره، فافعلوا ما أمرتكم به. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ"[٥] مِن "رَجَع رجوعًا".

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي: تكذّبوني فيما أخبرتكم به مِن أنكم إليه تُرجعون بالبعث ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ تعليل للجواب، أي: فلا تضرّونني بتكذيبكم، فإنّ مَن قبلكم مِن الأمم قد كَذّبوا مَن قبلي مِن الرسل، وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام، فلم يضرَّهم تكذيبُهم شيئًا، وإنّما ضَرّ أنفسهم حيث تَسبَّب لِما حلّ بهم مِن العذاب، فكذا تكذيبكم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: التبليغُ الذي لا يبقى معه شكّ، وما عليه أن يصدّقه قومُه البتّة، وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه، فلا يضرّني تكذيبكم بعد ذلك أصلًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة عن نافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة والنخعي والسلمي وزيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٧٢.

[٤] العتيد: الشيء الحاضر المهيّأ. **الصحاح** للجوهري، «عتد».

[٥] قرأ بها يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١٩﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ كلام مستأنف مَسوق مِن جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسُنوح سَبيله. و"الهمزة" لإنكار عدم رؤيتهم الموجِب لتقريرها، و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم ينظروا ولم يعلموا عِلمًا جاريًا مَجرى الرؤية في الجلاء والظهور كيفيّةَ خلق الله تعالى الخلق ابتداءً مِن مادّةٍ ومِن غير مادّةٍ، أي: قد علموا ذلك. وقُرئ بصيغة الخطاب[1] لتشديد الإنكار وتأكيده. وقُرئ: "يَبْدَأُ".[2]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، لا على ﴿يُبْدِئُ﴾؛ لعدم وقوع الرؤية عليه، فهو إخبار بأنّه تعالى يعيد الخلق قياسًا على الإبداء. وقد جُوِّز العطف على ﴿يُبْدِئُ﴾ بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كلّ سنة مثلَ ما أنشأه في السنة السابقة مِن النبات والثمار وغيرِهما، فإنّ ذلك ممّا يُستدلّ به على صحّة البعث ووُقوعه مِن غير ريب.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر فعله إلى شيء أصلًا.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمرٌ لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك، أي: سيروا فيها ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي: كيف خلقَهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفة وطبائعَ متغايرة وأخلاقٍ شتّى، فإنّ ترتيب النظر على السير في الأرض مُؤذِن بتتبّع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها.

[٢٩٥و] ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ / بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها. والتعبير عن الإعادة التي هي محلّ النزاع بالنشأة الآخرة المُشعِرة بكون البدءِ نشأةً أُولى

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزبير وعيسى وأبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٤٨.

للتنبيه على أنّهما شأن واحد مِن شئون الله تعالى حقيقةً واسمًا مِن حيث إنّ كلًّا منهما اختراع وإخراج مِن العدم إلى الوجود، لا فرقَ بينهما إلّا بالأوّلِيّة والآخِريّة.

وقُرئ: "النَّشَاءَةَ" بالمدّ،[١] وهما لغتان، كـ"الرَّأفة" و"الرَّآفة". ومحلّها النصب على أنّها مصدر مؤكِّد لـ﴿يُنشِئُ﴾ بحذف الزوائد، والأصل "الإنشاءة"، أو بحذف العامل، أي: يُنشِئ فيَنشَأون النشأةَ الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

والجملة معطوفة على جملة ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ داخلة معها في حيّز القول. وإظهارُ الاسم الجليل وإيقاعُه مبتدأً مع إضماره في ﴿بَدَأَ﴾ لإبراز مزيد الاعتناءِ ببيان تحقّق الإعادة بالإشارة إلى علّة الحكم وتكريرِ الإسناد.

وقوله عزّ وجلّ:[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لِما قبله بطريق التحقيق، فإنّ مَن علم قدرتَه تعالى على جميع الأشياء التي مِن جملتها الإعادة، لا يُتصوّر أن يتردّد في قدرته عليها، ولا في وقوعها بعد ما أخبر به.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يُعَذِّبُ﴾ أي: بعد النشأة الآخرة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكِرون لها حتمًا، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرحمه، وهم المصدِّقون بها. والجملة تكملة لِما قبلها. وتقديم التعذيب لِما أنّ الترهيب أنسب بالمقام مِن الترغيب. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ عند ذلك، لا إلى غيره، فيفعل بكم ما يشاء مِن التعذيب والرحمة.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالتواري في الأرض، أو الهبوط في مهاويها، ولا بالتحصّن في السماء

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

٢ س: تعالى.

التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقيّ فيها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن، ٣٣/٥٥]، أو القلاعِ الذاهبة فيها.
[٢٩٥ظ] وقيل: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ / صفة لمحذوف معطوف على ﴿أَنتُم﴾، أي: ولا مَن في السماء.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم ممّا يصيبكم مِن بلاء يظهر مِن الأرض، أو ينزل مِن السماء، ويدفعه عنكم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدلائله التكوينيّة والتنزيليّة الدالّةِ على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالّة على تحقّق البعث والآياتُ الناطقة به دخولًا أوّليًا. وتخصيصها بدلائل وحدانيّته تعالى[1] لا يناسب المقام. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الذي ينطق به تلك الآيات. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي: ييْأسون منها يوم القيامة. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه، أو يَئِسُوا منها في الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي تكرير اسم الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالأليم مِن الدلالة على كمال فَظاعة حالهم ما لا يخفى، أي: أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه، وباليأس مِن رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة، لهم بسبب تلك الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادَر قدرُه في الشدّة والإيلام.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، واسمُها قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وقُرئ بالرفع[2] على العكس، وقد مرّ ما فيه في نظائره.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٢.

وليس المراد أنّه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حُجج إبراهيم عليه السلام / إلّا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر مِن ظاهر النظم الكريم؛ بل إنّ ذلك [٢٩٦و] هو الذي استقرّ عليه جوابهم بعد اللُّتيّا والتي[١] في المرّة الأخيرة، وإلّا فقد صدر عنهم مِن الخرافات والأباطيل ما لا يحصى.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فألقَوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه السلام بردًا وسلامًا حسبما بيّن في مواضع أُخر. وقد مرّ في سورة الأنبياء[٢] بيان كيفيّة إلقائه عليه السلام فيها وإنجائِه تعالى إيّاه تفصيلًا. قيل: لم يُنتفَع يومئذ بالنار في موضعٍ أصلًا.[٣]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه منها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بيّنةً عجيبةً، هي حفظه تعالى إيّاه مِن حرّها، وإخمادُها في زمان يسير، وإنشاء رَوض في مكانها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وأمّا مَن عداهم فهم عن اجتلائها غافلون، ومِن الفوز بمغانم آثارها محرومون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام مخاطِبًا لهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتَتَوادُّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم. وثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ محذوف، أي: أوثانًا آلهة. ويجوز أن يكون ﴿مَوَدَّةَ﴾ هو المفعولَ بتقدير المضاف، أو بتأويلها بالمَودودة، أو بجعلها نفسَ المودّة مبالغةً، أي: اتّخذتم أوثانًا سببَ المودّة بينكم، أو مَودودة، أو نفس المودّة.

وقُرئ: "مَوَدَّةً" منوّنةً منصوبةً ناصبةً للظرف.[٤] وقُرئت بالرفع والإضافةِ[٥] على أنّها خبر مبتدأ محذوف، أي: هي مَودودة، أو نفسُ المودّة، أو سببُ مودّة بينكم.

---

[١] اللُّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. **مجمع الأمثال** للميداني، ١٦٤/١.

[٢] الأنبياء، ٦٨/٢١-٦٩.

[٣] **معاني القرآن** للزجّاج، ١٦٦/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٠/٣.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

والجملة صفة ﴿أَوْثَٰنًا﴾، أو خبر ﴿إِنَّ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة قد حُذف عائدها، وهو المفعول الأوّل.

وقُرئت مرفوعة منوّنة[1] ومضافة[2] بفتح ﴿بَيْنِكُمْ﴾، كما قُرئ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٩٤] / على أحد الوجهين.[3] وقُرئ: "إِنَّمَا مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ"،[4] [٢٩٦ظ] والمعنى: إنّ اتّخاذكم إيّاها مودّةُ بينِكم ليس إلّا في الحياة، وقد أجريتم أحكامه، حيث فعلتم بي ما فعلتم لأجل مودّتكم لها انتصارًا منّي، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء، ٢١/٦٨].

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينقلب الأمور، ويتبدّل التوادّ تباغضًا، والتلاطفُ تلاعنًا، حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العبَدة ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن كلّ فريقٍ منكم ومِن الأوثان -حيث يُنطقها الله تعالى- الفريقَ الآخر.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه، ولا ترجعون منه أبدًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلّصونكم منها كما خلّصني ربّي مِن النار التي ألقيتموني فيها. وجمعُ "الناصر" لوقوعه في مقابلة الجمع، أي: ما لأحد منكم مِن ناصر أصلًا.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٦﴾

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: صدّقه في جميع مقالاته، لا في نبوّته وما دعا إليه مِن التوحيد فقط، فإنّه كان منزّهًا عن الكفر. وما قيل: إنّه آمَن له حين رأى النار لم تُحرقه،[5] ينبغي أن يحمل على ما ذكرنا، أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلّا هِمَم الأفراد الكُمّل. ولوط هو ابن أخته عليهما السلام.

---

[1] أي: "مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني وأبي حيوة وابن أبي عبلة والحسن وابن مِقسم والبرجمي والأصمعي عن أبي عمرو. **الكامل** للهذلي، ص ٦١٥.

[2] أي: "مَوَدَّةُ بَيْنَكُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٣٥١.

[3] قرأ بنصب النون نافع وأبو جعفر والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ برفعها باقي العشرة. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **معاني القرآن** للفرّاء، ٢/٣١٦.

[5] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٥١.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: مِن قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيث أمرني به، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، فيمنعني مِن أعدائي، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل فعلًا إلّا وفيه حكمة ومصلحة، فلا يأمرني إلّا بما فيه صلاحي. ورُوي أنّه هاجر مِن كوثى مِن سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمّه إلى حرّان، ثمّ منها إلى الشام، فنزل فلسطين، ونزل لوط سَذُومَ.[١]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حين أيِس مِن عجوز عاقر، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ / فكثر منهم الأنبياء، ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنسَ الكتاب [٢٩٧و] المتناوِلَ للكتب الأربعة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد والذرّيّة الطيّبة، واستمرارِ النبوّة فيهم، وانتماءِ أهل المِلل إليه، والثناءِ والصلاةِ عليه آخر الدهر، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب إمّا بالعطف على ﴿نُوحًا﴾،[٢] أو على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.[٣] والكلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كالذي مرّ في قصّة إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفِعلة المتناهية في القُبح. وقُرئ: "أَئِنَّكُمْ".[٤]

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئناف مقرِّر لكمال قُبحها، فإنّ إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلّا لكونها ممّا تَشمئزّ منه الطباع، وتنفِر منه النفوس.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٣/٨.

٢ العنكبوت، ١٤/٢٩.

٣ العنكبوت، ١٦/٢٩.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم، وكلٌّ على أصله في تحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرّضون للسابِلة، أي: بالفاحشة، حيث رُوي أنّهم كانوا كثيرًا ما يفعلونها بالغرباء. وقيل: تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحَرث، وإتيانِ ما ليس بحَرث. وقيل: تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ أي: تفعلون في مجلسكم الجامع لأصحابكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجِماع والضُّراط وحَلِّ الإزار وغيرِها ممّا لا خير فيه مِن الأفاعيل المنكَرة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو الخَذْفُ بالحصى، والرميُ بالبنادق، والفَرقَعةُ، ومضغُ العِلك، والسِّواكُ بين الناس، وحلُّ الأزرار،[1] والسِّبابُ، والفُحشُ في المزاح».[2] وقيل: السخريّة بمَن مرّ بهم. وقيل: المجاهَرة في ناديهم بذلك العمل.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: [٢٩٧ظ] فما كان جوابًا مِن جهتهم / شيء مِن الأشياء إلّا هذه الكلمة الشنيعة، أي: لم يصدر عنهم في هذه المرّة مِن مرّات مَواعظ لوط عليه السلام، وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب، وأمّا ما في سورة الأعراف مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٨٢/٧]، وما في سورة النمل مِن قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآيةَ [النمل، ٥٦/٢٧] فهو الذي صدر عنهم بعد هذه المرّة، وهي المرّة الأخيرة مِن مرّات المقاوَلات الجارية بينهم وبينه عليه السلام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف.[3]

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ أي: بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، وسَنِّها فيمَن بعدهم، والإصرارِ عليها، واستعجالِ العذاب بطريق الاستهزاء. وإنّما وصفَهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب عليهم.

---

١ س: الإزار.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٥٤/٨.

٣ الأعراف، ٨٢/٧.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام[1] في تضاعيف الكلام حسبما فصِّل في سورة هود[2] وسورة الحِجر.[3] ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: قرية سَذوم، فالإضافة[4] لفظيّة؛ لأنّ المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم، وتماديهم في فنون الفساد وأنواعِ المعاصي.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أرادوا أنّهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها؛ بل عمّن لم يتعرّض له إبراهيم عليه السلام مِن أتباعه المؤمنين، وأنّهم معتنون بشأنهم أتمَّ اعتناء حسبما يُفصِح عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسَم، أي: واللهِ لَنُنجينّه وأهلَه، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو القرية.

﴿وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام[5] ﴿لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ اعتراه المساءة بسببهم مخافةَ أن يتعرّض لهم قومه / بسوء. وكلمة ﴿أَن﴾ [٢٩٨و]
صلة لتأكيد ما بين الفعلين مِن الاتّصال. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاقَ بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه، أي: طاقته، كقولهم: "ضاقَت يدُه"، وبإزائه: "رَحُبَ ذَرعُه بكذا" إذا كان مُطيقًا به قادرًا عليه، وذلك أنّ طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرُ الذراع.

---

[1] م – عليه السلام.
[2] هود، ٦٩/١١.
[3] الحجر، ٦٧/١٥.
[4] ط س: والإضافة.
[5] م – عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ﴾ ريثما شاهدوا فيه مَخائل التضجّر مِن جهتهم، وعاينوا أنّه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللّتيا والتي[1] حتّى آلَت به الحال إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ٨٠/١١]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: مِن قومك علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي: على شيء، وقيل: بإهلاكنا إيّاهم، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ ممّا يصيبهم مِن العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقُرئ: "لَنُنْجِيَنَّهُ"،[2] و"مُنْجُوكَ"[3] مِن "الإنجاء"، وأيًّا ما كان فمحلّ "الكاف" الجرّ على المُختار، ونَصبُ ﴿أَهْلَكَ﴾ بإضمار فعل، أو بالعطف على محلّها باعتبار الأصل.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أشيرَ إليه بوعدِ التنجية مِن نزول العذاب عليهم. و"الرِّجز": العذاب الذي يُقلِق المعذَّب، أي: يُزعجه، مِن قولهم: "ارْتَجَزَ" إذا ارتجسَ واضطرب. وقُرئ: "مُنَزِّلُونَ" بالتشديد.[4] ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فِسقهم المستمرّ.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: مِن القرية ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةً﴾ هي قصّتها العجيبة، وآثار ديارها الخَرِبة. وقيل: الحجارة المَمطورة، فإنّها كانت باقية بعدها. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلّق إمّا بـ﴿تَّرَكْنَا﴾ أو بـ﴿بَيِّنَةً﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾

---

[1] اللّتيا والتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

[3] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

[4] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ متعلّق بمُضمَر معطوف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾[1] في قصّة نوح، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيبًا، ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه، ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي: توقّعوه / وما سيقع فيه مِن فنون الأهوال، وافعلوا اليومَ مِن الأعمال ما تأمنون غائلته. وقيل: وارجوا ثوابه، بطريق إقامة المسبَّب مُقام السبب. وقيل: الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾. [٢٩٨ظ]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة. وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١]، أي: صيحة جبريل عليه السلام، فإنّها الموجِبة للرجفة، بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها مِن الأرض، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ أي: بلدهم أو منازلهم، والإفرادُ لأمْن اللَّبس، ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بارِكين على الرُّكَب ميّتين.

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ۝٣٨﴾

﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنبِئ عنه ما قبله، أي: أهلكْنا. وقُرئ: "ثَمُودًا"[2] بتأويل الحيّ، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ أي: وقد ظهر لكم إهلاكُنا إيّاهم مِن جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهابًا إلى الشام وإيابًا منه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مِن فنون الكفر والمعاصي، ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويّ الموصل إلى الحقّ، ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ متمكّنين مِن النظر والاستدلال، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، أو متبيّنين أنّ العذاب لاحِق بهم بإخبار الرسل عليهم السلام لهم، ولكنّهم لجُّوا حتّى لَقوا ما لَقوا.

---

[1] العنكبوت، ١٤/٢٩.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على ﴿عَادٗا﴾.[1] قيل: تقديم ﴿قَٰرُونَ﴾ لشَرف نسبه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ مُفلِتين فائتين، مِن قولهم: "سبَقَ طالِبَه" إذا فاته ولم يدرِكه، ولقد أدركهم أمر الله عزّ وجلّ أيَّ إدراك، فتداركوا نحو الدمار والهلاك.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾

﴿فَكُلًّا﴾ تفسير لِما يُنبئ عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام، أي: فكلّ واحد مِن المذكورين ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: عاقبناه بجنايته -لا بعضَه دونَ بعضٍ- كما يُشعر به تقديم المفعول.

[٢٩٩و] / ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ تفصيل للأخذ، أي: ريحًا عاصفًا فيها حَصباء -وقيل: مَلِكًا-[2] رماهم بها، وهم قوم لوط، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كمَدْيَن وثمود، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ كقوم نوح وفرعونَ وقومِه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بما فعل بهم، فإنّ ذلك مُحال مِن جهته تعالى، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك مِن أنواع الكفر والمعاصي.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾

---

[1] في الآية السابقة.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٥/٤.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتّخذوه معتمِدًا ومتّكِلًا ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجَته في الوهَن والخوَر؛ بل ذلك أوْهَن مِن هذا؛ لأنّ له حقيقةً وانتفاعًا في الجملة، أو مَثَلُهم بالإضافة إلى الموحِّد كمَثَله بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا مِن حَجَر وجِصّ.

و﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ يقع على الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث، والغالبُ في الاستعمال التأنيث، و"تاؤه" كتاء "طاغوت"، ويُجمع على "عَناكِب" و"عَنكبوتاتٍ"، وأمّا "العِكاب" و"العُكْبُ" و"الأَعْكُبُ" فأسماءُ الجموع.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ حيث لا يُرَى شيء يُدانيه في الوهَن والوَهْي.[١] ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء لَجزَمُوا أنّ هذا مَثَلهم، أو أنّ دينهم أوْهَى مِن ذلك. ويجوز أن يُجعل ﴿بَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ عبارة عن دينهم تحقيقًا للتمثيل، فالمعنى: وإنّ أَوْهَن ما يُعتمد به في الدين دينُهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ[٢] مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ على إضمار القول، أي: قل للكفرة: إنّ الله... إلخ. و﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بـ﴿يَدْعُونَ﴾[٣] معلِّقةٌ لـ﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿مِن﴾ للتبيين، أو نافيةٌ، و﴿مِن﴾ مزيدة، و﴿شَيْءٍ﴾ مفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾، أو مصدريّة و﴿شَيْءٍ﴾ عبارة عن المصدر، / أو موصولة مفعول لـ﴿يَعْلَمُ﴾، ومفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ [٢٩٩ظ]
عائدُه المحذوف. وقُرئ: "تَدْعُونَ" بـ"التاء"،[٤] والكلام على الأوّلَين تجهيل لهم وتأكيد للمَثَل، وعلى الأخيرَين وعيد لهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيَين، فإنّ إشراك ما لا يُعدّ شيئًا بمَن هذا شأنه مِن فَرْط الغَباوة، وإنّ الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كلّ شيء

---

١ الوَهْيُ: الضعف. انظر: لسان العرب لابن منظور، «وهي».

٢ م: تَدْعُون. | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

٣ م: بـ"تَدْعُونَ". | وسيأتي ذكر القراءة بالتاء مِن كلام المؤلّف.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

البالغِ في العلم وإتقانِ الفعل الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البَحث، وإنّ مَن هذه صفاته قادر على مُجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ أي: هذا المَثَل وأمثالُه ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لِما بَعُدَ مِن أفهامهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ على ما هي عليه مِن الحُسن واستتباع الفوائد ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الراسخون في العلم، المتدبّرون في الأشياء على ما ينبغي. وعنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه تلا هذه فقال: «العالِم مَن عقَل عن الله تعالى،[1] وعمل بطاعته، واجتنب سخَطه».[2]

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٤﴾

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحِقًّا مراعيًا للحِكَم والمصالح، على أنّه حال مِن فاعِل ﴿خَلَقَ﴾، أو ملتبسةً بالحقّ الذي لا مَحيد عنه مستتبِعةً للمنافع الدينيّة والدنيويّة، على أنّه حال مِن مفعولِه، فإنّها مع اشتمالها على جميع ما يتعلّق به معاشهم شواهدُ دالّة على شئونه تعالى المتعلِّقة بذاته وصفاته، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دالّةً لهم ما ذُكر مِن شئونه سبحانه. وتخصيص المؤمنين بالذِّكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكلّ لأنّهم المنتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرّبًا إلى الله تعالى بقراءته، وتذكّرًا لِما في تضاعيفه مِن المعاني، وتذكيرًا للناس، وحملًا لهم على العمل بما فيه مِن الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

---

[1] م - تعالى.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٣. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٣/٣.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوِمْ على إقامتها. وحيث كانت الصلاة منتظِمةً للصلوات المكتوبة المؤدّاة بالجماعة، وكان أمره عليه السلام بإقامتها متضمِّنًا لأمر الأمّة بها؛ عُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كأنّه قيل: وصَلِّ بهم، / إنّ الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر. [٣٠٠و]

ومعنى نهيِها عنهما أنّها سبب للانتهاء عنهما؛ لأنّها مناجاة لله تعالى، فلا بدّ أن تكون مع إقبالٍ تامّ على طاعته، وإعراضٍ كلّي عن معاصيه، قال ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهم: «في الصلاة مُنتَهًى ومُزدَجر عن معاصي الله تعالى، فمَن لم يأمره صلاته بالمعروف ولم تَنْهَهُ عن المنكَر لم يَزدَد بصلاته مِن الله تعالى إلّا بُعدًا».[٢]

وقال الحسَن وقتادة: «مَن لم تَنْهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وَبال عليه».[٣]

وروى أنس رضي الله عنه: إنّ فتًى مِن الأنصار كان يصلّي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ لا يدع شيئًا مِن الفواحش إلّا ركبه، فوُصِف له عليه السلام حالُه، فقال: «إنّ صلاته ستنهاه»، فلم يلبث أن تاب وحسُن حالُه.[٤]

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولَلصلاةُ أكبر مِن سائر الطاعات، وإنّما عُبّر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة، ٩/٦٢] للإيذان بأنّ ما فيها مِن ذِكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات ناهيةً عن السيّئات. وقيل: ولَذكرُ الله تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذكرُ نهيه عنهما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزجر عنهما. وقيل: ولَذكر الله إيّاكم برحمته أكبر مِن ذِكركم إيّاه بطاعته.

---

١ س – تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ١٨/٤٠٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٨٠.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٢١؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٣٥٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٥٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٩٦. قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده». قال الولي العراقي: «لم أقف عليه». وفي مسند أحمد، ١٥/٤٨٣ (٩٧٧٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنّ فلانًا يصلّي بالليل، فإذا أصبح سرَق»، قال: «إنّه سينهاه ما تقول». انظر: الفتح السماوي للمناوي، ٢/٨٩٧.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومِن سائر الطاعات، فيجازيكم بها أحسنَ المُجازاة.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخُشونة باللين، والغضبِ بالكَظم، والمشاغبةِ بالنُّصح، والسَّورة بالأَناة؛ على وجهٍ لا يدلّ على الضعف، ولا يؤدّي إلى إعطاء الدنيّة. / وقيل: منسوخ بآية السيف.[1] [٣٠٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد، أو بإثبات الولد، وقولِهم: "يدُ الله مغلولة"،[2] ونحو ذلك، فإنّه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ مِن القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وبالذي أُنزل إليكم مِن التوراة والإنجيل، وقد مرّ تحقيق كيفيّة الإيمان بهما في خاتمة سورة البقرة.[3] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: "آمنّا بالله وبكتبه ورسله"، فإن قالوا باطلًا لم تصدّقوهم، وإن قالوا حقًّا لم تكذّبوهم».[4]

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له في الألوهيّة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون خاصّةً. وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا مِن دون الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

[1] آية السيف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة، ٥/٩].

[2] قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ الآية [المائدة، ٦٤/٥].

[3] البقرة، ٢٨٥/٢.

[4] مسند أحمد، ٤٦٠/٢٨ (١٧٢٢٥)؛ سنن أبي داود، ٤٨٧/٥ (٣٦٤٤). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٢٠/٦ (٤٤٨٥) بلفظ: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية [البقرة، ١٣٦/٢]».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه في الفضل، أي: مِثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن الذي مِن جملته هذه الآية الناطقة بما ذُكر مِن المجادلة بالحسنى.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن الطائفتين ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أُريدَ بهم عبد الله بن سلام وأضرابُه مِن أهل الكتابَين خاصّة، كأنّ مَن عداهم لم يُؤتَوا الكتابَ حيث لم يعملوا بما فيه، أو مَن تقدّم عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم منهم حيث كانوا مصدّقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابَيهما. وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأنّ مَن بعدهم مِن معاصري رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد نُزِع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يُؤتَوه. و"الفاء" / لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ [٣٠١و]
إيمانهم به مترتّب على إنزاله على الوجه المذكور.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: ومِن العرب، أو أهلِ مكّة على الأوّل، أو ممّن في عصره عليه السلام على الثاني، ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عُبّر عن الكتاب بـ"الآيات" للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها، وعلى كونها مِن عند الله تعالى. وأضيفت إلى "نون" العظمة لمزيد تفخيمها، وغاية تشنيع مَن يجحد بها، ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغِلون في الكفر المصمِّمون عليه، فإنّ ذلك يصدّهم عن التأمّل فيما يؤدّيهم إلى معرفة حقّيتها. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ما كنتَ قبل إنزالنا إليك الكتاب تَقدِر على أن تتلوَ شيئًا ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تقدر على أن تخطّه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حسبما هو المعتاد، أو ما كانت عادتك أن تتلوَه، ولا أن تخطّه.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممّن يقدر على التلاوةِ والخطّ، أو ممّن يعتادهما لارتابوا وقالوا: لعلّه التقطه مِن كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك

لم يبقَ في شأنك منشأ ريبٍ أصلًا. وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتِّباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه السلام عن ذلك.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتة راسخة ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن غير أن يُلتقَط مِن كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتجاوِزون للحدود في الشرّ والمُكابرة والفساد.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

[٣٠١ظ] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ / ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام. وقُرئ: "آيةٌ".[١]

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزّلها حسبما يشاء مِن غير دخل لأحد في ذلك قطعًا، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس مِن شأني إلّا الإنذار بما أُوتِيتُ مِن الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلام مستأنَف وارد مِن جهته تعالى ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَصُرَ ولم يكفهم آيةٌ مغنيةٌ عن سائر الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقّ المصدِّقَ لِما بين يديه مِن الكتب السماويّة، وأنت بمَعزِل مِن مدارستها وممارستها؟

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في كلّ زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحلّ كما تزول كلّ آية بعد كونها، ويكون في مكان دون مكان، أو يتلى على اليهود بتحقيق ما في أيديهم مِن نَعتك ونَعت دينك.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتابِ العظيمِ الشأنِ الباقي على مرّ الدهور ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمةً ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لقوم همُّهم الإيمانُ، لا التعنّتُ كأولئك المقترِحين.

وقيل: إنّ ناسًا مِن المؤمنين أتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكتفٍ فيها بعض ما يقوله اليهود، فقال: «كفى بها ضلالةَ قومٍ أن يرغبوا عمّا جاء به نبيّهم إلى ما جاء به غير نبيّهم» فنزلت.[1]

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بما صدر عنّي وعنكم، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مِن الأمور التي مِن جملتها شأني وشأنكم، فهو تقرير لِما قبله مِن كفايته تعالى شهيدًا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا / بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يُعبَدُ مِن دون الله تعالى ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [٣٠٢و]
مع تعاضد موجِبات الإيمان به ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صَفقتهم، حيث اشترَوا الكفر بالإيمان بأن ضيّعوا الفطرة الأصليّة والأدلّة السمعيّة الموجبة للإيمان. والآية مِن قَبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يُصرَّح بنسبة الإيمان بالباطل والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم؛ بل ذُكر على منهاج الإبهام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، ٢٤/٣٤].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على طريقة الاستهزاء بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، وقولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ[2] عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ونحوِ ذلك.

---

[1] المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٧/٤.

[2] م ط س: أمطر.

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبيّنه في اللوح ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به. قيل: المراد بـ"الأجل" يوم القيامة، لِما رُوي أنّه تعالى وعَد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن لا يعذِّب قومَه بعذاب الاستئصال، وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة.[١] وقيل: يوم بدر. وقيل: وقتَ فَنائهم بآجالهم،[٢] وفيه بُعدٌ ظاهر، لِما أنّهم ما كانوا يوعَدون بفنائهم الطبيعي، ولا كانوا يستعجلون به.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أشيرَ إليه في الجملة السابقة مِن مجيء العذاب عند محلّ الأجل، أي: وبالله ليأتينّهم العذاب الذي عُيِّن لهم عند حلول الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً[٣] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بإتيانه، ولعلّ المرادَ بإتيانه كذلك أنّه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابةِ إلى مسئولهم، فإنّ ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورهم، لا أنّه يأتيهم وهم غارّون آمنون لا يُخطِرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض / الأمم بياتًا وهم [٣٠٢ظ] نائمون، أو ضحًى وهم يلعبون، لِما أنّ إتيان عذاب الآخرة وعذابِ يوم بدرٍ ليس مِن هذا القَبيل.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ استئناف مَسوق لغاية تجهيلهم ورَكاكة رأيهم. وفيه دلالة على أنّ ما استعجلوه عذابُ الآخرة، أي: يستعجلونك بالعذاب، والحال أنّ محلّ العذاب الذي لا عذابَ فوقَه محيط بهم، كأنّه قيل: يستعجلونك بالعذاب، وإنّ العذاب لمحيط بهم، أي: سيحيط بهم. وإنّما جِيء بالجملة الاسميّة دَلالةً على تحقّق الإحاطة واستمرارها،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣. قال الزيلعي: غريب، ويخالفه ما رواه الحاكم في كتابه المستدرك في الفتن [٢٨٣/٤ (٧٦٤٩)] مِن حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن موسى قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ أمّتي أمّة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، إنّما عذابها في الدنيا الزلازل والقتل والبلاء» انتهى. وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه. تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٩/٣.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٣.

٣ ط س: فَجأة.

أو تنزيلًا لحال السبب منزلة حال المسبَّب، فإنّ الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول جهنّم محيطة بهم.

وقيل: إنّ الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة، لكنّها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، وقد مرّ تفصيله في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]. و"لام" ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمّا للعهد، ووضعُ الظاهر موضعَ المُضمَر للإشعار بعلّة الحكم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمُضمَر قد طُوِي ذِكره إيذانًا بغاية كثرته وفظاعته،[١] كأنّه قيل: يومَ يغشاهم العذاب الذي أُشِير إليه بإحاطة جهنّم بهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يَفي به المقال. وقيل: ظرف للإحاطة. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: مِن جميع جهاتهم، ﴿وَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، ويعضُده القراءة بـ"نون" العظَمة،[٢] أو بعضُ ملائكته بأمره: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن السيّئات التي مِن جملتها الاستعجال بالعذاب.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكّنون مِن إقامة أمور الدين كما ينبغي لممانعةٍ مِن جهة الكفرة، وإرشادٌ لهم إلى الطريق الأسلم، ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ / فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: إذا لم يتسهّل لكم العبادة في [٣٠٣و]
بلد، ولم يتيسّر لكم إظهارُ دينكم، فهاجروا إلى حيث يتسنّى لكم ذلك.

وعنه عليه السلام: «من فرّ بدينه مِن أرض إلى أرض -ولو كان شِبرًا- استوجب الجنّةَ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمّد عليهما السلام».[٣]

---

١ س: وفضاعته.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٣.

و"الفاء" جواب شرط محذوف، إذ المعنى: إنّ أرضي واسعة، إن لم تُخلصوا العبادة لي في أرض، فأخلصوها في غيرها، ثمّ حُذف الشرط، وعُوّض عنه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثًّا على المسارعة في الامتثال بالأمر، أي: كلّ نفس مِن النفوس واجِدةٌ مرارةَ الموت وكُرَبَه، فراجعةٌ إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها، فمَن كانت هذه عاقبته فليس له بدٌّ مِن التزوّد والاستعداد لها. وقُرئ: "يُرْجَعُونَ".[١]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ . لنُنْزِلنّهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علاليَ، وهو مفعول ثانٍ للتبوئة. وقُرئ: "لَنُثْوِيَنَّهُمْ"[٢] مِن "الثَّواء" بمعنى "الإقامة"، فانتصاب ﴿غُرَفًا﴾ حينئذ إمّا بإجرائه مُجرى "لَنُنْزِلَنّهم"، أو بنَزعِ الخافض، أو بتشبيه الظرف المُوقّت بالمُبهم كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ٧/١٦].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿غُرَفًا﴾، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغُرَف، أو في الجنّة. ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: الأعمالُ الصالحة. والمخصوص بالمدح محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه. وقُرئ: "فَنِعْمَ".[٣]

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إمّا صفة لـ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أو نصب على المدح، أي: صبروا على أذيّة المشركين، وشدائدِ المهاجَرة، / وغيرِ ذلك مِن المِحَن والمَشاقّ، [٣٠٣ظ]
﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي:[٤] ولم يتوكّلوا فيما يأتون ويذرون إلّا على الله تعالى.

---

[١] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٢.

[٤] س - أي.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أمر المؤمنين الذين كانوا بمكّة بالمهاجَرة إلى المدينة قالوا: «كيف نَقدَمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشة؟» فنزلت.[١] أي: وكم مِن دابّة لا تطيق حمل رزقها لضعفها، أو لا تدّخره، وإنّما تُصبح ولا معيشةَ عندها.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ ثمّ إنّها مع ضعفها وتوكّلها وإيّاكم مع قوّتكم واجتهادكم سواءٌ في أنّه لا يرزقها وإيّاكم إلّا الله تعالى؛ لأنّ رِزق الكلّ بأسباب هو المسبِّب لها وحدَه، فلا تخافوا الفقر بالمهاجَرة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي: أهلَ مكّةَ: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردّد فيه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد مِن جهته تعالى لتركهم العملَ بموجَبه، أي: فكيف يُصرفون عن الإقرار بتفرّده تعالى في الإلهيّة مع إقرارهم بتفرّده تعالى فيما ذُكر مِن الخلق والتسخير.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: يَقدِر لِمَن يشاء أن يَقدِر له منهم كائنًا مَن كان، على أنّ الضمير مبهَم حسب إبهام مَرجعه، أو يَقدِر لِمَن يبسطه له على التعاقب.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٨/٤. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم مَن يليق ببسط الرزق فيبسطه له، ومَن يليق بقَدْره له فيَقدِره له، أو فيعلم أنّ كلًّا مِن البسط والقَدْر في أيّ وقت يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلًّا منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ[١] بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفين بأنّه الموجِد للممكنات بأسرها، أصولِها وفروعِها، ثمّ إنّهم يشركون به بعضَ مخلوقاته / الذي لا يكاد يُتوهّم منه القدرة على شيء ما أصلًا. [٣٠٤و]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعَل الحقّ بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده، وأنّه أظهرَ حجّتَك عليهم. وقيل: على أن عصَمك مِن أمثال هذه الضلالات،[٢] ولا يخفى بُعده.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا، فيشركون به سبحانه أخسَّ مخلوقاته. وقيل: لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقير وازدراء للدنيا، وكيف لا، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافر منها شِربةَ ماء».[٣] ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: إلّا كما يُلهَى ويُلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثمّ يتفرّقون عنه.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهِي دار الحياة الحقيقيّة، لامتناع طَريان الموت والفناء عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة. و﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ مصدر "حَيِيَ"، سمّي به ذو الحياة، وأصله "حَيَيان"، فقُلبت "الياء" الثانية "واوًا"، لِما في بناء "فَعَلان"

---

١ م ط س - مِن.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٩/٤.

٣ سنن الترمذي، ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤١/٤ (٧٨٤٧).

مِن معنى الحركة والاضطراب اللازم للحَيَوان، ولذلك اختير على "الحياة" في هذا المقام المقتضي للمبالغة.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة، ثمّ ما يحدث فيها مِن الحياة عارضة سريعة الزوال، وَشِيكة الاضمحلال.

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متّصل بما دلّ عليه شرحُ حالِهم. و"الركوب" هو الاستعلاء على الشيء المتحرّك، وهو متعدٍّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل، ١٦/٨]. واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة ﴿فِى﴾ للإيذان بأنّ المركوب في نفسه مِن قَبيل الأمكنة، وحرَكتَه قسريّة غير إراديّة كما مرّ في سورة هود.[1]

والمعنى: / أنّهم على ما وُصِفوا مِن الإشراك، فإذا ركبوا في البحر ولَقوا شدّةً ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: كائنين على صورة المخلِصين لدينهم مِن المؤمنين، حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنّه لا يكشف الشدائد عنهم إلّا هو، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجَئوا المعاوَدة إلى الشرك. [٣٠٤ظ]

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: يفاجِئون الإشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم مِن نعمة الإنجاءِ التي حقّها أن يَشكروها، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ ذلك وغائلته حين يرون العذاب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: بلدَهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مَصونًا عن النّهب والتعدّي، سالِمًا أهلُه مِن كلّ سوء، ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾

---

[1] هود، ١١/٤١.

أي: والحال أنّهم يُختَلَسُون مِن حولهم قتلًا وسَبيًا؛ إذ كانت العرب حوله في تغاوُرٍ وتناهُب.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أَبَعْدَ ظهور الحقّ الذي لا ريبَ فيه بالباطل خاصّةً يؤمنون دون الحقّ؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجِبة للشكر، حيث يشركون به غيرَه؟ وتقديم الصلة في الموضعين لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعَم أنّ له شريكًا، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم دالًّا على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي: بالرسولِ أو بالقرآن، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوقّفوا ولم يتأمّلوا حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب آثِرَ ذِي أثيرٍ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير لثَوائهم فيها، كقول مَن قال:

ألستم خيرَ مَن ركِب المَطايا[1]

[٣٠٥و] / أي: ألا يستوجبون الثّواء فيها، وقد فعلوا ما فعلوا مِن الافتراء على الله تعالى، والتكذيبِ بالحقّ الصريح؟ أو إنكارٌ واستبعاد لاجترائهم على ما ذُكر مِن الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة، أي: ألم يعلموا أنّ في جهنّم مثوًى للكافرين حتّى اجترَءوا هذه الجرأة؟

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: في شأننا ولوجهنا خالصًا. أطلق المجاهدة ليعمّ جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سُبُلَ السير إلينا، والوصولِ

---

[1] تمامه:
وأنـدَى العالمين بُطونَ راحِ
لجرير في ديوانه، ٨٩/١.

إلى جنابنا، أو لَنَزيدنّهم هداية إلى سُبل الخير، وتوفيقًا لسلوكها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وفي الحديث: «مَن عمل بما عَلِم ورّثه الله علمَ ما لم يعلم».[١]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معيّةَ النصرة والمعونة.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة العنكبوت كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ المؤمنين والمنافقين».[٢]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/٤. وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١٥/١٠، وضعّفه.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٩/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٩

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مكية، وهي تسع وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُترَكُوا أن يَقُولُوا﴾ أي: بقولهم: ﴿آمَنَّا. وهُم لا يُفتَنُونَ﴾: يُختبَرُون بما يتبيّن به حقيقة إيمانهم ـ نزل في جماعة آمنوا، فآذاهم المشركون ـ ٣ ـ ﴿ولَقَد فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ فلَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم عِلمَ مُشاهدة، ﴿ولَيَعلَمَنَّ الكاذِبِينَ﴾ فيه. ٤ ـ ﴿أم حَسِبَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾: الشِّركَ والمعاصيَ ﴿أن يَسبِقُونا﴾: يفوتونا فلا ننتقمَ منهم؟ ﴿ساءَ﴾: بئسَ ﴿ما﴾: الذي ﴿يَحكُمُونَـ﴾ ـهُ حُكمُهم هذا!

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

وقولُه: (﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾) أي: على عافيَةٍ وفراغٍ، ولمَّا كانَ صِلَةً مشتملَةً على مُسْنَدٍ ومُسْنَدٍ إليه سدَّ مسَدَّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾، وهذا هو الأظهرُ.

قولُه: (بِقَولِهِم) أو: لقولِهِم.

قولُه: (يُختبَرُونَ) بل يمتحِنُهُم اللهُ بمشاقِّ التَّكاليفِ وأنواعِ المصائبِ؛ ليتميَّزَ الثَّابتُ من المضطرِبِ، ولِيَنالوا بالصَّبرِ عليها عواليَ الدَّرَجاتِ.

قولُه: (فَآذَاهُم) بالمدِّ، ومنهُم عمَّارُ بنُ ياسِرٍ[1].

قولُه: (عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ) كما عَلِمَ عِلْمَ غَيبٍ، وقيل: وليُمَيِّزَنَّ، أو: ليُجازيَنَّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢) عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

٥ ـ ﴿مَن كانَ يَرجُو﴾: يخافُ ﴿لِقاءَ اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ﴾ به ﴿لَآتٍ﴾، فلْيستعدَّ له، ﴿وهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العِباد ﴿العَلِيمُ﴾ بأفعالهم، ٦ ـ ﴿ومَن جاهَدَ﴾ جِهادَ حرب أو نفس ﴿فإنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنَّ منفعة جِهاده له لا للهِ. ﴿إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ﴾: الإنسِ والجِنّ والملائكة وعن عِبادتهم. ٧ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنهُم سَيِّئاتِهِم﴾ بعمل الصالحات، ﴿ولَنَجزِيَنَّهُم أحسَنَ﴾، بمعنى: حَسَنَ ـ ونصبُه بنزع الخافض: الباء ـ ﴿الَّذِي كانُوا يَعمَلُونَ﴾، وهو الصالحات.

٨ ـ ﴿ووَصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حُسنًا﴾ أي: إيصاءً ذا حُسن بأن يَبَرَّهما. ﴿وإن جاهَداكَ، لِتُشرِكَ بِي ما لَيسَ لَكَ بِهِ﴾: بإشراكه ﴿عِلمٌ﴾ ـ مُوافقةً للواقع فلا مفهومَ له ـ ﴿فلا تُطِعْهُما﴾ في الإشراك. ﴿إلَيَّ مَرجِعُكُم، فأُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فأُجازيكم به. ٩ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدخِلَنَّهُم في الصَّالِحِينَ﴾: الأنبياءِ والأولياءِ بأن نحشرهم معهم.

١٠ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يَقُولُ: آمَنّا بِاللهِ. فإذا أُوذِيَ في اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ﴾ أي: أذاهم له ﴿كَعَذابِ اللهِ﴾ في الخوف منه، ....

قولُه: (يَخَافُ) أي: الوصولَ إلى العاقبةِ مِن الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ، أو: يأمُلُ لقاءَهُ في الجنَّةِ، أو الوصولَ إلى ثوابِهِ.

قولُه: (بِهِ) أي: الوقتِ المضروبِ للقائِه.

قولُه: (بأَفعَالِهِم) وعقائِدِهم ونيَّاتِهم.

قولُه: (عَن عِبَادَتِهِم) وإنَّما كلَّفَهُم رحمةً عليهم ومُراعاةً لصلاحِهِم.

قولُه: (بعَمَلِ الصَّالِحَاتِ) الكُفرَ بالإيمانِ، والمعاصيَ بما يتبعُها من الطَّاعاتِ.

قولُه: (بِمَعنَى: حَسَنَ) أو: أحسنَ جزاءَ أعمالِهم.

قولُه: (بِإِشْرَاكِهِ) أو بإلهيَّتِهِ.

قولُه: (مُوَافَقَةً) أو كنايةً عمَّا ليسَ له وجودٌ، عبَّرَ عن نفيِها بنفيِ العِلمِ.

قولُه: (فِي الإِشْرَاكِ) وقد وردَ: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالِقِ»[1].

قولُه: (بِأَنْ نَحشُرَهُم) أو: في مُدخَلِهِم، وهو الجنَّةُ.

قولُه: (أَذَاهُم لَهُ) في الصَّرفِ عن الإيمانِ.

قولُه: (فِي الخَوْفِ) والصَّرفِ عنِ الكفرِ.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأحمد في «مسنده» (١٠٩٥) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، واللفظ لأحمد.

فيطيعهم فينافق. ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿جاءَ نَصرٌ﴾ للمؤمنين ﴿مِن رَبِّكَ﴾ فغنموا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، حُذفت منه نونُ الرفع لتوالي النونات، والواوُ ضمير الجمع لالتقاء الساكنين: ﴿إنّا كُنّا مَعَكُم﴾ في الإيمان. فأشركونا في الغنيمة. قال تعالى: ﴿أوَلَيسَ اللهُ بِأعلَمَ﴾ أي: بعالمٍ ﴿بِما في صُدُورِ العالَمِينَ﴾: قلوبِهم من الإيمان والنفاق؟ بلى. ١١ ـ ﴿ولَيَعلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، ﴿ولَيَعلَمَنَّ المُنافِقِينَ﴾ فيجازي الفريقين. واللام في الفعلين: لام قسم.

١٢ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: اتَّبِعُوا سَبِيلَنا﴾: طريقنا في ديننا، ﴿ولْنَحمِلْ خَطاياكُم﴾ في اتباعنا، إن كانت. والأمرُ بمعنى الخبر. قال تعالى: ﴿وما هُم بِحامِلِينَ مِن خَطاياهُم مِن شَيءٍ ـ إنَّهُم لَكاذِبُونَ﴾ في ذلك ـ ١٣ ـ ﴿ولَيَحمِلُنَّ أثقالَهُم﴾: أوزارهم ﴿وأثقالاً مَعَ أثقالِهِم﴾ بقولهم للمؤمنين «اتَّبِعوا سبيلَنا» وإضلالِهم مُقلِّديهم. ﴿ولَيُسألُنَّ يَومَ القِيامَةِ عَمّا كانُوا يَفتَرُونَ﴾: يكذبون على الله سُؤالَ توبيخ. واللام في الفعلين: لام قسم، وحُذفَ فاعلهما الواو ونون الرفع.

١٤ ـ ﴿ولَقَد أرسَلنا نُوحًا إلى قَومِهِ﴾، وعمرُه أربعون سنة أو أكثر، ﴿فلَبِثَ فِيهِم ألفَ سَنَةٍ إلّا خَمسِينَ عامًا﴾، يدعوهم إلى توحيد الله فكذَّبوه، ﴿فأخَذَهُم الطُّوفانُ﴾..........................

قوله: (فغنموا) الغنيمةُ تستلزمُ[1] النصر.

قوله: (في الإيمان) الظاهرُ: في الدين.

قوله: (بعالم) بل هو على بابه.

قوله: (من الإيمان) والأظهرُ: الإخلاص.

قوله: (طريقنا) الذي نسلكُه.

قوله: (إن كانت) خطيئةٌ، أو مؤاخذةٌ، أو قيامةٌ، قيل: قائلُ ذلك الوليدُ بنُ المغيرة[2].

قوله: (في ذلك) الحمل، و﴿من﴾ الأولى للتبيين، والثانيةُ مزيدة[3]، والتقدير: وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم.

قوله: (أوزارهم) أي: ما اكتسبته أنفسهم.

قوله: (ونون الرفع) ما أكثر اهتمام الشيخ بهذا! وهو غير محتاج إليه في علم التفسير، وإنما هو من أوائل علم الصرف الذي هو من جملة آلات هذا العلم.

(١) في (د): «تلازم».

(٢) انظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (٩/ ٥٦٠٦)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ٣٠٩).

(٣) أي قوله: ﴿من شيء﴾.

أي: الماء الكثير، طاف بهم وعلاهم فغرقوا، ﴿وهُم ظالِمُونَ﴾: مُشركون، ١٥ ـ ﴿فأنجَيناهُ﴾ أي: نُوحًا ﴿وأصحابَ السَّفِينةِ﴾ أي: الذين كانوا معه فيها، ﴿وجَعَلْناها آيةً﴾: عِبرة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: لِمن بعدهم من الناس، إن عصَوا رسولهم. وعاش نُوح بعد الطوفان ستّين سنة أو أكثر حتّى كثُر الناسُ.

١٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إبراهِيمَ، إذ قالَ لِقَومِهِ: اعبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ﴾: خافوا عقابه. ﴿ذٰلِكُم خَيرٌ لَكُم﴾ ممّا أنتم عليه من عِبادة الأصنام، ﴿إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ الخيرَ من غيره. ١٧ ـ ﴿إنَّما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه ﴿أوثانًا، وتَخلُقُونَ إفكًا﴾: تقولون كذبًا: «إنّ الأوثان شُركاءُ لله». ﴿إنَّ الَّذِينَ تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُونَ لَكُم رِزقًا﴾: لا يقدرون أن يرزقوكم. ﴿فابتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزقَ﴾: اطلبوه منه، ﴿واعبُدُوهُ واشكُرُوا لَهُ. إلَيهِ تُرجَعُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿وإن تُكَذِّبُوا﴾ أي: تُكذّبوني ـ يا أهل مكّة ـ ﴿فقَد كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبلِكُم﴾ مَن قبلي،.......

قولُه: (أي: المَاءُ) أي: طوفانُ الماءِ، وهو لِمَا طافَ بكثْرَةٍ من سَيْلٍ، أو ظلامٍ، أو ريحٍ.

قولُه: (عِبرَةً) أي: السَّفينةَ، أو الحادثةَ.

قولُه: (إنْ عَصَوا) أي: النَّاسُ.

قولُه: (اذكُرْ) أو عطفٌ على: ﴿نوحاً﴾.

قولُه: (مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ) الأظهرُ: من تَركِ عبادتِهِ وتقواهُ.

قولُه: (مِنْ غَيرِهِ) وهو الشَّرُّ، أو: ضدُّ الأفضلِ.

قولُه: (تَقولُونَ كَذِباً) أو: تَكْذِبونَ كذباً، والأظهرُ: تَفتَرُونَ كَذِباً، من خَلَقَ بمعنى: اخْتَلَقَ، وقيلَ: تعمَلونَها وتنحتونَها للإفْكِ.

قولُه: (أنْ يَرْزُقَكُم) فالرِّزقُ مصدرٌ، ويحتمِلُ: المرزوقَ.

قولُه: (أي: اطلُبُوْهُ) كلَّهُ، فإنَّهُ المالِكُ له، قالَ سهلٌ: اطلبوا الرِّزقَ بالتَّوكُّلِ، فإنَّ طَلَبَ الرِّزقِ مِن الكسْبِ سبيلُ العوامِّ[1].

قولُه: (تُكَذِّبُوني) فلا يضرُّني تكذيبُكُم.

قولُه: (مَنْ قَبلِي)[2] فلم يضرُّهم تكذيبُهُم.

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢٠). وليس مراده ترك الكسب، بل أن يكون مع الكسب التوكل على الله لا على السبب الذي هو الكسب.

(٢) أي: من الرسل.

﴿وما عَلَى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغُ المُبِينُ﴾: الإبلاغ البيِّنُ. في هاتين القصتين تسلية للنبيّ. وقال تعالى في قومه: ١٩ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾، بالياء والتاء: ينظروا: ﴿كَيفَ يُبدِئُ اللهُ الخَلقَ﴾ ـ بضمّ أوله، وقُرئ بفتحه من: بَدأَ وأبدأ بمعنًى ـ أي: يخلقُهم ابتداءً؟ ﴿ثُمَّ﴾ هو ﴿يُعِيدُهُ﴾ أي: الخلقَ كما بدأه. ﴿إنَّ ذلِكَ﴾ المذكورَ من الخلق الأوّل والثاني ﴿علَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. فكيف يُنكرون الثاني؟

٢٠ ـ ﴿قُلْ: سِيرُوا في الأرضِ، فانظُرُوا: كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ﴾ لِمن كان قبلكم وأماتهم؟ ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشاءَةَ الآخِرَةَ﴾، مدًّا،..

قولُه: (الإِبْلَاغُ) أي: التَّبليغُ المبينُ الَّذي يَزولُ معه الشَّكُّ، وما عليه أن يُصدِّقَ أو يُكذِّبَ.

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ لحمزةَ والكسائيِّ وأبي بكرٍ[1] على تقديرِ: قُلْ، أو: قالَ لهم رَسولُهُم.

قولُه: (هُوَ) لا وجهَ لتقديرِه[2].

قولُه: (وقُرِئَ) شاذًّا (بِفَتْحِهِ) أي: بفتحِ الياءِ أو فتحِ الدَّالِ[3].

قولُه: (بِمَعْنًى) واحِدٍ.

قولُه: (ابتِدَاءً) مِن مادَّةٍ وغَيرِها.

قولُه: (هُوَ) مُشعِرٌ بأنَّ ما بعدَهُ عطفٌ على: ﴿يُبْدِئُ﴾، ومنعَهُ القاضي بأنَّ الرُّؤيةَ ولو عِلْميَّةً غيرُ واقعةٍ عليه، بل معطوفٌ على: ﴿أَوَلَمْ يَرَوا﴾[4]، وكانَ يمكنُ حَمْلُ كلامِ المصنِّفِ عليه لولا تقديرُهُ: «هو» أوَّلًا[5].

قولُه: (مَدًّا) يعني: مع فتحِ الشِّينِ للمكِّيِّ والبصريِّ[6].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٨).

(٢) وليس في النسخ المعتمدة في المتن، ولم يظهر لي مكانه، ولعله مقحم من الناسخ في نسخ الشارح.

(٣) أي: (يَبْدَأ). انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١١٦) عن للزهري.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٩١). وسبقه إلى هذا الزمخشري في «الكشاف»، فتعقبه الطيبي بقول صاحب «المطلع»: وإن جعلتَ الرُّؤيةَ بمعنى العِلْمِ لِتَمكُّنِهم من تَحصيله بالبحث عن دلائله والاستدلالِ بها، فلا حاجةَ إلى هذا التَّكلفِ في التَّفصِّي عن عُهدة العَطفِ.

وبقول صاحب «الانتصاف» أيضًا: ولقائلٍ أن يقول: وإنْ لم تقعِ الرُّؤيةُ عليه إلاّ أنّها إخبار الله وهي كالماتيِّ به، فعُومِلَت معاملةَ المأتيِّ به. انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٥٥)، و«الانتصاف» (٣/ ٤٤٨)، وعبارة «الانتصاف»: ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعوملت معاملة ما رئي وشوهد إلا أنَّ جَعْله خبراً ثانيا أوضح.

(٥) وقد ذكرنا أنه لا وجود لـ(هو) أولًا في نسخنا من المتن، وعليه فيمكن حمل الكلام على ما عدَّه الشارح ممتنعاً.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٨).

وقصرًا مع سكون الشين. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه البدءُ والإعادة، ٢١ ـ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ تعذيبَه، ﴿وَيَرحَمُ مَن يَشاءُ﴾ رحمتَه، ﴿وإلَيهِ تُقلَبُونَ﴾: تُردّون، ٢٢ ـ ﴿وما أنتُم بِمُعجِزِينَ﴾ ربّكم عن إدراككم ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾ ـ لو كنتم فيها، أي: لا تفوتونه ـ ﴿وما لَكُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يمنعكم منه ﴿ولا نَصِيرٍ﴾: ينصركم من عذابه. ٢٣ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ ولِقائِهِ﴾ أي: القُرآنِ والبعث ﴿أُولئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمتِي﴾ أي: جنّتي، ﴿وأُولئِكَ لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم.

قال تعالى في قصة إبراهيم: ٢٤ ـ ﴿فما كانَ جَوابَ قَومِهِ إلاّ أن قالُوا: اقتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ. فأنجاهُ اللهُ مِنَ النّارِ﴾ التي قذفوه فيها بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ أي: إنجائه منها ﴿لَآياتٍ﴾ هي عدمُ تأثيرها فيه مع عِظَمِها، وإخمادُها وإنشاءُ روض مكانها في زمنٍ يسير، ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾: يصدّقون بتوحيد الله وقُدرته لأنهم المنتفعون بها.

قولُه: (فِيهَا) أي: السَّماءِ.

قولُه: (أي: لا تَفُوتُونَهُ) إن فرَرتُم من قضائِهِ بالتَّواري في الأرضِ أو التَّحصُّنِ في السَّماءِ.

وقيل: ولا مَن في السَّماءِ؛ كقولِ حسَّانَ:

أَمَـنْ يَهْجُـو رَسُـوْلَ اللهِ مِنْكُم ... وَيَمْدَحُـهُ وَيَنْصُـرُهُ سَـوَاءُ[1]

ويُقدَّرُ: مَن؛ لأنَّ مَن يمدحُ غيرُ مَن يهجو، فلا بُدَّ من تكرارِ الموصولِ.

قولُه: (مِنْ عَذَابِهِ) أي: بلاءٍ يظهَرُ من الأرضِ، أو ينزلُ من السَّماءِ.

قولُه: (أي: القُرآنِ) أو: بدلائلِ وَحدانيَّتِهِ، أو: بكُتُبِهِ.

قولُه: (والبَعْثِ) تفسيرُ اللِّقاءِ.

قولُه: (أي: جَنَّتِي) لإنكارِهِم البَعْثَ، أو: يَئسوا من رحمَتِي يومَ القيامةِ، فعبَّرَ عنه بالماضِي للتَّحقيقِ والمبالغةِ.

قولُه تعالى: (﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾) أي: قالَ بعضُهم، حتَّى لا يلزمَ اتِّحادُ الآمرِ والمأمورِ، لكنْ لمَّا قيلَ في ما بينهُم أو رَضيَ به الباقونَ أسندَ إلى كلِّهِم، كذا قيل، وخطرَ ببالي أنَّه مبالغةٌ كأنَّ كلَّ واحدٍ آمرٌ ومأمورٌ مع إمكانِ الوقوعِ، و﴿أو﴾ للتَّنويعِ، أو بمعنَى: بل.

قولُه: (فِي زَمَنٍ) قَيدٌ للأخيرينِ.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص: ٢٠).

٢٥ ـ ﴿وقالَ﴾ إبراهيم: ﴿إِنَّ ما اتَّخَذتُم مِن دُونِ اللهِ أوثانًا﴾ تعبدونها ـ وما: مصدريّة ـ ﴿مَوَدَّةُ بَيْنِكُم﴾: خبرُ «إنّ»، وعلى قراءة النصب مفعول له وما: كافّة. المعنى: تواددتم على عِبادتها، ﴿في الحَياةِ الدُّنيا، ثُمَّ يَومَ القِيامةِ يَكفُرُ بَعضُكُم بِبَعضٍ﴾: يتبرّأ القادةُ من الأتباع، ﴿ويَلعَنُ بَعضُكُم بَعضًا﴾: يلعن الأتباعُ القادةَ، ﴿ومأواكُمُ﴾: مصيركم جميعًا ﴿النّارُ، ومالَكُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانعين منها.

٢٦ ـ ﴿فآمَنَ لَهُ﴾: صدّقَ بإبراهيمَ ﴿لُوطٌ﴾ وهو ابن أخيه هارانَ، ﴿وقالَ﴾ إبراهيم: ﴿إنِّي مُهاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إلَى رَبِّيَ﴾ أي: إلى حيثُ أمرني ربّي. وهجرَ قومه وهاجر من سواد العِراق إلى الشام. ﴿إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في خلقه. ٢٧ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ﴾ بعد إسماعيلَ ﴿إسحاقَ ويَعقُوبَ﴾ بعد إسحاقَ، ﴿وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ ـ فكلُّ الأنبياء بعد إبراهيم من ذُرّيّته ـ ﴿والكِتابَ﴾..........

قولُه: (خَبَرُ ﴿إنَّ﴾) أو: خبرُ مبتَدأ محذوفٍ ـ أي: هي مودودَةٌ، أو سببُ مودَّةِ بينِكُم ـ والجملةُ صفةُ ﴿أوثانا﴾ و﴿ما﴾ كافَّةٌ.

قولُه: (قِرَاءَةِ النَّصْبِ) منوَّنةً مع نَصبِ (بينكُم) نافعٌ وشاميٌّ وشعبةُ، وغيرَ منوَّنةٍ معَ خفضِهِ: حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) أي: لتتوادُّوا بينكم وتتواصَلوا؛ لاجتماعِكُم على عبادَتِها.

قولُه: (المَعْنَى) أي: حاصِلُهُ.

قولُه: (صَدَّقَ) هو أوَّلُ مَن آمنَ به.

قولُه: (ابنُ أَخِيهِ) بالتَّحتانيَّتينِ، وأمَّا ضبطُهُ في البيضاويِّ بالفوقانيَّتينِ[2]، فتصحيفٌ؛ لِمَا تقدَّمَ منهُ في الأعرافِ: أنَّ إبراهيمَ كان عمَّ لوطٍ عليهما السلام[3].

قولُه: (بعدَ إِسْحاقَ) فيه: أنَّ يعقوبَ هو ابنُ إسحاقَ، وبَعديَّتُه ضروريَّةٌ.

---

(١) وتفصيل القول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (مودةُ) بالرفع من غير تنوين، مع خفض ﴿بينِكم﴾، وقرأ حفص وحمزة بالنصب من غير تنوين، مع خفض ﴿بينِكم﴾، وقرأ الباقون: (مودةً) بالنصب والتنوين، و(بينكم) بالفتح، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٧٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٦٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» طبعة دار اللباب (١٠/ ٨٨). قال الشهاب في «عنايه القاضي وكفاية الراضي» (٧/ ٩٧): وقوله: «ابن أخته» هو رواية، ومرّ في الأعراف أنه عمّ لوط عليهما الصلاة والسلام، وهي رواية أخرى فلا تنافي بين كلاميه، وفي «جامع الأصول»: أنه ابن أخيه هاران بن تارح، وقد قيل: إنّ التاء الفوقية هنا تصحيف فيوافق ما في الأعراف فتأمّله.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٢). وانظر التعليق السابق.

بمعنى الكُتب، أي: التوراةَ والإنجيل والزَّبور والقرآن، ﴿وآتيناهُ أجرَهُ في الدُّنيا﴾، وهو الثناء الحسن في كُلّ أهل الأديان. ﴿وإنَّهُ في الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العُلا.

٢٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿لُوطًا، إذ قالَ لِقَومِهِ: أإنَّكُم﴾ ـ بتحقيق الهمزتين وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين في الموضعين ـ ﴿لَتأتُونَ الفاحِشةَ﴾ أي: أدبارَ الرجال، ﴿ما سَبَقَكُم بِها مِن أحَدٍ مِنَ العالَمِينَ﴾: الإنسِ والجنّ؟ ٢٩ ـ ﴿أإنَّكُم لَتأتُونَ الرِّجالَ وتَقطَعُونَ السَّبِيلَ﴾: طريق المارّة بِفعلكم الفاحشةَ بمن يمرّ بكم، فترك الناسُ الممرَّ بكم، ﴿وتأتُونَ في نادِيكُمُ﴾ أي: مُتحدَّثِكم ﴿المُنكَرَ﴾: فِعلَ الفاحشة بعضُكم ببعض؟..

قولُه: (بِمَعنَى: الكُتُبِ) أي: إفرادُهُ للجنسِ.

وقولُه: (أي) يعني: المرادُ مِن الجنسِ.

قولُه: (العُلَا) أي: من الأنبياءِ؛ يعني: الكامِلينَ في الصَّلاحِ.

قولُه: (اذكُرْ) أو عَطْفٌ على: ﴿إبراهيمَ﴾، أو على ما عُطِفَ عليه.

قولُه: (بتَحقِيقٍ) حُقِّقَ مِراراً، وممَّا يُخصُّ بهذا الموضعِ: إخبارُ الأوَّلِ للحِرْميَّينِ والشَّاميِّ وحفصٍ، وإخبارُ الثَّاني للكلِّ[١].

قولُه: (أيْ: أَدبَارَ الرِّجَالِ) أي: الفعلةَ البالغةَ في القُبْحِ.

قولُه: (الإِنْسِ والجَنِّ) استئنافٌ مقرِّرٌ لفَحاشَتِها.

قولُه: (بِفِعْلِكُم) وبالتَّعرُّضِ بالقتلِ وأخذِ المالِ.

قولُه: (مُتَحَدَّثِكُم) يعني: في مجالسِكُم المملوءةِ بالنَّاسِ.

قولُه: (أي: فِعْلَ الفَاحِشِ) كالجماعِ، والضُّراطِ، وحلِّ الإزارِ، وحلِّ أزرارِ القباءِ، ولعلَّهُما[٢] محمولانِ على انكشافِ العورةِ والسُّخريةِ، والخذفِ، ورمي البنادقِ، والصَّفيرِ، ولعبِ الحَمامِ، وقيل: تطريفِ الأصابعِ بالحنَّاءِ، وزادَ في «الكشَّافِ»: السواكَ في المجالسِ[٣].

وقيل: المنكرُ: تركُ حُرمَةِ الأكابرِ.

وقالَ الجُنَيدُ: كلُّ ما يجتَمِعُ عليه النَّاسُ إلَّا الذِّكرَ فهو منكرٌ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٩٩).

(٢) «ولعلهما»؛ أي: حل الإزار وحل الأزرار.

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٥٢).

﴿فما كانَ جَوابَ قومِهِ إلاّ أن قالُوا: ائتِنا بِعذابِ اللهِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في استقباح ذلك وأن العذاب نازلٌ بفاعليه. ٣٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، انصُرْنِي﴾ بتحقيق قولي في إنزال العذاب ﴿علَى القَومِ المُفسِدِينَ﴾: العاصين بإتيان الرجال. فاستجاب الله دعاءه.

٣١ ـ ﴿ولَمّا جاءَت رُسُلُنا إبراهِيمَ بِالبُشرَى﴾ بإسحاق ويعقوب بعده ﴿قالُوا: إنّا مُهلِكُو أهلِ هذِهِ القَريَةِ﴾ أي: قريةِ لُوطٍ. ﴿إنَّ أهلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾: كافرين. ٣٢ ـ ﴿قالَ﴾ إبراهيم: ﴿إنَّ فِيها لُوطًا. قالُوا﴾ أي الرسلُ: ﴿نَحنُ أعلَمُ بِمَن فِيها. لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿وأهلَهُ إلاّ امرأتَهُ، كانَت مِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب.

٣٣ ـ ﴿ولَمّا أن جاءَتْ رُسُلُنا لُوطًا سِيْءَ بِهِم﴾: حَزِنَ بسببهم، ﴿وضاقَ بِهِم ذَرعًا﴾: صدرًا لأنهم حِسانُ الوجوه في صورة أضياف، ....

قولُه: (في اسْتِقبَاحِ ذَلِكَ) أو في دَعوى النُّبوَّةِ.

قولُه: (العَاصِينَ) قالَ الطِّيبيُّ: الكافرُ إذا وُصِفَ بالفسقِ أو الإفسادِ كانَ محمُولاً على عدوانِهِ في الكفرِ[1].

قولُه: (بِإتيَانِ) أي: بابتِداعِ الفاحشَةِ وسَنِّها فيمَن بعدَهُم.

قولُه: (بَعدَهُ) هذه البعديَّةُ في محلِّها، إذِ البِشارةُ بإسحاقَ متقدِّمَةٌ ومتوقِّفَةٌ.

قولُه: (أي: قَريَةِ لُوطٍ) يعني: سَدومَ.

قولُه: (كَافِرِينَ) عَاصينَ.

قولُه: (إبرَاهِيمُ) اعتراضاً عليهم بأنَّ فيها مَن لم يَظْلِم.

قولُه: (بالتَّخفِيْفِ) حمزةُ والكسائيُّ[2].

قولُه: (فِي العَذَابِ) أو القريَةِ.

قولُه: (حَزِنَ) أي: جاءَتهُ المساءَةُ والغَمُّ بسببِهم مخافةَ أن يقصدَهُم قومُهُ بسوءٍ، و﴿أنْ﴾ صِلَةٌ لتأكيدِ الفعلينِ، واتِّصالِهما المدلولِ بكلمةِ ﴿لَمَّا﴾ كأنَّهما وقَعا معاً.

قولُه: (صَدْراً) هذا لازمُ معناهُ اللُّغويِّ وهو الطَّاقةُ، فالمعنى: ضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم طاقتُهُ.

= غير الذكر ولا يكون منكراً بل مباحا، بل واجباً كصلة الأرحام، والتباحث فيما يهم المسلمين أو يطرأ عليهم من أحداث عظيمة.

(١) انظر: «فتوح الغيب» (١٢/ ١٦٦).

(٢) هذا وما بعده انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٠).

فخاف عليهم قومه، فأعلموه بأنهم رُسل ربِّه، ﴿وقالُوا: لا تَخَفْ ولا تَحزَنْ. إنّا مُنَجُّوكَ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿وأهلَكَ إلاّ امرأتَكَ، كانَت مِنَ الغابِرينَ﴾. ونُصِبَ «أهلَك» عطفًا على محلّ الكاف. ٣٤ ـ ﴿إنّا مُنزِلُونَ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿علَى أهلِ هذهِ القَريةِ رِجْزًا﴾: عذابًا ﴿مِنَ السَّماءِ بِما﴾: بالفعل الذي ﴿كانُوا يَفسُقُونَ﴾ به، أي: بسبب فِسقهم. ٣٥ ـ ﴿ولَقَد تَرَكْنا مِنها آيةً بَيِّنَةً﴾: ظاهرة، هي آثار خرابها، ﴿لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

٣٦ ـ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلَى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيبًا، فقالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ وارجُوا اليَومَ الآخِرَ﴾: اخشَوه ـ هو يوم القيامة ـ ﴿ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤكِّدة لعاملها، من «عَثِيَ» بكسر المُثلّثة: أفسدَ، ٣٧ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفةُ﴾: الزلزلة الشديدة، ﴿فأصبَحُوا في دارِهِم جاثِمِينَ﴾: باركين على الرُّكب ميّتين.

قولُه: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وبصريٌّ وشاميٌّ وحفصٌ.

قولُه: (عَلَى مَحَلِّ الكَافِ) أي: باعتبارِ الأصلِ، فإنَّ الأصلَ كانَ: منجُّونَ إيَّاكَ، وإلَّا فموضِعُ الكافِ جرٌّ على المختارِ.

قولُه: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ.

قولُه: (بالفِعلِ) والأظهرُ: بسببِ فِسْقِهِم.

قولُه: (خَرَابِهَا) أي: القريةِ، إشارةٌ إلى أنَّ الآيةَ هي آثارُ الدِّيارِ الخَرِبَةِ، وقيلَ: هي حكايَتُها الشَّائعةُ[1].

قولُه: (﴿و﴾ أَرسَلْنَا) يعني: ﴿شعيباً﴾ منصوبٌ بالعطفِ على ﴿نوحاً﴾، أو بتقديرِه[2] لطولِ الفَصْلِ.

قولُه: (اخْشَوا) بفتحِ الشِّينِ؛ بمعنَى: خافوا.

قولُه: (هُوَ يَومُ القِيَامَةِ) لعلَّهُ دفعٌ لِمَا عسَى أن يُتَوَهَّم أنَّه يومُ عاقبةِ أمرِهم، وهو وقتُ العذابِ.

قولُه: (أَفْسَدَ) العُثُوُّ: أشدُّ الفسادِ، فالمعنى: لا تزيدُوا في الفسادِ حالَ كونِهم مفسدينَ، أو: لا تفسِدوا حالَ كونِهم قاصدينَ الفسادَ.

قولُه: (الزَّلزَلَةُ) أو الصَّيحَةُ، ولا مَنْعَ من الجمعِ، ويمكنُ التَّوزيعُ.

قولُه: (بَارِكِينَ) و﴿دارِهم﴾: بلدِهِم، أو دورِهِم.

---

(١) في (ص): «السابقة».

(٢) أي: بتقدير: أرسلنا.

٣٨ ـ ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عادًا وثَمُودًا﴾ ـ بصرف «ثمود» وتركِه بمعنى الحيّ والقبيلة، ﴿وقَد تبَيَّنَ لَكُم﴾ إهلاكُهم ﴿مِن مَساكِنِهِم﴾ بالحِجر واليمن ـ ﴿وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُم﴾ من الكُفر والمعاصي، ﴿فصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ﴾: سبيل الحقّ، ﴿وكانُوا مُستَبصِرِينَ﴾: ذوِي بصائرَ، ٣٩ ـ ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿قارُونَ وفِرعَونَ وهامانَ، ولَقَد جاءَهُم﴾ من قبلُ ﴿مُوسَى بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج الظاهرات، ﴿فاستَكبَرُوا في الأرضِ، وما كانُوا سابِقِينَ﴾: فائتين عذابَنا.

٤٠ ـ ﴿فكُلًّا﴾ من المذكورين ﴿أخَذْنا بِذَنبِهِ ـ فمِنهُم مَن أرسَلْنا علَيهِ حاصِبًا﴾: ريحًا عاصفة فيها حصباءُ كقوم لُوط،..

قولُه: (أَهلَكْنَا) يعني: ما بعدَهُ منصوبانِ بفعلٍ دلَّ عليه ما قبلَهُ، وهوَ ﴿أخذتهم الرجفة﴾، فالأظهرُ[1] إضمارُ: اذكُرْ.

قولُه: (وتَرْكِهِ) حمزةُ وحفصٌ[2].

قولُه: (إهلاكُهُم) أشارَ إلى أنَّ فاعلَ: ﴿تَبَيَّنَ﴾ ضميرٌ، و﴿مِنْ﴾ للابتداءِ؛ أي: من جهةِ مساكنِهم إذا نظرْتُم إليها عند مُرورِكُم بها، والأظهرُ: أنَّ ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةٌ فاعلٌ؛ أي: بعضُ مساكنِهم باليمنِ، ويؤيِّدُه قراءةُ الأخفشِ: (مساكنُهُمْ) بالرَّفعِ من غيرِ: ﴿مِنْ﴾[3].

قولُه: (ذَوِي بَصَائِرَ) أي: في نَفْسِ الأمرِ، أو عندَ أنفسِهِم معجَبينَ برَأيِهِم، أو: مستَبصِرينَ بضلالِهِم لكنَّهُم لجُّوا.

قولُه: (أَهلَكْنَا) يعني: ما بعدَهُ معطوفُونَ على: ﴿عاداً﴾، وتقديمُ ﴿قارونَ﴾ لشرَفِ نسبِهِ، قلتُ: أو لعلمِهِ، فويلٌ للجاهلِ، وويلٌ للعالِمِ سبعَ مرَّاتٍ.

قولُه: (حَصْبَاءُ) ما يُحْصَبُ به، أو مَلَكاً رماهُم بها. وقالَ الصَّفويُّ: أي: ريحاً صرصراً تحملُ الحصباءَ فتلقيها عليهِم، وتقلعهُم من الأرضِ، ثمَّ تنكسُهُم على أمِّ رأسِهم فتشدَخُهم كأنَّهُم أعجازُ نخلٍ منقعِرٍ، وهم قومُ عادٍ.

ثمَّ قالَ: ورُويَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الأوَّلَ: قومُ لوطٍ، والرَّابعَ: قومُ نوحٍ[4]، والأظهرُ: ما ذكَرنا؛ لأنَّه ذكرَ

---

(١) كذا في الأصول، ولعل الأولى: «والأظهر» بالواو، ولعله استظهره لتقديم البيضاوي إياه على الوجه السابق.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٧).

(٣) كذا في الأصول، والصواب: الأعمش، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٦، ٣٧) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ومنهم مَن أخذَتْهُ الصَّيحةُ﴾ كثمود، ﴿ومِنهُم مَن خَسَفْنا بِهِ الأرضَ﴾ كقارون، ﴿ومِنهُم مَن أغرَقْنا﴾ كقوم نُوح وفِرعونَ وقومه ـ ﴿وما كانَ اللهُ لِيَظلِمَهُم﴾ فيُعذّبَهم بغير ذنب، ﴿ولكِن كانُوا أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنب.

٤١ ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَولِياءَ﴾ أي: أصنامًا يرجون نفعها ﴿كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيتًا﴾ لنفسها تأوي إليه، ﴿وإنَّ أوهَنَ﴾: أضعفَ ﴿البُيُوتِ لَبَيتُ العَنكَبُوتِ﴾، لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا. كذلك الأصنام لا تنفع عابديها. ﴿لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ ذلك ما عبدوها.

٤٢ ـ ﴿إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما﴾ بمعنى: الذي ﴿يَدعُونَ﴾: يعبدون ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾: غيرَه ﴿مِن شَيءٍ، وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه. ٤٣ ـ ﴿وتِلكَ الأمثالُ﴾ في القُرآنِ ﴿نَضرِبُها﴾:

قبلَهُ عاداً وثموداً، وقارونَ وفرعونَ، فيكونُ من بابِ اللَّفِّ والنَّشرِ، وقد مرَّ إهلاكُ قومِ لوطٍ بالزَّجرِ من السَّماءِ، ولم يَطُلِ الفصْلُ، قالَ بعضُ المحدِّثينَ[1]: الرِّوايةُ منقطعةٌ عنِ ابنِ عبَّاسٍ[2]، انتهى.

قلتُ: الجمعُ ممكنٌ كما جُمِعَ بين قومِ نوحٍ وفرعونَ، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (كثَمُودَ) وقالَ القاضي: كمَدينَ وثمودَ[3].

قولُه: (فَيُعَذِّبَهُم) أي: ليعاملَهُم معاملةَ الظَّالمِ، إذ ليسَ ذاكَ من عادتِه تعالى.

قولُه: (أَصنَاماً) قيل: المرادُ: سِوى المولى.

قولُه: (يَرْجُونَ نَفعَهَا) وكذلكَ: خوفَ الضُّرِّ، لكن اقتصرَ على الأوَّلِ لمناسبةِ المَثَلِ.

قولُه: (تَأْوِي إليهِ) يعني: بل ذاكَ أوهنُ، فإنَّ لهذا حقيقةً وانتِفاعاً ما.

قولُه: (بِمَعَنى: الَّذي) وعائدُهُ محذوفٌ.

قولُه: (بالياءِ) الغيبةُ بصريٌّ وعاصمٌ[4].

قولُه: (والتَّاءِ) أي: قُلْ للكَفَرةِ.

قولُه: (في القُرآنِ) أي: هذا المَثَلُ ونظائرُهُ.

---

(١) منهم ابن كثير، انظر: «تفسيره» (٦/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٨١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٩٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

نجعلها ﴿لِلنّاسِ، وما يَعقِلُها﴾ أي: يفهمها ﴿إلاّ العالِمُونَ﴾: المُتدبِّرون. ٤٤ ـ ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا. ﴿إنَّ في ذلِكَ لآيَةً﴾: دالّة على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِلمُؤمِنينَ﴾. خُصّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين.

٤٥ ـ ﴿اتلُ ما أُوحِيَ إلَيكَ مِنَ الكِتابِ﴾: القُرآنِ، ﴿وأقِمِ الصَّلاةَ ـ إنَّ الصَّلاةَ تَنهَى عَنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ﴾ شرعًا، أي: من شأنها ذلك ما دام المرء فيها،..........

قولُه: (نَجْعَلُهَا) أو نبيِّنُها تقريباً لِمَا بَعُدَ منَ الأفهامِ.

قولُه: (يَفهَمُهَا) أو: لا يعقلُ حُسنَها وفائدتَها على إضمارِ المضافِ.

قولُه: (المُتَدَبِّرُونَ) وعنهُ عليه السَّلامُ أنَّه تلا هذهِ الآيَةَ فقالَ: «العالِمُ مَنْ عَقِلَ عنِ اللهِ، فعملَ بطاعتِهِ واجتنبَ سخطَهُ» رواهُ محيي السُّنَّةِ(١).

قولُه: (فِي الإِيمَانِ... إلخ) تطويلٌ بلا فائدةٍ.

قولُه: (القُرآنِ) و﴿اتْلُ﴾ بمعنى: اقرَأْ، أو اتَّبِعْ.

قولُه: (فِيهَا) وكذا خارجَها ببركتِها غالباً من حيثُ إنَّها تُذكِّرُ اللهَ، وتورثُ للنَّفسِ خشيتَهُ، أو مواظبتُها تحملُ على تركِ ذلك، وفي الحديثِ: «مَنْ لم تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلَّا بُعْداً» رواهُ الإمامُ أحمدُ(٢).

أو مراعاتُها تجرُّهُ إلى الانتهاءِ، وفي الحديثِ: قيلَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنَّ فلاناً يصلِّي باللَّيلِ فإذا أصبحَ سرقَ! قالَ: «سينهاهُ ما تقولُ» رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ والطَّبرانيُّ وابنُ جريرٍ(٣)،..........

---

(١) رواه البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٥٥٨) (١٦٢٣). ورواه أيضاً داود بن المحبر في كتاب «العقل» كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٢٧)، وعنه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٧ ـ زوائد الهيثمي)، ومن طريق الحارث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢١/ ٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٢٠)، والبغوي في الموضع المذكور، ونقل ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٦) عن الدارقطني قوله: كتاب «العقل» وضعه أربعة: أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركَّبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، فسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أُخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي، فأتى بأسانيد أخر.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (١٤٩٢) بنحوه، من قول الحسن.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٤٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٥٤) (١١٠٢٥)، والقضاعي في «مسنده» (٥٠٩) من حديث ابن عباس مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): فيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤١) عن الحسن مرسلاً.

(٣) كذا قال، ولم أجده عندهم ولعله سبق نظر فهم ممن أخرج الحديث المتقدم، ورواه أحمد في «مسنده» (٩٧٧٨)، والبزار في =

﴿ولَذِكرُ اللهِ أكبرُ﴾ من غيره من الطاعات، ﴿واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعُونَ﴾ فيُجازيكم به ـ ٤٦ ـ ﴿ولا تُجادِلُوا أهلَ الكِتابِ إلاّ بِالَّتِي﴾ أي: بالمُجادلة التي ﴿هِيَ أحسَنُ﴾ كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حُججه، ﴿إلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم﴾ بأن حاربوا وأبَوا أن يُقرّوا بالجِزية، فجالِدوهم بالسيف حتّى يُسلموا أو يُعطوا الجزية، ﴿وقُولُوا﴾ لمن قَبِلَ الإقرار بالجِزية إذا أخبروكم بشيء ممّا في كُتبهم: ﴿آمَنّا بِالَّذِي أُنزِلَ إلَينا وأُنزِلَ إلَيكُم﴾ ـ ولا تُصدّقوهم ولا تُكذّبوهم في ذلك ـ ﴿وإلـٰهُنا وإلـٰهُكُم واحِدٌ، ونَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾: مُطِيعون.

٤٧ ـ ﴿وكَذلِكَ أنزَلْنا إلَيكَ الكِتابَ﴾: القُرآنَ كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها. ﴿فالَّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ﴾: التوراةَ كعبدالله بن سلام وغيره ﴿يُؤمِنُونَ بِهِ﴾: بالقرآن، ﴿ومِن هؤُلاءِ﴾..............

وهو قولُ أكثرِ السَّلفِ[١]، وأمّا ما اختارَهُ الشَّيخُ فهو قولُ ابنِ عونٍ[٢].

قولُه: (مِنَ الطَّاعَاتِ) أو: لَلصَّلاةُ ـ لاشتمالِها على ذكرِهِ ـ أكبرُ من سائرِ العباداتِ، أو: لَذِكرُ اللهِ إيَّاكُم برحمتِهِ أكبرُ من ذكرِكُم إيَّاهُ بطاعتِهِ، وهذا المعنى في «الدُّرِّ» بطرقٍ كثيرةٍ مرفوعاً وموقوفاً[٣].

قولُه: (بالمُجَادَلَةِ) أو: بالخصلةِ؛ كمعارضةِ الخشونةِ باللِّينِ.

قولُه: (لِمَنْ قَبِلَ الإقرَارَ بالجِزْيَةِ) حقُّ العبارةِ: لمن قَبِلَ الجزيةَ، والصَّوابُ: الإطلاقُ؛ لإطلاقِ الآيةِ، والحديثِ الصَّحيحِ في البخاريِّ وغيرِهِ: «لا تصدِّقُوا أهلَ الكتابِ ولا تكذِّبُوهُم ﴿وقولُوا آمَنَّا...﴾ [البقرة: ١٣٦] الآيةَ»[٤].

قولُه: (مُطِيعُونَ) خاصَّةً.

قولُه: (وغيرِهِ) الذين أسلموا بالمدينةِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فهو إعلامٌ من اللهِ تعالى لرسولِهِ، ودخولُ الفاءِ باعتبارِ الإعلامِ، أو المرادُ: مَن تقدَّمَ عهدَ الرَّسولِ مِن أهلِ الكتابِ.

= «مسنده» (٩٢١٧)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٠٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤١).

(٢) رواه عن ابن عون الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٤٥).

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) رواه البخاري: (٤٤٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٦١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: أهل مكّة ﴿مَن يُؤمِنُ بِهِ، وما يَجحَدُ بِآياتِنا﴾ بعد ظهورها ﴿إلاّ الكافِرُونَ﴾ أي: اليهودُ. وظهر لهم أنّ القُرآن حقّ والجائي به مُحِقٌّ، وجحدوا ذلك. ٤٨ ـ ﴿وما كُنتَ تَتلُو مِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿مِن كِتابٍ، ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ. إذًا﴾ أي: لو كنت قارئًا كاتبًا ﴿لارتابَ﴾: شكّ ﴿المُبطِلُونَ﴾ اليهودُ فيك، وقالوا: «الذي في التوراة أنه أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب». ٤٩ ـ ﴿بَل هُوَ﴾ أي: القُرآن الذي جئتَ به ﴿آياتٌ بَيِّناتٌ، في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ أي: المؤمنين يحفظونه، ﴿وما يَجحَدُ بِآياتِنا إلاّ الظّالِمُونَ﴾: اليهودُ. وجحدوها بعد ظهورها لهم.

٥٠ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَيهِ﴾: على مُحمّدٍ ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ ـ وفي قراءةٍ: «آياتٌ» ـ كناقةِ صالح وعصا موسى ومائدة عيسى. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما الآياتُ عِندَ اللهِ﴾ يُنزِلها كما يشاء، ﴿وإنَّما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الإنذار بالنار.

٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿أوَلَم يَكفِهِم﴾ فيما طلبوا ﴿أنّا أنزَلْنا علَيكَ الكِتابَ﴾: القُرآن، ﴿يُتلَى علَيهِم﴾. فهو آية مُستمرّة لا انقضاء لها بخِلاف ما ذُكر من الآيات..

قولُه: (أَهلِ مَكَّةَ) أو أهلِ الكتابِ ممَّن في عهدِ الرَّسولِ.

قولُه: (أي: اليَهُودُ) لا وجهَ للتَّخصيصِ، والصَّوابُ: كاليهودِ، والمعنى: المتوغِّلُونَ في الكفرِ.

قولُه: (اليَهُودُ) الصَّحيحُ: الإطلاقُ؛ يعني: لقالوا: تعلَّمَهُ أو التقطَهُ من كُتُبِ الأقدمينَ، وقيل: أهلُ الكتابِ، فلا وجهَ للتَّخصيصِ أيضاً.

قولُه: (يَحفَظُونَهُ) لا يقدرُ أحدٌ على تحريفِهِ.

قولُه: (أي: اليَهُودُ) يعني: وأمثالُهم المتوغِّلُونَ في الظُّلمِ بالمكابَرةِ.

قولُه: (أي: كُفَّارُ مَكَّةَ) وغيرُهم، ويدلُّ على العمومِ الأمثلةُ الآتيةُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وبصريٍّ وشاميٍّ وحفصٍ[1].

قولُه: (بَيِّنُ) الأولى: مُظهِرٌ إنذاري بما أُعطيْتُ من الآياتِ.

قولُه: (فِيمَا طَلَبُوا) من المقترحاتِ.

قولُه: (بخِلافِ مَا ذُكِرَ) وفي الحديثِ: أنَّ ناساً من المسلمينَ جاؤوا بكُتُبٍ قد كَتَبوا فيها بعضَ ما سمِعوهُ من اليهودِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «كفَى بقومٍ حُمْقاً ـ أو ضلالةً ـ أنْ يرغبُوا عمَّا جاءَهُم بهِ نبيُّهُم إليهِم

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتابِ ﴿لَرَحْمَةً وذِكْرَى﴾: عِظةً ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ. قُلْ: كَفَى بِاللهِ بَيني وبَينكُم شَهِيدًا﴾ بصدقي، ﴿يَعلَمُ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾، ومنه حالي وحالكم! ﴿والَّذِينَ آمَنُوا بِالباطِلِ﴾ ـ وهو ما يُعبد من دون الله ـ ﴿وكَفَرُوا بِاللهِ﴾ منكم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيثُ اشتَرَوُا الكُفر بالإيمان.

٥٣ ـ ﴿ويَستَعجِلُونَكَ بِالعذَابِ، ولَولا أجَلٌ مُسَمًّى﴾ له ﴿لَجاءَهُمُ العَذابُ﴾ عاجلاً، ﴿ولَيَأتِيَنَّهُم بَغْتَةً، وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه. ٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿يَستَعجِلُونَكَ بِالعَذابِ﴾ في الدنيا، ﴿وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ يَومَ يَغشاهُمُ العَذابُ مِن فَوقِهِم ومِن تَحتِ أرجُلِهِم، ونَقُولُ﴾ فيه، بالنون أي: نأمر بالقول، وبالياء أي: «يَقُولُ» أي: المُوكَّلُ بالعذاب: ﴿ذُوقُوا ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه. فلا تفوتوننا.

٥٦ ـ ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ أرضِي واسِعةٌ. فإيّايَ فاعبُدُونِ﴾ في أيّ أرض تيسَّرت فيها العِبادة بأن تهاجروا إليها من أرض لم تتيسّر فيها. نزل في ضُعفاء مسلمي مكّة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها..

إلى ما جاءَ بِهِ غيرُهُ إلى غيرِهِم» فنزلَت، كذا في «الدُّرِّ»[1].

قولُه: (بِصِدْقِي) وقد صدَّقَني بالمعجِزاتِ.

قولُه: (لَهُ) أي: للعَذابِ؛ يعني: لكلِّ عذابٍ أو قومٍ.

قولُه: (بالنُّونِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[2].

قولُه: (نَأمُرُ) أو بلا واسطةٍ.

قولُه: (المَلَكُ)[3] أو الله.

قولُه: (فلا تَفُوتُونَنَا) بالغيبةِ.

قولُه: (بِهَا) أي: بمكّةَ، وأمّا اليومَ ـ بحمدِ اللهِ ـ فكما في «المدارِكِ»: قالوا: لم نجدْ أعونَ على قهرِ النَّفسِ، وأجمعَ للقلبِ، وأحثَّ على القناعةِ، وأطردَ للشَّيطانِ، وأبعدَ منَ الفِتَنِ، وأظهرَ لأمرِ الدِّينِ، من مكّةَ حرسَها اللهُ[4].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٧١). والحديث رواه الدارمي في «السنن» (٤٩٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٨٠) عن يحيى بن جعدة مرسلاً.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠١).

(٣) لم أقف عليها في المتن، والظاهر أن موضعها قبل كلمة: «الموكَّل».

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٦٨٣).

٥٧ ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ المَوتِ، ثُمَّ إلَينا تُرجَعُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ بعد البعث.

٥٨ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: نُنزِلنّهم ـ وفي قراءة بالمُثلّثة بعد النون، من الثُّوِيّ: الإقامة، وتعديتُه إلى «غرفًا» بحذف «في» ـ ﴿مِنَ الجَنّةِ غُرَفًا، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، خالِدِينَ﴾: مُقدِّرين الخُلودَ ﴿فِيها، نِعمَ أجرُ العامِلِينَ﴾ هذا الأجرُ! ٥٩ ـ هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المُشركين والهِجرةِ لإظهار الدِّين، ﴿وعلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيرزقهم من حيثُ لا يحتسبون. ٦٠ ـ ﴿وكَأَيِّنْ﴾: كم ﴿مِن دابّةٍ، لا تَحمِلُ رِزقَها﴾ لضعفها، ﴿اللهُ يَرزُقُها وإيّاكُم﴾ ـ أيها المُهاجرون ـ إن لم يكن معكم زاد ولا نفقة! ﴿وهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿العَلِيمُ﴾ بضميركم.

قولُه: (والياءِ) الغيبةَ لشعبةَ[١].

قولُه: (بَعدَ البَعْثِ) ومَن هذا عاقبتُهُ ينبغي أن يجتهدَ في الاستعدادِ له.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[٢].

قولُه: (مِنَ الثّوي) أي[٣]: الإثواءِ.

قولُه: (غُرَفًا) عَلاليَ.

قولُه: (هَذَا الأَجْرُ) يعني: المخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليهِ ما قبلَهُ.

قولُه: (هُم) يعني: ما بعدَهُ مرفوعٌ على المدحِ، وجُوِّزَ نصبُه وجرُّه.

قولُه: (والهِجرَةِ) وغيرِهما[٤] من المحنِ والمشاقِّ.

قولُه: (لضَعْفِهَا) أي: لا تطيقُ حملَهُ لضعفِها، أو: لا تدَّخِرُه، وإنَّما تصبحُ ولا معيشةَ عندَها.

قولُه: (أَيُّهَا المُهاجِرُونَ) التَّخصيصُ لكونِهم سببَ النُّزولِ، فإنَّهم لمَّا أُمِرُوا بالهجرةِ قالَ بعضُهم: كيفَ نَقْدَمُ بلدةً ليسَ لنا بها معيشَةٌ؟ فنزلَت[٥].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) في (د): «أصل».

(٤) في (ص): «وغيرها».

(٥) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢١/ ٨٥) بدون سند ولا راوٍ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٣٠٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٨)، =

٦١ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سألتَهُم﴾ أي: الكُفّار: ﴿مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ. فأنّى يُؤفَكُونَ﴾: يُصرَفون عن توحيده، بعد إقرارهم بذلك؟ ٦٢ ـ ﴿اللهُ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه ﴿لَهُ﴾ بعد البسط أو لمن يشاء ابتلاءً. ﴿إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾، ومنه محلّ البسط والتضييق.

٦٣ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سألتَهُم: مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعدِ مَوتِها؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ﴾. فكيف يُشركون به؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿الحَمدُ لِلهِ﴾ على ثُبوت الحُجّة عليكم. ﴿بَل أكثَرُهُم لا يَعقِلُونَ﴾ تناقُضَهم في ذلك، ٦٤ ـ ﴿وما هذهِ الحَياةُ الدُّنيا إلاّ لَهوٌ ولَعِبٌ﴾، وأمّا القُرَب فمن أُمور الآخرة لظُهور ثمرتها فيها، ﴿وإنَّ الدّارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾ بمعنى: الحياة. ﴿لَو كانُوا يَعلَمُونَ﴾ ذلك ما آثروا الدنيا عليها.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) أي: موطِّئةٌ له.

قولُه: (أي: الكُفَّارَ) الظَّاهرُ: أنَّ المسؤولَ عنهُم كفَّارُ مكَّةَ.

قولُه: (ابتِلاءً) قيدٌ لـ﴿يَقْدِرُ﴾.

قولُه: (مَحَلُّ البَسْطِ) وقَدْرُهُ وزمانُهُ ونوعُهُ.

قولُه: (لامُ قَسَمٍ) مقدَّرٍ[1].

قولُه: (يُشرِكُونَ بِهِ) بعضَ مخلوقاتِهِ الَّذي لا يقدرُ على شيءٍ من ذلك.

قولُه: (بِمَعنَى: الحَيَاةِ) أي: الحقيقيَّةِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: حَقَّ العِلمِ.

قولُه: (مَا آثَرُوا) وفي الحديثِ مرفوعاً: «يا عَجَباً كلَّ العجبِ للمصدِّقِ بدارِ الحَيَوانِ وهو يسعى لدارِ الغرورِ» ذكرَهُ في «الدُّرِّ»[2].

= وأبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدابه» (٨٧٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤٣) عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلقط من التمر ويأكل، فقال: «يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟» فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله، فقال: «لكني أشتهيه، وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم، ويضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾.

(١) في (م): «تقدم».

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٦).

٦٥ ـ ﴿فإذا رَكِبُوا في الفُلكِ دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الدعاءَ، أي: لا يدعون معه غيره لأنهم في شدّة لا يكشفها إلاّ هو، ﴿فلَمّا نَجّاهُم إلَى البَرِّ إذا هُم يُشرِكُونَ﴾ به، ٦٦ ـ ﴿لِيَكفُرُوا بِما آتيناهُم﴾ من النِّعمة، ﴿ولِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عِبادة الأصنام. وفي قراءة بسكون اللام: أمرُ تهديد. ﴿فسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك. ٦٧ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا ﴿أنّا جَعَلْنا﴾ بلدهم مكّة ﴿حَرَمًا آمِنًا، ويُتَخَطَّفُ النّاسُ مِن حَولِهِم﴾ قتلاً وسبيًا دونهم؟ ﴿أفبِالباطِلِ﴾: الصنم ﴿يُؤمِنُونَ، وبِنِعمةِ اللهِ يَكفُرُونَ﴾ بإشراكهم؟

٦٨ ـ ﴿ومَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّنِ افتَرَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بأن أشرك به، ﴿أو كَذَّبَ بِالحَقِّ﴾: النبيِّ أو الكتابِ ﴿لَمّا جاءَهُ؟ ألَيسَ في جَهَنَّمَ مَثوًى﴾: مأوًى ﴿لِلكافِرينَ﴾؟ أي: فيها ذلك وهو منهم. ٦٩ ـ ﴿والَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾: في حقّنا ﴿لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا﴾ أي: طُرقَ السير إلينا، ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنِينَ﴾: المُؤمنين بالنصر والعون.

قولُه: (مِنَ النِّعمَةِ) أي: نعمةِ النَّجاةِ وغيرِها.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لقالون ومكّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (أَمرُ تَهْدِيدٍ) وكذا بالكسرِ، وقيلَ: إنَّهُ لامُ كي.

قولُه: (بِأَنْ أَشرَكَ بِهِ) أو أثبتَ له ولدًا ونحوَهُ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: المأوى.

قولُه: (وَهُوَ) أي: مَن افترى.

قولُه: (فِي حَقِّنَا) يعمُّ الجهادَ الأصغرَ والأكبرَ.

قولُه: (طُرُقَ السَّيرِ) والوصولِ إلى جنابِنا، وفي الحديثِ: «مَنْ عملَ بمَا عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ علمَ مَا لمْ يعلمْ»[2].

قولُه: (والعَونِ) في جهادِهِم واجتهادِهِم، واللهُ أعلمُ.

***

= والحديث رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر، مرسلاً.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٠٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال أبو نعيم: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى ابن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

سورة العنكبوت

أخرج ابن الضُّرَيس والنحَّاس وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت بمكة[١]. وأخرج ابن مَردويهِ عن عبد الله بن الزبير نحوَ ذلك[٢]. ورُوي القولُ بأنها مكيةٌ عن الحسن وجابرٍ وعكرمةَ، وعن بعضهم أنها آخِرُ ما نزَل بمكة.

وفي «البحر» عن الحبر وقتادةَ أنها مدنية[٣].

وقال يحيى بن سلام: هي مكيةٌ إلَّا مِن أوَّلها إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٤] [الآية:١١]. وذكر ذلك الجلال السيوطيُّ في «الإتقان» ولم يَعْزُه، وأنه لِمَا أخرجه ابن جرير في سبب نزولها[٥]. ثم قال: قلتُ: ويُضَمُّ إلى ذلك ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ الآيةَ [٦٠] لِما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها[٦]. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٤، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٤، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٠.

(٣) البحر ٧/ ١٣٨-١٣٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤، والبحر ٧/ ١٣٩، وعنه نقل المصنف.

(٥) الإتقان ١/ ٤٨، وأخرج الطبري ١٨/ ٣٦٦ عن قتادة قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال: هذه الآيات أنزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة، وهذه الآيات العشر مدنية إلى هاهنا، وسائرها مكي.

(٦) الإتقان ١/ ٤٨، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الجراح بن منهال الجزري ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل» قلت: لا أشتهيه يا رسول الله. قال: «ولكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة لم أذق =

وهي تسعٌ وستُّون آيةً بالإجماع، كما قال الداني والطبرسيّ[1].

وذكر الجلالُ في وجهِ اتصالِها بما قبلَها: أنه تعالى أخبر في أوّلِ السورة السابقة عن فرعونَ أنه ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص:٤]، وافتتَح هذه بذكر المؤمنين الذين فتَنهم الكُفّارُ وعذَّبوهم على الإيمان بعذابٍ دونَ ما عَذَّب به فرعونُ بني إسرائيلَ بكثيرٍ؛ تسليةً لهم بما وَقَع لمن قبلَهم وحثًّا على الصَّبر، وَلِذَا قيل هنا: (وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ).

وأيضاً لمَّا كان في خاتمة الأُولى الإشارةَ إلى هجرةِ النبيِّ ﷺ - أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] على بعض الأقوال - وفي خاتمة هذه الإشارةَ إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦] ناسبَ تتاليهما[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾ سَبَق الكلامُ فيه وفي نظائرِه ولم يُجوِّز بعضُهم هنا ارتباطَ ما بعدَه به ارتباطاً إعرابياً؛ لأنَّ الاستفهامَ مانعٌ منه. وبُحِثَ فيه بأنَّ اللازِمَ في الاستفهامِ تَصَدُّرُه في جُملتِه، وهو لا يُنافِي وُقُوعَ تلك الجملةِ خَبَراً ونحوَه، كقولك: زيدٌ هل قام أبوه؟ فلو قيل هنا: المعنى: المتلوُّ عليك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخِرِ السورةِ صَحَّ، فلا يقال أيضاً: إنَ المانعَ منه عَدَمُ صحةِ ارْتباطِه بما قبلَه معنًى. نعم الارتباطُ خلافُ الظاهر.

= طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك قيصر وكسرى، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين» قال: فوالله ما برحنا مكاننا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ الآية. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا الحديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف.

(١) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٠٣، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٢.

(٢) تناسق الدرر ص٧١.

والاستفهامُ للإنكارِ، والحسْبانُ مصدرٌ كالغُفْرانِ مما يَتَعَلَّق بمضامينِ الجمَلِ؛ لأنه من الأفعالِ الداخلةِ على المبتدأ والخبرِ، وذلك للدلالة على وجهِ ثُبوتِها في الذِّهنِ أو في الخارج من كَوْنِها مظنونةً أو متيقَّنةً، فتَقْتَضِي مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، أو ما يَسُدُّ مَسَدَّهما، وقد سدَّ مَسَدَّهما هنا على ما قاله الحوفيُّ وابنُ عطيةَ وأبو البقاءِ: قولُه تعالى: ﴿أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾[1].

وسَدُّ «أنْ» المصدريَّةِ الناصبةِ للفعلِ مع مَدْخولِها مَسَدَّ الجُزْأينِ مما قاله ابنُ مالكٍ، ونَقَلَه عنه الدَّمامِينيُّ في «شرح التسهيلِ». وزَعَم بعضهم أنَّ ذلك إنما هُوَ في «أنَّ» المفتوحةِ مُشدَّدةً ومُثقَّلةً مع مدخولِها.

والتركُ هنا على ما ذكره الزمخشريُّ[2] بمعنى التَّصْيِير المتعدِّي لمفعولَيْنِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]، وقول الشاعر:

فتركتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه   يَقْضِمْن قُلَّةَ رأسِه والمِعْصمِ[3]

فضميرُ الجمع نائبُ مفعولٍ أوَّل، والمفعولُ الثاني متروكٌ بدَلالةِ الحالِ الآتية، أي: كما هم، أو: على ما هم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ [التوبة:١٦]، على ما قَدَّره الزمخشريُّ فيه[4].

وقولُه سبحانه: ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بمعنى: لأنْ يقولوا، متعلِّقٌ بـ «يترَكوا» على أنه غيرُ مستقِرٍّ.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ في موضع الحال من ضميرِ «يُترَكوا». ويجوز أنْ لا يُعتَبَرَ كونُ المفعولِ الثاني لـ «يُتْرَكوا» متروكاً، بل تُجعلُ هذه الجملةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، والإملاء ٤/ ١٦٠، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ١٣٩.

(٢) في الكشاف ٣/ ١٩٥.

(٣) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٢٦. قوله: الجَزَر بفتحتين: جمع جَزَرَة، وهي الشاة والناقة تذبح أو تنحر. ويَنُشْنَه من ناشَ يَنُوش، أي: تناولَ. وقوله: قُلَّة رأسه، أعلاه. وجاء في بعض روايات البيت: يقضمن حسن بنانه. . .، وفي بعضها: ما بين قلةِ رأسه. . .، ينظر شرح القصائد لأبي بكر الأنباري ص٣٤٧-٣٤٨ وللنحاس ٢/ ٣٣، وللتبريزي ص٢٣٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١٧٨.

الحاليةُ سادَّةً مَسدَّه، ألا ترى أنك لو قلتَ: علِمتُ ضربي زيداً قائماً، صحَّ. على أنَّ «تَرَكَ» ليس كأفعال القلوب في جميعِ الأحكام، بل القياسُ أن يَجُوزَ الاكتفاءُ فيه بالحال من غيرِ نظرٍ إلى أنه قائمٌ مقامَ الثاني؛ لأنَّ قولك: تركتُه وهو جَزَرُ السباع، كلامٌ صحيحٌ، كما تقولُ: أبقيتُه على هذه الحالةِ، وهو نظيرُ: سمعتُه يتحدَّث، في أنه يتمُّ بالحال بعدَه أو الوصف، وها هنا زادَ أنه يَتمُّ أيضاً بما يَجرِي مَجْرى الخبرِ.

وجوَّزَ أنْ تكونَ هذه الجملةُ هي المفعول الثاني لا سادَّةً مسدَّه، وتوسُّطُ الواوِ بينَ المفعولَيْنِ جائزٌ كما في قولِه:

وصَـيَّـرنـي هَـواك وبـي ... لِـحَـيْـنـي يُـضْـرَبُ الـمَـثَـلُ[١]

وقد نصَّ شارحُ أبياتِ «المفصَّل» على أنه حُكي عن الأخفشِ أنه كان يجوِّز: كان زيدٌ وأبوه قائمٌ؛ على نُقْصانِ «كان» وجَعْلِ الجملةِ خبراً مع الواو تشبيهاً لخبرِ «كان» بالحال، فمتى جاز في الخبر عنده فَلْيَجُزْ في المفعول الثاني، وهو كما ترى.

واستَظْهَرَ الطيبيُّ كونَ التركِ هنا مُتعدِّياً لِوَاحدٍ على أنه بمعنى التَخلِيةِ[٢]. وليس بذاك.

وَجَوَّزَ الحوفيُّ وأبو البقاءِ أن يكونَ «أن يَقُولوا» بَدَلاً من «أن يُتْرَكوا»[٣].

وجُوِّز أنْ يكونَ «أن يُتْرَكُوا» هو المفعول الأوَّل لـ «حَسِب»، و«هم لا يُفتنون» في موضعِ الحالِ من الضميرِ، «وأنْ يَقُوْلُوا» بتقديرِ اللَّام هو المفعولُ الثاني، وكونُه عِلَّةً لا يُنَافي ذلك، كما في قولِك: حَسِبْتُ ضرْبَه للتأديب. والتقدير: أحَسِبَ الناسُ تركَهُمْ غيرَ مفتونِيْنَ لِقَوْلهم: آمنَّا؟ والمفعولُ الثاني لـ «يتركوا» مَتْروكٌ بدلالةِ الحال.

---

(١) البيت لمحمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي، كما في الأغاني ٦/ ١٦٩، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٨٢١، ونسبه الجرجاني في دلائل الإعجاز ص٩١ لابن البواب، وهو دون نسبة في الإيضاح للقزويني ص٣٠، قوله: لحيني، الحين بفتح الحاء المهملة: الهلاك. مختار الصحاح (حَيَن).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٣) الإملاء ٤/ ١٦٠، وذكره عن الحوفي أبو حيان في البحر ٧/ ١٣٩.

واعترضه صاحبُ «التقريبِ» بما حاصلُه: أنَّ الحُسْبانَ لتعلُّقِه بمضامين الجُمَل إذا أُنكِرَ يكونُ باعتبارِ المفعولِ الثاني، فإذا قلتَ: أحَسِبتَه قائماً؟ فالمُنكَرُ حُسْبانُ قيامِه، كذلك إذا قيل: أحَسِبَ الناسُ تركهم غيرَ مَفْتونِيْنَ لقَوْلِهم: آمَنَّا، أفاد إنْكارَ حُسْبانِ أنَّ التركَ غيرَ مفتونينَ لهذه العلة، بل إنما هو لعلةٍ أخرى، ولا يلائِمُ سببَ النُّزولِ ولا مقصودَ الآيةِ.

واختار أن يكونَ «أن يُتْرَكوا» سادًّا مسدَّ المفعولين، و«أَنْ يَقُولُوا» علةً للحُسبانِ، أي: أحَسِبوا لقولهم: آمنَّا أن يُتْرَكوا غيرَ مفتونِيْنَ؟

وأُجيبَ بأنَّ أصل الكلام: ألا يُفتنون لقولهم: آمنا؟ على إنكار أنْ يكون سبباً لعدَمِ الفَتْنِ، ثم قيل: أيُتْرَكون غيرَ مفتونينَ لقولِهم: آمَنَّا؟ مبالغةً في إنكارِ أنْ يبقَوا من غير فَتْنٍ لذلك، ثم أُدْخِلَ على حسبانِ التركِ مبالغةً على مبالغةٍ، وإنما يَرِدُ ما أورد إذا لم يُلاحَظْ أصلُ الكلام ويُجعل مَصَبُّ الإنكارِ الحسبانَ من أوَّلِ الأمر.

وقيل: إنما يلزم ما ذكر لو لم يُقدَّرْ: أحَسِبوا ترْكَهم غيرَ مفتونينَ بمجرَّد قولهم: آمنَّا، دون إخلاصٍ وعملٍ صالحٍ؟ أمَّا لو قُدِّر ذلك استقام كما صرَّح به الزجَّاج[1]، على أنَّ ذلك مبنيٌّ على اعتبار المفهوم.

واعترَضَ ذلك بعضُهم من حيث اللفظُ بأنَّ فيه الفَصْلَ بين الحال وذِيْها بثاني مفعولَيْ «حسِبَ»، وهو أجنبيٌّ.

وأُجيبَ بأنَّ الفَصْلَ غيرُ مُمتَنِع، بل الأحسنُ أنْ لا يقعَ فصلٌ إلا إذا اعتَرَضَ ما يُوْجِبه، وها هنا الاهتمامُ بشأن الخبر حَسَّن التقديمَ؛ لأنَّ مصَبَّ الإنكار ذلك.

ولا يَخْفى أنه يُحتاجُ إلى مثلِ هذا الجوابِ على ما يَقْتضيهِ الظاهرُ من جَعْلِ «أن يُتْرَكوا» في تأويلِ مصدرٍ وقع مفعولاً أوَّلاً، و«أنْ يقولوا» في تأويلِ مصدرٍ أيضاً مجرورٍ بلامٍ مقدَّرةٍ، والجارُّ والمجرورُ في موقع المفعول الثاني.

وأمَّا على ما ذكَره بعضُ المحقِّقين مِن أنهما لم يُجْعَلا كذلك، وإنما جُعِلَ «أنْ يقولوا» معمولاً لـ «يُتْرَكوا» بتقديرِ اللَّام، وجُعِلَ «أن يُتْرَكُوا» سادًّا مسدَّ المفعولَيْنِ،

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٩، وحاشية الشهاب ٧/ ٩١.

واقتَضى المعنى أن يُقال: أحَسِب الناسُ تركَهم غيرَ مفتونِينَ لقولهم: آمنا؟ بجَعْل «تركَهم» مفعولاً أولاً، و«لقولهم» مفعولاً ثانياً = فلا يُحْتاجُ إليه، لأنَّه إنْ جَرَيْنا مع اللفظِ كان «أن يُتْرَكوا» سادًّا مسدَّ المفعولَيْنِ، فلا يكونُ فيه مفعولٌ ثانٍ فاصِلٌ بينَ الحالِ وذِيْها، وإنْ جَرَيْنا مع المعنى واعتبَرْنا الكلامَ مجرَّدًا عن «أنْ» المصدريَّةِ وجيء به كما سمعْتَ كانت الحالُ متَّصِلةً بذِيْها.

وقيل: يَجوزُ أن يكونَ المفعولُ الأوَّل لـ «حَسِب» محذوفاً، أي: أحَسب الناسُ أنفسَهم، و«أن يُتْرَكوا» في موضعِ المفعول الثاني على أنه في تأويل مصْدرٍ، وهو في تأويلِ اسْم المفعولِ، أي: متروكِيْنَ، و«وهم لا يُفْتَنُون» في موضع الحالِ كما تقدَّم، و«أن يُؤْمِنُوا» بتَقْديرِ لأن يُؤْمِنُوا مُتعلِّقٌ بـ «يُتْرَكوا»، فكأنَّه قيل: أحَسِب الناسُ أنفسَهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ لقولهم: آمنَّا؟ وقيل: إنَّ هذا المعنى حاصلٌ على تقديرِ سَدِّ «أن يُتْرَكُوا» مَسَدَّ المفعولَيْنِ. فتأمَّلْ فيه وفيما قبلَه.

ولعل الأبعدَ عن التكلُّف ما ذكرْناه أوَّلاً، والمرادُ إنكارُ حُسْبانِهم أن يُتْرَكوا غيرَ مفتونين بمجرَّدِ أن يقولوا: آمنَّا، واستِبعادٌ له، وتحقيقُ أنَّه تعالى يَمتحِنُهم بمَشاقِّ التكاليفِ، كالمهاجَرة، والمجاهَدةِ، ورفْضِ الشَّهوات، ووظائفِ الطَّاعاتِ، وفُنونِ المصائبِ في الأنفُسِ والأموالِ، لِيَتَميَّزَ المُخْلِصُ من المنافِق، والراسِخُ في الدِّينِ مِنَ المُتزلزِلِ فيه، فيعامَل كلٌّ بما يَقْتضِيه، ويُجازيهم سُبحانَه بحسَبِ مَراتبِ أعمالِهم، فإنَّ مجرَّدَ الإيمان وإنْ كان عن خُلوصٍ لا يَقتضِي غيرَ الخلاصِ من الخُلود في النار.

وذكر بعضُهم أنه سُبحانَه لو أثابَ المؤمنَ يومَ القِيامة من غيرِ أن يَفتنَه في الدنيا لقال الكافرُ المعذَّب: ربِّي لو أنَّك كنتَ فَتَنْتَه في الدُّنيا لكَفر مِثْلي، فإيمانُه الذي تُثِيبُه عليه مما لا يستحقُّ الثواب له، فبالفِتْنة يُلْجَمُ الكافرُ عن مثْلِ هذا القولِ، ويُعوَّضُ المؤمنُ بدلَها ما يُعوَّضُ بحيثُ يَتمنَّى لو كانتْ فتنتُه أعظمَ مما كانتْ.

والآيةُ على ما أخرجَ عبد بن حُميد وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشَّعْبي نزلت في أناس كانوا بمكةَ قد أقرُّوا بالإسلام، فكَتَب إليهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ من المدينةِ لمَّا نزلت آيةُ الهجرةِ أنه لا يُقْبَلُ منكم إقرارٌ ولا إسلامٌ حتى تُهاجِروا. فخَرَجوا عامِدينَ إلى المدينة، فاتَّبعَهم المشرِكون فردُّوهم، فنَزلت

فيهم هذه الآيةُ، فكتبوا إليهم: أُنْزِلت فيكم آيةُ كذا وكذا، فقالوا: نَخْرُجُ فإن اتَّبَعَنا أحَدٌ قاتَلْناه. فخرجُوا فاتَّبعَهم المُشرِكون فقاتَلُوهم فمنهم مَن قُتِل ومنهم مَنْ نَجا، فأنزَل اللهُ تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] [النحل: ١١٠].

وأخرج ابنُ المنذِر عن ابن جُرَيْجٍ قال: سمعتُ ابن عُمَيْرٍ وغيرَه يقولون: كان أبو جهْلٍ يعذِّبُ عمارَ بن ياسرٍ وأمَّه، ويَجْعل على عمَّارٍ دِرْعاً من حديد في اليوم الصائف، وطعَن في فرج أمِّه بِرُمْحٍ، ففي ذلك نزلت: (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ) إلخ[2].

وقيل: نزلت في مِهْجَع مولى عمرَ بن الخطاب، قُتِل ببدْرٍ فجزع عليه أبواه وامْرأتُه، وقال فيه رسولُ الله ﷺ: «سيِّدُ الشُّهَداءِ مِهْجَعٌ، وهو أوَّلُ مَن يُدْعى إلى باب الجنة»[3].

وقيل: نزلت في عَيَّاشٍ أخي أبي جهل غُدِر وعُذِّب ليرتَدَّ كما سيأتي خبرُه إن شاء الله تعالى.

وفُسِّر «النَّاسُ» بمن نزلت فيهم الآيةُ. وقال الحَسَن: «الناسُ» هنا المنافقون.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ حالٌ من «الناس»، أو من ضميرِ «يُفْتَنُون»، وعلى الأول يكون علةً لإنكارِ الحُسبانِ، أي: أحَسِبوا ذلك وقد عَلِموا أنَّ سنَّةَ الله تعالى على خِلافِه، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تعالى تبديلاً؟ وعلى الثاني بياناً لأنَّه لا وجهَ لتَخْصيصِهم بعَدَم الافْتِتان. وحاصلُه أنه على الأول تنبيهٌ على الخطأ، وعلى الثاني تخطِئةٌ.

والمرادُ بـ«الذين من قبلهم» المؤمنون أتْبَاعُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام؛ أصابَهم من ضُروبِ الفِتَنِ والمِحَنِ ما أصابهم، فصَبَروا وعَضُّوا على دينِهم بالنَواجِذ، كما يُعربُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ الآيات [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وتفسير ابن أبي حاتم ١٩/ ٣٠٣١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤١.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤١.
(٣) أخرجه الثعلبي ٧/ ٢٧٠ عن مقاتل، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٧.

وروَى البخاريُّ وأبو داودَ والنسائيُّ عن خبَّابِ بن الأرتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ ولقد لَقِينا من المشركين شِدَّةً، فقلنا: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ فيُحْفَر له في الأرضِ فيُجْعَل فيها، ثم يؤْتَى بالمِنْشار فيُوْضَعُ على رأسه فيُجْعَلُ نِصْفَين، ويُمْشَط بأمشاطِ الحديد ما دونَ لحمِه وعَظْمِه، ما يَصُدُّه ذلك عن دينه»[1].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: في قولهم: آمنا. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ في ذلك. والفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما يُفْصِحُ عنه ما قبلَها من وقوع الامتحان، واللامُ واقعةٌ في جواب القَسَم، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربيةِ المهابة، وتكريرُ الجواب لزِيادةِ التأكيدِ والتقريرِ. ويُتَوَهَّمُ من الآية حُدوثُ عِلْمِه تعالى بالحوادثِ، وهو باطل. وأجيب بأنَّ الحادِثَ تعلُّقُ علمِه تعالى بالمعدوم بعدَ حُدوثِه.

وقال ابن المنيِّر: الحقُّ أنَّ عِلْمَ الله تعالى واحدٌ يَتَعلَّقُ بالموجود زمانَ وجودِه وقبلَه وبعدَه على ما هو عليه، وفائدةُ ذِكْرِ العِلم ها هنا وإن كان سابقاً على وجودِ المعلوم: التنبيهُ بالسَّبَب على المسبَّب وهو الجزاء، فكأنه قيل: فوالله ليعلَمَنَّ بما يُشْبِهُ الامتحانَ والاختبارَ الذين صدقوا في الإيمان الذي أَظْهَروه، والذين هم كاذبون فيه مستمِرُّون على الكَذِب؛ فَلَيُجازِيَنَّ كُلًّا بحَسَبِ علمه فيه[2].

وفي معناه ما قاله ابن جِنِّي: من أنه من إقامةِ السبب مُقامَ المسبَّب، والغرَضُ فيه: لَيُكَافِئَنَّ الله تعالى الذين صَدَقوا ولَيُكافِئَنَّ الكاذبين، وذلك أنَّ المكافَأةَ على الشيء إنَّما هيَ مُسَبَّبَةٌ عن عِلْمٍ[3].

وقال مُحيي السُّنة: أي: فَلَيُظْهِرَنَّ اللهُ تعالى الصادقينَ مِنَ الكاذبين حتى يُوْجَدَ معلوماً[4]؛ لأنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بهم قبلَ الاختبار.

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٤٣)، وسنن أبي داود (٢٦٤٩)، والمجتبى ٨/ ٢٠٤، والسنن الكبرى (٥٨٦٢)، وهو عند أحمد (٢١٠٥٧).

(٢) الانتصاف ٣/ ١٩٦.

(٣) المحتسب ٢/ ١٥٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٨٦.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وجعفرُ بن محمدٍ والزهريُّ ﷺ: «فَلَيُعْلِمَنَّ» بضَمِّ الياءِ وكَسْرِ اللَّام[١] على أنه مضارِعُ «أَعْلَمَ» المنقولةِ بهَمْزةِ التعديَة من «عَلِمَ» المتعدِّيةِ إلى واحدٍ، وهِيَ التي بمعنى «عَرَفَ»، فيكونُ الفعلُ على هذه القراءة متعدِّياً لاثنين، والثاني هنا محذوف، أي: فَلَيُعْلِمنَّ اللهُ الذين صَدَقوا منازلَهم من الثواب وليُعْلِمَن الكاذبين منازلَهم من العقاب وذلك في الآخرة، أو الأولُ محذوفٌ، أي: فَليُعْلِمنَّ اللهُ الناسَ الذين صدقوا وليعلمنَّهُم الكاذبين، أي: يشهدهم[٢] هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر. والظاهرُ أنَّ ذلك في الآخرة أيضاً. وقال أبو حيَّان: في الدنيا والآخرة[٣].

وجُوِّز أن يكونَ ذلك من الإعلام وهو وضعُ العلامة والسِّمَة فيتعدَّى لواحد، أي: يَسِمُهم بعَلامةٍ يُعْرَفُون بها يومَ القيامة، كبَيَاض الوجوه وسَوَادِها. وقيل: يَسِمُهم سبحانه بعلامةٍ يُعْرفون بها في الدنيا، كقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أَسرَّ سَريرةً أَلبَسَه اللهُ تعالى رِداءَها»[٤].

وقرأ الزهريُّ الفعلَ الأولَ كما قرأ الجماعةُ، والفعلَ الثانيَ كما قرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَه وجعفرٌ والزهريُّ ﷺ[٥].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ قال مجاهد: أي: يُعجِزونا فلا نَقدر على مُجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم. وأصلُ السَّبْقِ الفوتُ، ثم أُريدَ منه ما ذكر.

وقيل: أي: يُعجلونا محتومَ القضاء. والأولُ أولى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٥٩، والبحر ٧/ ١٤٠ عن عليٍّ وجعفر بن محمد، وقد قرأا كذلك في الفعل الثاني، أي: «وليُعلِمنَّ الكاذبين»، كما ذكر ابن جني، وقرأ الزهري الأولى كالمشهورة والثانية كالشاذة كما سيرد.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: يشهرهم كما في البحر ٧/ ١٤٠، ويؤيده قول السمين في الدر المصون ٩/ ٨: أي بشهرة يعرف بها هؤلاء من هؤلاء.

(٣) البحر ٧/ ١٤٠.

(٤) سلف ١٨/ ٤٣٨.

(٥) المحتسب ٢/ ١٥٩، والبحر ٧/ ٤٠.

وفسَّر قتادةُ ـ على ما أخرجه عنه عبد بنُ حُميد وابن جرير ـ «السيئاتِ» بالشرك[١]، والجمعُ باعتبار تعدُّد المُتَّصفين به. وإطلاق العمل على الشرك، سواءٌ قلنا: إنه ما كان عن فكرٍ ورَوِيَّة كما قيل، أو عن قصدٍ كما قال الراغب[٢]، أم لا؛ لا ضَيْرَ فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرِها.

وقيل: المراد بـ «السيئات» المعاصي غيرَ الكفر، فالآية في المؤمنين قطعاً، وهم وإن لم يحسَبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم في ذلك، ولكنْ نُزِّل جَرْيُهم على غير موجب العلم وهو غفلتُهم وإصرارُهم على المعاصي منزلةَ مَن لم يَتَيَقَّن الجزاءَ، ويحسَب أنه يفوتُ اللهَ عز وجل.

وعمَّم بَعضُهم فحمل السيئاتِ على الكفر والمعاصي، وتعليقُ العمل بها بناءً على تسليم تخصيصه بما سمعتَ يحتمل أن يكونَ باعتبار التغليب.

وظاهرُ الآثار يدلُّ على أنَّ هذه الآية نزلت في شأن الكَفَرة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يريد سبحانه بـ «الذين يعملون السيئات» الوليد بن المُغِيرة وأبا جهل والأسودَ والعاصيَ بن هشام وشيبةَ وعتبةَ والوليدَ بن عتبةَ وعتبة بن أبي معيط وحنظلةَ بنَ وائل وأنظارَهم من صناديد قريش.

وفي «البحر»[٣] أنَّ الآية وإن نزلت على سببٍ فهي تعُمُّ جميعَ مَن يعمل السيئات من كافرٍ ومسلم.

والظاهرُ أنَّ «أم» منقطعةٌ بمعنى «بل» التي للإضراب بمعنى الانتقال، وهو انتقالٌ من إنكارِ حسبانِ عدمِ الفَتْن لمجرَّدِ الإيمان إلى إنكارِ حسبانِ عدم المُجازَاة على عمل السيئات.

وقال ابن عطية: «أم» معادلةٌ للهمزة في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ﴾ وكأنه سبحانه قرَّر الفريقين؛ قرَّر المؤمنين على ظنِّهم أنهم لا يفتنون، وقرَّر الكافرين الذين يعملون

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٠، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٤١.
(٢) في مفرداته (عمل).
(٣) ٧/ ١٤١، وعنه نقل المصنف قول ابن عباس.

السيئات في تعذيب المؤمنين وغيرِ ذلك على ظنِّهم أنهم يسبقون نِقَمَات الله تعالى ويُعجزونه[1]. انتهى.

ورُدَّ بأنها لو كانت معادِلةً للهمزة لكانت متصلةً، والتالي باطلٌ لأنَّ شرط المتصلة أن يكونَ ما بعدها مفرداً، نحوُ: أزيدٌ قائمٌ أم عمرٌو؟ أو ما هو في تقدير المفرد، نحوُ: أقام زيد أم قعد؟ وجوابُها تعيينُ أحدِ الشيئَيْنِ أو الأشياء، وبعدها هنا جملةٌ، ولا يمكن الجواب هنا أيضاً بأحد الشيئين، فالحَقُّ أنها منقطعةٌ، والاستفهام الذي تُشْعِر به إنكاريٌّ لا يَحتاجُ للجواب كما لا يخفى.

والظاهر أن الحسبان متعدٍّ إلى مفعولين، وأنَّ «أن يسبقونا» سادٌّ مسدَّهما. وجوَّز الزمخشري هنا أن يُضَمَّنَ معنى التقدير، فيكون متعدِّياً لواحدٍ، و«أن يسبقونا» هو ذلك الواحد[2].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ التضمين ليس بقياس، ولا يُصار إليه إلَّا عند الحاجة، وهنا لا حاجة إليه[3].

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾، أي: بئس الذي يحكُمونه حُكْمُهم ذلك، على أنَّ «ساء» بمعنى «بئس»، و«ما» موصولةٌ، و«يحكمون» صلتُها، والعائد محذوفٌ، وهي فاعل «ساء»، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف. أو: بئس حكماً يحكمونه حكمُهم ذلك، على أن «ما» موصوفةٌ، و«يحكمون» صفتُها، والرابط محذوف، وهي تمييزٌ، وفاعلُ «ساء» ضميرٌ مفسَّرٌ بالتمييز، والمخصوصُ محذوفٌ أيضاً.

وقال ابن كَيْسان[4]: «ما» مصدريَّةٌ، والمصدرُ المؤوَّل مخصوصٌ بالذمِّ، فالتمييزُ محذوف.

وجُوِّز كون «ساء» بمعنى «قبُح»، و«ما» إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة، والمضارع للاستمرار إشارةً إلى أنَّ دأبهم ذلك، أو هو واقعٌ موقعَ الماضي لرعاية

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٤٠، وما سيأتي منه.
(٢) الكشاف ٣/ ١٩٦.
(٣) البحر ٧/ ١٤١.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٤١، وحاشية الشهاب ٧/ ٩٢، والكلام منه.

الفاصِلة، وكِلَا الوجهين حكاهما في البحر[١]، والأول أولى. وعندي أن مثلَ هذا لا يقال إلا في حقِّ الكَفَرة.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: أي: مَن كان يخشى البعث في الآخرة[٢]. فالرجاءُ بمعنى الخوف كما في قول الهُذَلي في وصف عسَّال:

إذا لَسَعتْه الدَّبْرُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالَفها في بيتِ نُوبٍ عواملِ[٣]

ولعل إرادةَ البعث من لقائه عزَّ وجل لأنه من مَباديه. وقيل: لعله جعَل لقاءَ الله تعالى عبارةً عن الوصول إلى العاقبة، إلا أنه لَمَّا كان البعث من أعظمِ ما يَتوقَّف ذلك عليه خصَّه بالذكر.

وفي «الكشاف»: أنَّ لقاء الله تعالى مَثَلٌ للوصول إلى العاقبة مِن تلقِّي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء، ومُثِّلت تلك الحالُ بحالِ عبدٍ قدِمَ على سيده بعد عهد طويل وقد اطَّلع مولاه على ما كان يأتي ويذر، فإمَّا أن يلقاه بِبِشْرٍ وترحيبٍ لِمَا رضي من أفعاله، أو بضدِّ ذلك لِمَا سَخِطَه منها، فمعنى «من كان» إلخ: مَن كان يأمل تلك الحالَ وأن يلقى فيها الكرامةَ من الله تعالى والبشرى[٤].

فالكلامُ عنده من باب التمثيل، والرجاءُ بمعنى الأمل والتوقُّع. وجُوِّز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف: أي: مَن كان يتوقَّع ملاقاةَ جزاءِ الله تعالى ثواباً أو عقاباً، أوملاقاةَ حكمه عز وجل يوم القيامة، وأن يكون بمعنى الخوف والمضافُ محذوفٌ أيضاً، أي: مَن كان يخاف ملاقاةَ عقاب الله تعالى، وأن يكون بمعنى ظنِّ حصولِ ما فيه مسرَّةٌ وتوقُّعِه كما هو المشهور، والمضافُ كذلك أيضاً، أي: مَن كان يرجو ملاقاةَ ثواب الله تعالى. ويجوز أن لا يقدَّرَ مضاف، ويُجْعَلَ لقاءُ الله تعالى مجازاً عن الثواب لِمَا أنه لازمٌ له.

---

(١) ٧/ ١٤١.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٤.
(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٣، وسلف ١١/ ٣٨.
(٤) الكشاف ٣/ ١٩٧.

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهورِ، وأنَّ لقاءَ الله تعالى مشاهدَتُه سبحانه على الوجه اللائق به عزَّ وجلَّ كما يقوله أهلُ السنَّة والجماعة، إذ لا حاجةَ للخروج عن الظاهر من غير ضرورةٍ. وما حسبه المعتزليُّ منها فليس منها كما بُيِّن في علم الكلام، أي: مَن كان يتوقَّع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التي لا نعيمَ يعدلُها، ويلزَمُها الفوزُ بكلِّ خير ونعيم.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجَلُ غايةٌ لزمانٍ ممتدٍّ عُيِّنَت لأمر من الأمور، وقد يطلَق على كلِّ ذلك الزمانِ، والأول أشهرُ في الاستعمال، أي: فإنَّ الوقتَ الذي عيَّنه جلَّ شأنُه لذلك ﴿لَأٓتٖۚ﴾ لا محالةَ من غير صارفٍ يَلْويه، ولا عاطفٍ يَثْنيه؛ لأن أجزاء الزمان على التقضِّي والتصرُّم دائماً، ومجيءُ ذلك الوقت كنايةٌ عن إتيانِ ما فيه ووقوعِه. والجملةُ الاسمية قائمةٌ مقامَ جواب الشرط، وهي في الحقيقة دليلُ الجواب المحذوف، أي: فلْيُبادِرْ ما ينفعه[1] من امتثال الأوامر واجتناب المناهي، أو: فليبادر ما يحقِّق أمله ويصدِّق رجاءه، أو نحو ذلك مما يلائم الشرطَ، فتدبَّر.

وقيل: يجوز أن تكون هي الجوابَ، على أنَّ المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذُكر.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ جلَّ شأنُه لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة. والجملة تذييلٌ لتحقيق حصول المرجوِّ والمَخُوف وعداً ووعيداً.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعة الله عزَّ وجلَّ ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ لعَوْد المنفعة من الثَّواب المُعَدِّ لذلك إليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ فلا حاجةَ له إلى طاعتهم، وإنما أمَرَهم سبحانه بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ الأصليَّ أو العارضيَّ بالإيمان، والمعاصيَ بما يتبعها من الطاعات.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾، أي: أحسنَ جزاءِ أعمالهم. والجزاءُ

---

(١) في (م): ينفقه، وهو تصحيف.

الحَسَن أن يُجازَى بحسنةٍ حسنةً، وأحسنُ الجزاء أن تُجازَى الحسنةُ الواحدة بالعَشْر وزيادةٍ.

وقيل: لو قدِّر: لنجزيَنَّهم بأحسنِ أعمالهم، أو: جزاءَ أحسن أعمالهم؛ لإخراج المباح، جاز.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: أَمَرْناه بتعهُّدِهما ومُراعاتهما، وانتصب «حُسْنًا» على أنه وصفٌ لمصدرٍ محذوف، أي: إيصاءً حُسْناً، أي: ذا حُسنٍ، أو هو في حدِّ ذاته حُسْنٌ لفرْطِ حُسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهذا ما اختاره أبو حيان[١]، ولا يخلو عن حُسْنٍ.

وقال الزمخشريُّ: «حُسْناً» مفعولٌ به لمصدرٍ محذوفٍ مضافٍ إلى «والديه»، أي: وصَّيْناه بإيتاء والدَيْه ـ أو: بإيلاءِ والديه ـ حُسناً[٢]. وفيه إعمالُ المصدر محذوفاً وإبقاءُ عَمَلِه، وهو لا يجوز عند البصريِّيْن.

وجُوِّز أن يكون «حُسْناً» مصدراً لفعلٍ محذوف، أي: أَحْسِنْ حُسْناً، والجملةُ في موضع المفعول لـ «وصَّى» لتضمُّنِه معنى القول، وهذا على مذهب الكوفيِّيْن القائلين بأنَّ ما يَتضمَّن معنى القول يجوز أن يَعْملَ في الجُمَل من غيرِ تقديرٍ للقول. وعند البصريِّين يقدَّر القولُ في مثل ذلك، وعليه يجوز أن يكون مفعولاً به لفعلٍ محذوف، والجملة مقولُ القول، وجملةُ القول مفسِّرةٌ للتوصية، أي: قلنا: أَوْلِهما ـ أو: افعَلْ بهما ـ حُسناً، وعلى هذا يحسُن الوقف على «بوالديه» لاستئناف الجملة بعدَه، ورُجِّح تقديرُ الأمر بأنه أوفقُ لِمَا بعده من الخطاب والنهي الذي هو أخوه، لكن ضُعِّف ما فيه كثرةُ تقديرٍ بكثرةِ التقدير.

ونقل ابن عطيَّةَ عن الكوفيِّين[٣] أنهم يجعلون «حُسناً» مفعولاً لفعل محذوف،

---

(١) في البحر ٧/ ١٤٢.

(٢) الكشاف ٣/ ١٩٧.

(٣) كذا ذكر المصنف، والصواب أن ناقل هذا عن الكوفيين هو صاحب كتاب التحرير كما في البحر ٧/ ١٤٢، وقد ذكره أبو حيان إثر كلام لابن عطية. وكتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير لجمال الدين محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب. كشف الظنون ١/ ٣٥٨.

ويقدِّرُوْن: أن يفعلَ حُسناً. وفيه حذفُ «أنْ» وصلتِها وإبقاءُ المعمول، وهو لا يجوز عند البصريين.

وقيل: إنَّ «حُسناً» منصوبٌ بنَزْع الخافض، و«بوالديه» متعلِّقٌ بـ «وصَّينا»، والباء فيه بمعنى «في»، أي: وصَّينا الإنسان في أمر والديه بحُسن. وهو كما ترى.

وقرأ عيسى والجحدريُّ: «حَسَناً» بفتحتين[1]. وفي مصحفِ أُبَيٍّ «إحساناً»[2].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ عطفٌ على ما قبله، ولا بدَّ من إضمارِ القول إن لم يضمَر قبلُ، أي: وقلنا: إن جاهداك.. إلخ، لئلا يلزمَ عطفُ الإنشاء على الخبر؛ لأن الجملة الشرطية إذاكان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيةٌ كما صرَّحوا به، فإذا لم يُضمَرِ القول لا يليق عطفُها على «وصَّيْنا» لِمَا ذُكر، ولا على ما عَمل فيه لكونه في معنى القول وهو «أَحْسِنْ» وإن توافقا في الإنشائية، لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه نهيٌ[3] عن مطاوَعتهما. وأمَّا عطفُه على «قُلْنا» المفسِّر للتوصية فلا يَضُرُّ؛ لِمَا فيه من تقييدها بعدم الإفضاء إلى المعصية مآلاً، فكأنه قيل: أحسِنْ إليهما وأطِعْهما ما لم يأمراك بمعصيةٍ؛ فتأمَّلْ. والظاهر الذي يقتضيه المقامُ أنَّ «ما» عامٌّ لِمَا سواه تعالى شأنه.

وقوله سبحانه: «به» على حذفِ مضافٍ، أي: ما ليس لك بإلهيَّتِه علمٌ. وتنكيرُ «علم» للتحقير، والمراد: لتُشْرِكَ بي شيئاً لا يصحُّ أن يكونَ إلهاً ولا يستقيم، وفي العدول عنه إلى ما في النَّظْم الجليل إيذانٌ بأنَّ ما لا يُعْلم صحتُه ولو إجمالاً كما في التقليد لا يجوز اتِّباعه وإن لم يُعْلم بطلانُه، فكيف بما عُلِم على أتمِّ وجهٍ بطلانُه؟

وجعل العلَّامة الطيبيُّ نفيَ العلم كنايةً عن نفي المعلوم، وعلَّل ذلك بأنَّ هذا الأسلوبَ يُستعمل غالباً في حقِّ الله تعالى، نحو: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس:١٨]. ثم قال: وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نفيَ الشرك من العلوم

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، والبحر ٧/ ١٤٢.

(٣) في (م): منهي، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٩٣، والكلام منه.

الضروريَّة، وأنَّ الفطرةَ السليمة مجبولةٌ عليه على ما ورد: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفِطْرة»[١]، وذلك أنَّ المخاطَب بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنسُ الإنسان. انتهى، وفيه بحث.

ومتعلِّق «تُطِعْهما» محذوفٌ لوضوح دلالة الكلام عليه، أي: وإن استفرَغا جهدَهما في تكليفِك لتشركَ بي غيري مما لا إلهيَّةَ له فلا تُطِعْهما في ذلك فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق. وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدَتهما في التكليف إشعارٌ بأنَّ مُوجب النهي فيما دونَها من التكليف ثابتٌ بطريقِ الأَوْلَوِيَّة، وكذا موجبه في مجاهَدةِ أحدهما.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: مرجعُ مَنْ آمنَ منكم ومَن أشرك، ومَن برَّ ومَن عقَّ. والجملة مقرِّرةٌ لِمَا قبلها، ولذا لم تُعطفْ. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ بأنْ أجازِيَ كلًّا منكم بعمله؛ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

والآية نزلت في سعد بن أبي وقَّاص، وذلك أنه ﷺ حين أسلم قالت أمُّه حمنةُ بنت أبي سفيان بن أميَّةَ بنِ عبد شمس: ياسعدُ، بلَغني أنَّك صَبأْتَ، فوالله لا يُظِلُّني سقفُ بيتٍ من الضِّحِّ والريح، وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرامٌ حتى تكفرَ بمحمد ﷺ. وكان أحبَّ ولدِها إليها، فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه، فنزلت هذه الآية والتي في «لقمان»[٢] والتي في «الأحقاف»[٣]، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريَها ويترضَّاها بالإحسان[٤].

وروي أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزوميِّ، وذلك أنه هاجر مع

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية. وحديث: «كل مولود...» أخرجه أحمد (٧١٨١)، والبخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآيتان (١٤-١٥).

(٣) الآية (١٥).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٦ دون سند، وكذا الثعلبي والكلبي كما ذكر ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف، ونقله المصنف عن الكشاف ٣/ ١٩٨، وأخرجه بنحوه مسلم (١٧٤٨): (٣) كتاب فضائل الصحابة من حديث سعد رضي الله عنه.

عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه مترافقين[1] حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام أخواه لأمِّه أسماءَ بنت مخرمة[2] امرأة من بني تميم من بني حنظلةَ؛ فنزلا بعيَّاش وقالا له: إنَّ مِن دين محمد صلةَ الأرحام وبرَّ الوالدينِ، وقد تركتَ أمَّك لا تَطْعَمُ ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشدُّ حبًّا لك منَّا، فاخْرُجْ معنا. وفتَلَا منه في الذروة والغارب[3]، فاستشار عمرَ رضي الله عنه فقال: هما يخدعانك، ولك عليَّ أنْ أَقْسِم مالي بيني وبينَك. فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمرَ رضي الله عنه، فقال عمرُ رضي الله عنه: أمَا إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعيرٌ يلحَقُها، فإنْ رابَكَ منهم ريبٌ فارجعْ. فلمّا انتهَوْا إلى البيداء قال أبو جهل: إنَّ ناقتي قد كلَّت فاحملني معك. قال: نعم. فنزل ليوطئَ لنفسه وله، فأخذاه فشدَّاه وِثاقاً وجَلَده كلٌّ واحد مئةَ جلدةٍ، وذهبا به إلى أمِّه. فقالت: لا تزال بعذابٍ حتى ترجعَ عن دين محمد ﷺ، فنزلت[4].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ أي: في زُمْرة الراسخين في الصلاح الكاملين به، والصلاحُ ضدُّ الفساد، وهو جامعٌ لكلِّ خير، وله مراتبُ غيرُ متناهية، ومرتبةُ الكمال فيه مرتبةٌ عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. ويحتمل أن يكون الكلام بتقديرِ مضاف، أي: في مدخل الصالحين وهي الجنة.

---

(١) في (م): متوافقين، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ١٩٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) كذا نقل المصنف عن الكشاف، والصواب: مخرِّبة بالباء قبلها راء مشدَّدة مكسورة. الإكمال ٧/ ٢١١، والإصابة ١٢/ ١١٨.

(٣) مثل يضرب في المكر والمخادعة، والمعنى: ما زالا يخدعانه حتى أزالاه عن رأيه. وأصل المثل في البعير إذا كان صعباً شرساً، فيَحُكُّ الرجل سنامه وغاربه ـ وهو مقدم السنام ـ ويفتل الوَبْر فيهما يؤنسه بذلك، ويخدعه حتى يستمكن منه. وذروة البعير بكسر الذال وضمها: أعلاه. جمهرة الأمثال ٢/ ٩٨، والمستقصى ٢/ ١٧٩، ومجمع الأمثال ٢/ ٦٩.

(٤) الكشاف ٣/ ١٩٨، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٧: هذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار [مسند البزار (١٥٥)] قال: حدثني نافع، عن ابن عمر، عن عمر مطولاً. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٦١: رجاله ثقات.

والموصول مبتدأ، «ولنُدْخِلَنَّهم» الخبر على ما ذكره أبو البقاء، وجوَّز أن يكون في موضع نصب على تقديرِ: لَنُدْخلَنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُدْخِلَنَّهم(١).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضهم ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لأَجْلِه عزَّ وجلَّ، على أنَّ «في» للسببية، أو المراد: في سبيل الله تعالى، بأنْ عذَّبهم المشركون على الإيمان به تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نَزَّلوا ما يُصيبهم مِن أذيَّتِهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: منزلةَ عذابِه تعالى في الآخرة، فجَزِعوا من ذلك ولم يصبروا عليه، وأطاعوا الناسَ وكفروا بالله تعالى كما يُطيعُ الله تعالى مَن يخافُ عذابَه سبحانه فيؤمِنُ به عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بأنْ حَصَل للمؤمنين فتحٌ وغنيمةٌ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضمِّ اللام الثانية وحذفِ ضميرِ الجمع لالتقاء الساكنين، وهذا الضمير عائدٌ إلى «مَن» والجمعُ بالنظر إلى معناها، كما أنَّ إفراد الضمائرِ العائدةِ إليها فيما سَبَق بالنظر إلى لفظها. وحكى أبو مَعاذٍ النحويُّ أنه قُرِئ: «ليقولَنَّ» بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سَبَق(٢).

﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: مُشايِعيْنَ لكم في الدِّين؛ فأشْرِكُونا فيما حصل من الغنيمة. وقيل: أي: مُقاتِلين معكم ناصرينَ لكم، فالمرادُ الصُّحبةُ في القتال. ورُدَّ بأنها غيرُ واقعةٍ.

والآية نزلت في ناسٍ مِنْ ضَعَفَةِ المسلمين؛ كانوا إذا مسَّهم أذًى من الكفَّار وافَقوهم، وكانوا يكتُمُونه من المسلمين، وبذلك يكونون منافقينَ، ولذا قال ابن زيدٍ والسدِّيُّ: إنَّ الآيةَ في المنافقين.

فَرَدَّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ وهو في الظاهر عطفٌ على مقدَّر، أي: أيَخْفى حالُهم وليس.. إلخ، أو: أليس المتفرِّسون الذين ينظُرون بنورِ الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس.. إلخ.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٣.

و«أَعْلَمَ» إمَّا على أصله، أي: أليس هو عز وجل أعلَمَ مِنَ العالمين بما في صدورِ العالمين من الأخلاق والنِّفاق، حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاءِ عن المسلمين، وادِّعاءِ كونِهم منهم لنَيْلِ الغنيمة. أو هو بمعنى عالِم.

وقال قتادة: نزلت فيمَن هاجر فردَّهم المشركون إلى مكة.

وقيل: نزلت في ناسٍ مؤمنين، أخرجهم المشركون إلى بدْرٍ فارتدُّوا، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء:٩٧]. وما تقدَّم هو الأوفقُ لِمَا سبق من الآية وما لَحِق من قوله سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ سواءٌ كان كفرُهم بأذيَّةٍ أو لا. والمراد بالعلم المجازاةُ، أي: ليَجْزِينَّهم بما لهم من الإيمان والنفاق. وكأنَّ تلوينَ الخِطاب في «الذين آمنوا» و«المنافقين» لرِعاية الفواصل.

والظاهر أنَّ الآية بناءً على أنَّ النفاقَ ظَهَر في المدينة مدنيَّةٌ، وهو يؤيِّد ما تقدَّم مِنْ عدِّها من المستثنيَات، ولعلَّ مَن يقول: إنها مكية؛ لظاهِرِ إطلاقِ جَمْعِ القولَ بمكيةِ السُّورة، وأنَّ تعذيبَ الكَفَرة المسلمين إنَّما كان في الأغْلَبِ بمكةَ، يمنع ذلك، أو يذهب إلى أنَّها من الإخبار بالغيب، فتدبَّر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيانٌ لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة، بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد، ووَصَفهم بالكفر هاهنا دونَ ما سَبَق لما أنَّ مَساقَ الكلام لبيان جنايتهم، وفيما سَبَق لِبَيَانِ جِنايةِ مَن أضلُّوه. واللَّامُ للتبليغ، أي: قالوا مخاطبين لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: اسْلُكوا طرِيقَتَنَا التي نَسْلُكُها في الدِّين، عَبَّر عن ذلك بالاتِّباع الذي هو المَشْيُ خلفَ ماشٍ آخَرَ، تنزيلاً للمسلكِ منزِلَةَ السَّالك فيه، أو: اتَّبِعونا في طريقتنا.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: إذا كان ذلك الاتِّباعُ خطيئةً يُؤاخَذُ عليها يومَ القيامة كما تقولون، أو: ولْنُحْمِلْ ما عليكم من الخطايا إن كان بعثٌ ومؤاخَذَةٌ، وإنَّما أَمَروا أنفسَهم بالحَمْلِ عاطفينَ له على الأمر بالاتِّباع؛ للمبالَغة في تعليق الحمل بالاتِّباع، فكأنَّ أصلَ الكلام: اتَّبِعُوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، بجَزْمِ «نَحمِلْ» على أنه جوابُ الأمر، فيكون المعنى: إن تتَّبعوا نحملْ، فعُدِل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالَغة

المذكورة، ومنشَؤُها الإشارةُ إلى أنَّ الحملَ لتحقُّقِه كأنه أمرٌ واجبٌ أُمِرُوا به مِن آمِرٍ مُطاعٍ. والتعليقُ على الشرط الذي تضمَّنَه الأمرُ كما في قولهم: أكرِمْني أنفعْك، لا يفيدُ ذلك، والداعي لهم إلى المبالَغة التشجيعُ على الاتِّباع. والحملُ هنا مجازٌ، وفي «البحر»: شُبِّه القيامُ بما يتحصَّلُ من عواقِبِ الإثم بالحمل على الظَّهْر؛ والخطايا بالمحمول. قال مجاهد: الحمل هنا من الحَمَالة، لا من الحمل[(١)] انتهى.

والآيةُ على ما أخرج جماعةٌ عن مجاهد نزلت في كُفَّارِ قريش؛ قالوا لمن آمَنَ منهم: لا نُبْعَثُ نحن ولا أنتم، فاتَّبِعونا، فانْ كان عليكم شيءٌ فعَلَيْنا[(٢)].

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابن المنذر عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل وصناديدُ قريش يتلقَّون الناسَ إذا جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ يُسْلمون، يقولون: إنه يُحرِّم الخمرَ، ويحرِّمُ الزِّنى، ويحرِّم ما كانت تصنع العربُ، فارْجِعوا فنحن نحملُ أوزارَكم. فنزلت هذه الآية[(٣)].

وقيل: قائلُ ذلك أبو سفيانَ بنُ حرب وأميةُ بن خلف؛ قالا لعمرَ رضي الله عنه: إنْ كان في الإقامة على دين الآباء إثْمٌ فنحن نحمله عنك.

وقيل: قائله الوليدُ بن المغيرة، ونسبةُ ما صَدَرَ عن الواحد للجَمْع شائعةٌ، وقد تقدَّم الكلامُ غيرَ مرةٍ في وجه ذلك.

وقرأ الحسن وعيسى ونوحٌ القارئُ: «ولِنَحْمِل» بكَسْر لامِ الأمر، ورُويت عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[(٤)].

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ نَفْيٌ مؤكِّدٌ على[(٥)] سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التي التزَمُوا حملَها، فالباءُ زائدةٌ لتأكيدِ النفي، والاستمرارُ الذي تُفِيْدُه الجملةُ الاسْميَّةُ معتَبَرٌ بعدَ النفي، و«مِن» الأولى للبيان،

---

(١) البحر ٧/ ١٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٣٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٠١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٣.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٣.

(٥) في (م): عن.

وهو مقدَّم مِنْ تأخيرٍ، و«مِن» الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيد الاستغراق. وهذه الجملةُ اعتراضٌ أو حالٌ.

وقرأ داودُ بنُ أبي هند فيما ذكر أبو الفضل الرازيُّ: «مِنْ خَطِيْئَتِهِمْ» على التوحيد، قال: ومعناه الجنسُ، ودلَّ على ذلك اتصافُه بضَميرِ الجماعة[١]. وذكر ابن خالويه وأبو عمرو الداني أنَّ داودَ هذا قرأ: «مِنْ خطيئاتهم»، جَمْعُ «خطيئة» جَمْعَ السَّلامةِ بالألف والتاء[٢].

وذكر ابن عطيةَ عنه أنَّه قرأ: «مِن خَطْيِهم» بفتح الطَّاء وكسر الياء، وينبغي أن يُحْمَلَ كسرُ الياء على أنَّها همزةٌ سهِّلَت بينَ بينَ، فأَشْبَهَتِ الياءَ، لأنَّ قياسَ تَسْهِيلِها هو ذلك[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ⑫﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للنفي السابق، والكَذِبُ قيل: راجعٌ إلى تعليقِ الحمل بالاتِّباع ـ فإنَّه إخْبارٌ ـ لا إلى الأمْرِ السابقِ، لأنَّه إنشاءٌ ولا يجري الكذبُ فيه.

وتُعُقِّبَ بأنَّ التعليقَ لا يلزَمُه أنْ يكونَ إخباراً، بل هو ضَمانٌ معلَّقٌ، أي: إنشاءُ الضَّمانِ عند وجودِ الصِّفة، ولذا قال الزمخشريُّ: إنَّ ضامِنَ ما لا يُعْلَمُ اقتدارُه على الوَفاء به لا يُسَمَّى كاذِباً، لا حينَ ضَمِن ولا حينَ عَجَزَ؛ لأنَّه في الحالينِ لا يَدْخُلُ تحتَ حدِّ الكاذب، وهو المُخْبِرُ عن الشيءِ لا على ما هو عليه. وجَعَل هذا سؤالاً عن وجهِ التعبيرِ بـ «كاذبون»[٤].

وأجابَ عن ذلك بوجهين، ثانيهما على ما في «الكشف» هو الوجهُ، وحاصلُه أنَّ الكَذِبَ ليس راجعاً إلى أنَّهم غيرُ حاملين؛ لِيُقَال: إنَّ الضامنَ لا يُسَمَّى كاذباً، بل أَخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّهم عَجَزٌ عمَّا ضَمِنوه، ومع ذلك هم كاذبون في وَعْدِ إنشاء الضَّمانِ عند وجود الوصف، والمحصّل أنَّ مَن وَعَد الضمانَ إنْ ضَمِن ولم يحقِّقْ

(١) البحر ٧/ ١٤٤.
(٢) القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٤، وعنه نقل المصنف كلام ابن خالويه وأبي عمرو الداني.
(٣) البحر ٧/ ١٤٤، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩.
(٤) الكشاف ٣/ ١٩٩.

لا يُسَمَّى كاذِباً، وإنْ لم يَضْمَنْ سُمِّيَ كاذباً. وأوَّلهما أنَّه شَبَّهَ اللهُ تعالى حالَهم حيثُ عَلِم أنَّ ما ضَمِنوه لا طريقَ لهم إلى أنْ يَفُوا به، فكان ضمانُهم عنده سبحانه لا على ما هو عليه المضمونُ، بالكاذبين الذين خَبَرُهم لا على ما عليه المُخْبَرُ عنه[١].

وقال بعضُ المحقِّقِين: الكَذِبُ راجعٌ إلى الخبر الذي في ضِمْنِ وعدِهم بالحمل، وهو[٢] أنَّهم قادرون على إنجازِ ما وَعَدُوا، والكَذِبُ كما يتطرَّقُ إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرَّقُ إليه باعتبار ما يلزَمُ مدلولَه.

وفي «الانتصاف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ نكتةً حَسَنةً يُستَدَلُّ بها على صِحَّةِ مجيءِ الأمرِ بمعنى الخبر، فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ أنكره والتَزَمَ تخريجَ جميعِ ما وَرَد في ذلك على أصلِ الأمر، ولم يَتِمَّ له ذلك في هذه الآية، لأنَّه سبحانه أردَفَ قولَهم: «ولْنَحْمِلْ خطاياكم» على صيغة الأمرِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ والتكذيبُ إنَّما يتطرَّقُ إلى الأخبارِ[٣]. انتهى.

ويُعْلَمُ منه وجهُ كونهم كاذبين في قولِهم ذلك مع إخراجِهم له مخرجَ الأمر، إلَّا أنَّ في كونِ الآية دليلاً على ما ذكره نظراً كما لا يخفى.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ بيانٌ لِمَا يستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرة من المضرَّة لأنفُسِهم، بعد بيانِ عدمِ منفعتِه لمخاطَبيهم أصلاً. والتعبيرُ عن الخطايا بالأثقال للإيذانِ بغايةِ ثقلِها وكونِها فادحةً. واللَّام واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ، أي: وَبالله ليحمِلُنَّ أثقالَ أنفُسِهم كاملةً ﴿وَأَثْقَالًا﴾ أُخَرَ ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أثقالُ ما تسبَّبُوا بالإضلالِ والحملِ على الكفرِ والمعاصي، من غيرِ أنْ ينقصَ من أثقالِ مَن أضلُّوه شيءٌ ما؛ فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِل به، فله مثلُ أجورِ الذين اتَّبَعُوه، ولا يَنْقُص ذلك من أجورِهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضَلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها، فعليه مثلُ

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٠.
(٢) في (م): وهم، وهو تصحيف.
(٣) الإنصاف ٣/ ١٩٩.

أوزَارِ الذين اتَّبعُوه، ولا يَنْقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئاً». قال عون: وكان الحسن يقرأ عليها: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)[١].

وللإشارةِ إلى استقْلالِ أثْقالِ أنفسِهم، وأنَّها نهضَتْهم واستَفْرَغَتْ جُهْدَهم، وأنَّ الأثقالَ الأُخَرَ كالعَلاوَةِ عليها، اخْتِيْرَ ما في النَّظمِ الجليل على أنْ يقال: وليحملُنَّ أثقالاً مع أثقالهم.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريعٍ وتَبْكيتٍ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يختَلِقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي من جُمْلَتِها كَذِبُهم هذا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ شروعٌ في بيانِ افْتتانِ الأنبياءِ عليهم السلامُ بأذيةِ أُممِهم إثْرَ بيانِ افتتانِ المؤمنين بأذيةِ الكفَّار؛ تأكيداً للإنكارِ على الذين يحسَبُون أنْ يُتْرَكوا بمجرَّد الإيمان بلا ابتلاءٍ، وحثًّا لهم على الصبر، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام حيث ابْتُلُوا بما أصابَهم مِنْ جِهَة أُمَمِهم من فنون المَكَارهِ وصبَرُوا عليها، فَلأنْ يَصْبِرَ هؤلاء المؤمنين أولى وأحرى.

والظاهرُ أنَّ الواوَ للعطف، وهو من عطف القصَّة على القصَّة، قال ابن عطية: والقسَمُ فيها بعيدٌ[٢]. يعني: أن يكون المُقْسَمُ به قد حُذف وبَقِيَ حرفُه وجوابُه، فإنَّ فيه حذفَ المجرورِ وإبقاءَ الجارِّ، وهم قالوا: لابدَّ من ذكر المجرور.

والفاءُ للتعقيب، فالمتبادِرُ أنَّه عليه السلام لبِثَ في قومه عقيبَ الإرسالِ المدةَ المذكورةَ، وقد جاءَ مصرَّحاً به في بعضِ الآثار؛ أخرج ابن أبي شيبةَ وعبدُ بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابنُ مردويه، والحاكُم وصحَّحه[٣] عن ابن عبَّاس قال: بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام وهو ابنُ أربعين سنةً، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٢، وأخرجه أحمد (٩١٦٠)، ومسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ دون ذكر الآية.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٤٥.
(٣) قوله: وصححه، كذا نقله المصنف عن السيوطي في الدر ٥/ ١٤٣، ولم نقف على تصحيحه في المستدرك.

خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، وعاشَ بعدَ الطوفان ستِّينَ سنةً حتى كثُر الناسُ وفَشَوْا[١]. وعلى هذه الرواية يكون عمرُه عليه السلام ألفَ سنة وخمسينَ سنةً.

وقيل: إنَّه عليه السلام عُمِّرَ أكثرَ من ذلك، أخرج ابن جرير عن عون بن أبي شدَّاد قال: إنَّ الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابنُ خمسين وثلاثِ مئةِ سنةٍ، فلبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عاماً، ثُمَّ عاش بعد ذلك خمسين وثلاثَ مئةِ سنةٍ[٢]. فيكونُ عمرُه ألفَ سنةٍ وستَّ مئةٍ وخمسين سنةً.

وأخرجَ عبدُ بنُ حميد عن عكرمة قال: كان عُمرُ نوحٍ عليه السلام قبلَ أن يُبْعَثَ إلى قومِه، وبعدَ مَا بُعِثَ، ألفاً وسبعَ مئةِ سنةٍ[٣].

وعن وهب: أنَّه عليه السلامُ عاشَ ألفاً وأربعَ مئةِ سَنَةٍ.

وفي «جامع الأصول»: كانت مُدَّةُ نُبُوَّتِه تسعَ مِئَةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الغرقِ خمسين سنةً. وقيل: مئتي سنةٍ، وكانت مدةُ الطوفانِ ستَّةَ أشهرٍ آخرُها يومُ عاشوراءَ[٤].

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكونَ ما ذكر اللهُ عزَّ وجل مدةَ إقامته عليه السلام من لَدُنْ مولدِه إلى غرَقِ قومه[٥]. وقيل: يحتمل أنْ يكونَ ذلك جميعَ عمرِه عليه السلام. ولا يَخْفى أنَّ المتبادِرَ من الفاء التعقيبيَّةِ ما تقدَّمَ.

وجاء في بعض الآثارِ أنَّه عليه السلام أطولُ الأنبياءِ عليهم السلام عمراً؛ أخرج ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «ذمِّ الدنيا»[٦] عن أنس بن مالك قال: جاء ملَكُ الموت إلى نوح عليهما السلام فقال: يا أطولَ النبيين عمراً، كيف وجدتَ الدنيا ولذَّتَها؟ قال: كرجُلٍ دخل بَيْتاً له بابان، فقال[٧] وسَطَ الباب هُنَيْهَةً، ثُمَّ خرج من الباب الآخر.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٤١، والمستدرك ٢/ ٥٤٥-٥٤٦، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٧٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٤٣.

(٤) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٦) برقم (٢٢٩).

(٧) كذا في الأصل و(م)، وفي ذم الدنيا: فقام.

ولعلَّ ما عليه النظمُ الكريمُ في بيانِ مدَّةِ لبثه عليه السلام للدَّلالة على كمالِ العدد، وكونِه متعيِّناً نصًّا دونَ تجوُّزٍ، فإنَّ تسعَ مئةٍ وخمسين قد يُطْلَقُ على ما يَقْرُبُ منه، ولِمَا في ذكر الألفِ مِنْ تخييلِ طولِ المدَّةِ؛ لأنَّها أولُ ما تَقْرَعُ السَّمْعَ، فإنَّ المقصودَ مِن القصةِ تسليةُ رسولِ الله ﷺ، وتثبيتُه على ما كان عليه من مُكابَدةِ ما ينالُه من الكَفَرَةِ، وإظهارِ ركاكةِ رأيِ الذين يَحْسَبُون أنَّهم يُتْرَكون بلا ابْتِلاء. واختلافُ المُمَيِّزَيْنِ لِمَا في التكرير في مثلِ هذا الكلام من البَشاعة، والنكتةُ في اختيارِ السَّنَةِ أوَّلاً أنَّها تُطْلَقُ على الشِّدَّة والجدْب، بخِلاف العام، فناسبَ اختيار السَّنَةِ لزمانِ الدعوة الذي قَاسَى عليه السلام فيه ما قَاسَى من قومِه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي: عقيبَ تمامِ المدَّةِ المذكورةِ، والطوفانُ قد يُطلق على كلِّ ما يطوفُ بالشيء على كثرةٍ وشدَّةٍ، مِنَ السَّيل والرِّيح والظَّلام، قال العجّاجُ:

حتى إذا ما يومُها تَصَبْصَبا وغَمَّ طوفانُ الظلام الأَثْأَبا[1]

وقد غَلَب على طوفانِ الماءِ، وهو المرادُ هنا.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ أي: والحالُ هم مستمِرُّون على الظُّلْم لَمْ يتأثَّرُوا بما سمِعُوا من نُوح عليه السلام من الآيات، ولم يَرْعَوُوا عمَّا هم عليه من الكُفْر والمعاصي هذه المدَّةَ المتمادِيَةَ.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: مَنْ رَكِبَ فيها معه مِنْ أَوْلاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، وقيل: ثمانيةً وسبعين، نصْفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ، منهم أولادُ نوح: سامٌ وحامٌ ويافثٌ ونِساؤُهم. وعن محمد بن إسحاقَ: كانوا عشرةً، خمسةَ رجالٍ وخمسَ نسوةٍ. وروي مرفوعاً: كانوا ثمانيةً: نوحٌ وأهلُه وبنوه الثلاثةُ[2]، أي: مع أهليهم.

---

(١) الصحاح (طوف)، واللسان والتاج (صبب)، وهو في العين ٧/ ٩١ دون نسبة، ولم نقف عليه في ديوان العجاج. وجاء في المصادر: عم، بدل: غم، قال صاحب اللسان: عمَّ: ألبس. وقوله: تصبصبا، أي: ذهب إلا قليلاً. والأثأب: شجر شبه الطرفاء، إلا أنه أكبر منه. اللسان (صبب) و(طوف). وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: الأثأبا هو شجر الأثل، وزاد في هامش الأصل: وبالفارسي: سوره كز.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٠، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٦: لم أره مرفوعاً.

=

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي: السفينةَ ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ عبرةً وعِظَةً لهم؛ لبقائها زماناً طويلاً على الجودي يُشَاهِدُها المارَّةُ، ولِاشْتِهَارِها فيما بين الناس. ويجوز كونُ الضمير للحادثةِ والقصةِ المفهومة مِمَّا قبلُ، وهي عبرةٌ للعالمين لاشتهارِها فيما بينهم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصبٌ بإضمارِ «اذكر» معطوفاً على ما قبله عطفَ القصة على القصة، فلا ضير في اختلافهما خبراً وإنشاءً، و«إذ» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدلُ اشتمالٍ منه؛ لأنَّ الأحيان تشتمل على ما فيها، وقد جوَّز ذلك الزمخشريُّ وابن عطية[1].

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ «إذ» لا تتصرَّفُ، فلا تكون مفعولاً به، والبدليةُ تقتضي ذلك. ثم ذَكَر أنَّ «إذ» إنْ كانت ظرفاً لِمَا مضى لا يصحُّ أن تكونَ معمولةً لـ «اذكر»؛ لأنَّ المستقبلَ لا يقعُ في الماضي فلا يجوز «قُمْ أمسِ»، وإذا خلعتْ من الظرفية الماضَويَّةِ وتُصُرِّفَ فيها جاز أنْ تكون مفعولاً به ومعمولاً لـ «اذكُرْ»[2].

وجَوَّز غيرُ واحد أنْ يكونَ نَصْباً بالعطف على «نوحاً»، فكأنَّه قيل: وأرسلنا إبراهيم، فـ «إذ» حينئذٍ ظرفٌ للإرسال. والمعنى على ما قيل: أرسلناه حينَ تكامَلَ عقلُه وقَدَر على النظرِ والاستدلال، وترقَّى من رُتبة الكمال إلى درجة التكميل حيثُ تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحقِّ، وهذا على ما قاله بعضُ المحقِّقين لِمَا أنَّ القولَ المذكور في حيِّزِ«إذ» إنما كان منه عليه السلام بعدما راهَقَ قبل الإرسال. وأنت تعلَمُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨] إلخ - إذا كان من قوله عليه السلام لقومه - كالنصِّ في أنَّ القول المحكيَّ عنه عليه السلام كان بعد الإرسال.

وفي «الحواشي السَّعدية»: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى دفعِ ما عَسَى أنْ يقال: الدعوةُ تكون بعد الإرسال، والمفهومُ من الآية تقدُّمُها عليه، وحاصلُه أنّه ليس المرادُ من

= وأخرجه الطبري ١٢/ ٤١٠-٤١١ عن قتادة وابن جريج قولهما.

(١) الكشاف ٣/ ٢٠٠-٢٠١، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٢) البحر ٧/ ١٤٥.

الدعوةِ ما هو نتيجةُ الإرسال، بل ما هو نتيجة كمالِ العقل وتمام النظر. مع أنَّ دلالةَ الآية على تقدُّمِها غيرُ مسلَّمة، ففي الوقت سعةٌ. ويجوز أن يكونَ القصدُ هو الدلالةَ على مُبادَرتِه عليه السلام للامتثال. اهـ، فتدبَّرْ.

وجَوَّز أبو البقاء وابن عطية أن يكونَ نصباً بالعطف على مفعولِ «أنجَيْناه»[1]، وهو كما ترى.

والأوفقُ بما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ [العنكبوت:٣٦] أن يكون النصبُ بالعطف على «نوحاً».

وقرأ أبو حنيفة والنخعي وأبو جعفر: «وإبراهيمُ» بالرفع[2] على أنَّ التقديرَ: ومن المرسَلين إبراهيمُ، وقيل: التقديرُ: ومما ينبغي ذكرُه إبراهيمُ، وقيل: التقديرُ: وممن أنجينا إبراهيمُ.

وعلى الأوَّل المعوَّلُ؛ لدلالةِ مَا قبلُ وما بعدُ عليه، ويتعلَّقُ بذلك المحذوفِ «إذ قال لقومه».

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدَه ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أنْ تشرِكوا به سبحانه شيئاً.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما ذُكِرَ من العبادة والتقْوى ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من كلِّ شيء فيه خيريَّةٌ، أو: مِمَّا أنتم عليه على تقدير الخيريَّةِ فيه على زَعْمِكم. ويجوز كونُ «خيرٌ» صفةً لا اسمَ تفضيلٍ.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: الخيرَ والشرَّ، وتُميِّزُون أحدَهما من الآخَر، أو: إن كنتم تعلَمون شيئاً من الأشياء بوجهٍ من الوجوه؛ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكم بخيريَّةِ ما ذُكِرَ من العبادة والتقوى.

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ بيانٌ لبطلانِ دِينِهم وشَرِّيَّته في نفسه بعدَ بيانِ شَرِّيَّتِهِ بالنسبة إلى الدين الحقِّ، أي: ما تعبدونَ من دونه تعالى إلَّا أوْثاناً هي في نفسها تماثيلُ مصنوعةٌ لكم، ليس فيها وصفٌ غيرُ ذلك.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٤٥.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: وتكذِبون كَذِباً حيثُ تُسَمُّونَها آلهةً، وتدَّعُون أنَّها شُفَعَاؤُكم عند الله سبحانه، أو: تعمَلونها وتَنْحِتونها للإفك والكَذِب. واللَّام لامُ العاقبة، وإلَّا فَهُمْ: لَمْ يعمَلوها لأجلِ الكَذِب. وجُوِّز أن يكون ذلك من باب التهكُّم.

وقال بعض الأفاضل: الأظهر كون «إفكاً» مفعولاً به، والمرادُ به نفسُ الأوثان، وجَعلُها كذباً مبالغةٌ. أو الإفك بمعنى المأفوك، وهو المصروفُ عمَّا هو عليه، وإطلاقُه على الأوثانِ لأنَّها مصنوعةٌ وهم يجعلونها صانعاً.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه والسُّلَميُّ وعونٌ العقيليُّ وعبادةُ وابن أبي ليلى وزيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «تَخَلَّقون» بفتح التاء والخاء واللَّام مشدَّدةً[1]. قال ابن مجاهد[2]: ورُويت عن ابن الزبير، وأصلُه: «تَتَخَلَّقُون» فحُذِفت إحدى التاءينِ، وهو من «تخلَّق» بمعنى «تكذَّب» وصيغةُ التكلُّف للمبالَغة. وزَعَم بعضُهم جوازَ أن يكون «تفعَّل» بمعنى «فَعَل».

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما أيضاً: «تُخَلِّقُون» من «خلَّق» بالتشديد[3]؛ للتكثير في الخلق بمعنى الكَذِب والافتراء.

وقرأ ابن الزبير وفُضيل بن زرقان[4]: «أَفِكاً» بفتح الهمزة وكسر الفاء، على أنَّه مصدرٌ كالكَذِب واللَّعِب، أو وصفٌ كالحَذِر وقَعَ صفةً لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: خَلْقاً أَفِكاً، أي: ذا أَفِك.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٤، والمحتسب ٢/ ١٦٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١، والبحر ٧/ ١٤٥، والدر المصون ٩/ ١٤، والكلام من البحر، وجاء في المحرر والدر بدل: عبادة: قتادة، ولم يذكر في القراءات الشاذة والمحتسب.

(٢) كما في القراءات الشاذة ص١١٤، والبحر ٧/ ١٤٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠١، والبحر ٧/ ١٤٥.

(٤) كذا في البحر ٧/ ١٤٥، والدر المصون ٩/ ١٤، وفي المحتسب ٢/ ١٦٠: فضَيل بن مرزوق، وهو أبو عبد الرحمن العنزي مولاهم، الكوفي الأغر، حدث عن عطية العوفي وغيره، توفي قبل سنة (١٧٠هـ). السير ٧/ ٣٤٢، ولم نقف على ترجمة فضيل بن زرقان. والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير وحده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ بيانٌ لشرِّيَّةِ ما يعبدونه من حيثُ إنه لا يكاد يُجْدِيهم نفعاً، و«رزقاً» يحتَمل أن يكونَ مصدراً مفعولاً به لـ «يملِكُون»، والمعنى: لا يستطيعون أنْ يرزقوكم شيئاً من الرزق، وأن يكون بمعنى المرزوق، أي: لا يستطيعون إيتاءَ شيء من الرزق، وجُوِّز على المصدرية أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «يملكون» من معناه، أو لِمَحْذوفٍ، والأصلُ: لا يملكون أن يرزقوكم رزقاً، وهو كما ترى. ونُكِّر ـ كما قال بعض الأجلَّةِ ـ للتحقيرِ والتقليل مبالغةً في النفي. وخُصَّ الرزقُ لمكانته من الخلق.

﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: كلَّه، على أنَّ تعريفَ الرزق للاستغراق. قال الطيبيُّ: هذا من المواضع التي ليست المعْرِفةُ المعادَةُ عينَ الأول فيها[1].

وجُوِّز أن تكونَ عينَ الأوَّل بناءً على أنَّ كلًّا منهما مستغرقٌ.

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ عزَّ وجلَّ وحدَه ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ على نَعْمائِه مُتوسِّلين إلى مَطالِبِكم بعبادته، مُقيِّدين بشكره تعالى للعتيد[2]، ومُستَجْلِبِيْن به للمزيد. فالجملتان ناظرتان لِمَا قبلَهما.

وجُوِّز أن يكونا ناظرتين لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑰﴾ كأنَّه قيل: استعدُّوا لِلِقائه تعالى بالعبادة والشكر فإنَّه إليه تُرجَعون.

وجَوَّز بعضُ المحققين أن تكون هذه الجملةُ تذييلاً لجملةِ ما سَبَق مما حُكي عن إبراهيم عليه السلام، أو لأوَّله، والمعنى: إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه تُرجعون بالموت ثمَّ بالبعث، فافْعلوا ما أمرتُكم به. وما بينهما اعتراضٌ لتقريرِ الشرِّية كما سمعتَ.

وقرئ: «تَرجعون» بفتح التاء من رجع رجوعاً[3].

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ تقديره: فإنْ تصدِّقوني فقد فُزْتُم بسعادة الدارين، وإن تكذِّبوا، أي: تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) أي: الحاضر. القاموس (عتد).

(٣) هي قراءة يعقوب كما في النشر ٢/ ٢٠٨.

بالبعث ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وهذا تعليلٌ للجواب في الحقيقة، والأصل: فلا تضرونني بتكذيبكم، فإنه قد كذَّب أممٌ قبلكم رسلَهم، وهم شيث وإدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام، فلمْ يضرَّهم تكذيبُهم شيئاً، وإنما ضرَّ أنفسَهم حيث تسبَّب لِمَا حلَّ بهم من العذاب، فكذا تكذيبكم إياي.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ أي: التبليغُ الذي لا يبقى معه شكٌّ، وما عليه أن يصدِّقه قومُه البتةَ، وقد خرجْتُ عن عهدة التبليغ بما لا مزيدَ عليه، فلا يضرُّني تكذيبُكم بعد ذلك أصلاً.

وهذه الآيةُ - أعني (وَإِن تُكَذِّبُوا) إلخ - على ما ذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام، وكذا ما بعدُ - على ما قيل - إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٤]، وجوَّز أن يكون ذلك اعتراضاً بذِكْرِ شأن النبيِّ ﷺ وقريش، وهَدْمِ مذهبهم، والوعيدِ على سوء صنيعهم، توسَّط بين طرفي القصة من حيث إنَّ مساقها لتسلية رسول الله ﷺ، والتنفيسِ عنه بأنَّ أباه خليل الرحمن كان مبتلًى بنحوِ ما ابتُلي به من شِرْكِ القوم وتكذيبهم، وتشبيهِ حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فالواوُ في[١] «وإن تكذبوا» اعتراضية، والخطابُ منه تعالى أو من النبيِّ ﷺ على معنى: وقل لقريش: «إن تكذبوا» إلخ.

وذهب بعض المحققين[٢] إلى أنَّ قوله تعالى: «إن تكذبوا» إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، والهمزةُ لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ، أي: ألم ينظروا ولم يعلموا كيفيةَ خَلْقِ اللهِ تعالى الخَلْقَ ابتداءً من مادةٍ ومن غيرِ مادةٍ، أي: قد علموا ذلك.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكرٍ بخلاف عنه: «أَلَمْ تَرَوْا» بتاءِ الخطاب[٣]، وهو على ما قال هذا البعضُ لتشديد الإنكار وتأكيدِه، ولا يحتاجُ عليه إلى تقديرِ قولٍ.

---

(١) في (م): قالوا: وفي، بدل: فالواو، في وهو تصحيف.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ٣٤-٣٥.

(٣) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

ومَن لم يجعل ذلك كلاماً مستأنفاً مسوقاً من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث، قال: إنَّ الخطاب على تقديرِ القول، أي: قال لهم رسلهم: «ألم تروا». ووُجِّه ذلك بأنه جعل ضمير «أولم يروا» على قراءة الغيبة لـ «أمم» في قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فيجعل في قراءة الخطاب له أيضاً ليتَّحد معنى القراءتين، وحينئذ يحتاج لتقدير القول ليُحْكَى خطاب رسلهم معهم؛ إذ لا مجال للخطاب بدونه.

وقيل: إنَّ ذاك لأنه لا يجوز أن يكون الخطاب لمنكري الإعادة من أمة إبراهيم أو نبيِّنا عليهما الصلاة والسلام، وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾؛ لأنَّ الاستفهام للإنكار، أي: قد رأوا، فلا يلائم قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ إلخ؛ لأنَّ المخاطبين فيها هم المخاطبون أوّلاً، يعني إن كانت الرؤيةُ علميةً فالأمرُ بالسير والنظر لا يناسب لمن حَصَلَ له العلمُ بكيفية الخلق، والقولُ بأنَّ الأول دليلٌ أنفسيٌّ والثاني آفاقيٌّ مخالفٌ للظاهر من وجوه. اهـ، فتدبَّر.

ولعل الأظهر والأبعدَ عن القيل والقال في نظم الآيات ما نقلناه عن بعض المحققين.

وقرأ الزبيريُّ وعيسى وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «كيف يبدا» على أنه مضارعُ بَدَأ الثلاثيِّ، مع إبدال الهمزة ألفاً كما ذكره الهمدانيُّ[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ عطفٌ على «أولم يروا» لا على «يُبْدِئُ» لأنَّ الرؤية إن كانت بَصَريةً فهي واقعةٌ على الإبداء دون الإعادة، فلو عُطف عليه لم يصحَّ، وكذا إذا كانت عِلْميةً لأنَّ المقصود الاستدلالُ بما عَلموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته، فلو كان معلوماً لهم كان تحصيلاً للحاصل. وجوِّز العطفُ عليه بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كلَّ سنةٍ مثلَ ما أنشاه سبحانه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما، فإنَّ ذلك مما يستدلُّ به على صحة البعث ووقوعِه ـ على ما قيل ـ من غير ريبٍ.

وعن مقاتل: أنَّ «الخلق» هنا الليلُ والنهار، وليس بشيء.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٩٦، وذكرها عن الزبيري وعيسى وأبي عمرو أبو حيان في البحر ٧/ ١٤٦، والسمين في الدر ٩/ ١٥، ولم يقيداها بإبدال الهمزة ألفاً، وذكرها مقيدة بذلك ابن جني في المحتسب ٢/ ١٦١ عن الزهري.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الإعادة، وجوِّز أن يكون المشارُ إليه ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ إذ لا يحتاج فعلُه تعالى إلى شيءٍ خارجٍ عن ذاته عزَّ وجل.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمرٌ لإبراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحقِّقين، وكذا جَعَله مَن جَعَلَ جميعَ ما تقدَّم من قصة إبراهيم عليه السلام، ومَن جعلَ قولَه تعالى: (وَإِن تُكَذِّبُوا۟) إلى قوله تعالى: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ) اعتراضاً جَعَلَ هذا أمراً لنبيِّنا ﷺ أن يقول ذلك لقريش. وجوِّز أن يُجعل نَظْمُ الآيات السابقة على ما نُقل عن بعض المحققين، ويُجعل هذا أمراً للنبيِّ عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم، فإنهم مثلُ قوم إبراهيم عليه السلام والأممِ الذين من قبلهم في التكذيب بالبعث والإنكارِ له، وما في حيِّز هذا القول متضمِّنٌ ما يدلُّ على صحته، وعَدَمُ اتحادِه مع ما سبق لا يضرّ.

وأيًّا ما كان فإضافة الرحمة إلى ضمير المتكلِّم فيما يأتي إن شاء الله تعالى لِمَا أنَّ ذلك حكايةُ كلامِه عزَّ وجل على وجهه، ومثلُه في القرآن الكريم كثير.

والسَّير كما قال الراغب: المضيُّ في الأرض[1]. وعليه يكون في الآية تجريدٌ، والظاهر أن المراد به المضيُّ بالجسم، وجوِّز أن يراد به إجالةُ الفكر، وحُمل على ذلك فيما يُروَى في وصف الأنبياء عليهم السلام: أبدانُهم في الأرض سائرةٌ، وقلوبُهم في الملكوت جائلةٌ. ومنهم مَن حَمَلَ ذلك على الجدِّ في العبادة المتوصَّلِ بها إلى الثواب.

والمعنى على ما قلنا أوّلاً: امضوا في الأرض وسِيحُوا فيها ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله تعالى ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ أي: كيف خَلَقهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتَّى، فإنَّ ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذِنٌ بتتبُّع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة والكيفيةُ في هذه الآية، لِمَا أنَّ الأولى ـ كما علمتَ ـ باعتبارِ المادَّةِ وعَدَمِها، وهذه باعتبارِ تغايُرِ الأحوال.

---

(١) مفردات الراغب (سار).

ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع أعني «يُبْدِئ»[1] دون الماضي كما هنا لاستحضار الصورة الماضية؛ لِمَا أنَّ بدء الخلق من مادةٍ وغيرها أغربُ من بدءِ الخلق على أطوارٍ مختلفةٍ، على معنى أنَّ خَلْقَ الأشياء أغربُ مِن جَعْلِ أطوارها مختلفةً.

وأنت إذا لاحظتَ أنَّ خَلْقَ الأشياء يعود في الآخرة إلى إيجادها من كتمِ العدمِ من غير سَبْقِ مادةٍ دفعاً للتسلسُل، وأنَّ جَعْلَ أطوارها مختلفةً إنما هو بعد سَبْقِ المادة ولو سَبْقاً ذاتيًّا وهو ما قام به الاختلافُ - أعني ذوات الأشياء - لا تَشُكُّ في أنَّ الأول أغربُ من الثاني، ولذا ترى التمدُّح بأصل الخلق في القرآن العظيم أكثرَ من التمدُّح بالجعل المذكور.

وقد وافق الصيغةَ في الإشعار بالغرابة بناءُ الفعل من باب الإفعال فإنه غيرُ مستعملٍ، ولذا قالوا: إنه مخلٌّ بالفصاحة لولا وقوعُه مع «يُعيد». ومما يَقْرُبُ من هذا السرِّ ما قيل في وجه حَذْفِ الياء من «يَسْرِ» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] من أنَّ ذلك لأنَّ الليل يُسْرَى فيه لا يَسْري، أي: ليدلَّ مخالفةُ الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى، وهو معنًى دقيقٌ.

وقيل: في وجه التعبير بما ذُكر إفادةُ الاستمرار التجدُّديِّ، وهو بناءً على المعنى الثاني في الآية.

وقال بعضهم في تغاير الدليلين: إنَّ هذا عينيٌّ وذلك علميٌّ، أو: هذا آفاقيٌّ والأولُ أنفسيٌّ.

وقرأ الزهريُّ: «كيف بَدَا الخلق» بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً، ثم حَذْفِها في الوصل؛ قال أبو حيان: وهو تخفيفٌ غير قياسيٍّ كما قال:

فارْعَيْ فزارةُ لا هَناكِ المرتَعُ

وقياسُ تخفيفِ هذا التسهيل بين بين[2].

---

(١) في (م): يبدأ.

(٢) البحر ٧/ ١٤٦، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٠٨، وصدره:

ومضت لِمَسْلَمَةَ الركابُ مُودَّعاً

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: بعد النشأة الأولى التي شاهدتُموها. والنشأةُ: الإيجادُ والخَلْقُ، والتعبيرُ عن الإعادة التي هي محلُّ النزاع بالنشأة الآخرة المُشْعِرةِ بكون البدء نشأةً أولى؛ للتنبيه على أنهما شأنٌ واحدٌ من شؤون الله تعالى حقيقةً واسماً، من حيث إنَّ كلًّا منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدم إلى الوجود، ولا فرقَ بينهما إلا بالأوَّلية والأُخروية، كذا قيل.

والظاهر أنه مبنيٌّ على أنَّ الجسد يعدمُ بالكلِّية ثم يُعاد خَلْقاً جديداً، لا أنه تتفرَّقُ أجزاؤه ثم تُجمع بعد تفرُّقها. وإلى كلٍّ ذهب بعضٌ، والأدلةُ متعارضةٌ، والمسألةُ ـ كما قال ابنُ الهمام ـ عند المحقِّقين ظنِّيةٌ[1].

وفي كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» لحجة الإسلام الغزالي: فإن قيل: فما تقولون، أتُعدَمُ الجواهر والأعراض ثم تُعادان جميعاً، أو تُعدَمُ الأعراض دون الجواهر، وإنما تعاد الأعراض؟

قلنا: كلُّ ذلك ممكنٌ، ولكنْ ليس في الشرع دليلٌ قاطعٌ على تعيين أحد هذه الممكنات[2]. انتهى.

وذهب ابن الهمام إلى أنَّ الحقَّ وقوعُ الكيفيتين: إعادةُ ما انعدم بعينه، وتأليفُ ما تفرَّق من الأجزاء[3].

وقد يقال: إنَّ بدء الإنسان ونحوَه ليس اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة؛ لِمَا أنه مخلوقٌ من التراب وسائرِ العناصر، والظاهرُ أنَّ فناءه ليس عبارةً عن صيرورته عدماً محضاً، بل هو عبارةٌ عن انحلاله إلى ما تركَّب منه، ورجوع كلِّ عنصرٍ إلى عنصره.

نعم لا شكَّ في فناء بعض الأعراض وانعدامِها بالكلِّية، وقد يُستثنى منه بعض الأجزاء فلا ينحلُّ إلى ما منه التركيبُ بل يبقى على ما كان عليه، وهو عَجْبُ

---

(١) المسايرة لكمال الدين محمد بن همام الدين المعروف بابن الهمام مع شرحه المسامرة لابن أبي شريف المقدسي ص٢١٩.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص٢٠٠، والمسامرة ص٢١٩-٢٢٠.

(٣) المسامرة ص٢١٩.

الذَّنبِ[١]؛ لظاهر حديث الصحيحين: «ليس شيءٌ من الإنسان لا يَبْلَى إلَّا عظماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنب، منه يركَّب الخلقُ يوم القيامة»[٢] وتأويلُه بما أوَّله به ملَّا صَدْرا في أسفاره مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وحينئذٍ فالإعادة تكون بتركيب ما انحلَّ من العناصر وضمِّه إلى هذا الجزء، فلا تكون اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة، لكنْ لكلٍّ من البدء والإعادة شَبَهٌ تامٌّ بالاختراع والإخراج المذكور، وبه يصحُّ أن يقال لكلٍّ اختراعٍ وإخراجٍ من العدم إلى الوجود، فلا تغفل.

والجملة معطوفةٌ على جملة «سيروا في الأرض» داخلةٌ معها في حيِّز القول، ولا يضرُّ تَخالفُهما خبراً وإنشاءً، فإنه جائزٌ بعد القول وما له محلٌّ من الإعراب، ولا يصحُّ عطفُها على «بدأ الخلْقَ»؛ لأنها لا تصلح أن تكون موقعاً للنظر: أمَّا إن كان بمعنى الإبصار فظاهرٌ، وأمَّا إن كان بمعنى التفكُّر فلأنَّ التفكُّر في الدليل لا في النتيجة.

وإظهارُ الاسم الجليل وإيقاعُه مبتدأً مع إضماره في «بدأ» لإبراز مزيدِ الاعتناء ببيانِ تحقُّق الإعادة، بالإشارة إلى علَّة الحكم؛ فإنه الاسمُ الجامع لصفات الكمال ونعوتِ الجلال، وتكريرِ[٣] الإسناد، وردٌّ ما تقدَّم على مقتضى الظاهر، فلا يحتاج للتوجيه، وكونُ المرادِ منه ليس إثباتَ الإعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال، غيرُ مسلَّم.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النشاءة» بالمد[٤]، وهما لغتان كالرأفة والرآفة، والقصرُ أشهر.

ومحلُّها النصبُ على أنها مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ «ينشئ» بحذفِ الزوائد، والأصل:

---

(١) هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العَجُز، يشبه في المحلِّ محلَّ أصلِ الذَّنَب عند ذوات الأربع. النهاية (عجب)، والمسامرة ص٢١٩.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٨١٨٠).

(٣) عطف على قوله: بالإشارة.

(٤) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣.

الإنشاءة، أو بحذف العامل، أي: يُنشِئُ فينْشَؤون النشأة الآخرة، نحو: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ تعليلٌ لِمَا قبله بطريق التحقيق، فإنَّ مَن عَلِمَ قدرتَه عزَّ وجلَّ على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادةُ، لا يتصوَّر أن يتردَّد في قدرته سبحانه عليها، ولا في وقوعها بعد ما أخبر به.

ثم اعْلَمْ أنَّ أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته كجمع النقيضين، بل غايةُ ما عندهم استبعادُه، والردُّ على هؤلاء بهذه الآيات ونحوِها ظاهرٌ؛ لِمَا فيها مما يزيلُ الاستبعادَ من الإبداء الذي هو في الشاهد أشقُّ من الإعادة. ومنهم مَن يقول باستحالته عقلاً فلا يصلح متعلقاً للقدرة، وهؤلاء هم القائلون باستحالة إعادة المعدوم، والردُّ عليهم بعد تسليم أنَّ ما نحن فيه من إعادة المعدوم وليس من جمع المتفرِّق، بإبطال ما استدلُّوا به على الاستحالة، وقد تكفَّلتِ الكتب الكلامية بذلك، وأمَّا الردُّ عليهم بهذه الآيات ونحوها فلِمَا فيها من الإشارة إلى تزييف أدلَّة الاستحالة، فتدبَّر.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان ما بعد النشأة الآخرة، أي: يعذِّبُ بعد النشأة الآخرة مَن يشاء تعذيبَه، وهم المنكرون لها ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمتَه وهم المقرُّون بها ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ أي: تردُّون، والجملة تقريرٌ للإعادة، وتوطئةٌ لِمَا بعده، وتقديمُ التعذيب لِمَا أنَّ الترهيب أنسبُ بالمقام من الترغيب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له تعالى عن إجراء حُكْمِه وقضائه عليكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالهرب في الأرض الفسيحة، أو الهبوطِ في مكانٍ بعيدِ الغور والعمق بحيث لا يوصلُ إليه فيها، ولا بالتحصُّن في السماء التي هي أفسحُ منها، أو التي هي أمنعُ لمن حلَّ فيها عن أن تناله أيدي الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقيَّ اليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] أو البروجِ(١) والقلاع المرتفعة في جهتها على ما قيل، وهو خلافُ الظاهر.

---

(١) عطف على «السماء» في قوله: ولا بالتحصن في السماء.

وقال ابن زيد والفرَّاء: إنَّ «في السماء» صلةُ موصولٍ محذوفٍ هو مبتدأٌ محذوفُ الخبر، والتقدير: ولا مَن في السماء بمعجِزٍ[١]، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة التي قبلها.

وضعِّف بأنَّ فيه حذفَ الموصول مع بقاءِ صلته، وهو لا يجوزُ عند البصريين إلا في الشعر، كقول حسان:

أَمَن يهجو رسولَ الله منكم ويمدحُه وينصرُه سواءُ[٢]

على ما هو الظاهرُ فيه، على أنَّ ابنَ مالكٍ اشتَرَطَ في جوازه عطفَ الموصول المحذوف على موصولٍ آخَرَ مذكورٍ كما في هذا البيت[٣].

وبأنَّ فيه حذفَ الخبر أيضاً مع عدمِ الحاجة إليه، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفاً على «أنتم»، ولم يجعله مبتدأً محذوفَ الخبر ليكون العطفُ مِن عَطْفِ الجملة على الجملة.

وزعم بعضهم أن الموصول محذوفٌ في موضعين، وأنه مفعولٌ به لـ «معجزين»، وقال: التقدير: وما أنتم بمعجزين مَن في الأرض، أي: مِن الإنس والجنِّ، ولا مَن في السماء، أي: من الملائكة عليهم السلام، فكيف تُعجِزون الله عز وجل؟ ولا يخفى أنَّ هذا في غاية البعد، ولا ينبغي أن يخرَّج عليه كلام الله تعالى.

وقيل: ليس في الآية حذفٌ أصلاً، والسماء هي المُظِلَّةُ، إلَّا أنَّ «أنتم» خطابٌ لجميع العقلاء، فيدخل فيهم الملائكةُ، ويكون «السماء» بالنظر إليهم، و«الأرض» بالنظر إلى غيرهم من الإنس والجنِّ. وهو كما ترى.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحرسُكم من بلاءٍ أرضيٍّ أو سماويٍّ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ يدفعه عنكم.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.

(٢) ديوان حسان ص٦٤. قال الشهاب في الحاشية ٧/ ٩٧: والتقدير: ومَن يمدحه، والحذف فيه ظاهر؛ لأنه لو عطف على صلةِ «مَن» الأولى، كان الهاجي والمادح شخصاً واحداً، ولا يصح الإخبار عنه بسواء لما فيه من مساواة الشيء لنفسه.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٩٧، وفي التسهيل لابن مالك ص٣٨: وقد يحذف ما عُلم من موصول غير الألف واللام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالَّةِ على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأةُ الأولى الدالَّةُ على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولاً أوَّليًا، وتخْصيصُها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ الذي تنطق به تلك الآيات. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عزَّ وجل ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: ييأسون منها يومَ القيامة، على أنه وعيدٌ، وإلا فالكافرُ لا يوصف باليأس في الدنيا لأنه لا رجاءَ له، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقُّق.

وجوِّز أن يكون المراد إظهارَ مباينةِ حالهم وحالِ المؤمنين؛ لأنَّ حال المؤمن الرجاءُ والخشية، وحال الكافر الاغترارُ واليأسُ، فهو لا يُخْطِرُ بباله رجاءً ولا خوفاً؛ إنْ أَخْطَر المخوفَ بباله كان حاله اليأسَ بدل الخوف، وإن أَخْطرَ المرجوَّ كان حاله الاغترارَ بدل الرجاء، فكأنه تنصيصٌ على كفرهم وتعريفٌ لحالهم.

وأن يكون الكلام على الاستعارة؛ شبِّهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر؛ لأنه ما دامت الحياة لا يتحقق اليأسُ من الرحمة لرجاءِ الإيمان، أو مَن قدِّر آيساً من الرحمة على الفرض، دلالةً على توغُّلهم في الكفر وعدمِ ارْعِوائهم.

وقرأ الذماريُّ وأبو جعفر: «ييسوا» بغير همزٍ، بل بياءٍ بدل الهمزة[1].

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ في تكرير اسم الإشارة وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالأليم من الدلالةِ على فظاعةِ حالهم ما لا يخفى، لكن قال الإمام: إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عزَّ وجلَّ دون العذاب ليؤذِنَ بأنَّ رحمته جلَّ وعلا سبقت غضبه سبحانه[2]. وأنت تعلم أنَّ في الآية على هذا دلالةً على سوء حالهم أيضاً؛ لإفادتها أنهم حُرِموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم.

---

(١) البحر ٧/ ١٤٧.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٥٠.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب على أنه خبرُ «كان»، واسمُها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وقرأ الحسن وسالمٌ الأفطسُ بالرفع على العكس[1]، وقد مرَّ ما فيه في نظائره.

والمرادُ بالقتل ما كان بسيفٍ ونحوِه فتظهرُ مقابلةُ الإحراق له، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ «أو» بمعنى «بل». والآمرون بذلك إمَّا بعضُهم لبعضٍ، أو كبراؤهم قالوا لأتباعهم: اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً، أو حرِّقوه بالنار، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا مَضَّتْه[2] النار، وإما أن يموت بها إن أصرَّ على قوله ودينه، وأيًّا ما كان ففيه إسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ.

وجاء هنا الترديدُ بين قَتْلِه عليه السلام وإحراقه، فقد يكون ذلك من قائلَيْن: ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق، وفي «اقترب»[3]: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ [الآية:٦٨] اقتصروا على أحدِ الشيئين، وهو الذي فعلوه؛ رَمَوْه عليه السلام في النار ولم يقتلوه.

ثم إنه ليس المراد أنهم لم يَصْدُر عنهم بصدد الجواب عن حُجَجِه عليه السلام إلَّا هذه المقالةُ الشنيعةُ، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إنَّ ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابُهم بعد اللُّتيَّا والتي في المرة الأخيرة، وإلا فقد صَدَرَ عنهم من الخرافات والأباطيلِ ما لا يُحصى.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فألْقَوْه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأنْ جَعَلها سبحانه عليه برداً وسلاماً حسبما بيِّن في مواضعَ أُخَرَ، وقد مرَّ بيانُ كيفية إلقائه عليه السلامُ فيها وإنجائه تعالى إياه منها، وكان ذلك في كُوثَى[4] من سواد الكوفة. وكونُه في المكان المشهور اليوم من أرض الرُّهى[5]، وعنده صورةُ المنجنيق وماءٌ فيه سمكٌ لا يُصطاد ولا يؤكل حرمةً له، لا أصلَ له.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢، والبحر ٧/ ١٤٨.

(٢) أي: أحرقته. اللسان (مضض).

(٣) يعني سورة الأنبياء.

(٤) بضم الكاف، بلدة بالعراق ومحلةٌ بمكة، وكوثى العراق كوثيان: أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى رَبَّى، وبها مولد إبراهيم عليه السلام، وبها طرح في النار. معجم البلدان ٤/ ٤٨٧.

(٥) بضم أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. معجم البلدان ٣/ ١٠٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه عليه السلام منها ﴿لَآيَٰتٍ﴾ بينةً عجيبةً، وهي حِفْظُه تعالى إياه من حرِّها، وإخمادُها في زمان يسيرٍ، وإنشاءُ روضٍ في مكانها. وعن كعب: أنه لم يحترق بالنار إلا الحبلُ الذي أوثقوه عليه السلام به. ولولا وقوعُ اسم الإشارة في أثناء القصة لكان الأولى كونُه إشارةً إلى ما تضمَّنته.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ خصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالفحص عنها، والتأمُّل فيها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتتوادُّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، واتِّفاقكم عليها وائتلافِكم كما يَتَّفقُ الناس على مذهبٍ فيكون ذلك سببَ تحابِّهم وتَصَادُقِهم، فالمفعولُ له غايةٌ مترتِّبةٌ على الفعل، ومعلولٌ له في الخارج.

أو المعنى: إنَّ مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى اتِّخاذها، بأنْ رأيتُم بعضَ مَن تَوَدُّونه اتَّخذها، فاتَّخذتُموها موافَقةً له لمودَّتكم إياه، وهذا كما يَرى الإنسان مَن يَوَدُّه يفعلُ شيئاً فيفعلُه مودَّةً له، فالمفعولُ له على هذا علَّةٌ باعثةٌ على الفعل، وليس معلولاً له في الخارج، والمراد نفي أن يكون فيها نفعٌ أو ضرٌّ، وأنَّ الداعي لاتخاذها رجاءُ النفع أو خوفُ الضرِّ، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علَّةً لاتِّخاذها علةً، وهو ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] للإشارة إلى أنَّ ذلك لكونه أمراً موهوماً لا حقيقةَ له مما لا ينبغي أن يكون علةً باعثةً وسبباً حاملاً لمن له أدنى عقل.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون المخاطبون في هذه الآية أناساً مخصوصين، والقائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أناساً غيرهم.

وقيل: إنَّ الأوثان أولُ ما اتُّخذت بسبب المودَّة، وذلك أنه كان أناسٌ صالحون فماتوا وأسف عليهم أهلُ زمانهم، فصوَّروا أحجاراً بصُوَرِهم حبًّا لهم، فكانوا يعظِّمونها في الجملة، ولم يَزَلْ تعظيمُها يزداد جيلاً فجيلاً حتى عُبدت، فالآيةُ إشارةٌ إلى ذلك، والمعنى: إنما اتَّخذ أسلافُكم من دون الله أوثاناً.. إلخ، ومثلُه في القرآن الكريم كثيرٌ.

وثاني مفعولَي «اتخذتم» محذوفٌ تقديره: آلهةً. وقال مكي: يجوز أن يكون «اتَّخذ» متعدِّياً إلى مفعولٍ واحدٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾[1] [الأعراف:١٥٢]. ورُدَّ بأنه مما حُذف مفعولُه الثاني أيضاً.

وجوِّز أن يكون «مودة» هو المفعول الثاني بتقديرِ مضافٍ، أي: ذاتَ مودَّةٍ، وكونُها ذاتَ مودَّةٍ باعتبارِ كونها سببَ المودَّة. وظاهرُ كلام «الكشاف»[2] أنَّ المضاف المحذوفَ هو لفظ «سبب»، وقد يُستغنَى عن التقدير بتأويلِ «مودة» بمودودة، أو بجعلها نفسَ المودَّة مبالغةً.

واعتُرض جَعْلُ «مودة» المفعولَ الثانيَ بأنه مَعْرفةٌ بالإضافةِ إلى المضافِ إلى الضمير، والمفعولُ الأولُ نكرةٌ، وذلك غيرُ جائزٍ لأنهما في الأصل مبتدأ وخبر.

وأجيب بأنه لا يلزمُ من غير جوازِ ذلك في أصلهما عدمُ جوازه فيهما، وإذا سُلِّم اللزوم فلا يُسلَّمُ كون المفعول الثاني هنا مَعْرفةً بالإضافة؛ لما أنَها على الاتِّساع، فهي من قبيل الإضافة اللفظية التي لا تفيدُ تعريفاً وإنما تفيدُ تخفيفاً في اللفظ، كذا قيل، وهو كما ترى.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر: «مودَّةً» بالنصب والتنوين «بينَكم» بالنصب[3]، والوجهُ أنَّ «مودةً» منصوبٌ على أحد الوجهين السابقين، و«بينكم» منصوبٌ به، أو بمحذوفٍ وقع صفةً له.

وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس: «مودَّةُ بينِكم» برفع «مودَّة» مضافة إلى «بين»، وخَفْضِ «بين» بالإضافة، وخرِّج الرفع على أنَّ «مودة» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي مودَّةُ، على أحد التأويلات المعروفة، والجملةُ صفةُ «أوثاناً»، وجوِّز كونُها المفعولَ الثاني.

أو على أنها خبرُ «إنَّ» على أنَّ «ما» مصدريةٌ، أي: إن اتِّخاذَكم، أو موصولةٌ

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٥٣.
(٢) ٣/ ٢٠٣.
(٣) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٣٤٣، وهي قراءة أبي جعفر وخلف من العشرة.

قد حُذف عائدُها وهو المفعولُ الأول، أي: إنَّ الذي اتَّخذْتُموه من دون الله أوثاناً مودةُ بينِكم، ويجري فيه التأويلاتُ التي أشرنا إليها.

وقرأ الحسنُ وأبو حيوةَ وابن أبي عبلة، وأبو عمرو في رواية الأصمعيِّ، والأعشى عن أبي بكر: «مودةٌ» بالرفع والتنوين، «بينَكم» بالنصب[١]، ووجهُ كلٍّ معلومٌ مما مرَّ.

وروي عن عاصم: «مودةُ» بالرفع من غير تنوينٍ، و«بينَكم» بفتح النون[٢]، جَعَله مبنيًّا لإضافته إلى لازمِ البناءِ، فمحلُّه الجرُّ بإضافة «مودةُ» إليه، ولذا سقط التنوينُ منها.

وفي قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ على هذه القراءات والأوُجهِ فيها أوجهٌ من الإعراب ذكرها أبو البقاء[٣]:

الأول: أن يتعلَّق بـ «اتَّخذتم» على جَعْلِ «ما» كافةً ونَصْبِ «مودة»، لا على جَعْلِها موصولةً أو مصدريةً ورَفْعِ «مودة»، لئلا يؤدِّي إلى الفصل بين الموصول وما في حيِّز الصلة بالخبر.

الثاني: أن يتعلَّق بنفس «مودة» إذا لم يُجعل «بين» صفةً لها، بناءً على أنَّ المصدر إذا وُصف لا يعمل مطلقاً، وأجاز ابنُ عطية[٤] هذا التعلُّق وإن جُعل «بين» صفةً؛ لِمَا أنه يُتَّسَعُ بالظرف مالم يُتَّسَعْ في غيره، فيجوزُ عملُ المصدر به بعد الوصف.

الثالث: أن يتعلَّق بنفس «بينكم»؛ لأن معناه: اجتماعكم أو وصلكم.

الرابع: أن يجعل حالاً من «بينكم» لتعرُّفه بالإضافة.

وتعقَّب أبو حيان هذين الوجهين بعد نَقْلِهما عن أبي البقاء كما ذكرنا بأنهما إعرابان لا يتعقَّلان[٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٤٨.
(٢) البحر ٧/ ١٤٨.
(٣) في الإملاء ٤/ ١٦٤-١٦٥.
(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٥) البحر ٧/ ١٤٩.

الخامس: أن يُجعل صفةً ثانيةً لـ «مودة» إذا نوِّنت، وجُعل «بينكم» صفةً لها، وأجاز ذلك مكِّي وأبو حيان أيضاً[(١)].

السادس: أن يتعلَّق بـ «مودة»، ويجعل «بينكم» ظرفاً متعلِّقاً بها أيضاً، وعَمِلَ «مودة» في ظرفين لاختلافهما.

السابع: أن يجعل حالاً من الضمير في «بينكم» إذا جُعل وصفاً لـ «مودةً»، والعاملُ الظرفُ لأنَّ العامل في ذي الحال هو العامل في الحال، ولا يجوز أن يكون العامل «مودة» لذلك. وقال مكي: لأنك قد وَصَفْتها، ومعمولُ المصدر متصلٌ به فتكون قد فرَّقْتَ بين الصلة والموصول بالصفة[(٢)].

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً إنما مودةُ بينِكم في الحياة الدنيا» بزيادة «إنما» بعد «أوثاناً» ورَفْع «مودة» بلا تنوينٍ وجرِّ «بين» بالإضافة[(٣)]، وخرِّجت على أنَّ «مودة» مبتدأ، و«في الحياة الدنيا» خبره، والمعنى: إنما تَوَادُّكم عليها أو مودَّتُكم إياها كائنٌ أو كائنةٌ في الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يتبدَّل الحال حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم﴾ وهم العَبَدَةُ ﴿بِبَعْضٍ﴾ وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعنُ كلُّ فريقٍ منكم ومن الأوثان ـ حيث ينطقُها الله تعالى ـ الفريقَ الآخر، وفيه تغليبُ الخطاب وضمير العقلاء.

وجوِّز أن يكون الخطاب للعَبَدةِ لا غير، والمراد بكفْرِ بعضِهم ببعضٍ التناكُرُ، أي: ثم يومَ القيامة يظهر التناكُرُ والتلاعُنُ بينكم أيتها العَبَدةُ للأوثان.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يخلِّصونكم منها كما خلَّصني ربِّي من النار التي

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٥٥، والبحر ٧/ ١٤٨.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٥٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١١٥، والكشاف ٣/ ٢٠٣. قال أبو حيان في البحر ٧/ ١٤٨: وذكروا عن ابن مسعود قراءة شاذة تخالف سواد المصحف، مع أنه قد روي عنه ما في سواد المصحف بالنقل الصحيح المستفيض، فلذلك لم أذكر تلك القراءة.

ألقيتُموني فيها. وجَمْعُ الناصرين لوقوعه في مقابلة الجمع، أي: ما لأحدٍ منكم من ناصرٍ أصلاً.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ أي: صدَّقه عليه السلام في جميع مقالاته، أو بنبوَّته حين ادَّعاها، لا أنه صدَّقه فيما دعا إليه من التوحيد ولم يكن كذلك قبلُ؛ فإنه عليه السلام كان متنزِّهاً عن الكفر.

وما قيل: إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تُحرقه، ضعيفٌ روايةً وكذا درايةً؛ لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبلُ وهو غيرُ لائقٍ به عليه السلام.

وحَمَله بعضُهم على نحو ما ذكرنا، أو على أن يراد بالإيمان الرتبةُ العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلا الأفراد.

ولوط على ما في «جامع الأصول»[1] ابن أخيه هاران بن تارح، وذكر بعضُهم أنه ابنُ أخته بالتاء الفوقية.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام، كما ذهب إليه قتادة والنخعيُّ. وقيل: الضمير للوط عليه السلام، وليس بشيء؛ لِمَا يلزمُ عليه من التفكيك.

والجملة استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا كان منه عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي: من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى الجهة التي أمرني ربِّي بالهجرة إليها. وقيل: إلى حيث لا أُمنع عبادةَ ربِّي.

وقيل: المعنى: مهاجر مَن خالفني من قومي متقرِّباً إلى ربِّي.

﴿إِنَّهُۥ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على أمره، فيمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمةٌ ومصلحةٌ، فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي.

روي أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوط[2] وسارةَ ابنةِ عمِّه إلى حرَّان، ثم منها إلى الشام، فنزل قريةً من أرض فلسطين، ونزل لوط

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٩٨.
(٢) في (م): لوطاً، وهو تصحيف.

سذوم[١] وهي المؤتفكةُ على مسيرة يومٍ وليلةٍ من قرية إبراهيم عليهما السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما في «الكشاف» و«البحر» خمساً وسبعين سنة[٢]، وهو أولُ مَن هاجر في الله تعالى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً حين أيس من عجوزٍ عاقر. والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلُ، ولا حاجةَ إلى عَطْفِها على مقدَّرٍ ك : أصلحنا أَمْرَه، ولم يذكر سبحانه إسماعيلَ عليه السلام، قيل: لأنَّ المقام مقامُ الامتنان وذِكْرِ الإحسان، وذلك بإسحاق ويعقوب لِمَا أشرنا إليه، بخلاف إسماعيل.

وقيل: لأنه لا يناسبُ ذِكْره ها هنا؛ لأنه ابتُلي بفراقه ووَضْعِه بمكة مع أمه دون أنيس.

وقال الزمخشريُّ: إنه عليه السلام ذُكر ضمناً وتلويحاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يصرِّح به لشهرة أمره وعلوِّ قدره[٣]. هذا مع أنَّ المخاطب نبيُّنا ﷺ، وهو من أولاده وأَعْلَمُ به.

والمراد بـ «الكتاب»: جنسُه المتناولُ للكتب الأربعة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على ما عَمِلَ لنا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قال مجاهد: بإنجائه من النار ومن الملِكِ الجبار، والثناءِ الحسنِ عليه بحيث يتولَّاه كلُّ أمةٍ. وضمَّ إلى ذلك ابنُ جريجٍ الولدَ الذي قرَّتْ به عينُه. وقد يُضَمُّ إلى ذلك أيضاً استمرارُ النبوَّةِ في ذريته.

وقال السدِّي: إنَّ ذلك إراءتُه عليه السلام مكانَه من الجنة.

وقال بعضهم: هو التوفيقُ لعمل الآخرة.

وقيل: هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر.

---

(١) في الأصل: سدوم. قال الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤: سدوم مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم، وقال أبو حاتم في كتاب المزال والمُفْسَد: إنما هو سذوم بالذال، والدال خطأ، قال الأزهري: وهذا عندي هو الصحيح.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٤، والبحر ٧/ ١٤٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٤.

وقال الماورديُّ: هو بقاءُ ضيافته عند قبره، وليس ذلك لنبيٍّ غيره[١].

ولا يخفى حالُ بعض هذه الأقوال.

وذكر بعضهم أنَّ المراد: آتيناه أجره بمقابلةِ هجرته إلينا، وعليه لا يصحُّ عَدُّ الإنجاء من النار من الأجر، بل يُعدُّ إعطاءُ الولد والذريةِ الطيبة، واستمرارُ النبوَّة فيهم، ونحو[٢] ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الأجر.

وعَطْفُ هذا وما بعده من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: لفي عداد الكاملين في الصلاح، من التعميم بعد التخصيص، كأنه لمَّا عدَّد ما أنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه: وجمعنا له مع ما ذُكر خيرَ الدارين.

﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على «إبراهيم» أو على «نوحاً»، والكلامُ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ كالذي في القصة السابقة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ الفعلةَ البالغةَ في القبح، وقرأ الجمهور: «أئنكم» على الاستفهام الإنكاريِّ[٣].

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لكمال قبحِها، فإنَّ إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلا لكونها مما تشمئزُّ منه الطباع السليمةُ، وتنفرُ منه النفوس الكريمة.

وجوَّز أبو حيان كون الجملة حالاً من ضمير «تأتون»، كأنه قيل: إنكم لتأتون الفاحشةَ مبتدعين لها غيرَ مسبوقين بها[٤].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارَّة تلك الفعلة القبيحة، وإتيانهم كرهاً، أو: وتقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيانِ ما ليس بحرثٍ.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٤٩.

(٢) في (م): ونحوه، وهو تصحيف.

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو وشعبة، وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال. التيسير ص١٧٣، والبدور الزاهرة ص٢٤٥.

(٤) البحر ٧/ ١٤٩.

وقيل: تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال.

وقيل: تقطعونه بقبح الأحدوثة.

﴿وَتَأْتُونَ﴾ أي: تفعلون ﴿فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: في مجلسكم الذي تجتمعون فيه، وهو اسمُ جنسٍ إذ أنديتهم في مجالسهم كثيرة، ولا يسمَّى نادياً إلا إذا كان فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد.

﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أخرج أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، والطبرانيُّ، والبيهقي في «الشعب» وغيرُهم عن أمِّ هانئ بنت أبي طالب قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ) فقال: «كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم»(١).

وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادةَ وابن زيد: هو إتيانُ الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن مجاهد أيضاً: هو لعب الحمام؛ وتطريفُ الأصابع بالحنَّاء، والصفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس: هو تضارُطُهم وتصافُعهم فيها. وفي روايةٍ أخرى عنه: هو الخذفُ بالحصى، والرميُ بالبنادق، والفرقعة، ومضغُ العلك، والسواكُ بين الناس، وحلُّ الإزار، والسُّباب، والفُحْشُ في المزاح.

ولم يأتِ في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء في قصة إبراهيم، وكذا في قصة شعيب الآتية، لأنَّ لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده، واشتهر أمرُه عند الخلق، فذكر لوط عليه السلام ما اختصَّ به من المنع من الفاحشة وغيرها، وأمَّا إبراهيمُ وشعيبٌ عليهما السلام فجاءا بعد انقراضِ مَن كان يعبد الله عز وجل ويدعو إليه سبحانه، فلذلك دعا كلٌّ منهما قومَه إلى عبادته تعالى، كذا في «البحر»(٢).

---

(١) مسند أحمد (٢٦٨٩١)، وسنن الترمذي (٣١٩٠)، والمعجم الكبير ٢٤/ (١٠٠٠)، والمستدرك ٢/ ٤٠٩، والشعب (٦٧٥٥)، وفي إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وهو ضعيف.

(٢) ٧/ ١٤٩.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: فيما تَعِدُنا [به] من نزول العذاب، على ما في «الكشاف»[1] وغيره، وهذا ظاهرٌ في أنه عليه السلام كان أَوْعَدَهم بالعذاب.

وقيل: أي: في دعوى استحقاقنا العذابَ على ما نحن عليه، المفهومةِ من التوبيخ المعلومِ من الاستفهام الإنكاريِّ.

وقيل: أي: في دعوى استقباحِ ذلك، الناطقِ بها كلامُك.

وهذا الجوابُ صَدَرَ عنهم في المرة الأولى من مرَّات مواعظِ لوطٍ عليه السلام، وما في سورة الأعراف المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ٨٢] وما في سورة النمل المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل: ٥٦] فقد صدر عنهم بعد هذه المرة، فلا منافاةَ بين الحصر هنا والحصر هناك؛ قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود[2].

وتعقِّب بأنَّ التعيينَ يحتاج إلى توقيفٍ.

وأجيب بأنَّ مضموني الجوابين يُشْعِران بالتقدُّم والتأخُّر، وذلك أنَّ «ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين» من باب التكذيب والسخرية، وهو أوفقُ بأوائل المواعظ والتوبيخات، و«أخرجوهم من قريتكم» ونحوُه من باب التعذيب والانتقام، وهو أنسبُ بأن يكون بعد تكرُّر الوعظ والتوبيخِ الموجب لضجرهم ومزيدِ تألُّمهم مع قدرتهم على التشفِّي، وهذا القَدْرُ يكفي لدعوى التقدُّم والتأخُّر.

وقيل في دفع المنافاة بين الحصرين: إنَّ ما هنا جوابُ قومه عليه السلام له إذ نصحهم، وما هناك جوابُ بعضهم لبعضٍ إذ تشاوروا في أمره.

وقيل: إنَّ أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم، والآخر صدر عن غيرهم.

---

(١) ٣/ ٢٠٤، وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر ٧/ ١٥٠، وتفسير أبي السعود ٧/ ٣٨.

وظاهرُ صنيع بعض الأجلَّة يقتضي اختيارَ أن يكون كلٌّ من الحصرين بالإضافة إلى الجواب الذي يرجوه عليه السلام في متابعته، فتأمَّل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ أي: بإنزالِ العذابِ الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾ بابتداع الفاحشة وسَنِّها فيما بعدهم، والإصرارِ عليها، واستعجالِ العذاب بطريق السخرية. وإنما وَصَفَهم بذلك مبالغةً في استنزال العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي: قريةِ سذوم، وهي أكبرُ قرى قوم لوطٍ، وفيها نشأتِ الفاحشةُ أولاً على ما قيل، ولذا خُصَّت بالذِّكر، وفي الإشارة بـ «هذه» إشارةٌ إلى أنها كانت قريبةً من محلِّ إبراهيم عليه السلام، وإضافةُ «مهلكو» إلى «أهل» لفظيةٌ؛ لأنَّ المعنى على الاستقبال، وجوِّز كونُها معنويةً لتنزيل ذلك منزلةَ الماضي؛ لقَصْدِ التحقيق والمبالغة.

﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾ تعليلٌ للإهلاك بإصرارهم على الظلم، وتماديهم في فنون الفساد وأنواعِ المعاصي. والتأكيدُ في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر.

وقال سبحانه: (إِنَّ أَهْلَهَا) دون: إنهم، مع أنه أظهرُ وأخصرُ تنصيصاً على اتِّفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجيُّ[1].

وقال بعض المدقِّقين: إنَّ ذلك للدلالة على أنَّ منشأ فساد جِبِلَّتهم خبثُ طينتهم، ففيه إشارةٌ خَفِيَّةٌ إلى أنَّ المراد من أهل القرية مَن نشأ فيها، فلا يتناول لوطاً عليه السلام.

واعترض بأنه يَبْعدُ كلَّ البعد خفاؤها ـ لو كانت ـ على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾.

وقيل: يجوزُ أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا إليه من عدم تناوُلِ أهل القرية إياه لكنه أراد التنصيصَ على حاله ليطمئنَّ قلبه؛ لكمال شفقته عليه.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٩٩.

وقيل: أراد أن يعلم: هل يبقى في القرية عند إهلاكهم، أو يخرجُ منها ثم يهلكون؟ وكأنَّ في قوله: «إن فيها» دون: إنَّ منهم، إشارةً إلى ذلك.

وأفهمَ كلامُ بعض المحققين أنَّ قوله: «إنَّ فيها لوطاً» اعتراضٌ على الرسل عليهم السلام بأنَّ في القرية مَن لم يَظلم، بناءً على أنَّ المتبادر من إضافة الأهل إليها العمومُ، وحَمَلَ الأهل على مَن سكن فيها وإن لم يكن تولُّده بها، أو معارضةٌ للموجِبِ للهلاك ـ وهو الظلم ـ بالمانع وهو أنَّ لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتَّصف بصفتهم، وأنَّ جواب الرسل المحكيَّ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليمٌ لقوله عليه السلام في لوطٍ مع ادِّعاء مزيدِ العلم به باعتبارِ الكيفية، وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجوابٌ عنه بتخصيص الأهل بمن عَدَاه وأهلَه على الاعتراض، أو بيانِ وقت إهلاكهم بوقتٍ لا يكون لوطٌ وأهلُه بين ظهرانيهم على المعارضة. وفيه ما يدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب في الجملة(١).

والذي يغلبُ على الظنِّ أنهم أرادوا بأهل القرية مَن نشأ بها على ما هو المتعارف، فلا يكون لوطٌ عليه السلام داخلاً في الأهل، ويؤيِّد ذلك تأييداً مّا قولُ قومه: «أَخْرِجوا آلَ لوطٍ من قريتكم» وفَهِمَ إبراهيم عليه السلام ما أرادوه، وعَلِمَ أنَّ لوطاً ليس من المهلَكين، إلا أنه خشي أن يكون هلاكُ قومه وهو بين ظهرانيهم في القرية، فيوحشُه ذلك ويُفْزِعُه. ولعله عليه السلام غَلَبَ على ظنِّه ذلك، حيث لم يتعرَّضوا لإخراجه من قرية المهلَكين مع علمهم بقرابته منه ومزيدِ شفقته عليه، فقال: «إنَّ فيها لوطاً» على سبيل التحزُّن والتفجُّع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦] وجلُّ قَصْدِه أن لا يكون فيها حين الإهلاك، فأخبروه أولاً بمزيد عِلْمِهم به، وأفادوه ثانياً بما يَسُرُّه ويُسْكِنُ جأشه، نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران:٣٦] وأكَّدوا الوعد بالتنجية إما للإشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه، وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلةَ مَن ينكر تنجيتَه لِمَا شاهدوا منه في حقِّه، وتُحمل التنجيةُ على إخراجه من بين القوم وفَصْلِه عنهم وحِفْظِه مما يصيبهم، فإنها بهذا المعنى الفرد الأكمل.

---

(١) لأنهم قالوا: «إنا مهلكو أهل هذه القرية» من غير بيان للمراد من الأهل، أهو الجميع، أو مَن عدا لوطاً وأهله؟ ثم بيَّنوه بعد ذلك. حاشية الشهاب ٧/ ١٠٠.

ويلائم هذا ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من الباقين في القرية، وهو أحدُ تفسيرين، ثانيهما ما روي عن قتادة وهو تفسير «الغابرين» بالباقين في العذاب، فتأمَّل فكلام الله تعالى ذو وجوه.

وفسِّر الأهل هنا بأتباع لوطٍ عليه السلام المؤمنين، وجملة «كانت من الغابرين» مستأنفةٌ، وقد مرَّ الكلام في ذلك، وكذا في الاستثناء فارْجع إليه.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي: اعتراه المساءةُ والغمُّ بسبب الرسل مخافةَ أن يتعرَّض لهم قومُه بسوءٍ كما هو عادتهم مع الغرباء، وقد جاؤوا إليه عليه السلام بصورٍ حسنةٍ إنسانية.

وقيل: ضمير «بهم» للقوم، أي: سيء بقومه لِمَا علم من عظيم البلاء النازل بهم، وكذا ضمير «بهم» الآتي. وليس بشيء.

و«أنْ» مزيدةٌ لتأكيد الكلام التي زيدتْ فيه، فتؤكِّد الفعلين واتصالهما المستفاد من «لمَّا» حتى كأنهما وجدا في جزءٍ واحد من الزمان، فكأنه قيل: لما أحسَّ بمجيئهم فاجَأتْه المساءةُ من غيرِ ريثٍ. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: وضاق بشأنهم وتدبيرِ أمرهم ذَرْعُه، أي: طاقتُه، كقولهم: ضاقت يده، ويقابلُه: رَحُبَ ذَرْعُه بكذا، إذا كان مطيقاً له قادراً عليه، وذلك أنَّ طويل الذراع ينالُ ما لا يناله قصير الذراع.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ عطفٌ على «سيء»، وجوِّز أن يكون عطفاً على مقدَّرٍ، أي: قالوا: إنَّا رسلُ ربِّك وقالوا.. إلخ، وأيًّا ما كان فالقولُ كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجُّر من جهتهم، وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلتْ به الحال إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والخوفُ للمتوقَّع والحزنُ للواقع في الأكثر، وعليه فالمعنى: لا تخف من تمكُّنهم منَّا ولا تحزن على قَصْدِهم إيانا وعدمِ اكتراثهم بك، ونَهْيُهم عن الخوف من التمكُّن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر، وإن كان بعد الإعلام فهو لتأنيسه وتأكيدِ ما أخبروه به.

وقال الطبرسيُّ: المعنى: لا تخف علينا وعليك، ولا تحزن بما نفعله بقومك[١].

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ فلا يصيبكم ما يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ إنها ﴿كَانَتْ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾.

وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب: «لَنُنْجِيَنَّه» و«مُنْجُوك» بالتخفيف من الإنجاء[٢]، ووافقهم ابنُ كثير في الثاني[٣]. وقرأ الجمهور بشدِّ نون التوكيد، وفرقةٌ بتخفيفها[٤].

وأيًّا ما كان فمحلُّ الكاف من «منجوك» الجرُّ بالإضافة، ولذا حُذفت النون عند سيبويه[٥]، و«أهلك» منصوبٌ على إضمار فعلٍ، أي: وننجِّي أهلك.

وذهب الأخفش وهشام إلى أنَّ الكاف في محلِّ النصب، و«أهلك» معطوفٌ عليه، وحُذفت النون لشدَّة طلب الضمير الاتِّصال بما قبله للإضافة.

وقال بعض الأجلَّة: لا مانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلَّان: الجرُّ والنصبُ، ويجوزُ العطف عليها بالاعتبارين.

وقرأ نافع وابن كثير والكسائي: «سيء» بإشمام السينِ الضمَّ[٦]. وقرأ عيسى وطلحة: «سُوْءَ» بضمِّها، وهي لغةُ بني هذيل وبني وبير[٧]، يقولون في نحو قيل وبيع: قولَ وبوعَ، وعليه قولُه:

حُوكَتْ على نَوْلَيْنِ إذ تُحاكُ ... تختبطُ الشوكَ ولا تُشاكُ[٨]

---

(١) لم نقف عليه في مجمع البيان.

(٢) التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩، وهي قراءة خلف أيضاً.

(٣) وكذلك قرأ عاصم من رواية شعبة. التيسير ص١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩.

(٤) البحر ٧/ ١٥٠.

(٥) الكتاب ١/ ١٦٥-١٦٦.

(٦) القراءة عن نافع والكسائي في التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٠٨، وهي خلاف المشهور عن ابن كثير، وقرأ بها أيضاً ابن عامر وأبو جعفر ورويس.

(٧) في (م): دبير، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في البحر ٧/ ١٥١، والكلام منه.

(٨) الرجز في اللسان (خبط)، واللباب لابن عادل ١/ ٣٤٨، وأوضح المسالك ص٢٦٥، ورواية اللسان وأوضح المسالك: نِيْرَيْنِ، بدل: نولين.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ ما أُشير إليه بوَعْدِ التنجية من نزول العذاب عليهم، والرِّجزُ العذاب الذي يُقْلِقُ المعذَّب، أي: يزعجه، من قولهم: ارْتَجَزَ، إذا ارْتَجسَ واضْطَربَ.

وقرأ ابن عامر: «منزِّلون» بالتشديد[١]. وابن محيصن: «رُجْزاً» بضم الراء[٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بسبب فسقهم المعهودِ المستمرِّ، وقرأ أبو حيوة والأعمشُ بكسر السين[٣].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي: من القرية، على ما عليه الأكثر ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ قال ابن عباس: هي آثارُ ديارها الخربة. وقال مجاهد: هي الماءُ الأسود على وجه الأرض. وقال قتادة: هي الحجارة التي أُمطرت عليهم، وقد أدركتها أوائل هذه الأمة. وقال أبو سليمان الدمشقيُّ: هي أنَّ أساسها أعلاها وسقوفَها أسفلها إلى الآن. وأنكر ذوو الأبصار ذلك.

وقال الفرَّاء[٤]: المعنى: تركناها آيةً، كما يقال: إنَّ في السماء آيةً، ويراد: إنها[٥] آية. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لا يتَّجه إلا على زيادةِ «مِن» في الواجب نحو قوله:

أمهرتُ منها جبَّةً وتيساً

يريد أمهرتُها[٦].

وقال بعضهم: إنَّ ذلك نظيرُ قولك: رأيتُ منه أسداً.

وقيل: الآيةُ حكايتها العجيبة الشائعة.

وقيل: ضمير «منها» للفعلة التي فُعلت بهم، والآيةُ الحجارة أو الماء الأسود.

---

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٣٤٣.
(٢) البحر ٧/ ١٥١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) كما في البحر ٧/ ١٥١، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٦.
(٥) أي: إن السماء.
(٦) البحر ٧/ ١٥١، ولم نقف على شطر البيت عند غيره، ولا على قائله.

والظاهرُ ما عليه الأكثر، ولا يخفى معنى «مِن» على هذه الأقوال.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ أي: يستعملون عقولَهم في الاستبصار والاعتبار، فالفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، و«القوم» متعلِّقٌ بـ «تركنا» أو بـ «بينة» واستُظهر الثاني.

هذا وفي الآيات من الدلالة على ذمِّ اللواطةِ وقُبْحها ما لا يخفى، فهي كبيرةٌ بالإجماع، ونصُّوا على أنها أشدُّ حرمةً من الزنى، وفي «شرح المشارق» للأكمل[1]: أنها محرَّمةٌ عقلاً وشرعاً وطبعاً، وعدمُ وجوب الحدِّ فيها عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه لعدم الدليل عنده على ذلك لا لخفَّتها.

وقال بعض العلماء: إنَّ عدم وجوب الحدِّ للتغليظ؛ لأنَّ الحدَّ مطهِّرٌ.

وفي جواز وقوعها في الجنة خلافٌ؛ ففي «الفتح»[2]: قيل: إن كانت حرمتُها عقلاً وسمعاً لا تكون في الجنة، وإن كانت سمعاً فقط جاز أن تكون فيها، والصحيحُ أنها لا تكون لأنَّ الله تعالى استبعدها واستقبحها، فقال سبحانه: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) وسمَّاها خبيثةً فقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤] والجنةُ منزَّهةٌ عنها.

وتعقَّب هذا الحمويُّ[3] بأنه لا يلزمُ من كون الشيء خبيثاً في الدنيا أن لا يكون له وجودٌ في الجنة، ألا ترى أنَّ الخمر أمُّ الخبائث في الدنيا ولها وجودٌ في الجنة.

وفيه بحثٌ؛ لأنَّ خبثَ الخمر في الدنيا لإزالتها العقلَ الذي هو عقالٌ عن كلِّ قبيحٍ، وهذا الوصفُ لا يبقى لها في الجنة، ولا كذلك اللواطةُ.

---

(١) أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي الحنفي، المتوفى سنة (٧٨٦هـ)، واسم شرحه: تحفة الأبرار في شرح مشارق الأنوار. ومشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية هو للإمام رضي الدين حسن بن محمد الصغاني. كشف الظنون ٢/ ١٦٨٨.

(٢) هو فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٥٠.

(٣) هو أحمد بن محمد مكي الحسيني الحموي، شهاب الدين المصري الحنفي، المتوفى سنة (١٠٩٨هـ)، له الكثير من المصنفات ذكرها صاحب هدية العارفين ١/ ١٦٤-١٦٥، منها: إتحاف الأذكياء بتحقيق عصمة الأنبياء، وعقود الحسان في قواعد مذهب النعمان، وغمز عيون البصائر في محاسن الأشباه والنظائر، والكلام منه.

وفي «الفتوحات المكية» في صفة أهل الجنة أنهم لا أدبارَ لهم، لأنَّ الدبر إنما خُلق في الدنيا لخروج الغائط، وليست الجنة محلًّا للقاذورات. وعليه فعدمُ وجودها في الجنة ظاهرٌ.

ولا أظنُّ ذا غيرةٍ صادقةٍ تسمحُ نفسُه أن يلاط به في الجنة سرًّا أو علناً، وجوازُ وقوعها فيها قد ينجرُّ إلى أن تسمحَ نفسُه بذلك، أو يُجبَرَ عليه، وذلك إذا اشتهى أحدٌ أن يَلُوطَ به؛ إذ لا بد من حصول ما يشتهيه، وهذا وإن لم يكن قطعيًّا في عدم وقوع اللواطة مطلقاً في الجنة، إلَّا أنه يُقوِّي القولَ بعدم الوقوع، فتأمل.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ متعلِّقٌ بأرسلنا مقدَّر معطوف على «أرسلنا» في قصة نوح، أي: وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: توقَّعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليومَ من الأعمال ما تأمنون به غائلتَه، أو الأمرُ بالرجاء أمرٌ بفعلِ ما يترتَّبُ عليه الرجاء؛ إقامةً للمسبَّب مقام السبب، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، فالمعنى: افعلوا ما ترْجُون به ثوابَ اليوم الآخِرِ، وجوِّز أن لا يقدَّر مضافٌ، وإرادةُ الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه.

وقيل: الأمرُ برجاء الثواب أمرٌ بسببه اقتضاءً بلا تجوُّزٍ فيه بعلاقة السببية.

وقال أبو عبيدة: الرجاء هنا بمعنى الخوف، والمعنى: وخافوا جزاءَ اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه[1].

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦﴾ حالٌ مؤكِّدةٌ لأنَّ العُثوَّ الفساد.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمَّنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمرَه ونَهْيَه وقع بهم العذاب، وإليه ذهب أبو حيان[2].

وقيل: من أنه تعالى مستحقٌّ لأنْ يُعْبدَ وحده سبحانه، وأنَّ اليوم الآخر متحقِّقُ الوقوع، أو نحو ذلك.

---

(١) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١١٥، ونقله المصنف عن البحر ٧/ ١٥١.
(٢) في البحر ٧/ ١٥١.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلةُ الشديدة، وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الآية: ٩٤] أي: صيحة جبريلَ عليه السلام؛ فإنها الموجبةُ للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاورُها من الأرض.

وفسَّر مجاهد الرجفةَ هنا بالصيحة؛ فقيل: لذلك، وقيل: لأنها رجفتْ منها القلوب.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم، فإنَّ الدار تطلق على البلد، ولذا قيل للمدينة: دار الهجرة، أو المرادُ: مساكنهم، وأُقيم فيه الواحد مقامَ الجمع لأمن اللبْسِ، لأنهم لا يكونون في دارٍ واحدة. ولعل فيه إشارةً إلى أنَّ الرجفة خرَّبت مساكنهم وهدَّمت ما بينها من الجدران، فصارت كمسكنٍ واحد.

﴿جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: باركين على الرُّكَبِ، والمراد: ميِّتين على ما روي عن قتادة. وفي «مفردات» الراغب: هو استعارةٌ للمقيمين، من قولهم: جثم الطائر، إذا قعد ولَطِئَ بالأرض[1]. ويرجع هذا إلى ميِّتين أيضاً.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبان بإضمار فعلٍ يُنْبئُ عنه ما قبله من قوله تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) أي: وأهلكنا عاداً وثمود. وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ عطفٌ على ذلك المضمَر، أي: وقد ظهر لكم أتمَّ ظهورٍ إهلاكُنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها، وذلك بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهاباً إلى الشام وإياباً منه، وجوِّز كونُ «من» تبعيضية.

وقيل: هما منصوبان بإضمار: اذكروا، أي: واذكروا عاداً وثمود، والمراد ذكرُ قصتهما. أو بإضمار: اذكر، خطاباً له ﷺ.

وجملة «وقد تبين» حالية. وقيل: هي بتقدير القول، أي: وقل: قد تبيَّن. وجوِّز أن تكون معطوفةً على جملةٍ واقعة في حيِّز القول، أي: اذكر عاداً وثمود قائلاً قد مررتُم على مساكنهم وقد تبيَّن لكم.. إلخ.

وفاعل «تبيَّن» الإهلاكُ الدالُّ عليه الكلام، أو مساكنهم على أنَّ «مِن» زائدةٌ في

---

(١) مفردات الراغب (جثم). ولطئ كفَرِحَ ومَنَعَ: لصق. القاموس (لطأ).

الواجب، ويؤيِّده قراءة الأعمش: «مساكنُهم» بالرفع من غيرِ «مِن»[١]. وكونُ «من» هي الفاعل على أنها اسمٌ بمعنى بعض مما لا يخفى حاله.

وقيل: هما منصوبان بالعطف على الضمير في «فأخذتهم الرجفة»، والمعنى يأباه.

وقال الكسائيُّ: منصوبان بالعطف على «الذين» من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وهو كما ترى.

والزمخشريُّ[٢] لم يذكر في ناصبهما سوى ما ذكرناه أولاً، وهو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقرأ أكثرُ السبعة: «وثموداً» بالتنوين[٣] بتأويل الحي، وهو على قراءةِ تَرْكِ التنوين بتأويل القبيلة. وقرأ ابن وثاب: «وعادٍ وثمودٍ» بالخفض فيهما والتنوينِ عطفاً على «مدين» على ما في «البحر»، أي: وأرسلنا إلى عاد وثمود[٤].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته وإغوائه ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحةَ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الطريق المعهود، وهو السَّوِيُّ المُوْصِلُ إلى الحقِّ، وحَمْلُه على الاستغراق حصراً له في الموصل إلى النجاة تكلُّفٌ.

﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: عادٌ وثمود لا أهلُ مكة كما توهِّم ﴿مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ أي: عقلاءَ يُمْكِنُهم التمييزُ بين الحقِّ والباطل بالاستدلال والنظر، ولكنهم أغفلوا ولم يتدبَّروا.

وقيل: عقلاءَ يعلمون الحقَّ ولكنهم كفروا عناداً وجحوداً.

وقيل: متبيِّنينَ أنَّ العذاب لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرسل عليهم السلام لهم، ولكنهم لجُّوا حتى لقُوا ما لَقُوا.

وعن قتادة والكلبيِّ كما في «مجمع البيان» أن المعنى: كانوا مستبصرين عند

---

(١) البحر ٧/ ١٥٢.
(٢) في الكشاف ٣/ ٢٠٦.
(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩. وقرأ بترك التنوين حفص وحمزة ويعقوب.
(٤) البحر ٧/ ١٥٢.

أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدًى[(١)].

وأخرج ابن المنذر وجماعةٌ عن قتادةَ أنه قال: أي: معجَبين بضلالتهم[(٢)]. وهو تفسيرٌ بحاصِلِ ما ذُكر، وهو مرويٌّ كما في «البحر» عن ابن عباس ومجاهدٍ والضحاك[(٣)].

والجملةُ في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونها.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفٌ على «عاداً». وتقديمُ «قارون» لأنَّ المقصود تسليةُ النبيِّ ﷺ فيما لقي من قومه لحسدهم له، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقي منه ما لقي. أو لأنَّ حاله أوفقُ بحالِ عادٍ وثمودَ، فإنه كان من أَبْصَرِ الناس وأعلمِهم بالتوراة، ولم يُفِدْه الاستبصار شيئاً، كما لم يفدهم كونُهم مستبصرين شيئاً. أو لأنَّ هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمُه على وفق الواقع. أو لأنه أشرفُ من فرعون وهامان؛ لإيمانه في الظاهر وعِلْمِه بالتوراة وكونِه ذا قرابةٍ من موسى عليه السلام، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارةٌ إلى أنَّ نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذُ من غضب الله تعالى على الكفر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى قلَّة عقولهم؛ لأنَّ مَن في الأرض لا ينبغي له أن يستكبر.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فائتين أمرَ اللهِ تعالى، من قولهم: سَبَقَ طالبَه، أي: فاته ولم يُدْرِكه، ولقد أدركهم أمره تعالى أيَّ إدراكٍ فتدارَكوا نحو الدمار والهلاك.

وقال أبو حيان: المعنى: وما كانوا سابقين الأممَ إلى الكفر، أي: تلك عادةُ الأمم مع رسلهم عليهم السلام[(٤)]. وليس بذاك.

وأيّاما كان فالظاهرُ أن ضمير «كانوا» لقارون وفرعون وهامان.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٦١.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٥، وأخرجه أيضاً الطبري ١٨/ ٣٩٩.
(٣) البحر ٧/ ١٥٢.
(٤) المصدر السابق.

وقيل: الجملة عطفٌ على «أهلكنا» المقدَّرِ سابقاً، وضميرُ «كانوا» لجميع المهلَكين. وفيه بترٌ للنظم الجليل.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمِّنةِ تعذيبَ مَن كفر ولم يمتثل أمرَ مَن أُرسل إليه، وقال أبو السعود: هذا تفسيرٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه عَدَمُ سَبْقِهم بطريق الإبهام، وما بعده تفصيلٌ للأخذ[1]. وفي القلب منه شيءٌ، وكأنه اعتبر رجوعَ ضمير «كانوا» إلى المهلكين، وقد علمتَ حاله.

وتقديمُ المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق، وقال الفاضلُ المذكورُ: للحصر، أي: كلّ واحدٍ من المذكورين عاقبناه بجنايته، لا بعضاً دون بعض[2].

وبُحث فيه بأنَّ «كلًّا» متكفِّلةٌ بهذا المعنى قدِّمتْ أو أُخِّرتْ.

وأجيب بأنَّا لا نسلِّم أنه يفهم منها «لا بعضاً» إذا أُخِّرت، وإنما يُفْهَم منها بواسطة التقديم، فتأمل.

والكلامُ في مرجع ضمير «بذنبه» سؤالاً وجواباً لا يخفى على مَن أحاط علماً بما قيل في قولهم: كلُّ رجلٍ وضَيْعتُه، وقولهم: الترتيبُ جَعْلُ كلِّ شيءٍ في مرتبته، وهو شهيرٌ بين الطلبة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً عاصفاً فيها حصباء. وقيل: مَلَكاً رماهم بالحصباء.

وهم قومُ لوطٍ، وقال ابن عطية: يُشْبِهُ أن يدخل عاد في ذلك؛ لأن ما أُهْلِكوا به من الريح كانت شديدةً وهي لا تخلو عن الحَصْبِ بأمورٍ مؤذيةٍ، والحاصبُ هو العارض من ريحٍ أو سحابٍ إذا رَمَى بشيءٍ[3].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هم مدينُ وثمود، ولم يقل: أخذناه بالصيحة، ليوافق ما قبله وما بعده في إسناد الفعل إليه تعالى الأوفقِ بقوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ) دفعاً لتوهُّم أن يكون سبحانه هو الصائح.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٤٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارونُ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعونُ ومَن معه. وذكر بعضهم قومَ نوح عليه السلام أيضاً. واعتُرض بأنهم ليسوا من المذكورين. وتعقِّب بأنهم أولُ المذكورين في هذه السورة من الأمم السالفة.

ولعل المعترِضَ أراد بالمذكورين: المذكورين متناسقينَ، أي: بلا فَصْلٍ بأمةٍ لم تُفِدْ قصتُها إهلاكَها، وقومُ نوح وإن ذُكروا أوّلاً لكن فُصِلَ بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة قوم إبراهيم عليه السلام، وهي لم تُفِدْ أنهم أهلكوا.

وذكر النيسابوريُّ أنه سبحانه قرَّر بقوله تعالى: (فَكُلًّا) إلخ أَمْرَ المذنبينَ بإجمالٍ آخَرَ يفيدُ أنهم عذِّبوا بالعناصر الأربعة، فجعل ما منه تركيبهم سبباً لعُدْمِهم، وما منه بقاؤهم سبباً لفنائهم. فالحاصبُ وهو حجارةٌ محمَّاةٌ تقع على كلِّ واحدٍ منهم فتنفذ من الجانب الآخر إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر النار، والصيحةُ وهي تموُّجٌ شديدٌ في الهواء إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر الهواء، والخسفُ إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر التراب، والغرق إشارةٌ إلى التعذيب بعنصر الماء[(١)]. اهـ. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ما كان سبحانه مريداً لظُلْمِهم، وذلك بأن يعاقبهم من غير جُرْمٍ؛ لأنه خلافُ ما تقتضيه الحكمة.

وفي «أنوار التنزيل»: أي: ما كان سبحانه لِيُعاملَهم معاملةَ الظالم فيعاقبهم بغير جرم، إذ ليس ذلك من سنَّته عزَّ وجل[(٢)]. ويفيد ذلك أنه لو وقع منه تعالى تعذيبُهم من غير جرمٍ لا يكون ظلماً؛ لأنه تعالى مالكُ الملك يتصرَّفُ به كما يشاء، فله أن يُثيب العاصيَ ويعذِّبَ المطيع، وهذا أمرٌ مشهورٌ بين الأشاعرة، والكلام في تحقيقه يطلبُ من علم الكلام، وقد أسلفنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] ما ينفعك في هذا المقام تَذَكُّرُه، فتذكَّر.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من الكفر والمعاصي باختيارهم. وقال مولانا الشيخ إبراهيم الكورانيُّ ما حاصله: إنَّ ظُلْمَ الكَفَرةِ أنفسَهم إنما هو لسوء استعدادهم الذي هم عليه في نفس الأمر من

---

(١) بنحوه في غرائب القرآن ٢٠/ ٩٤.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٠١.

غير مدخلٍ للجَعْلِ فيه، وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلَقِ جلَّ وعلا ما صار سبباً لظهور شقائهم. اهـ، والبحث في ذلك طويلُ الذيل فليُطْلَبْ من محلِّه. وتقديمُ المعمول لرعاية رؤوس الآي.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ استئنافٌ متضمِّنٌ تقبيحَ حال أولئك المهلَكين الظالمين لأنفسهم وأضرابِهم ممن تولَّى غيرَ الله عزَّ وجلَّ، وفيه إشارةٌ إلى أعظم أنواع ظلمهم، فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عَبَدوا من دون الله عزَّ وجلَّ الأوثان. وجوِّز أن يكون جميعَ مَن اتَّخذ غيره تعالى متَّكلاً ومعتمداً، آلهةً كان ذلك أو غيرَها، ولذا عَدَل إلى «أولياء» من آلهة.

أي: صفتُهم أو شبههُم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي: كصفتها أو شبهها ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ بيانٌ لصفة العنكبوت التي يدور عليها أمرُ التشبيه، والجملةُ ـ على ما نُقل عن الأخفش[1] من لزوم الوقف على «العنكبوت» ـ مستأنفةٌ لذلك، و«إنَّ أوهنَ البيوت» إلخ في موضع الحال من فاعل «اتَّخذتْ» المستكنِّ فيه، وجوِّز كونُه في موضع الحال من مفعوله بناءً على جواز مجيء الحال من النكرة. وعلى الوجهين وُضع المظهَرُ موضع الضمير الراجع إلى ذي الحال، والجملةُ من تتمة الوصف، واللام في «البيوت» للاستغراق، والمعنى: مَثَلُ المتَّخذينَ لهم من دون الله تعالى أولياء في اتِّخاذهم إياهم كمَثَلِ العنكبوت، وذلك أنها اتَّخذت لها بيتاً والحالُ أنَّ أوهنَ كلِّ البيوتِ وأضعفَها بيتُها، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى أولياء والحال أنَّ أوهن كلِّ الأولياء وأضعفَها أولياؤهم.

وإن شئت فقل: إنها اتَّخذت بيتاً في غاية الضعف، وهؤلاء اتَّخذوا إلهاً أو متَّكلاً في غاية الضعف، فهم وهي مشتركان في اتِّخاذ ما هو في غاية الضعف في بابه.

ويجوزُ أن تكون جملةُ «اتَّخذتْ» حالاً من «العنكبوت» بتقدير «قد» أو بدونها، أو صفةً لها لأنَّ «أل» فيها للجنس، وقد جوَّزوا الوجهين في الجمل الواقعة بعد

(١) كما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.

المعرَّف بـ «أل» الجنسية، نحو قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥].

وعن الفرَّاء[١] أنَّ الجملة صلةٌ لموصولٍ محذوفٍ وقع صفةَ «العنكبوت» أي: التي اتَّخذت، وخرَّج الآية التي ذكرناها على هذا. واختار حذفَ الموصول في مثله ابن درستويه، وعليه لا يوقف على «العنكبوت».

وأنت تعلم أنَّ كون الجملة صفةً أظهر، والمعنى حينئذ: مَثَلُ المشرك الذي عَبَدَ الوثَنَ بالقياس إلى الموحِّد الذي عَبَدَ الله تعالى كمَثَل عنكبوتٍ اتَّخذت بيتاً بالإضافة إلى رجلٍ بنى بيتاً بآجرٍّ وجصٍّ أو نحته من صخرٍ، وكما أنَّ أوهن البيوت إذا استَقْرَيْتَها بيتاً بيتاً بيتُ العنكبوت، كذلك أضعفُ الأديان إذا استَقْرَيْتَها دِيناً ديناً عبادةُ الأوثان، وهو وجهٌ حسنٌ ذكره الزمخشريُّ في الآية[٢]، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه، والغرضُ إبرازُ تفاوُتِ المتَّخذِينَ والمتَّخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وإدماجِ توطيد الآخر، وعليه يجوزُ أن يكون قوله تعالى: (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ) جملةً حاليةً؛ لأنه من تتمة التشبيه، وأن يكون اعتراضيةً لأنه لو لم يؤتَ به لكان في ضمنه ما يرشد إلى هذا المعنى. وإلى كونه جملةً حاليةً ذهب الطيبيُّ[٣]. وقال صاحب «الكشف»: كلام الزمخشريِّ إلى كونه اعتراضيةً أقربُ؛ لأن قوله: وكما أنَّ أوهن البيوت. . إلخ، ليس فيه إيماءٌ إلى تقييد الأول.

وقد تعقَّب أبو حيان هذا الوجهَ بأنه لا يدلُّ عليه لفظُ الآية، وإنما هو تحميلُ اللفظ ما لا يحتمله كعادته في كثيرٍ من تفسيره[٤]. وهذه مجازفةٌ على صاحب «الكشاف» كما لا يخفى.

ويجوز أن يكون المعنى: مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ فيما اتَّخذوه معتَمَداً ومتَّكلاً في دينهم، وتولَّوه من دون الله تعالى، كمثل العنكبوت فيما نسجته

---

(١) كما في حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠٦.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية

(٤) البحر ٧/ ١٥٣.

واتخذنه بيتاً، والتشبيهُ على هذا من المركَّب، فيعتبر في جانب المشبَّهِ اتِّخاذٌ ومتَّخَذٌ واتِّكالٌ عليه، وكذلك في الجانب الآخر ما يناسبُه، ويُعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كلِّه بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر، والغرضُ تقريرُ وهنِ أمرِ دينهم، وأنه بلغَ الغايةَ التي لا غايةَ بعدها، ومدارُ قطب التشبيه أنَّ أولياءهم بمنزلة منسوجِ العنكبوت ضَعْفَ حالٍ وعَدَمَ صُلوحِ اعتمادٍ، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ تذييلاً يقرِّر الغرضَ من التشبيه.

وجوِّز أن يكون المعنى والغرضُ من التشبيه ما سمعتَ إلا أنه يجعل التذييل استعارةً تمثيليةً، ويكون ما تقدَّم كالتوطئة لها، فكأنه قيل: وإنَّ أوهن ما يُعتمد عليه في الدِّين عبادةُ الأوثان، وهي تقرِّر الغرضَ من التشبيه بتبعية تقرير المشبَّه، وكأنَّ التقرير في الوجه السابق بتبعية تقرير المشبَّه به، وهذا قريبٌ من تجريد الاستعارة وترشيحها، ونظيرُ ذلك قولك: زيدٌ في الكرم بحرٌ والبحرُ لا يُخيِّبُ مَن أتاه، إذا كان البحرُ الثاني مستعاراً للكريم، وذِكْرُ الطرفين إنما يمنع من كونه استعارةً لو كان في جملته، ورجِّح السابقُ لأنَّ عادة البلغاء تقريرُ أمر المشبَّه به ليدلَّ به على تقرير المشبَّه، ولأنَّ هذا إنما يتميَّز عن الإلغاز بعد سَبْقِ التشبيه.

وجوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ كالمقدِّمة الأولى، وقولُه سبحانه: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ كالثانية، وما هو كالنتيجة محذوفٌ مدلولٌ عليه بما بعدُ كما في «الكشف»، والمجموعُ يدلُّ على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها على سبيل الكناية الإيمائية، فتأمل.

والظاهرُ أنَّ المراد بالعنكبوت النوعُ الذي يَنْسج بيته في الهواء ويصيد به الذباب، لا النوعُ الآخَرُ الذي يحفر بيته في الأرض ويخرج في الليل كسائر الهوامِّ، وهي على ما ذكره غيرُ واحدٍ من ذوات السموم، فيسنُّ قتلُها لذلك، لا لِمَا أخرج أبو داود في «مراسيله» عن يزيد بن مرثد من قوله ﷺ: «العنكبوتُ شيطانٌ مَسَخَها الله تعالى، فَمَنْ وجدها فليقتلها» فإنه كما ذكر الدميريُّ ضعيف[1].

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ١٦٥، والخبر في مراسيل أبي داود (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية عن الوضين بن عطاء عن يزيد بن مرثد عن النبي ﷺ بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه» وبقية وهو ابن الوليد مدلِّس، وقد عنعن، والوضين سيئ الحفظ كما ذكر الحافظ في التقريب.
=

وقيل: لا يسنُّ قتلها، فقد أخرج الخطيب عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا وأبو بكر الغارَ فاجتمعتِ العنكبوتُ فنسجتْ بالباب، فلا تقتلوهنَّ» ذكر هذا الخبر الجلال السيوطيُّ في «الدر المنثور»[(١)]، والله تعالى أعلمُ بصحته وكونِه مما يَصْلُحُ للاحتجاج به.

ونصُّوا على طهارةِ بيتها لعدم تحقُّق كون ما تنسجُ به من غذائها المستحيلِ في جوفها، مع أنَّ الأصل في الأشياء الطهارةُ، وذكر الدميريُّ أنَّ ذلك لا تُخرِجُه من جوفها بل من خارج جلدها[(٢)]. وفي هذا بُعدٌ، وأنا لم أتحقَّق أمرَ ذلك ولم أعيِّن كونَه من فمها أو دُبرِها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك، لا لعدم إمكان الوقوف على الحقيقة.

وذُكر أنه يَحْسُنُ إزالةُ بيتها من البيوت؛ لِمَا أسند الثعلبيُّ وابنُ عطية وغيرُهما عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْج العنكبوت، فإنَّ تَرْكَه في البيوت يُورِثُ الفقر[(٣)]. وهذا إن صحَّ عن الإمام كرَّم الله تعالى وجهه فذاك، وإلا فحسُنَ الإزالةُ لِمَا فيها من النظافة، ولا شكَّ بنَدْبِها.

والتاءُ في «العنكبوت» زائدةٌ كتاء طالوت، فوزنُه فَعْلَلوت، وهو يقع على الواحد والجمع والمذكَّرِ والمؤنَّث، ومن استعماله مذكَّراً قوله:

عـلـى هَـطَّـالـهـم مـنـهـم بـيـوتٌ   كـأنَّ الـعـنـكـبـوت هـو ابـتـنـاهـا[(٤)]

= وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه» وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك.

(١) ٥/ ١٤٥، والحديث في تاريخ بغداد ١٠/ ١٠١، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ١/ ٢٦٠، وهو من طريق إبراهيم بن سالم، عن عبد الله بن عمران البصري، عن محمد بن جحادة، عن أبي صادق، عن علي به. وهو حديث منكر كما ذكر ابن عدي في ترجمة إبراهيم بن سالم، كما أن رواية أبي صادق، وهو الأزدي الكوفي، عن علي رضي الله عنه مرسلة كما في التهذيب ٤/ ٥٣٨. وينظر في قصة نسج العنكبوت ما سلف ١٠/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) حياة الحيوان ٢/ ١٦٥.

(٣) تفسير الثعلبي ٧/ ٢٨٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٨، ونقله المصنف عنهما بواسطة الدميري في حياة الحيوان ٢/ ١٦٥. وفي إسناده عبد الله بن ميمون القداح، قال عنه أبو حاتم: متروك، وقال البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو زرعة: واهي الحديث. الميزان ٢/ ٥١٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٧، والصحاح (هطل)، وفيه: الهطَّال اسم جبل.

واستظهر الفاضل سعدي چلبي كونَ المراد به هنا الواحد، وذهب إلى تأنيثه أيضاً، فذكر أنه اختير هنا تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضَّعف فيما يتخذه. وقال مولانا الخفاجيُّ معرِّضاً به: الظاهرُ أنَّ المراد الجمعُ لا الواحد؛ لقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ) وأمَّا إفراد البيت فلأنَّ المراد الجنس، ولذلك أنّث «اتَّخذت» لا لأن المراد المؤنَّث[1].

وفي «القاموس»: العنكبوتُ معروفٌ، وهي العَنْكَباةُ والعَكَنْباةُ والعَنْكَبوهُ والعَنْكَباءُ، والذَّكر عَنْكَب، وهي: عَنْكبةٌ، وجمعُه: عَنْكبوتاتٌ وعناكِبُ، والعِكَابُ والعُكُب والأَعْكُبُ أسماءُ الجموع[2]. وتعقِّب بأنَّ عدَّ ما عدا ما ذكره أولاً اسمَ جمعٍ لا وجهَ له؛ لأنَّ أَعْكُب لا يصحُّ فيه ذلك[3]. وذكروا في جمعه أيضاً: عناكيب.

واختلف في نونه؛ فقيل: أصلية. وقيل: زائدة كالتاء، وجمعه على عكاب يدلُّ على ذلك. وذكر السجستانيُّ في «غريب سيبويه» أنه ذكر عناكب في موضعين، فقال في موضع: وزنُه فَنَاعِل، وفي آخَرَ: فَعَالِل. فعلى الأول النونُ زائدةٌ وهو مشتقٌّ من العَكَب وهو الغِلَظ[4]. اهـ المرادُ منه، ولعل الأقرب على ذلك كونُه مشتقًّا من العَكْب بالفتح بمعنى الشدة في السير[5]، فكأنه لشدَّةِ وَثْبِه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند فراره أُطلق عليه اسم العنكبوت.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: لو كانوا يعلمون شيئاً من الأشياء لعلموا أنَّ هذا مَثَلُهم، أو: أنَّ أمرَ دينهم بالغٌ هذه الغايةَ من الوهن. وقيل: أي: لو كانوا يعلمون وهنَ الأوثان لمَا اتَّخذوها أولياءَ من دون الله تعالى.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢.

(٢) القاموس (عنكب).

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٠٢، وينظر الكتاب ٤/ ٢٥٣.

(٥) كذا في القاموس (عكب)، وقال صاحب التاج: هكذا في النسخ التي بأيدينا، وفي أخرى صحيحة: في الشر، والصواب الثانية؛ لأنه قال في لسان العرب: والعَكْب: الشدةُ في الشرِّ، والشيطنةُ.

وفي «الكشف»: أنّ قوله تعالى (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) على جميع التقادير ـ أي: المذكورة في «الكشاف»، وقد ذكرناها فيما مرَّ ـ من الإيغال[1]؛ جهَّلهم سبحانه في الاتِّخاذ، ثم زادهم جلَّ وعلا تجهيلاً أنهم لا يعلمون هذا الجهل البيِّن الذي لا يخفى على مَن له أدنى مسكةٍ.

و«لو» شرطيةٌ وجوابُها محذوف على ما أشرنا إليه، وجوَّز بعضهم كونَها للتمنِّي فلا جوابَ لها، وهو غيرُ ظاهر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ على إضمارِ القول، أي: قل للكفرة: إنَّ الله.. إلخ. وقيل: لا حاجةَ إلى إضماره؛ لجواز أن يكون «تدعون» من باب الالتفات للإيذان بالغضب، وفيه بحثٌ.

وقرأ أبو عمرو وسلام: «يعلم ما» بالإدغام[2]. وأبو عمرو وعاصمٌ بخلاف: «يدعون» بياء الغيبة[3] حَمْلاً على ما قبله.

و«ما» استفهاميةٌ منصوبةٌ بـ «تدعون»، و«يعلم» معلَّقةٌ عنها، فالجملةُ في موضع نصبٍ بها، و«مِن» الأولى متعلِّقةٌ بـ «تدعون» على ما هو الظاهر، و«من» الثانية للتبيين، وجوِّز كونُها للتبعيض.

ويجوز كونُ «ما» نافيةً و«من» الثانيةُ مزيدةً، و«شيء» مفعولُ «تدعون»، أي: لستُم تدعون من دونه تعالى شيئاً، كأنَّ ما يدْعونه من دونه عز وجل لمزيدِ حقارته لا يصلح أن يسمَّى شيئاً.

وجوِّز كونها مصدريةً، وهي وما بعدها في تأويل مصدرٍ مفعول «يعلم» على أنها بمعنى يعرف ناصبةٌ لمفعولٍ واحد، و«من» تبعيضية، أي: يعرف دعاءكم

---

(١) الإيغال: هو ختم الكلام بما يفيد نكتةً يتم المعنى بدونها، كقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه؛ إذ الرسول مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. الإتقان ٢/ ٣٦٩.

(٢) البحر ٧/ ١٥٣.

(٣) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣ عن أبي عمرو وعاصم ويعقوب.

وعبادتكم بعضَ شيءٍ من دونه. وقيل: «من» للتبيين، و«شيء» بمعنى ذلك المصدر وتنوينُه للتحقير، أي: يعرف دعوتَكم من دونه هي دعوةٌ حقيرة.

وجوِّز كونُها موصولةً مفعولَ «يعلم» بمعنى يعرف، ومفعولُ «تدعون» عائدُها المحذوفُ، و«من» إما بيانٌ للموصول أو تبعيضية. وجوِّز زيادتُها على هذا الوجه وما بعده(١)، ولا يخفى ما فيه.

والكلام على الوجهين الأوَّلَيْنِ في «ما» تجهيلٌ للكفرة المتَّخذينَ من دون الله تعالى أولياءَ؛ لِمَا فيهما من نفي الشيئية عمَّا اتخذوه وليًّا، والاستفهام عنه الذي هو في معنى النفي لأنه إنكارٌ، وفيه توكيدٌ للمَثَل؛ لأنَّ كون معبودهم ليس بشيء يُعبأ به مناسبٌ [له](٢) ولذا لم يعطف، وعلى الوجهين الأخيرين فيها وعيدٌ لهم؛ لأنَّ العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارةٌ عن مجازاتهم عليها، وكذا العلم بما يدعونه عبارةٌ عن مجازاتهم على دعائهم إياه، وترك العطف فيه لأنه استئنافٌ، ويجوز إرادةُ التجهيل والوعيد في الوجوه كلِّها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ في موضع الحال، ويفهَمُ منه التعليلُ على المعنيين(٣)، فإنَّ مِن فَرْطِ الغباوة إشراكُ ما لا يُعدُّ شيئاً بمن هذا شأنُه، وإنَّ الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كلِّ شيءٍ البالغِ في العلم وإتقانِ الفعل الغايةَ القاصيةَ كالمعدوم البحت، وإنَّ مَن هذا صفتُه قادرٌ على مجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ﴾ أي: هذا المَثَلُ ونظائرُه من الأمثال المذكورة في الكتاب العزيز ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لِمَا بَعُدَ من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباعِ الفوائد ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الراسخون في العلم، المتدبِّرون في الأشياء على ما ينبغي.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: وما قبله، أي: جوِّز زيادتها على القول بأن «ما» مصدرية أو على أنها موصولة، ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٠٣.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من حاشية الشهاب ٧/ ١٠٣، والكلام منه.

(٣) أي: التجهيل والوعيد.

وروى مُحيي السُّنةِ بسنده عن جابر، أنَّ النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ الآيةَ، فقال: «العالِمُ مَن عقل عن الله تعالى، فعمِلَ بطاعته واجتنب سخطه»(١).

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مُحقًّا مراعياً للحِكَم والمصالح، على أنه حالٌ من فاعل «خلق». أو: ملتبسةً بالحقِّ الذي لا محيدَ عنه مستتبعةً للمنافع الدينية والدنيوية، على أنها حالٌ من مفعوله، فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلَّق به معاشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونه تعالى المتعلِّقةِ بذاته سبحانه وصفاته كما يُفْصِحُ عنه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ دالَّةً لهم على ما ذكر من شؤونه عز وجل. وتخصيصُ المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكلِّ لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: دُمْ على تلاوة ذلك تقرُّباً إلى الله تعالى بتلاوته، وتذكُّراً لِمَا في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للناس وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسنِ الآداب ومكارِمِ الأخلاق.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوِمْ على إقامتها، وحيث كانت الصلاةُ منتظمةً للصلوات المكتوبة المؤدَّاة بالجماعة، وكان أمرُه ﷺ بإقامتها متضمِّناً لأمر الأمة بها، علَّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كأنه قيل: وصلِّ بهم إنَّ الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نَهْيِها إياهم عن ذلك أنها لتضمُّنها صنوفَ العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة، والوقوفِ بين يدي الله عز وجل، والركوعِ والسجودِ له سبحانه الدالِّ على غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأتي بها: لا تفعل الفحشاء والمنكَر، ولا تَعْصِ ربًّا هو أهلٌ لِمَا أتيتَ به، وكيف يليقُ بك أن تفعل ذلك وتَعْصِيَه عز وجل وقد أتيتَ مما يدلُّ على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الأقوال والأفعال بما تكون به إن عَصَيْتَ وفَعلْتَ الفحشاءَ أو المنكر كالمتناقض في أفعاله؟

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨، وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٨٣٧ - بغية الباحث). وفي إسناده داود بن المحبر، قال عنه أحمد: لا يدري ما الحديث. وقال ابن المديني: ذهب حديثه. وقال أبو زرعة وغيره: ضعيف. وقال الدارقطني: متروك. الميزان ٢/ ٢٠.

وبما ذُكر ينحلُّ الإشكالُ المشهور، وهو أنَّا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلُّون ولا ينتهون عن ذلك؛ فإنَّ نهيها إياهم عن الفحشاء والمنكر بهذا المعنى لا يستلزمُ انتهاءَهم، ألا ترى أنَّ الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] والناسُ لا ينتهون، وليس نهيُ الصلاة بأعظمَ من نهيه سبحانه وتعالى، فإذا لم يكن هناك استلزامٌ فكيف يكون هنا؟

وما أرى هذا الإشكال إلَّا مبنيًّا على توهُّم استلزام النهي للانتهاء، وهو توهُّمٌ باطلٌ وتخيُّلٌ عاطلٌ، لا يشهد له عقلٌ، ولا يؤيِّده نقلٌ.

ونقل أبو حيان عن ابن عباس والكلبيِّ وابنِ جريجٍ وحماد بنِ أبي سليمان أنَّ الصلاة تنهى عن ذلك ما دام المصلِّي فيها[1]. وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلِّي القائلةِ له: لا تفعل ذلك، ما دام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الأقوال والأفعال التي كان النهي بما تدلُّ عليه من العظمة والكبرياء.

ونُقل عن القطب أنه قال في جواب الإشكال: إنَّ الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] ومَن كان ذاكراً للهِ عزَّ وجلَّ مَنَعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه منه تعالى مما قلَّ أو كثُر، وكلُّ مَن تراه يصلِّي ويأتي الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلِّي لكان أشدَّ إتياناً، فقد أثَّرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ المراد أنَّ الصلاة سببٌ للانتهاء عن ذلك، وليس هذا كلِّيًّا لِمَا أنَّ «الصلاة» في حكم النكرة، وهي في الإثبات لا يجب أن تعمَّ، فينحلُّ الإشكال. وعلى ما قلنا لا يضرُّ دعوى الكلِّيةِ، نعم النهيُ الذي ذكرناه يتفاوتُ بحسب تفاوُتِ أداء الصلاة، فهو في صلاةٍ أُدِّيتْ على أتمِّ ما يكون من الخشوع والتدبُّر لِمَا يتلى فيها مع الإتيان بفروضها وواجباتها وسُننها وآدابها على أحسن أحوالها أتمُّ، وقد يَضْعفُ النهيُ فيها حتى كأنها لا تَنْهَى، كما في الصلاة التي تؤدَّى مع الغفلة التامة والإخلالِ بما يليق فيها، وهي الصلاةُ المردودة التي تُلفُّ كما يُلفُّ الثوبُ الخَلَقُ،

(١) البحر ٧/ ١٥٣.

ويُرْمَى بها وجهُ صاحبها، فتقول له: ضيَّعك الله تعالى كما ضيعتني[١]. وكأنَّ مراد القائل: إنَّ المراد بالصلاة التي تَنْهَى عما ذكر هي الصلاةُ المقبولةُ هو هذا.

وقد يُجعَلُ الانتهاء علامةَ القبول؛ رَوَى بعضُ الإمامية عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: مَن أحبَّ أن يعلم قُبِلتْ صلاتُه أم لم تقبل، فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقَدْرِ ما منعته قُبلت منه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «مَن لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر فلا صلاةَ له». وفي لفظ: «لم يزدَدْ بها من الله تعالى إلا بُعداً»[٢]. وأخرجه بهذا اللفظ ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً[٣].

وأخرج ابنُ أبي شيبة وعبد بنُ حميد وابن جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن ابن مسعود ﷺ أنه قيل له: إنَّ فلاناً يطيلُ الصلاةَ، فقال: إنَّ الصلاة لا تنفع إلا مَن أطاعها، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ٢/ ١٢٢، والبزار بنحوه (٢٦٩١) و(٢٧٠٨) عن عبادة بن الصامت. قال الهيثمي: فيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المديني والعجلي، وضعفه جماعة، وبقية رجاله موثقون. اهـ. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٩٥) من حديث أنس ﷺ، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٣٠٢: فيه عباد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٥، وهو بالرواية الثانية في تفسير الطبري ١٨/ ٤٠٩، والشعب (٣٢٦٤)، وكذا أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٩٨، وابن الأعرابي في معجمه (١٩٥٤). وأخرجه بالرواية الأولى ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٥-٣٠٦٦ من طريق عمر بن أبي عثمان عن الحسن عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعاً، وإسناده ضعيف لجهالة عمر بن أبي عثمان، ولانقطاعه فإن الحسن لم يسمع من عمران بن حصين.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٦، والمعجم الكبير (١١٠٢٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٥. وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٦، وشعب الإيمان (٣٢٦٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٦.

وقد يتَّفق لمن يُكثر الصلاةَ أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتُقبل لطفاً من الله تعالى وكرماً، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصي، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبَّان والبيهقيُّ عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ فلاناً يصلِّي بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «سينهاه ما تقول»[1].

وأصرَحُ منه فيما ذكرنا ما روي أنَّ فتًى من الأنصار كان يصلِّي مع النبيِّ ﷺ الصلاةَ ولا يدعُ شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوُصِفَ له، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ صلاته ستنهاه» فلم يلبث إلَّا أن تاب[2]. إلا أنَّ ابن حجرٍ ذكر فيه أنه لم يجده في كتب الحديث[3].

ثم إنَّ حَمْلَ الصلاة في الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيَّدُ بالآثار والأخبار الصحيحة، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر ﷺ أنَّ المراد بها هنا القرآن[4].

وقال ابن بحر: إنَّ المراد بها الدعاء، أي: أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى، إنَّ الدعاء إلى أمره سبحانه ينهَى عن الفحشاء والمنكر.

وكلٌّ منهما عدولٌ عن الظاهر من غير داعٍ.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ: «إنَّ الصلاةَ تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر»[5].

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وأبو قرَّةَ ومجاهدٌ وعطيةُ: المعنى: لذِكْرُ الله تعالى إياكم أكبر من ذِكْرِكم إياه سبحانه. وفي لفظ:

---

(١) مسند أحمد (٩٧٧٨)، وصحيح ابن حبان (٢٥٦٠)، والشعب (٣٢٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٥٨: رجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٢٠٧.

(٣) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٨.

(٤) تفسير الطبري ١٨/٤٠٨.

(٥) الدر المنثور ٥/١٤٥.

لذِكْرُ الله تعالى العبدَ أكبر من ذكر العبدِ لله تعالى. وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك أنه قال: ذِكْرُ اللهِ تعالى العبدَ في الصلاة أكبرُ من الصلاة[1].

فـ «ذِكْر» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، والمفعولُ محذوفٌ، وكذا المفضَّلُ عليه، وهو خاصٌّ على ما سمعتَ، وجوّز أن يكون عامًّا، أي: أكبرُ من كلِّ شيء.

وقيل: المعنى: ولذِكْرُ العبدِ للهِ تعالى في الصلاة أكبرُ من سائر أركان الصلاة.

وقيل: أي: ولذِكْرُ العبدِ لله تعالى في الصلاة أكبرُ من ذِكْرِه إياه سبحانه خارجَ الصلاة.

وقيل: أي: ولذِكْرُ العبدِ لله تعالى أكبرُ من سائر أعماله. وروي عن جماعةٍ من السَّلَف ما يقتضيه؛ أخرج أحمد في «الزهد»، وابنُ المنذر عن معاذ بن جبل قال: ما عَمِلَ آدميٌّ عملاً أَنْجَى له من عذاب الله تعالى مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى. قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله تعالى؟ قال: ولا أنْ يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء قال: أَلَا أُخْبِرُكم بخيرِ أعمالِكُم، وأحبِّها إلى مليككم، وأسماها في درجاتكم، وخيرٍ من أن تغزوا عدوَّكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال: ذِكْرُ الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3].

وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سُئل: أيُّ العملِ أفضل؟ قال: أَمَا تقرأ القرآن؟ ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لا شيءَ أفضلُ من ذكر الله[4].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ١٤٦.

(٢) الزهد لأحمد ص٢٢٥، وهو من زوائد ابنه عبد الله.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٨، وتفسير الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤. وأخرجه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ أحمد (٢١٧٠٢)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، دون ذكر الآية.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٥.

ونَسبَ في «البحر»[1] إلى أبي الدرداء وسلمانَ رضي الله عنه القول الذي ذكرناه أوَّلاً عمَّن سمعتَ، ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما.

وجاء عن ابن عباس أيضاً روايةٌ تُشعِرُ بأنَّ المراد بذكر الله تعالى ذكرُ العبدِ له سبحانه؛ أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر، والحاكم في «الكنى»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عنترة قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: أيُّ العمل أفضل؟ قال: ذِكْرُ الله أكبرُ، وما قعد قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالى يَدْرُسون كتابَ الله، ويتعاطَوْنه بينهم، إلَّا أظلَّتهم الملائكةُ بأجنحتها، وكانوا أضيافَ الله تعالى ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيرِه، وما سلك رجلٌ طريقاً يلتمسُ فيه العلم إلا سهَّل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة[2].

وقيل: المرادُ بذكر الله تعالى الصلاةُ، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أي: ولَلصَّلاةُ أكبرُ من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها به للإيذان بأنَّ ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدةُ في كونها مفضَّلةً على الحسنات ناهيةً عن السيئات.

وقيل: المعنى: ولَذِكْرُ اللهِ تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذِكْرُ نَهْيِه عنهما ووعيدِه عليهما أكبرُ في الزَّجر من الصلاة.

فـ «ذكر» على هذه الأقوال مصدرٌ مضافٌ للمفعول والمفضَّلُ عليه محذوف. وجوِّز أن لا يكون أفعل للتفضيل سواءٌ كانت إضافةُ المصدر للفاعل أم للمفعول، كما في: الله أكبر.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ من الخير والطاعة، فيجازيكم بذلك أحسنَ المجازاة، وقال أبو حيان: يعلم ما تصنعون من الخير والشرِّ فيجازيكم بحسَبِه، ففيه وعدٌ ووعيدٌ وحثٌّ على المراقبة[3].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى. وقيل: من نصارى نجران

(١) ٧/ ١٥٣.
(٢) الدر المنثور ٥/ ١٤٦-١٤٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٠، وشعب الإيمان (٦٧١).
(٣) البحر ٧/ ١٥٤.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسنُ، كمقابلةِ الخشونة باللِّين، والغضبِ بالكظم، والمشاغبةِ بالنصح، والسَّوْرة بالأناة، كما قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط[١] في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفقُ، فاستَعمِلوا معهم الغِلْظةَ.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنَّ «الذين ظلموا» هم الذين أثبتوا الولد والشريك، أو قالوا: يدُ اللهِ تعالى مغلولةٌ، أو: الله سبحانه فقير، أو آذَوا رسولَ الله ﷺ[٢].

وهذه الغلظةُ التي تُفْهِمُ الآيةُ الإذنَ بها لا تَصِلُ إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أيِّ وجهٍ من الوجوه المذكورة كان ظلمهم؛ لأنَّ ظاهر كون السورة مكيةً أنَّ هذه الآية مكيةٌ، والقتال في المشهور لم يُشْرَعْ بمكةَ، وليست الغلظةُ محصورةً فيه كما لا يخفى.

وقيل: المعنى: ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدِّينَ للجزية إلا بالتي هي أحسنُ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمَّةَ ومنعوا الجزية، فإنَّ أولئك مجادلتهم بالسيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ما يَقْرُبُ منه[٣].

وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ، والحربُ والجزيةُ مما شُرِعَ بالمدينة، وكونُ الآيةِ بياناً لحكمِ آتٍ بَعْدُ بعيدٌ، وأيضاً لا قرينةَ على التخصيص.

وقيل: يجوز أن يكون القائل بذلك ذاهباً إلى أنَّ الآية مدنيةٌ، ومكيةُ السورة باعتبارِ أغلب آياتها. أو ممن يقول بأنَّ الحرب شُرِعَ بمكة في آخر الأمر والسورةُ آخِرُ ما نزل بها، إلَّا أنه لم يقع، وعدمُ الوقوع لا يدلُّ على عدم المشروعية.

---

(١) في (م): بالإفراد، وهو تصحيف.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٨.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤١٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٧.

وعن ابن زيدٍ أنَّ المراد بأهل الكتاب مؤمنو أهلِ الكتاب، وبالتي هي أحسنُ موافقتُهم فيما حدَّثوا به من أخبار أوائلهم، وبالذين ظلموا مَن بقي منهم على كفره. وهو كما ترى.

واختلف في نسخ الآية؛ فأخرج أبو داود في «ناسخه»، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن الأنباريّ في «المصاحف» عن قتادة أنه قال: نُهي في هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب، ثم نُسخ ذلك فقال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] ولا مجادلةَ أشدُّ من السيف[١].

وقال في «مجمع البيان»: الصحيحُ أنها غيرُ منسوخةٍ؛ لأنَّ المراد بالجدال المناظرةُ، وذلك على الوجه الأحسنِ هو الواجبُ الذي لا يجوز غيرُه[٢].

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ المجادلة بالحسنى في أوائل الدعوة لأنَّها تتقدَّمُ القتالَ، فلا يلزمُ النسخُ ولا عدمُ القتال بالكلِّية، وأما كونُ النهي يدلُّ على عموم الأزمان فيلزمُ النسخ فلا يتمُّ ما ذكر، فيدفعُه أنَّ مَن يقاتلُ كمانع الجزية داخلٌ في المستثنى، فلا نسخَ وإنما هو تخصيصٌ بمتَّصلٍ، وكونُ ذلك يقتضي مشروعيةَ القتال بمكة ليس بصحيحٍ لأنه مسكوتٌ عنه، فتأمل.

وقرأ ابن عباس: «أَلَا بالتي» إلخ، على أنَّ «ألا» حرفُ تنبيهٍ واستفتاحٍ، والتقدير: أَلَا جادلوهم بالتي هي أحسن[٣].

﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿و﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وبالذي أُنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وهذا القولُ نوعٌ من المجادَلة بالتي هي أحسن. وعن سفيان بن حسين أنه قال: هذه مجادلتُهم بالتي هي أحسن.

وأخرج البخاريُّ والنسائيُّ وغيرهما عن أبي هريرةَ قال: كان أهلُ الكتاب يقرؤون الكتاب بالعبرانية ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٢٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٦٨، وعزاه لأبي داود وابن الأنباري السيوطي في الدر ٥/ ١٤٧.
(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٣٦٩.
(٣) البحر ٧/ ١٥٥.

«لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: (ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ) الآية»[1]، والتصديقُ والتكذيبُ ليسا نقيضين فيجوزُ ارتفاعُهما.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ أي: مطيعون خاصةً، كما يؤذِنُ بذلك تقديم «له»، وفيه تعريضٌ باتِّخاذهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ تجريدٌ للخطاب لرسول الله ﷺ، و«ذلك» إشارةٌ إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعْدِ منزلةِ المشارِ إليه في الفضل، أي: مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ الشأنِ الموافقِ لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن الذي من جملته هذه الآيةُ الناطقةُ بما ذُكر من المجادلةِ بالتي هي أحسن.

وقيل: الإشارةُ إلى ما تقدَّم لذكر الكتاب وأهله، أي: وكما أنزلنا الكتب إلى مَن قَبْلَكَ أنزلنا إليك الكتاب.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من الطائفتين اليهودِ والنصارى، على أنَّ المراد بالكتاب جنسُه الشاملُ للتوراة والإنجيل، والكلامُ على ظاهره. وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: آتيناهم علمَ الكتاب. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ بالكتاب الذي أُنزل إليك. وقيل: الضميرُ له ﷺ، وهو كما ترى.

والمرادُ بهم في قولٍ: مَن تقدَّم عَهْدَ النبيِّ ﷺ من أولئك، حيث كانوا مصدِّقين بنزول القرآن حَسْبَما علموا مما عندهم من الكتاب، والمضارعُ لاستحضار تلك الصورة في الحكاية، وتخصيصُهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأنَّ ما بَعْدَهم من معاصري رسولِ الله ﷺ قد نُزِعَ عنهم الكتابُ بالنسخ.

وفي قولٍ آخَرَ: معاصروه عليه الصلاة والسلام العاملون بكتابهم من عبد الله بن سلام وأضرابه، وتخصيصُهم بإيتاء الكتاب لِمَا أنهم هم المنتفعون به، فكأنَّ مَن عَدَاهم لم يؤتوه؛ قيل: هذا يؤيِّد[2] القول بأنَّ الآيات المذكورة مدنيةٌ، إذ كونُها

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٤٧، وهو في صحيح البخاري (٤٤٨٥)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٣٢٣) لكن مع ذكر قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [آل عمران: ٨٤] لا مع ذكر آية العنكبوت، وذكرها برواية المصنف الطبري في التفسير ١٨/ ٤٢٢.

(٢) في الأصل: يؤيده.

مكيةً وعبدُ الله ممن أسلم بعد الهجرة بناءً على أنه إعلامٌ من الله تعالى بإسلامهم في المستقبل، والتفصيلُ باعتبار الإعلام = بعيدٌ جدًّا.

وجوَّز الطبرسيُّ أن يراد بالموصول المسلمون من هذه الأمة، وضمير «به» للقرآن[1]. ولا يخفى ما فيه. ولعل الأظهر كونُ المراد به علماءَ أهل الكتابين الحَرِيُّون بأن يُنْسَبَ إليهم إيتاءُ الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، ولا بُعْدَ في كون الآيات مكيةً بناءً على ما سمعْتَ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنَّ إيمانهم به مترتِّبٌ على إنزاله على الوجه المذكور.

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: ومن العرب أو من أهل مكة، على أنَّ المراد بالموصول عبد الله وأضرابُه، أو ممن في عصره ﷺ من اليهود والنصارى على أنَّ المراد به مَن تقدَّم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب الذي أنزل إليك، و«مِن» على ما استظهره بعضُهم تبعيضية واقعةٌ موقعَ المبتدأ، وله نظائر في الكتاب الكريم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: وما يجحد به، وأقيم هذا الظاهرُ مقامَ الضمير للتنبيه على ظهور دلالة الكتاب على ما فيه وكونِه من عند الله عز وجل، والإضافةُ إلى نون العظمة لمزيد التفخيم. وفيما ذُكر غايةُ التشنيع على مَن يجحد به.

والجحد كما قال الراغب: نفيُ ما في القلب ثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نَفْيُه[2]. وفسِّر هنا بالإنكار عن علمٍ، فكأنه قيل: وما ينْكِرُ آياتِنا مع العلم بها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾ أي: المتوغِّلون في الكفر المصمِّمون عليه، فإنَّ ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم.

وقيل: يجوز أن يفسَّر بمطلق الإنكار، ويرادَ بالكافرين المتوغِّلون في الكفر أيضاً لدلالة فحوى الكلام والتعبيرِ بـ «آياتنا» على ذلك، أي: وما ينكرُ آياتنا مع ظهورها وارتفاعِ شأنِها إلا المتوغِّلون في الكفر؛ لأنَّ ذلك يصدُّهم عن الاعتناء بها والالتفاتِ إليها والتأمُّلِ فيما يؤدِّيهم إلى معرفة حقِّيَّتها، والمراد بهم مَن اتَّصف بتلك الصفة من غيرِ قَصْدٍ إلى معيَّنٍ. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

---

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٣٦٩.
(٢) مفردات الراغب (جحد).

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: وما كنتَ من قبل إنزالنا إليك الكتابَ تقدِرُ على أن تتلو ﴿مِن كِتَـٰبٍ﴾ أي: كتاباً، على أنَّ «مِن» صلة.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تقدِرُ على أن تخطَّه ﴿بِيَمِينِكَ﴾، أو: ما كانت عادتُك أن تتلوه ولا تخطَّه. وذِكْرُ اليمين زيادةُ تصويرٍ لِمَا نُفي عنه ﷺ من الخطِّ، فهو مثلُ العين في قولك: نظرتُ بعيني، في تحقيق الحقيقة وتأكيدِها حتى لا يبقى للمجاز مجازٌ.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: لو كنتَ ممن يقدِرُ على التلاوة والخطِّ، أو ممن يعتادُهما، لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجهٌ، وكأنَّ احتمال التعلُّم مما لم يُلتفت إليه لظهورِ أنَّ مثله من الكتاب المفصَّل الطويل لا يُتَلَقَّى ويُتعلَّم إلا في زمانٍ طويلٍ بمدارسةٍ لا يخفى مثلُها، ووَصْفُ مشركي مكةَ بالإبطال باعتبارِ ارتيابهم وكفرهم[(١)]، وهو عليه الصلاة والسلام أميٌّ، فكأنه قيل: إذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن وكان إذ ذاك لارتيابهم وجه.

وقيل: وَصْفُهم بذلك باعتبار ارتيابهم وهو ﷺ أميٌّ، وباعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام ليس بأميٍّ؛ أمَّا كونُهم مُبْطِلينَ بالاعتبار الأول فظاهرٌ، وأمَّا كونهم كذلك بالاعتبار الثاني فلأنَّ غايةَ ما يلزمُ من عدم أمِّيَّته ﷺ انتفاءُ أحد وجوه الإعجاز، ويكفي الباقي في الغرض، فيكون المرتاب مُبْطِلاً كالمرتاب في نبوَّة الأنبياء الذين لم يكونوا أميين، وصحةِ ما جاؤوا به.

والأول أظهر، وكونُ المراد بالمبطلين مشركي مكة هو المرويُّ عن مجاهد. وقال قتادة: هم أهل الكتاب، أي: لو كنت تتلو من قبلُ أو تخطُّ لارتاب أهل الكتاب؛ لأنَّ نعتك في كتابهم أميٌّ، ووَصْفُهم بالإبطال قيل: باعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام أميٌّ كما هو الواقع، وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ارتيابهم على فرض عدم كونه ﷺ أميًا.

وفي «الكشف»: هذا فرضٌ وتمثيلٌ دلالةً على أنَّ مدار الأمر على المُعْجِز،

---

(١) قوله: وكفرهم، ليس في الأصل.

وأنَّ كونه عليه الصلاة والسلام أميًّا لا يخطُّ ليس ممَّا لا يتمُّ دعواه به، وتلك الدلالة لا تختلف والمنكِرُ مبطلٌ. اهـ، فتأمل.

هذا واختُلف في أنه ﷺ هل كان بعد النبوَّة يقرأ ويكتبُ أم لا؟ فقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يُحْسِنُ الكتابةَ، واختاره البغويُّ في «التهذيب» وقال: إنه الأصح[1].

وادَّعى بعضُهم أنه ﷺ صار يعلَمُ الكتابة بعد أن كان لا يعلمها، وعدمُ معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية، فلمَّا نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمرُ الارتياب تعرَّف الكتابة حينئذٍ، وروى ابن أبي شيبةَ وغيرُه: ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ. ونُقل هذا للشعبيِّ فصدَّقه وقال: سمعتُ أقواماً يقولونه[2]. وليس في الآية ما ينافيه.

وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أسري بي مكتوباً على باب الجنة: الصدقةُ بعشر أمثالها، والقرضُ بثمانيةَ عَشَرَ»[3]، والقدرةُ على القراءة فرعُ الكتابة. ورُدَّ باحتمالِ إقدارِ اللهِ تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزةً، أو فيه مقدَّرٌ وهو: فسألتُ عن المكتوب فقيل: إلخ.

ويشهد للكتابة أحاديثُ في «صحيح البخاريِّ» وغيره، كما ورد في صلح الحديبية: فأخذ رسول الله ﷺ الكتابَ وليس يُحسِنُ يكتبُ فكتبَ: «هذا ما قاضَى عليه محمد بنُ عبد الله» الحديثَ[4].

---

(١) التهذيب في فقه الإمام الشافعي للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ٥/ ٢١٧.

(٢) عزاه لابن أبي شيبة ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٢٦، والشهاب في الحاشية ٧/ ١٠٥، والكلام منه، وأخرجه أيضاً البيهقي ٧/ ٤٢، وهو عندهما من طريق مجالد بن سعيد عن عون بن عبد الله عن أبيه قال: ما مات...، قال مجالد: فذكرت ذلك للشعبي فقال: صدق... إلخ. قال البيهقي: هذا حديث منقطع، وفي رواته جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٤٣١)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٤. وقال: وليس بصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وأخرجه بنحوه مسلم (١٧٨٣): (٩٢) دون قوله: وليس يحسن يكتب.

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذرٍّ عبد بن أحمد الهرويُّ(١)، وأبو الفتح النيسابوريُّ، وأبو الوليد الباجي(٢) من المغاربةُ، وحكاه عن السِّمناني(٣)، وصنَّف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابنُ منية.

ولمَّا قال أبو الوليد ذلك طُعِنَ فيه ورُمي بالزندقة وسُبَّ على المنابر، ثم عُقِدَ له مجلسٌ فأقام الحجةَ على مدَّعاه، وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه(٤). ومعرفةُ الكتابة بعد أُمِّيَّته ﷺ لا تنافي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى لكونها من غير تعليم.

وردَّ بعضُ الأجلَّة كتاب الباجي لِمَا في الحديث الصحيح: «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتبُ ولا نَحْسُبُ»(٥)، وقال: كلُّ ما ورد في الحديث من قوله: «كتب»، فمعناه: أَمَر بالكتابة، كما يقال: كتب السلطان بكذا لفلانٍ. وتقديم قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ على قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً. وكونُ القيد المتوسِّط راجعاً لِمَا بعده غير مطَّردٍ، وظنَّ بعضُ الأجلة رجوعَه إلى ما قبله وما بعده فقال: يُفهَمُ من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان

---

(١) الحافظ شيخ الحرم، المعروف ببلده بابن السماك، الأنصاريُّ الخراساني المالكي، صاحب التصانيف، وراوي الصحيح عن المستملي والحموي والكشميهني، من تصانيفه: دلائل النبوة، وفضائل القرآن، والسنَّة، والصحيح المسند المخرج على الصحيحين، ومسانيد الموطأ، توفي سنة (٤٣٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٥٤.

(٢) القاضي سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الأندلسي القرطبي الباجي، صاحب التصانيف، وكان أبو ذر الهروي من مشايخه، وأخذ عنه علم الحديث والفقه والكلام، من تصانيفه: الاستيفاء، والإيماء في الفقه، ومختصر المختصر في مسائل المدونة، توفي سنة (٤٧٤هـ). السير ١٨/ ٥٣٥.

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد الحنفي، أبو جعفر، قاضي الموصل، كان يعتقد مذهب الأشعري، ولازم ابن الباقلاني حتى برع في علم الكلام، وله تصانيف، تخرج به في العقليات القاضي أبو الوليد الباجي وغيره، توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥١.

(٤) ينظر قصة أبي الوليد الباجي في هذه المسألة في ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥-٨٠٦، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٠٥.

(٥) أخرجه أحمد (٥١١٧)، والبخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. والكلام من حاشية الشهاب.

قادراً على التلاوة والخطِّ بعد إنزال الكتاب، ولولا هذا الاعتبارُ لكان الكلامُ خلواً عن الفائدة. وأنت تعلم أنه لو سلِّم ما ذكره من الرجوع لا يتمُّ أمر الإفادة إلا إذا[١] قيل بحجِّية المفهوم، والظانُّ ممن لا يقول بحجِّيَّته.

ولا يخفى أنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «إنا أمةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتبُ ولا نحسُبُ» ليس نصًّا في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام، ولعل ذلك باعتبارِ أنه بُعث عليه الصلاة والسلام وهو وكذا أكثرُ مَن بُعِثَ إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أمِّيُّون لا يكتبون ولا يحسبون، فلا يضرُّ عدمُ بقاء وصف الأمية في الأكثر بعدُ.

وأمَّا ما ذُكر من تأويل «كتب» بـ: أَمَرَ بالكتابة، فخلافُ الظاهر، وفي «شرح صحيح مسلم» للنواويِّ عليه الرحمةُ نقلاً عن القاضي عياض أنَّ قوله في الرواية التي ذكرناها: ولا يُحسِنُ أن يكتب فكتب، كالنصِّ في أنه ﷺ كتب بنفسه؛ فالعدولُ عنه إلى غيره مجازٌ لا ضرورةَ إليه، ثم قال: وقد طال كلامُ كلِّ فرقةٍ في هذه المسألة، وشنَّعت كلُّ فرقةٍ على الأخرى في هذا، فالله تعالى أعلم[٢].

ورأيتُ في بعض الكتب، ولا أدري الآن أيُّ كتابٍ هو، أنه ﷺ لم يكن يقرأ ما يكتب، لكن إذا نظر إلى المكتوب عرف ما فيه بإخبارِ الحروف إياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها، فكلُّ حرفٍ يخبره عن نفسه أنه حرفُ كذا، وذلك نظيرُ إخبار الذراع إياه ﷺ بأنها مسمومةٌ[٣].

وأنت تعلم أنَّ مثل هذا لا يُقبل بدون خبرٍ صحيحٍ ولم أظفر به.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن، وهذا إضرابٌ عن ارتيابهم، أي: ليس القرآنُ مما يُرتاب فيه لوضوح أمره، بل هو ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ ثابتةٌ راسخةٌ ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ من غير أن يُلتقط من كتابٍ، يحفظونه بحيث لا يُقْدَر على تحريفه، بخلاف غيره من الكتب، وجاءَ في وصف هذه الأمة: «صدورُهم أناجيلُهم»[٤].

---

(١) في (م): إذ.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ١٣٨، وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٦/ ١٥٢.
(٣) سلف ١٨/ ٢٨٦.
(٤) قطعة من حديث أخرجه الطبراني (١٠٠٤٦) عن ابن مسعود ﷺ بلفظ: «أناجيلهم في صدورهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧١: وفيه مَن لم أعرفهم. وفي النهاية

وكونُ ضميرِ «هو» للقرآن هو الظاهر، ويؤيِّده قراءة عبد الله: «بل هي آياتٌ بيناتٌ»(١).

وقال قتادة: الضميرُ للنبيِّ ﷺ، وقرأ: «بل هو آيةٌ بينةٌ» على التوحيد(٢).

وجَعَله بعضهم له عليه الصلاة والسلام على قراءة الجمع، على معنى: بل النبيُّ وأمورُه آياتٌ.

وقيل: الضمير لمَا يُفهَم من النفي السابق، أي: كونُه لا يقرأ ولا يخطُّ آياتٌ بيناتٌ في صدور العلماء من أهل الكتاب، لأنَّ ذلك نعتُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام في كتابهم. والكلُّ كما ترى.

وفي الأخير حَمْلُ «الذين أوتوا العلم» على علماء أهل الكتاب، وهو مرويٌّ عن الضحاك. والأكثرون على أنهم علماء الصحابة، أو النبيُّ ﷺ وعلماءُ أصحابهِ، وروي هذا عن الحسن. ورَوَى بعضُ الإمامية عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما أنهم الأئمة من آل محمدٍ ﷺ(٣).

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع كونها كما ذُكر ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾ المتجاوِزون للحدِّ في الشرِّ والمكابَرةِ والفساد.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: كفارُ قريشٍ بتعليم بعضِ أهلِ الكتاب، وقيل: الضمير لأهل الكتاب: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى. وقرأ أكثر أهل الكوفة «آيةٌ» على التوحيد(٤).

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها حَسْبَما يشاء من غير دخلٍ لأحدٍ في ذلك قطعاً.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ ليس من شأني إلَّا الإنذارُ بما أُوتيتُ من الآيات لا الإتيانُ بما اقترحْتُموه، فالقَصْرُ قَصْرُ قَلْبٍ.

= (نجل): «أناجيلهم في صدورهم» أي: أن كتبهم محفوظة فيها.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والبحر ٧/ ١٥٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والبحر ٧/ ١٥٦.

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٠.

(٤) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣ عن حمزة والكسائي وأبي بكر وابن كثير وخلف.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ من جهته تعالى ردًّا على اقتراحهم وبياناً لبطلانه، والهمزةُ للإنكار والنفي، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أقصَّر ولم يَكْفِهم آيةً مُغْنيةً عن سائر الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقِّ المصدِّقَ لِمَا بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزلٍ من مُدارسَتها وممارستها.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدومُ تلاوتُه عليهم متحدّين به، فلا يزال معهم آيةً ثابتةً لا تزولُ ولا تَضْمَحِلُّ كما تزول كلُّ آيةٍ بعد كونها.

وقيل: «يتلى عليهم» أي: أهلِ الكتابِ بتحقُّق ما في أيديهم من نعتك ونعتِ دينك. وله وجهٌ إن كان ضميرُ «قالوا» فيما تقدَّم لأهل الكتاب، وأمَّا إذا كان لكفار قريشٍ فلا يخفى ما فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتابِ العظيم الشأنِ الباقي على ممرِّ الدهور. وقيل: الذي هو حجةٌ بيِّنةٌ ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمةً عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: همُّهم الإيمانُ لا التعنُّتُ، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «ذكرى» والفعلُ مرادٌ به الاستقبال، ويجوز أن يكون «رحمة» و«ذكرى» مما تنازعا في الجارِّ والمجرور، فيجوز أن يكون الفعل للحال.

وأخرج الفريابيُّ والدارميُّ، وأبو داود في «مراسيله»، وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتفٍ قد كتبوا فيها بعضَ ما سمعوه من اليهود، فقال رسول الله ﷺ: «كفى بقومٍ حُمقاً ـ أو ضلالةً ـ أنْ يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إليهم إلى ما جاء به غيرُه إلى غيرهم» فنزلت: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) الآية[1]. وأخرج الإسماعيليُّ في «معجمه»، وابنُ مردويه عن يحيى هذا ما هو قريبٌ مما ذُكر مرويًّا عن أبي هريرة رضي الله عنه[2]. و«يؤمنون» على هذا على ظاهره لا غير.

---

(١) سنن الدارمي (٤٧٨)، والمراسيل (٤٥٤)، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٢٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤٨. والكتف: عَظْمُه؛ لأنهم كانوا في الصدر الأول يكتبون على الخشب والعظام والجلود. حاشية الشهاب ٧/ ١٠٦-١٠٧.

(٢) معجم شيوخ أبي بكر الإسماعيلي ٣/ ٧٧٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٤٨، وأخرجه أيضاً الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٥٤٣-٥٤٤.

وتعقِّب بأنَّ السياق والسباق مع الكفرة، وأنَّ الظاهر كونُ «أَوَلَمْ يكفهم» الآيةَ جواباً لقولهم: «لولا أُنزل» إلخ، وفي جَعْلِ سبب النزول ما ذُكر خروجٌ عن ذلك، فتأمَّل.

وعليه تكون الآية دليلاً لمن مَنَعَ تتبُّع التوراة ونحوِها، ورُوي هذا المنعُ عن عائشةَ ﵂؛ أخرج ابن عساكر عن [ابن] أبي مليكةَ قال: أَهْدَى عبدُ الله بنُ عامر بن ركن إلى عائشة ﵂ هديةً، فظنَّت أنه عبد الله بنُ عمرو، فردتها وقالت: يتتبَّعُ الكتبَ وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فقيل لها: إنه عبد الله بن عامر، فقَبِلَتْها[(١)].

وجاء في عدَّة أخبارٍ ما يقتضي المنعَ؛ أخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الزهريِّ أنَّ حفصةَ جاءت إلى النبيِّ ﷺ بكتابٍ من قصص يوسف في كتفٍ، فجعلت تقرؤه عليه والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يتلوَّنُ وجههُ، فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسفُ وأنا بينكم فاتَّبعتُموه وتركتُموني ضَلَلْتُم، أنا حظُّكم من النبيين وأنتم حظِّي من الأمم»[(٢)].

وأخرج عبد الرزاق والبيهقيُّ أيضاً عن أبي قلابةَ أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ مرَّ برجلٍ يقرأ كتاباً فاستمعه ساعةً فاستحسنه، فقال للرجل: اكتب لي من هذا الكتاب. قال: نعم. فاشترى أديماً فهيَّأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه، ثم أتى النبيَّ ﷺ فجعل يقرؤه عليه، وجَعَلَ وجهُ رسول الله ﷺ يتلوَّنُ، فضرب رجلٌ من الأنصار الكتابَ وقال: ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا ابنَ الخطاب، ألَا ترى وجهَ رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب؟! فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: «إنما بُعثْتُ فاتحاً وخاتماً وأُعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ وخواتمه، واختُصِرَ لي الحديث اختصاراً، فلا يهلكنَّكم المتهوِّكون»[(٣)] أي: الواقعون في كلِّ أمرٍ بغير رويَّةٍ. وقيل:

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٥٢/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٧٣، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ١٤٩، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) مصنف عبد الرزاق(١٠١٦٥) و(٢٠٠٦١)، والشعب(٥٢٠٥) وفي إسناده انقطاع بين الزهري وحفصة.

(٣) مصنف عبد الرزاق (١٠١٦٣) و(٢٠٠٦٢)، والشعب (٥٢٠٢)، وأخرجه بنحوه أبو داود في

المتحيِّرون. إلى غير[1] ذلك من الأخبار.

وحقَّق بعضُهم أنَّ المنع إنما هو عند خوفِ فسادٍ في الدِّين، وذلك مما لا شبهةَ فيه في صدر الإسلام، وعليه تُحْمَلُ الأخبار، وقد تقدَّم الكلام في ذلك فتذكَّر[2].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: عالماً بما صَدَرَ عنِّي من التبليغ والإنذار، وبما صَدَرَ عنكم من مقابلتي بالتكذيب والإنكار، فيجازي سبحانه كلًّا بما يليقُ به.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم، فهو تقريرٌ لِمَا قبله من كفايته تعالى شهيداً.

وجوِّز أن يكون المعنى: كفى به عزَّ وجلَّ شاهداً بصِدْقي، أي: مصدِّقاً لي فيما ادَّعيتُه بالمعجزات تصديقَ الشاهد لدعوى المدَّعي، وجملة «يعلم» إما صفةُ «شهيداً» أو حالٌ أو استئنافٌ لتعليل كفايته.

وقيل عليه: إنَّ هذا الوجه لا يلائمه قولُه تعالى: (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) سواءٌ تعلَّق بـ «كفى» أو بـ «شهيداً»، ولا قولُه سبحانه: (يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ. وفيه تأمُّلٌ.

وقد يؤيِّد ذلك بما روي أنَّ كعب بن الأشرف وأصحابَه قالوا: يا محمد، مَن يشهدُ بأنك رسول الله؟ فنزلت: (قُلْ كَفَىٰ) الآية[3]. إلا أن في القلب من صحة هذه الرواية شيئاً؛ لِمَا أنَّ السياق والسباق مع كفرة قريشٍ، فلا تغفل.

وأيًّا ما كان فلا منافاةَ بين هذه الآية وقولِه تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣] بناءً على أنَّ المعنى: لا تستشهدوا بالله تعالى، ولا تقولوا: اللهُ

= المراسيل (٤٥٥). وروي نحوه متصلاً من حديث عمر ﷺ، وهو عند الضياء في المختارة (١١٥)، وأبي يعلى كما في مجمع الزوائد ١/ ١٧٣ و١٨٢، وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(١) قوله: غير، ساقط من (م).

(٢) ينظر ما سلف ٢٠/ ١٩٧-١٩٨.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٠٩.

تعالى يشهدُ أنَّ ما ندَّعيه حقٌّ، كما يقوله العاجزُ عن إقامة البيِّنة، إمَّا لأنَّ الشهيد هاهنا بمعنى العالِم والكلامُ وعدٌ ووعيد، وإمَّا بمعنى المصدَّق بالمعجزات، وليست الشهادةُ بأحد المعنيين هناك.

والباء في «بالله» زائدةٌ والاسم الجليل فاعلُ «كفى». وقال الزجَّاج: إنَّ الباء دخلت لتضمُّن «كَفَى» معنى اكْتَفِ[(١)]. فالباء كما قال اللقاني معدِّيةٌ لا زائدة. قال ابنُ هشام في «المغني»[(٢)]: وهو من الحُسْن بمكانٍ، ويصحِّحه قولُهم: اتَّقى اللهَ تعالى امرؤٌ فَعلَ خيراً يُثَبْ عليه، أي: ليتَّقِ، بدليلِ جَزْمِ: يُثَبْ، ويوجبُه قولُهم: كفى بهندٍ، بتَرْكِ التاء، فإن احتُجَّ بالفاصل فهو مجوِّزٌ لا موجِبٌ، بدليل ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فإنْ عُورِضَ بـ: أحْسِنْ بهندٍ، فالتاءُ لا تَلْحَقُ صيغَ الأمر وإن كان معناها الخبر. اهـ.

وتعقَّب ذلك الشيخ ياسين الحمصي في «حواشيه» على «التصريح»، فقال: أقولُ: تفسير «كفى» على هذا القول بـ: اكْتَفِ غيرُ صحيحٍ؛ إذ فاعلُ «كفى» حينئذٍ ضميرُ المخاطَبِ، و«كفى» ماضٍ وهو لا يَرْفَعُ ضميرَ المخاطَب المستتر. اهـ، وفيه بعدُ بحثٌ لا يخفى على المتأمِّل.

وظنَّ بعض الناس أنَّ «كفى» على هذا القول اسمُ فِعْلِ أمرٍ يخاطَبُ به المفرَدُ المذكَّرُ وغيرُه، نحو «حيَّ» في: حيَّ على الصلاة، فالمعنى هنا: اكتفوا بالله. وأنت تعلم أنَّ هذا بعيدُ الإرادة من كلام الزجَّاج، ويأباه كلامُ ابن هشام.

وقال ابن السرَّاج[(٣)]: الفاعلُ ضميرُ الاكتفاء. قال ابن هشام[(٤)]: وصحةُ قوله موقوفةٌ على جواز تعلُّق الجارِّ بضميرِ المصدر، وهو قولُ الفارسيِّ والرمانيِّ؛ أجازوا[(٥)]: مُروري بزيدٍ حَسَنٌ وهو بعمروٍ قبيحٌ، وأجاز الكوفيون إعماله في الظرف

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٥٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ [النساء: ٤٥]

(٢) ص١٤٤.

(٣) في كتابه: الأصول في النحو ٢/ ٢٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن هشام في المغني ص١٤٤.

(٤) في المغني ص١٤٤.

(٥) في المغني: أجازا.

وغيره، ومنع جمهورُ البصريين إعماله مطلقاً. اهـ.

وتعقَّب ذلك ابنُ الصائغ فقال: لا نسلِّم توقُّفَ الصحة على ذلك؛ لجوازِ أنْ تكون الباءُ للحال، وعليه يكون المعنى: كفى هو ـ أي: الاكتفاء ـ حالَ كونه ملتبساً بالله تعالى. ولا يخفى أنه مالم يَبْطُلْ هذا القولُ لا يتمُّ ما ادَّعاه ابن هشام من أنَّ تَرْكَ التاء في «كفى بهند» يُوجبُ كونَ «كفى» مضمَّناً معنى اكْتَفِ، فتدبَّر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس ﷺ: أي: بغير الله عزَّ وجل. وهو شاملٌ لنحوِ عيسى والملائكةِ عليهم السلام، والباطلُ في الحقيقة عبادتُهم وليس الباطلُ هنا مثلُه في قول حسان[1]:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل

وقال مقاتل: أي: بعبادة الشيطان. وقيل: أي: بالصنم.

﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مع تعاضُدِ مُوْجِباتِ الإيمان به عز وجل ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ المغبونون في صَفْقَتهم حيث اشتروا الكفرَ بالإيمان، فاستوجَبوا العقابَ يومَ الحساب.

وفي الكلام ـ على ما قيل ـ استعارةٌ مكنيةٌ؛ شبَّه استبدالَ الكفرِ بالإيمان المستلزِمَ للعقاب باشتراءٍ مستلزمٍ للخسران، وفي الخسران استعارةٌ تخييليةٌ هي قرينتُها؛ لأن الخسران متعارفٌ في التجارات، وهذا الكلامُ وَرَدَ موردَ الإنصاف حيث لم يصرِّح بأنهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله عز وجل، بل أبرزه في معرض العموم ليهجم به التأمُّلُ على المطلوب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وكقول حسان:

فشرُّكما لخيركما الفداء[2]

وهذا من قَبيل المجادلة بالتي هي أحسن.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: ويستعجلُكَ كفارُ قريش ﴿بِالْعَذَابِ﴾ على طريقة الاستهزاء

(١) كذا ذكر، والصواب أنه للبيد، وهو في ديوانه ص٢٥٦، وسلف ٢/ ١٤٩ و٥/ ٢٤٨.
(٢) وصدره: أتشتمه ولست له بكفءٍ، وسلف ١٨/ ٢٥٤ و٥٣٩.

والتعجيز والتكذيب به بقولهم: متى هذا الوعدُ، وقولهم: أَمْطِرْ علينا حجارةً أو ائتنا بعذاب، ونحو ذلك.

﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وسمَّاه وأثبته في اللوح ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المعيَّنُ لهم حَسْبَما استعجلوا به. وقال ابنُ جبير: المراد بالأجل يومُ القيامة؛ لما رُوي أنه تعالى وَعَدَ رسوله ﷺ أن لا يعذِّبَ قومه بعذابِ الاستئصال وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة[(١)].

وقال ابن سلام: المراد به أَجَلُ ما بين النفختين. وقيل: يومُ بدرٍ.

وقيل: وقتُ فنائهم بآجالهم. وفيه بعدٌ ظاهرٌ؛ لِمَا أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعيِّ، ولا كانوا يستعجلون به.

﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لِمَا أُشير إليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند حلول الأجل، أي: وبالله تعالى ليأتينَّهم العذابُ الذي عيِّن لهم عند حلول الأجل ﴿بَغۡتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣﴾ أي: بإتيانه.

ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابةِ إلى مسؤولهم، فإن ذلك إتيانٌ برأيهم وشعورِهم، لا أنه يأتيهم وهم قارُّون آمنون لا يُخْطِرونه بالبال، كدأب بعضِ العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون، أو ضحًى وهم يلعبون[(٢)]؛ لِمَا أنَّ إتيان عذاب الآخرة وعذابِ يوم بدرٍ ليس من هذا القبيل؛ قاله بعضهم.

وقال آخرون: إتيانُه كذلك من حيث إنه غيرُ متوقَّعٍ لهم، ، وإتيانُ عذاب الآخرة ونحوِه كذلك؛ لإنكارِهم البعثَ وكذا عذاب القبر، أو اعتقادِهم شفاعةَ آلهتهم لهم في دَفْع العذاب عنهم، وكذا إتيان عذاب يوم بدرٍ؛ لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقَّعون غلبةَ المسلمين، ولا تخطر لهم ببالٍ على ما بيِّن في السِّيَر.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٥٣) من حديث خباب بن الأرت ﷺ، وفيه: «سألت ربِّي أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها» وأخرج نحوه مسلم (٢٨٩٠)، وأحمد (١٥٧٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢) بعدها في الأصل: إلخ، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ٤٤، والكلام منه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لغايةِ تجهيلهم وركاكة رأيهم، وهو ظاهرٌ في أنَّ ما استعجلوه عذابُ الآخرة. وجملةُ «إنَّ جهنم» إلخ في موضع الحال، أي: يستعجلونك بالعذاب والحالُ أنَّ محلَّ العذاب الذي لا عذابَ فوقه محيطٌ بهم، كأنه قيل: يستعجلونك بالعذاب وإنَّ العذاب لمحيطٌ بهم، أي: سيحيطُ بهم، على إرادة المستقبل من اسم الفاعل، أو كالمحيط بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي الموجبة إياه بهم، على أنَّ في الكلام تشبيهاً بليغاً، أو استعارةً، أو مجازاً مرسلاً، أو تجوُّزاً في الإسناد.

وقيل: إنَّ الكفر والمعاصي هي النارُ في الحقيقة، لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة.

والمرادُ بالكافرين: المستعجلون، ووُضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلَّة الحكم. أو جنسُ الكفرة، وهم داخلون فيه دخولاً أوَّليًّا.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لمضمَرٍ قد طُوي ذِكْرُه إيذاناً بغايةِ كثرته وفظاعته، كأنه قيل: يومَ يأتيهم ويجلِّلهم العذابُ الذي أُشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقالُ.

وقيل: ظرفٌ لـ «محيطة» على معنى: وإنَّ جهنم ستحيطُ بالكافرين يومَ يغشاهم العذاب.

﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: من جميع جهاتهم، فما ذُكر للتعميم كما في «الغدو والآصال»، قيل: وذِكْرُ الأرجل للدلالة على أنهم لا يَقرُّون ولا يجلسون، وذلك أشدُّ العذاب.

﴿وَيَقُولُ﴾ أي: الله عز وجل. وقيل: المَلَكُ الموكلُ بهم. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريون: «ونقول» بنون العظمة[1]، وهو ظاهر في أنَّ القائل هو الله تعالى.

وقرأ أبو البرهسم: «وتقول» بالتاء[2]، على أنَّ القائل جهنم، ونُسب القول إليها هنا كما نُسب في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

---

(١) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣. وقرأ بالياء نافع والكوفيون.

(٢) البحر ٧/ ١٥٦.

وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة: «ويقال» مبنيًّا للمفعول(١).

﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: جزاءَ ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار، من السيئات التي من جملتها الاستعجالُ بالعذاب.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ نزلت على ما روي عن مقاتل والكلبيِّ في المستضعفين من المؤمنين بمكة أُمروا بالهجرة عنها، وعلى هذا أكثر المفسرين. وعمم بعضُهم الحكم في كلِّ مَن لا يتمكَّن من إقامة أمور الدِّين كما ينبغي في أرضٍ لممانعةٍ من جهة الكفرة أو غيرهم، فقال: تلزمُه الهجرة إلى أرض يتمكَّن فيها من ذلك، وروي هذا عن ابن جبير وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس.

وقال مطرِّفُ بن الشخِّير: إنَّ الآية عِدَةٌ منه تعالى بسعةِ الرزق في جميع الأرض. وعلى القولين فالمراد بالأرض الأرض المعروفة.

وعن الجبائيِّ أنَّ الآية عِدَةٌ منه عز وجل بإدخال الجنةِ لمن أخلص له سبحانه العبادةَ، وفسَّر الأرض بأرض الجنة. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

والفاء في «فإياي» فاء التسبُّب عن قوله تعالى: (إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ) كما تقول: إنَّ زيداً أخوك فأكرمه، وكذلك لو قلتَ: إنه أخوك فإن أَمْكَنَكَ فأكرمه.

و«إياي» معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ يفسِّره المذكور، ولا يجوز أن يكون معمولاً له لاشتغاله بضميره، وذلك المحذوف جزاءٌ لشرطٍ حُذف وعُوِّض عنه هذا المعمول. والفاء في «فاعبدون» هي الفاء الواقعة في الجزاء، إلا أنه لمَّا وَجَبَ حذفُه جُعِلَ المفسِّر المؤكِّد له قائماً مقامه لفظاً وأدخل الفاء عليه، إذ لا بدَّ منها للدلالة على الجزاء، ولا تدخل على معمول المحذوف أعني «إياي» وإن فُرض خلوُّه عن فاءٍ لتَمَحُّضه عوضاً عن فعل الشرط، فتعيَّن الدخول على المفسِّر، وأيضاً ليطابق المذكورُ المحذوفَ من كلِّ وجهٍ، ولزم أن يقدَّر الفعلُ المحذوفُ العاملُ في «إياي» مؤخَّراً لئلَّا يفوتَ التعويضُ عن فعل الشرط مع إفادة ذلك معنى الاختصاص والإخلاص، فالمعنى: إنَّ أرضي واسعةٌ فإنْ لم تُخْلِصوا لي العبادة في أرض فأَخْلِصُوها لي في غيرها، وجُعل الشرط «إنْ لم تُخْلِصوا» لدلالة الجواب المذكور

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٣١٨، والبحر ٧/١٥٦.

عليه، ولا مَنْعَ من أن تكون الفاء الأولى واقعةً في جواب شرطٍ آخَرَ ترشيحاً للسببية، على معنى: إنَّ أرضي واسعةٌ وإذا كان كذلك فإن لم تُخْلِصوا لي.. إلخ.

وقيل: الفاءُ الأولى جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ، وأما الثانيةُ فتكريرٌ ليوافق المفسِّر المفسَّر، فيقال حينئذٍ: المعنى: إنَّ أرضي واسعةٌ إنْ لم تُخْلِصوا لي العبادة في أرضٍ فأَخْلِصوها لي في غيرها، وتكونُ جملة الشرط المقدَّرة أعني «إن لم تُخْلِصوا» إلخ مستأنفةً عَرِيَّةً عن الفاء. وما تقدَّم أبعدُ مغزًى.

وجَعَلَ بعضُ المحقِّقين الفاءَ الثانية لعَطْفِ ما بعدها على المقدَّر العامل في «إياي» قصداً لنحو الاستيعاب، كما في: خُذ الأحسنَ فالأحسن. وتعقِّب بأنه حينئذٍ لا يصلحُ المذكورُ مفسِّراً؛ لعدم جواز تخلُّلِ العاطف بين مفسِّرٍ ومفسَّرٍ البتة، وأما ما ذكره الإمام السكاكيُّ في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] من أنَّ الفاء عاطفةٌ، والتقدير: فإياي ارهبوا فارهبون[١]، فإنه أراد به أنها في الأصل كذلك لا في الحال، على ما حقَّقه صاحب «الكشف».

هذا وقد أطالوا الكلام في هذا المقام، وقد ذكرنا نبذةً منه في أوائل تفسير سورة البقرة[٢]، فراجِعْه مع ما هنا وتأمَّل، والله تعالى الهادي إلى سَواءِ السبيل.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جيء بها حثًّا على إخلاص العبادة والهجرةِ لله تعالى، حيث أفادت أنَّ الدنيا ليست دارَ بقاءٍ، وأنَّ وراءها دارَ الجزاء، أي: كلُّ نفسٍ من النفوس واجدةٌ مرارةَ الموت ومفارِقةٌ البدنَ ألبتةَ فلا بدَّ أن تذوقوه، ثم ترجعون إلى حُكْمِنا وجزائنا بحسب أعمالكم، فَمَنْ كانت هذه عاقبتُه فلا بدَّ له من التزوُّد والاستعداد. وفي قوله تعالى: (ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) استعارةٌ لتشبيه الموتِ بأمرٍ كريهِ الطعم مُرِّه، والعدولُ عن: تَذُوقُ الموتَ، للدلالة على التحقُّق، و«ثم» للتراخي الزمانيِّ أو الرُّتْبي.

وقرأ أبو حيوة: «ذائقةٌ» بالتنوين «الموتَ» بالنصب[٣].

(١) مفتاح العلوم ص٢٥٠.
(٢) ١/ ٢٤٣.
(٣) البحر ٧/ ١٥٧.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «تَرْجِعون» مبنيًا للفاعل(١)، ورُوي [عن] عاصم: «يُرْجَعون» بياء الغيبة(٢).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لننزلنَّهم على وجه الإقامة، وجملة القسم وجوابِه خبر المبتدأ أعني «الذين»، ورُدَّ به وبأمثاله على ثعلب المانعِ من وقوع جملة القسم والمقسَمِ عليه خبراً للمبتدأ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: علاليَ وقصوراً جليلةً لا قصور فيها، وهي على ما روي عن ابن عباس من الدرِّ والزَّبَرْجَدِ والياقوت، مفعولٌ ثانٍ للتَّبْوِئة.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعبدُ الله والربيعُ بنُ خُثيم وابنُ وثَّابٍ وطلحةُ وزيد بنُ عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ: «لَنُثْوِيَنَّهم» بالثاء المثلثة الساكنة بعد النون وإبدال الهمزة ياءً(٣)، من الثَّواء بمعنى الإقامة، فانتصابُ «غرفًا» حينئذٍ إمَّا بإجرائه مجرى لننزلنَّهم، فهو مفعولٌ به له، أو بنزع الخافض على أنَّ أصله: بغرفٍ، فلمَّا حُذف الجارُّ انتصب، أو على أنه ظرفٌ، والظرفُ المكانيُّ إذا كان محدوداً كالدار والغرفة لا يجوز نصبُه على الظرفية، إلا أنه أُجري هنا مجرى المبهَم توسُّعاً كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] على ما فصِّل في النحو.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: «غُرُفاً» بضمِّ الراء(٤).

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ﴾ صفة لـ «غرفاً» ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الغَرف. وقيل: في الجنة ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: الأعمالَ الصالحة، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: نِعْمَ أجرُ العاملين الغرفُ أو أجرُهم. ويجوزُ كونُ التمييز محذوفاً، أي: نعم أجراً أجرُ العاملين.

---

(١) البحر ٧/ ١٥٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٣٤٣.

(٢) هي رواية أبي بكر عن عاصم كما في التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٣، والكلام وما بين حاصرتين من البحر ٧/ ١٥٧.

(٣) التيسير ص ١٧٤، والنشر٢/ ٣٤٣-٣٤٤ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر٧/ ١٥٧.

(٤) البحر ٧/ ١٥٧.

وقرأ ابن وثّاب: «فنعم» بفاء الترتيب[١].

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ صفةٌ لـ «للعاملين»، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو نصبٌ على المدح. أي: صبروا على أذية المشركين وشدائدِ المهاجَرةِ، وغيرِ ذلك من المحن والمشاقِّ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ أي: ولم يتوكّلوا فيما يأتون ويَذَرون إلَّا على الله تعالى.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا أمر[٢] المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا: كيف نَقْدَمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ؟ فنزلت[٣]. أي: وكم مِن دابَّةٍ لا تُطيقُ حَمْلَ رِزْقِها لضَعْفِها، أو لاتدَّخرهُ وإنَّما تُصبح ولا معيشةَ عندها.

عن ابن عيينة: ليس شيءٌ يَخْبَأ إلَّا الإنسان والنملة والفأرة.

وعن ابن عباس: لا يدَّخر إلا الآدميُّ والنملُ والفأرة والعَقْعَق. ويقال: للعَقْعَقِ مخابئُ إلا أنه ينساها.

وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في حضنيه. والظاهرُ عدمُ صحَّته، وذَكَر لي بعضُهم أنَّ أغلب الكوامن من الطير يدَّخر، والله تعالى أعلم بصحته.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضَعْفِها وتوكُّلها وإياكم مع قوَّتكم واجتهادكم سواءٌ في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى؛ لأنَّ رزق الكلِّ بأسبابٍ هو عزَّ وجل المسبِّبُ لها وحده، فلا تخافوا على معاشكم بالمُهاجَرةِ. ولمَّا كان المراد إزالةَ ما في أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل: «يرزقُها وإياكم» دون: يرزقُكم وإياها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ البالغُ في السمع، فيسمع قولكم هذا ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ البالغُ في العلم، فيعلمُ ما انْطوتْ عليه ضمائركم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٠، والبحر ٧/ ١٥٧، وينظر القراءات الشاذة ص١١٥.
(٢) في (م): لما روي أن النبي ﷺ أمر، والمثبت من الأصل وهو الصواب.
(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: أهلَ مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا التردُّدِ فيه، والاسمُ الجليل مرفوعٌ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ لدلالة السؤال عليه، أو على الفاعلية لفعلٍ محذوفٍ لذلك أيضاً.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ إنكارٌ واستبعادٌ من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه. والفاء للترتيب، أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فكيف يُصْرَفون عن الإقرار بتفرُّده عزَّ وجلَّ في الألوهية مع إقرارهم بتفرُّده سبحانه فيما ذُكر من الخَلْقِ والتسخير؟!.

وقدَّر بعضُهم الشرطَ: فإنْ صَرَفَهم الهوى والشيطانُ، لمكانِ بناءِ «يؤفكون» للمفعول، ولعل ما ذكرناه أولى.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يبسُطَه له، لا غيرُه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: يضيِّقُ عليه، والضمير عائدٌ على «من يشاء» الذي يُبْسَطُ له الرزق، أي: عائدٌ عليه مع ملاحظة متعلَّقه، فيكون المعنى أنه تعالى شأنُه يوسِّعُ على شخصٍ واحدٍ رزقَه تارةً ويضيِّقه عليه أخرى، والواو لمطلق الجمع فقد يتقدَّم التضييقُ على التوسيع.

أو عائدٌ على «مَن يشاء» بقَطْع النظر عن متعلَّقه، فالمراد: مَن يشاء آخرُ غيرُ المذكور، فهو نظير: عندي درهم ونصفُه، أي: نصفُ درهمٍ آخَرَ، وهذا قريبٌ من الاستخدام[1]، فالمعنى أنه تعالى شأنُه يوسِّع على بعضِ النَّاس ويضيِّقُ على بعض آخَرَ.

وقرأ علقمةُ: «ويُقَدِّر» بضمِّ الياء وفتح القاف وشدِّ الدال[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾ فيعلم أنَّ كلًّا من البَسْطِ والقَدْرِ في أيِّ وقتٍ يوافقُ الحكمةَ والمصلحةَ، فيفعل كلًّا منهما في وقته، أو: فيعلم مَن يليقُ ببَسْطِ الرزق فيبسطُه له، ومَن يليقُ بقدْره له فيقْدِرُ له.

---

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) البحر ٧/ ١٥٨.

وهذه الآيةُ، أعني قولَه تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) إلخ تكميلٌ لمعنى قوله سبحانه: (اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) لأنَّ الأول كلامٌ في المرزوق وعمومِه، وهذا كلامٌ في الرزق وبَسْطِه وقَتْرِه، وقولُه سبحانه: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم) إلخ معترِضٌ لتوكيد معنى الآيتين، وتعريضٌ بأنَّ الذين اعتمدتُم عليهم في الرزق مقرُّون بقُدْرتِنا وبقوَّتنا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] قاله العلَّامة الطيبي(١).

وقال صاحب «الكشف» قدِّس سره: اعْتَرَضَ ليفيدَ أنَّ الخالق هو الرازقُ، وأنَّ مَن أفاض ابتداءً وأَوْجَدَ أَوْلَى أن يقدِرَ على الإبقاء، وأكّد به ما ضمِّن في قوله عز وجل: (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفينَ بأنه عزَّ وجلَّ الموجِدُ للممكنات بأسرها أصولِها وفروعها(٢)، ثم إنهم يشركون به سبحانه بعضَ مخلوقاته الذي لا يكادُ يُتوهَّم منه القدرةُ على شيءٍ ما أصلاً.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إظهارِ الحجَّة واعترافهم بما يلزمهم. وقيل: حمده عليه الصلاة والسلام على العصمة مما هم عليه من الضلال، حيث أشركوا مع اعترافهم بأنَّ أصول النعم وفروعَها منه جلَّ جلالُه، فيكون كالحمد عند رؤية المبتلَى. وقيل: يجوز أن يكون حمداً على هذا وذاك.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ما يقولون، وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحةِ التوحيد، أو: لا يعقلون شيئاً من الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا، فيُشْركون به سبحانه أخسَّ مخلوقاته، فـ «بل» إضرابٌ عن جَهْلِهم الخاصِّ في الإتيان بما هو حجةٌ عليهم إلى أنَّ ذلك لأنهم مسلوبو العقول، فلا يَبْعُدُ عنهم مثلُه، وقوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) معترضٌ، وجَعَله الزمخشريُّ في سورة لقمان إلزاماً وتقريراً لاستحقاقه تعالى العبادة(٣).

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في (م): وفرعها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٤٦، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٣٦، عند تفسير الآية (٢٥) من سورة لقمان.

وقيل: لا يعقلون ما تريدُ بتحميدك عند مقالهم ذلك. ولم يرتَضِه بعضُ المحقِّقين لخفائه وقلَّة جدواه، وتكلُّفِ توجيهِ الإضراب فيه.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقيرٍ، وكيف لا والدنيا لا تَزِنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة، فقد أخرج الترمذيُّ عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةَ ماءٍ»(١).

وقال بعض العارفين: الدنيا أحقرُ من ذراعِ خنزيرٍ ميتٍ بالَ عليها كلبٌ بيدِ مجذومٍ. ويُعلم مما ذُكر حقارةُ ما فيها من الحياة بالطريق الأَوْلى.

﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: إلَّا كما يلهو ويلعب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعةً ثم يتفرَّقون عنه، وهذا من التشبيه البليغ.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لهي دارُ الحياةِ الحقيقيةِ، إذ لا يَعْرِضُ الموتُ والفناء لمن فيها، أو هي ذاتُها(٢) حياةٌ للمبالغة. و«الحيوان» مصدرُ حَيَّ، سمِّي به ذو الحياة في غير هذا المحلّ، وأصله حَيَيان فقُلبت الياء الثانيةُ واواً على خلاف القياس، فلامُه ياءٌ، وإلى ذلك ذهب سيبويه(٣).

وقيل: إنَّ لامه واوٌ نظراً إلى ظاهر الكلمة وإلى حَيْوةَ(٤) عَلَم رَجُلٍ، ولا حجَّة على كونه ياءً في حيِيَ(٥)؛ لأنَّ الواو في مثله تُبدَلُ ياءً لكَسْرِ ما قبلها، نحو شَقِيَ من الشقوة.

وهو أبلغُ من الحياة لِمَا في بناء فَعَلان من معنى الحركة والاضطراب اللازمِ للحياة، ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة، وقد علمتَها في وصف الحياة الدنيا المقابلةِ للدار الآخرة.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ شرطٌ جوابُه محذوفٌ، أي: لو كانوا يعلمون لمَا

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٢٠). قال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.
(٢) في الأصل: في ذاتها.
(٣) الكتاب ٤/ ٤٠٦، والدر المصون ٩/ ٢٦.
(٤) في (م): حياة، والمثبت من الأصل والبحر ٧/ ١٥٨.
(٥) في (م): حي.

آثروا عليها الدنيا التي أصلُها عدمُ الحياة، ثم ما يحدث فيها من الحياة[1] عارضةٌ سريعةُ الزوال وشيكةُ الاضمحلال.

وكونُ «لو» للتمنِّي بعيدٌ.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ متَّصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالهم، والركوبُ: الاستعلاءُ على الشيءِ المتحرِّك، وهو متعدٍّ بنفسه كما في «لتركبوها»، واستعمالُه هاهنا وفي أمثاله بـ «في» للإيذان بأنَّ المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة، وحركتُه قسريةٌ غيرُ إرادية.

والفاء للتعقُّب، وفي الكلام معنى الغاية، فكأنه قيل: هم مصروفون عن توحيد الله تعالى مع إقرارهم بما يقتضيه، لاهون بما هو سريعُ الزوال، ذاهلون عن الحياة الأبدية، حتى إذا ركبوا في الفلك ولَقُوا الشدائدَ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: كائنين في صورةِ مَن أَخْلَصَ دينَه وملَّته أو طاعتَه من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله تعالى، ولا يَدْعون سواه سبحانه؛ لعِلْمِهم بأنه لا يكشفُ الشدائد إلا هو عزَّ وجل، وفيه تهكُّمٌ بهم[2] سواءٌ أريد بالدِّين الملةُ أو الطاعةُ؛ أما على الأول فظاهرٌ، وأما على الثاني فلأنهم لا يستمرُّون على هذه الحال، فهي قبيحةٌ باعتبار المآل.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: فاجؤوا المعاودةَ إلى الشرك ولم يتأخَّروا عنها ولا وقتاً.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ الظاهر أنَّ اللام في الموضعين لامُ «كي»، أي: يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شِرْكِهم، وليتمتَّعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادِّهم عليها، فالشركُ سببٌ لهذا الكفران، وأُدخلت لام «كي» على مسبَّبه لجعله كالغرض لهم منه، فهي لامُ العاقبة في الحقيقة.

وقيل: اللام فيهما لامُ الأمر، والأمرُ بالكفران والتمتُّع مجازٌ في التخلية

---

(١) بعدها في (م): فيها.
(٢) في (م): به، وهو خطأ.

والخذلان والتهديدِ، كما تقول عند الغضب على مَن يخالفك: افعل ما شئت، ويؤيِّده قراءة ابن كثير والأعمش وحمزة والكسائيِّ: «ولْيتمتَّعوا» بسكون اللام[1]، فإنَّ لام «كي» لا تسكَّنُ، وإذا كانت الثانيةُ لذلك لامَ الأمر فالأولى مثلُها ليتَّضح العطفُ، وتخالُفُهما مُحْوِجٌ إلى التكلُّف بأن يكون المراد كما قال أبو حيان عطفَ كلامٍ على كلامٍ، لا عَطْفَ فعلٍ على فعلٍ[2]. وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ـ أي: عاقبةَ ذلك حين يعاقَبون عليه يومَ القيامة ـ مؤيِّدٌ للتهديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: بلدَهم ﴿حَرَمًا﴾ مكاناً حُرِّم فيه كثيرٌ مما ليس بمحرَّمٍ في غيره من المواضع ﴿ءَامِنًا﴾ أهلُه عمَّا يسوءُهم من السبي والقتل، على أنَّ أمْنَه كنايةٌ عن أمن أهله، أو على أن الإسناد مجازيٌّ، أو على أنَّ في الكلام مضافاً مقدَّراً، وتخصيصُ أهل مكة وإن أَمِنَ كلُّ مَن فيه حتى الطيورُ والوحوشُ لأنَّ المقصود الامتنانُ عليهم، ولأن ذلك مستمرٌّ في حقِّهم.

وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنَّ أهل مكة قالوا: يا محمد، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافةَ أن يتخطَّفنا الناسُ لقلَّتنا، والعربُ أكثر منَّا، فمتى بلغهم أنَّا قد دخلنا في دينك اختُطِفْنا، فكلُّنا أكلةُ رأسٍ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[3].

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُختَلَسون من حولهم قتلاً وسبياً؛ إذ كانت العرب حوله في تغاوُرٍ وتناهُبٍ، والظاهرُ أنَّ الجملة حاليةٌ بتقديرِ مبتدأ، أي: وهم يُتخطَّفُ.. إلخ.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي[4]: أَبَعْدَ ظهور الحقِّ الذي لا ريبَ فيه، أو: أَبَعْدَ هذه النعمة المكشوفة وغيرِها بالصنم ـ وقيل: بالشيطان ـ يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وهي المستوجبةُ للشكر، حيث يشركون به تعالى غيرَه سبحانه.

---

(١) التيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٣٤٤ عن ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) البحر ٧/ ١٥٩.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٠ وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) في (م): أن، وهو تصحيف.

وتقديمُ الصلة في الموضعين للاهتمام بها؛ لأنها مصبُّ الإنكار، أو للاختصاص على طريق المبالغة؛ لأنَّ الإيمان إذا لم يكن خاصًّا لا يعتدُّ به، ولأنَّ كفران غيرِ نعمته عزَّ وجلَّ بجَنْبِ كُفْرانِها لا يعدُّ كفراناً.

وقرأ السلميُّ والحسن: «تؤمنون» و«تكفرون» بتاء الخطاب فيهما[1].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ زَعَم أنَّ له سبحانه شريكاً، وكونُه كذباً على الله تعالى لأنه في حقِّه، فهو كقولك: كَذَب على زيد، إذا وَصَفه بما ليس فيه.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ أي: حين مجيئه إياه، وفيه تسفيهٌ لهم حيث لم يتأمَّلوا ولم يتوقَّفوا حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أوَّلَ ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ثواءٌ وإقامةٌ لهم، أو مكانٌ يثوون فيه ويقيمون، والكلام على كلا الوجهين تقريرٌ لثوائهم في جهنم؛ لأنَّ الاستفهام فيه معنى النفي وقد دخل على نفيٍ، ونفيُ النفيِ إثباتٌ كما في قول جرير:

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راحِ[2]

أي: أَلَا يستوجبون للثواء ـ أو المكانِ الذي يُثْوَى فيه ـ فيها وقد افتروا مثلَ هذا الكذب على الله تعالى، وكذَّبوا بالحقِّ مثلَ هذا التكذيب.

أو إنكارٌ[3] واستبعادٌ لاجترائهم على ما ذُكر من الافتراء والتكذيب مع عِلْمِهم بحال الكفرة، أي: ألم يعلموا أنَّ في جهنم مثوًى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجرأة، وجَعْلُهم عالمينَ بذلك لوضوحه وظهوره فنزِّلوا منزلةَ العالِم به.

والتعريفُ في «الكافرين» على الأول للعهد، فالمرادُ بهم أولئك المحدَّثُ عنهم وهم أهلُ مكة، وأُقيمَ الظاهرُ مقام الضمير لتعليل استيجابهم المثوى، ولا ينافي كونَ ظاهره أنَّ العلةَ افتراؤهم وتكذيبهم لأنه لا يغايرُه، والتعليلُ يقبل التعدُّدَ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٥، والبحر ٧/ ١٥٩.

(٢) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ١٨/ ٤٣٢.

(٣) قوله: إنكار، معطوف على قوله: تقريرٌ لثوائهم...

وعلى الثاني للجنس، فالمرادُ مطلقُ جنس الكفرة ويدخل أولئك فيه دخولاً أوّليًا برهانيًا.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في شأننا ومن أَجْلِنا ولوجهنا خالصاً، ففيه مضافٌ مقدَّرٌ. وقيل: لا حاجةَ إلى التقدير بحَمْلِ الكلام على المبالغة بجَعْلِ ذات الله سبحانه مستقرًّا للمجاهدة. وأُطلقت المجاهدةُ لتعمَّ مجاهدةَ الأعادي الظاهرةَ والباطنةَ بأنواعهما.

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ سُبلَ السير إلينا والوصولِ إلى جنابنا، والمراد: لنزيدنَّهم هدايةً إلى سُبُلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكها؛ فإنَّ الجهاد هدايةٌ أو مرتَّبٌ عليها، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد:١٧] وفي الحديث: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثه الله تعالى عِلْمَ مالم يعلم»[1].

ومن الناس مَن أَوَّل «جاهَدوا» بأرادوا الجهاد، وأبقى «لنهدينَّهم» على ظاهره.

وقال السديُّ: المعنى: والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان لنهدينَّهم سبلنا إلى الجنة.

وقيل: المعنى: والذين جاهدوا في الغزو لنهدينَّهم سبلَ الشهادة والمغفرة. وما ذُكر أَوّلاً أَوْلَى.

والموصولُ مبتدأ وجملةُ القسم وجوابه خبرُه، نظير ما مرَّ من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت:٥٨].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتَّصِفَ بجميع صفات الكمال الذي بلغتْ عظمتُه في القلوب ما بلغتْ ﴿لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ معيَّةَ النصرةِ والمعونةِ، وتقدُّمُ الجهادِ المحتاج لهما قرينةٌ قويةٌ على إرادة ذلك.

وقال العلَّامةُ الطيبيُّ: إنَّ قوله تعالى: (لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) قد طابق قوله سبحانه:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس ﷺ، وذكر أن بعض الرواة سمع أحمد بن حنبل يذكر هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فتوهم أنه ذكره عن النبيِّ ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهو عن يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس. قال أبو نعيم: وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد.

(جَٰهَدُواْ) لفظاً ومعنًى؛ أمَّا اللفظُ فمِن حيث الإطلاقُ في المجاهدة والمعيَّة، وأما المعنى فالمجاهدُ للأعداء يفتقر إلى ناصرٍ ومُعينٍ. ثم إنَّ جملة قوله عزَّ وجلَّ: (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ) تذييلٌ للآية مؤكَّدٌ بكلمتي التوكيد، محلّى باسم الذات؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ مَن جاهد بكلِّيته وشراشره في ذاته جلَّ وعلا تجلَّى له الربُّ عزَّ اسمُه [باسمه] الجامع في صفة النصرة والإعانة تجلِّياً تامًّا.

ثم إنَّ هذه خاتمةٌ شريفةٌ للسورة؛ لأنها مجاوِبةٌ لمفتَتَحِها ناظرةٌ إلى فريدةِ قلادتها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ لامحةٌ إلى واسطة عقدها ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وهي في نفسها جامعةٌ فاذة[1]. اهـ.

و«أل» في «المحسنين» يحتمل أن تكون للعهد، فالمرادُ بالمحسنين الذين جاهدوا، ووجهُ إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهرٌ، وإلى ذلك ذهب الجمهورُ، ويحتمل أن يكون للجنس، فالمرادُ بهم مطلقُ جنسِ مَن أتى بالأفعال الحسنة، ويدخل أولئك دخولاً أوليًّا برهانيًّا. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّر «المحسنين» بالموحِّدين، وفيه تأييدٌ ما للاحتمال الثاني، واللهُ تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ الآيةَ قال ابنُ عطاء: ظنَّ الخلقُ أنهم يُتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالَبون بحقائقها، وهي صبُّ البلاء على المحبِّ وتلذُّذه بالبلاء الظاهر والباطن. وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدِّس سره:

وتعذيبُكم عَذْبٌ لَدَيَّ وجَوْرُكم ... عليَّ بما يقضي الهوى لكم عدلُ[2]

وذكروا أنَّ المحبة والمحنة توأمان، وبالامتحان يكرَمُ الرجل أو يهان.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) ديوان ابن الفارض ص١٣٥.

إشارةٌ إلى حال الكاذبين في دعوى المحبةِ، وهم الذين يُصْرَفون عنها بأذى الناس لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال ابن عطاء: أي: اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة.

وقال سهل: اطلبوه في التوكُّل لا في المكسب، فإنَّ طلب الرزق فيه سبيلُ العوام.

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي: مهاجرٌ من نفسي ومن الكون إليه عز وجل. وقال ابن عطاء: أي: راجعٌ إلى ربِّي من جميع ما لي وعَلَيَّ. والرجوعُ إليه عز وجل بالانفصال عما دونه سبحانه، ولا يصحُّ لأحدٍ الرجوعُ إليه تعالى وهو متعلِّقٌ بشيءٍ من الكون، بل لابدَّ أن ينفصل من الأكوان أجمع.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ سئل الجنيد قدِّس سرُّه عن هذه الآية فقال: كلُّ شيءٍ يجتمع الناس عليه ـ إلَّا الذِّكرَ ـ فهو منكر.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ[1] من اعتمَدَ على غير الله عزَّ وجلَّ في أسباب الدنيا والآخرة، فهو منقطعٌ عن مراده غيرُ واصلٍ إليه، قال ابن عطاء: مَن اعتمد شيئاً سوى اللهِ تعالى كان هلاكُه في نَفْسِ ما اعتَمَدَ عليه، ومَن اتَّخذ سواه عزَّ وجلَّ ظهيراً قَطَعَ عن نفسه سبيلَ العصمة، ورُدَّ إلى حوله وقوَّته.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ دقائق المعارف لا يعرفُها إلا أصحابُ الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائرِ شؤونه سبحانه؛ لأنهم علماءُ المنهج. وذُكر أنَّ العالم على الحقيقة مَن يحجزُه عِلْمُه عن كلِّ ما يبيحه العلمُ الظاهر، وهذا هو المؤيَّدُ عقلُه بأنوار العلم اللدنِّي.

---

(١) قوله: أن، ساقط من (م).

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ ذُكر أنَّ حقيقة الصلاة حضورُ القلب بنعتِ الذكر، والمراقبة بنعت الفكر، فالذكرُ في الصلاة يطردُ الغفلةَ التي هي الفحشاء، والفكرُ يطردُ الخواطر المذمومةَ وهي المنكر. هذا في الصلاة، وبعدَها تَنْهَى هي إذا كانت صلاةً حقيقيةً، وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمالُ الجبروت وجلالُ الملكوت، وقرَّتْ عيناه بمشاهدة أنوار الحقِّ جلَّ وعلا عن رؤية الأعمال والأعواض.

وقال جعفر الصادق ﷺ: الصلاةُ إذا كانت مقبولةً تَنْهَى عن مطالعات الأعمال والأعواض.

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ قال ابن عطاء: أي: ذكرُ اللهِ تعالى لكم أكبرُ من ذكركم له سبحانه؛ لأنَّ ذِكْرَه تعالى بلا علَّةٍ وذكرُكم مشوبٌ بالعلل والأمانيِّ والسؤال. وأيضاً ذِكْرُه تعالى صفتُه، وذِكْرُكم صفتُكم، ولا نسبةَ بين صفة الخالق جلَّ شأنُه وبين صفة المخلوق، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلَّا لأرواح المقرَّبين من العارفين والعلماءِ الربانيين؛ لأنها أماكنُ أسرارِ الصفات، وأوعيةُ لطائفِ كشوفِ الذات، قال الصادقُ على آبائه وعليه السلام: لقد تجلَّى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ قال سهل: إذا عُمِلَ بالمعاصي والبِدَع في أرضٍ فاخرجوا منها إلى أرضِ المطيعين. وكأنَّ هذا لئلا تنعكسَ ظلمةُ معاصي العاصين على قلوب الطائعين فيَكْسَلوا عن الطاعة. وذَكَروا أنَّ سفر المريد سببٌ للتخلية والتحلية، وإليه الإشارةُ بما أخرجه الطبرانيُّ والقضاعي، والشيرازيُّ في «الألقاب»، والخطيبُ وابنُ النجار والبيهقيُّ عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سافِروا تَصِحُّوا وتَغْنَموا»[1].

(١) المعجم الأوسط (٧٤٠٠)، ومسند الشهاب (٦٢٢)، وتاريخ بغداد ١٠/٣٨٧، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/١٠٢، وعزاه للشيرازي وابن النجار السيوطي في الدر ٥/١٤٩، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/٢١٩٨. وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن الرداد، قال أبو حاتم: ليس بقوي. وقال أبو زرعة: لين، وقال ابن عدي: رواياته ليست =

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يمنعنَّكم خوفُ الموت من السفر.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فلا يمنعنَّكم عنه فَقْدُ الزادِ أو العجزُ عن حمله.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ قال ابن عطاء: أي: الذين جاهدوا في رضانا لنهدينَّهم إلى محلِّ الرضا. والمجاهدةُ كما قال: الافتقارُ إلى الله تعالى بالانقطاع عن كلِّ ما سواه.

وقال بعضهم: أي: الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف لنُوصِلَنَّ أسرارهم إلى اللطائف.

وقيل: أي: الذين جاهدوا نفوسَهم لأَجْلنا وطلباً لنا لنهدينَّهم سبلَ المعرفة بنا والوصولِ إلينا، ومَن عَرَفَ الله تعالى عَرَفَ كلَّ شيء، ومَن وصل إليه هان عنده كلُّ شيءٍ.

كان عبد الله بن المبارك يقول: مَن اعتاصَتْ عليه مسألةٌ فليسأل أهل الثغور عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. وجهادُ النفس هو الجهادُ الأكبر، نسألُ الله تعالى التوفيقَ لِمَا يحبُّ ويرضى والحفظَ التامَّ من كلِّ شرٍّ بحرمةِ حبيبه سيد البشر ﷺ.

= محفوظة، وقال الأزدي: لا يكتب حديثه. الميزان ٣/ ٦٢٣. وقال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٣٠٦: هذا حديث منكر.

وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٤٥ عن ابن عمر بإسناد آخر بلفظ: «سافروا تصحوا وتسلموا»، وفيه عبد الله بن عيسى أبو علقمة المدني الأصم، قال ابن حبان: يروي عن نافع ومطرف بن عبد الله بن الأصم العجائب، ويقلب على الثقات الأخبار.

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٤٥)، والقضاعي في الشهاب (٦٢٣). وآخر من حديث ابن عباس عند ابن عدي ٧/ ٢٥٢١، والبيهقي ٧/ ١٠٢. وثالث من حديث أبي سعيد الخدري عند ابن عدي ٣/ ١٢٩٢ وكلها ضعيفة، وينظر الكلام عليها في حاشية المسند.

وروي عن عمر موقوفاً عليه بلفظ: سافروا تصحُّوا، وهو في مصنف عبد الرزاق (٢٠٩٢٨)، ورجاله ثقات إلا أنه منقطع بين طاووس وبين عمر، وهو أصح شيءٍ في الباب.

(سورة العنكبوت)

(مكية وهي تسع وستون آية)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ②﴾

(﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا (وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ) ②﴾) الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما، ولا يصحّ تعليقهما بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل. فلو قلت: «حسبت زيدًا وظننت الفرس» لم يكن شيئًا حتى تقول: «حسبت زيدًا عالمًا وظننت الفرس جوادًا» لأن قولك: «زيد عالم والفرس جواد» كلام دالٌّ على مضمون، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتًا عندك على وجه الظن لا اليقين أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتى يتمّ لك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (**سورة العنكبوت، مكّية، وهي تسع وستون آية**) وهو الصحيح، وألف وتسعمائة وإحدى وثمانون كلمة، وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفًا. اهـ خطيب.

قوله: (﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾) من تمام قوله: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢]؛ لكونه حالًا من المرفوع المستتر فيه.

غرضك والكلام الدّالّ على المضمون الذي يقتضيه الحُسبان هنا ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنّا؟ فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو الخبر، وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من التَّرك الذي هو بمعنى التصيير (كقول عنترة:

فتركنه جزر السِّباع ينشنه)

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: «تركهم غير مفتونين» لقولهم: «آمنّا» على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ. والفتنة

قوله: (كقول عَنْتَرَة) وهو ابن شدّاد، وقيل: ابن عمرو بن شداد العبسي التميمي الشاعر المشهور:

(فتركته جزر السِّباع يَنُشْنَه)

آخره:

يقضمن حسن بنانه والمعصمِ

ورُوِيَ:

ما بين قُلّة راسية والمعصم

البيت من الكامل من معلّقة عنترة العبسيّ استشهد على أن ترك وإن كان في الأصل يتعدّى إلى مفعول واحد؛ لأنه بمعنى طرح وخلّى لكنه ضمن معنى صيّر، فأجرى مجرى أفعال القلوب فعدّى إلى مفعولين؛ لأن جزر السِّباع مَعْرفة لا يحتمل الحال والضمائر الثلاث في البيت ترجع إلى مدجج في البيت السابق، أي شاكي السلاح. ويُروى: فتركنه ـ بالنون ـ والضمير للقنا في البيت قبله وبالتاء المثنّاة من فوق على صيغة المتكلّم والضمير حينئذ للشاعر، وجَزَر السِّباع ـ بفتح الجيم والزاي ـ اللَّحم الذي تأكله السِّباع، يقال: تركوهم جزرًا ـ بالتحريك ـ إذا قتلوهم، وصيروهم طعمة للسباع والجزر فعل بمعنى مفعول؛ لأنه معدّ لأن تجزره السباع بأنيابها كما يجزر القصّاب بالحديد، والجُزُر أيضًا جمع جزرة الشاة السمينة والنوش التناول، والقضم ـ بالقاف والضاد المعجمة ـ الأكل بمقدّم الأسنان، قيل: والمراد

الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقَّة و(**هجر**) الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال (**ومصابرة الكفّار**) على أذاهم وكيدهم. ورُوِيَ أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد (**خرعوا**) من أذى المشركين، أو في (**عمار**) بن ياسر وكان يُعَذَّب في الله.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ اختبرنا (**وهو موصول بـ** ﴿أَحَسِبَ﴾ **أو بـ** ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾)

هنا الأكل مطلقًا أو القطع، والبنان بموحدة قبل النون رؤوس الأصابع أو الأصابع بكمالها والأنامل أطرافها، والمعصم موضع السّوار من الساعد، وما بين أي فيما بين أي موضعه نصب بينشنه، والقلة ـ بضم القاف ـ أعلى الجبل وقلّة كل شيء أعلاه ورأس كل شيء قلّة، أي بقرن حاربته فقتلته وتركته طعم السباع، كما يكون الجزر طعمة البائس، ثم قال: تتناوله السّباع وتأكل بمقدّم أسنانها بنانه الحسن ومعصمه الحسن، يريد أنه قتله فجعله عرضة للسباع.

قوله: (**هَجْر**) أي ترك. **قوله:** (**ومصابرة الكفار**) في تفسير الجلالين: ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ٢٠٠] الكفار فلا يكونوا أشدّ صبرًا منكم، أي غالبوهم في الصّبر. **قوله:** (**خرعوا**) بالخاء المنقوطة من فوق بمعنى ضعفوا، ويُروى: جزعوا. **قوله:** (**عمّار**) بن ياسر الصحابي، هو أبو اليقظان كان من السابقين إلى الإسلام وكان هو وأبوه وأُمّه سُمَيّة ممّن أسلم أوّلًا، وكان إسلام عمّار وصُهيب في وقتٍ واحد حين كان النبيّ ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأسلم بعد بضعة وثلاثين رجلًا وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة وشهد بدرًا وأُحدًا والخندق وجميع المشاهد، واختلفوا في هجرته إلى الحبشة، رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ اثنان وستّون حديثًا اتّفقا على حديثين منها، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بحديث، قُتِل بصفّين مع عليّ رضي الله تعالى عنه في شهر ربيع الأوّل، وقيل: الآخر سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث، وقيل: أربع وتسعين سنة.

قوله: (**وهو موصول**) أي متّصل (بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾) أي هو حال من فاعل: أحد ذينك الفعلين.

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بأنواع الفتن فمنهم مَن يوضع (المنشار) على رأسه فيفرق (فرقتين) ما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم مَن (**يمشط بأمشاط الحديد**) ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الإيمان ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فيه. ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجودًا عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد، والمعنى وليتميزنّ الصادق منهم من الكاذب. قال (**ابن عطاء**): يتبيَّن صدق العبد من كذبه في أوقات (**الرخاء**) والبلاء، فمَن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن (**بطر**) في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (**أي الشرك والمعاصي**) ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ أي يفوتونا يعني أن الجزاء يلحقهم لا محالة، واشتمال صلة «أن» على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ مفعولين كقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٤] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر (**و﴿أَمۡ﴾ منقطعة**)، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يُجازى بمساويه. وقالوا: الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين ﴿سَآءَ

قوله: (المنشار) بالنون وهي آلة يُشَقُّ بها الخشبة. **قوله**: (فِرْقتين) بالكسر قطعتين. **قوله**: (**يمشط**) بصيغة المجهول مخففًا والمعنى يشوك (**بأمشاط الحديد**) بفتح الهمزة جمع مشط وهو ما يتمشط به الشعر. **قوله**: (**ابن عطاء**) أي أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء من كبار مشائخ الصوفية وعُلمائهم، مات سنة تسع وثلاثمائة. رحمه الله. **قوله**: (**الرخاء**) بالفتح والمد. **قوله**: (**بطر**) البَطَر الأشِر، وهو شدّة المَرَح وبابه طَرِب.اهـ. مختار الصحاح.

قوله: (**أي الشرك والمعاصي**) شامل للكفرة والعصاة. **قوله**: (**و﴿أَمۡ﴾ منقطعة**) مقدّرة ببل والهمزة والإضراب لأجل الانتقال لا لإبطال السابق؛ لأن إنكار الحسبان الأوّل ليس بباطل، إلا أن الحسبان الثاني أبطل وأولى بالإنكار، وذلك لأن صاحب الحسبان الأول يقرّر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظنّ أنه لا يجازى بمساوئه، والثاني أبطل لأنه خلاف ما يقتضيه العقل والنقل، والأوّل إنما يخالف

﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ «ما» في موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم، أو نصب على معنى ساء حكمًا يحكمون، والمخصوص بالذمّ محذوف أي بئس حَكمًا يحكمونه حكمهم.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يأمل ثوابه أو يخاف حسابه (**الرجاء**) يحتملهما ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿لَأٓتٍۚ﴾ لا محالة فليبادر للعمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه فلا يفوته شيء ما. وقال (**الزجّاج**): و«من» للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ كقولك: «إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد» ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفّار ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي الشِّرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (**أي أحسن جزاء أعمالهم**) في الإسلام.

النقل فقط، ولم تجعل ﴿أم﴾ هذه متّصلة معادلة لهمزة الاستفهام في قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ لوجهين، أحدهما: أن ما بعدها ليس مفردًا ولا في قوّة المفرد، والثاني: أنه لم يكن هنا ما يجاب به عن أحد الشيئين أو الأشياء.

قوله: (**الرجاء**) بالفتح والمدّ. **قوله**: (**الزجّاج**) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد رحمه الله.

قوله: (**أي أحسن جزاء أعمالهم**) يريد أن المضاف محذوف، أي أحسن جزاء الذي كانوا يعملونه، يعني أن للعمل جزاء حسنًا وجَزاءً أحسن، فهو تعالى يجزيهم الجزاء الأحسن.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وصَّى حُكمه حكم أمر في معناه وتصرفه. يقال: وصَّيت زيدًا بأن يفعل خيرًا كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: الآية ١٣٢] أي وصَّاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصَّيت زيدًا بعمرو معناه وصيته بتعهّد عمرو ومراعاته ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ووصَّيناه (**بإيتاء والديه حسنًا أو بإيلاء والديه حسنًا أي فعلًا ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه**) كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: الآية ٨٣] ويجوز أن يجعل ﴿حُسْنًا﴾ من باب قولك: «زيدًا» بإضمار «اضرب» إذا رأيته متهيِّئًا للضرب فتنصبه بإضمار (**أولهما**)، أو افعل بهما لأن التوصية بهما دالَّة عليه (**وما بعده مطابق له**) كأنه قال: قلنا أَوْلِهِما معروفًا ولا تطعهما في الشِّرك إذا حملاك عليه، وعلى هذا التفسير إن وقف على ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وابتدىء ﴿حُسْنًا﴾ حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لا بدَّ من إضمار القول معناه وقلنا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا علم لك بإلٰهيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئًا لا يصحّ أن يكون إلٰهًا ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع مَن آمن منكم ومَن أشرك ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأُجازيكم حق جزائكم، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشِّرك و(**حث**) على الثبات والاستقامة في الدين. رُوِيَ أن (**سعد بن أبي وقاص**) لما أسلم نذرت

قوله: (**بإيتاء والديه**) أي بإعطاء والديه (**حسنًا أو بإيلاء**) أي بإعطاء (**والديه حسنًا، أي فعلًا ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه**) يعني أن الباء صلة ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ وحذف المضاف الذي هو المأمور به، وأُقيم المضاف إليه مقامه، وأن ﴿حُسْنًا﴾ منصوب على أنه صفة لمفعول المصدر المحذوف إمّا بتقدير ذا أو بجعل نفس ذلك الفعل حسنًا للمبالغة. **قوله**: (**أوْلِهما**) من الإيلاء بمعنى الإعطاء، أي أول الإحسان إليهما. **قوله**: (**وما بعده مطابق له**) يعني أن النهي في قوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ مطابق لما مرّ؛ لأنهما من واد الإنشائيات. **قوله**: (**حثّ**) من باب ردّ. **قوله**: (**سعد بن أبي وقّاص**) أحد العشرة، هو أبو إسحٰق سعد بن مالك بن وهب

أمه أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرتدّ فشكا إلى النبي ﷺ (فنزلت هذه الآية، والتي في «لقمان» والتي في «الأحقاف»).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ هو مبتدأ والخبر ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم. والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو مُتَمَنَى الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: الآية ١٩]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٠١] أو في مدخل الصالحين وهو الجنة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

ونزلت في المنافقين ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي إذا مسّه أذًى من الكفّار ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي جزع من ذلك كما يجزع

القرشي الزهري المكي المدني، أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة وتوفي وهو عنهم راضٍ، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أمر الخلافة إليهم، وأسلم قديمًا بعد أربعة، وقيل: بعد ستّة وهو ابن سبع عشرة سنة وهو أوّل مَنْ رمى بسهم في سبيل الله، وأوّل مَنْ أراق دمًا في سبيل الله وهو من المهاجرين الأوّلين هاجر إلى المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها، شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وسائر المشاهد كلّها، وكان يقال له فارس الإسلام، توفي سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة ستّ، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة ثمان وخمسين، توفي بقصره بالعقيق على عشرة أميال، وقيل: سبعة من المدينة وحُمِل على أعناق الرجال إلى المدينة وصلّى عليه في المدينة، ودُفِن بالبقيع رضي الله تعالى عنه. **قوله**: (**فنزلت هذه الآية، والتي في لقمان، والتي في الأحقاف**) وكون ما في الأحقاف نزل فيه رواية، فلا ينافي ما سيأتي فيها من أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه مع أنهم جوّزوا تعدّد سبب النزول كما قيل.

من عذاب الله تعالى ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: إنّا كنّا معكم أي متابعين لكم في دينكم ثابتين عليه بثباتكم فأعطونا نصيبنا من (الغنم) ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هو أعلم بما في صدور العالمين من العالمين بما في صدرهم ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق وما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله:

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي حالهما ظاهرة عند مَن يملك الجزاء عليهما ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أمروهم باتّباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم. والمعنى تعليق الحمل بالاتباع أي إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم، وهذا قول (**صناديد قريش**) كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنّا نتحمل عنكم الإثم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدّون الشيء وفي قلوبهم نيّة الخلف.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أثقال أنفسهم يعني أوزارهم بسبب كفرهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي أثقالاً أُخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سببًا في ضلالهم وهو كما قال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ

قوله: (الغنم) بالضمّ أي الغنيمة.

قوله: (صَناديد قريش) وهم أشرافهم وعظمائم الواحد صِنْديد وكل عظيم غالب صِنْديد. اهـ لسان العرب.

أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: الآية ٢٥] ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الأكاذيب والأباطيل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمره ألفًا وخمسين سنة؛ بُعِث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين. وعن (وهب) أنه عاش ألفًا وأربعمائة سنة فقال له مَلَك الموت: يا أطول الأنبياء عمرًا كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت وخرجت. ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهّم زائل هنا فكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظًا وأملًا بالفائدة، ولأن القصة سِيقَت لما ابتُلي به نوح عليه السلام من أمته وما (كابده) من طول المصابرة تسلية لنبيِّنا عليه السلام فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. (وجيء بالمميز) أولًا بالسنة ثم بالعام، لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد (حقيق) بالاجتناب في

قوله: (وهب) بن مُنَبِّه التابعي، أخو همام بن منبه كنية وهب أبو عبد الله، ويقال له الذِّماري ـ بكسر الذال المعجمة ـ منسوب إلى ذمار قرية على مرحلتين من صنعاء اليمن، وهو تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص وأبا سعيد الخدري وأبا هريرة وأنسًا والنعمان بن بشير، روى عنه عمرو بن دينار وعوف الأعرابي والمغيرة بن حكيم وآخرون واتّفقوا على توثيقه، توفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة، وقال ابن سعد: سنة عشر ومائة رضي الله تعالى عنه. **قوله**: (كابده) في مختار الصحاح: كابد الأمر قاسى شدّته. اهـ. وفي المصباح: المكابدة للشيء وهي تحمل المشاق في فعله. اهـ. **قوله**: (وجيء بالمميز).. الخ. ثم إنه خصّ لفظ العام بالخمسين إيذانًا بأن نبيّ الله عليه الصّلاة والسّلام لمّا استراح من قومه بالإغراق طاب زمانه وصفا عيشه، فإن العرب تعبّر عن الخصب بالعام، وعن الجدب بالسَّنة.
قوله: (حقيق) أي لائق.

البلاغة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ (هو ما أطاف) وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالكفر.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحًا ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وكانوا ثمانية وسبعين نفسًا نصفهم ذُكُور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح (سام وحام ويافث) ونساؤهم ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي السفينة أو الحادثة أو القصة ﴿ءَايَةً﴾ عبرة وعِظَة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتّعظون بها.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بإضمار اذكر وأبدل منه ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها، أو معطوف على ﴿نُوحٌ﴾ أي وأرسلنا إبراهيم، أو ظرف لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يعني أرسلناه حين بلغ من السِّن، أو العلم مبلغًا صَلُح فيه لأن يَعِظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ (إبراهيم النخعي) و(أبو حنيفة) رضي الله عنهما: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بالرفع على معنى «ومن المرسلين إبراهيم» ﴿لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شرٌّ لكم.

قوله: (هو ما أطاف)... الخ. لكنه غلب في الماء، كما هو المراد هنا.

قوله: (سام وحام ويافث) الثلاثة بمنع الصرف للعلمية والمعجمة.

قوله: (إبراهيم النخعي) أحد الأئمّة المشاهير تابعي رأى عائشة رضي الله تعالى عنها ودخل عليها ولم يثبت له منها سماع، توفي سنة ستّ، وقيل: خمس وتسعين للهجرة وله تسع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وخمسون سنة، والأوّل أصح ونسبته إلى النخع ـ بفتح النون والخاء المعجمة وبعدها عين مهملة ـ وهي قبيلة كبيرة من مذحج باليمن. **قوله**: (أبو حنيفة) هو الإمام البارع النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما، وُلد سنة ثمانين من الهجرة وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصناماً ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ وتكذبون أو تصنعون. (**وقرأ أبو حنيفة والسلمي رضي الله عنهما** ﴿وَتَخَلَّقُونَ﴾ **من خلق بمعنى التكثير**) في خلق ﴿إِفْكًا﴾ (وقرىء ﴿أفكًا﴾) وهو مصدر نحو كذب ولعب. والإفك مخفَّف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلاقهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله فإنه هو الرازق

قوله: (**وقرأ أبو حنيفة والسُلَمِيّ**) بالضم والفتح نسبة إلى قبيلة بني سليم، وهو أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن موسى الصوفي الحافظ صاحب التصانيف (**رضي الله تعالى عنهما**، ﴿وَتَخَلَّقُونَ﴾) بفتح التاء والخاء واللام المشدّدة (**من خلَّق**) بالتضعيف (**بمعنى التكثير**) في خَلَق، في حاشية تفسير البيضاوي للعلامة الشيخ زاده رحمه الله: وقرأ العامّة ﴿تخلقون﴾ بضم التاء وكسر اللام المشدّدة مضارع خلق بالتضعيف للتكثير، وقرىء ﴿تخلقون﴾ بفتح التاء والخاء واللام المشدّدة مضارع تخلق للتكلف والأصل تتخلقون بتاءين فحُذِفت إحداهما، يقال: تخلّق وتكذّب إذا افتعل الكذب بالتكلّف، انتهت بحروفها. وفي تفسير فتح القدير: قرأ الجمهور ﴿تخلقون﴾ بفتح الفوقية وسكون الخاء وضمّ اللام مضارع خلق و﴿إِفْكًا﴾ بكسر الهمزة وسكون الفاء، وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن علي والسلمي وقتادة بفتح الخاء واللام مشدّدة، والأصل تتخلقون، ورُوي عن يزيد بن علي أنه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة، وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان: «أفكًا» بفتح الهمزة وكسر الفاء. اهـ بحروفه. وفي الكتاب المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ولغات العرب للعلامة أبي الفتح عثمان بن جنّي النحوي رحمه الله: ومن ذلك قراءة السُّلَمِيّ وزيد بن عليّ: ﴿وتَخَلَّقُون إفكًا﴾، وقرأ فضيل بن مَرْزُوق وابن الزبير: «وتخلقون أَفِكًا» بفتح الهمزة وكسر الفاء. اهـ. فافهم. **قوله**: (**وقرىء «أفكًا»**) بفتح الهمزة وكسر الفاء قارئه فضيل وابن الزبير وقراءة الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاء.

وحده لا يرزق غيره ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على (**أنعمه**)، وبفتح التاء وكسر الجيم: (**يعقوب**).

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾

﴿(وَإِن تُكَذِّبُواْ) فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾ أي وإن تكذّبوني فلا تضرّوني بتكذيبكم فإن الرسل قبلي قد كذَّبتهم أُممهم وما ضرّوهم وإنما ضرّوا أنفسهم حيث حلَّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم، وأما الرسول فقد تمّ أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذي زالَ معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذّبًا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء (**أُسوة**) حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلّغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب. وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمراد بالأمم قبله قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم. وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: فالجُمَل الاعتراضية لا بدَّ لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول: «مكة وزيد قائم خير بلاد الله». قلت: نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادة (**للتنفيس**) عن رسول الله ﷺ، وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مُبتَلى بنحو ما ابتُلي به من شِرك قومه وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدًا فقد كَذَّب إبراهيم قومه وكل أمة نبيّها لأن قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ لا بدَّ من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطِقة

قوله: (أَنْعُمه) في المصباح: جمع النعمة نعم مثل سدرة وسُدر، وأنعم أيضًا مثل أفلس. اهـ. **قوله**: (يعقوب) بن إسحٰق وليس من السبعة.

قوله: (﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾) إشارة إلى أن المفعول محذوف للعلم به. **قوله**: (أُسوة) في المصباح: الإسوة ـ بكسر الهمزة وضمّها ـ القدوة. اهـ. وأيضًا فيه: القدوة اسم من اقتدى به إذا فعل مثل فعله تأسّيًا، وفلان قدوة أي يُقتدى به، والضم أكثر من الكسر. اهـ. **قوله**: (للتنفيس) أي التفريج لسِعة الصدر.

بالتوحيد ودلائله وهدم الشِّرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجّته وبرهانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ (وبالتاء: كوفي غير حفص) ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي قد رأوا ذلك وعلموه. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على ﴿يُبْدِئُ﴾ وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار (على حياله) بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٠] على البدء دون الإنشاء بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره وأوحينا إليه أن قل ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمُشاهدة، وبدأ وأبدأ بمعنى ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي البعث. (وبالمدّ حيث كان: مكي وأبو عمرو). وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أي ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، والقياس أن يقال: «كيف بدأ الله الخلق ثم يُنشيء النشأة الآخرة» لأن الكلام معهم وقع في

قوله: (**وبالتاء**) من فوق (**كوفي غير حفص**) أي أبو بكر من طريق يحيىٰ بن آدم وحمزة والكسائي وخلف على خطاب إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام لقومه، وروى العليمي عن أبي بكر بالغيب ردًّا على الأُمم المكذّبة، وبه قرأ الباقون. **قوله**: (**على حياله**) بكسر الحاء، أي بانفراد. اهـ مصباح.

قوله: (**وبالمدّ**) أي بفتح الشين فألف بعدها وبعد الألف همزة مفتوحة (**حيث كان**) أي هنا والنجم والواقعة (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي (**وأبو عمرو**) البصري، والباقون بإسكان الشين وهمزة مفتوحة بعد الشين لغتان كالرأفة والرآفة والرأفة والرآفة بالمدّ مصدر كالسماحة بمعنى الرأفة، وهي الشفقة.

الإعادة، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله احتجّ عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يُعجزه الإعادة فكأنه قال: ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي يُنشيء النشأة الآخرة، فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ (بالخذلان) ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية أو بالحرص والقناعة، أو بسوءِ الخلق وحُسنه، أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو بمتابعة البدع وبملازمة السُّنَّة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون وترجعون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابي.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ جنتي ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعًا في حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حين قذفوه فيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ رُوِيَ أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار يعني يوم أُلقي إبراهيم في النار وذلك لذهاب حَرّها.

قوله: (بالخذلان) في مختار الصحاح: خذله يخذله ـ بالضم ـ خِذْلانًا ـ بكسر الخاء ـ ترك عونه ونصرته. اهـ.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا (مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **حمزة وحفص**)، ﴿مَّوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾ (**مدني وشامي وحماد ويحيىٰ وخلف** ﴿مودةُ بينِكم﴾ **مكي وبصري وعلي**، ﴿مودةٌ بينَكم﴾ **الشموني والبرجمي**)، النصب **على** وجهين على التعليل، أي لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابّهم وأن يكون مفعولًا ثانيًا كقوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣]، و«ما» كافّة أي اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم على تقدير حذف المضاف، أو اتخذتموها مودّة بينكم أي مودّة بينكم كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥]، وفي الرفع وجهان: أن يكون خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾ و«ما» موصولة، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي مودّة بينكم، والمعنى أن الأوثان مودّة بينكم أي مودودة أو سبب مودّة. ومَن أضاف المودّة جعل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ اسمًا لا ظرفًا كقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: الآية ١٠٦]، ومَن نوَّن ﴿مَوَدَّةٌ﴾ ونصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فعلى الظرف ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ تتبرّأ

قوله: (﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾) بنصب ﴿مَّوَدَّةَ﴾ بلا تنوين وجرّ ﴿بَيْنِكُمْ﴾ (**حمزة وحفص**) ﴿مَّوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾ بنصب ﴿مَّوَدَّةً﴾ وتنوينه ونصب بينكم (**مدني**) أي نافع المدني، (**وشامي**) أي ابن عامر الشامي (**وحماد**) بن زيد عن عاصم (**ويحيىٰ**) بن آدم عن أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم (**وخلف**) بن هشام وليس من السبعة وله اختيار (﴿**مودةُ بينِكم**﴾) برفع ﴿مودة﴾ من غير تنوين وخفض ﴿بينكم﴾ (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي، (**وبصري**) أي أبو عمرو البصري، (**وعليّ**) الكسائي (﴿**مودةٌ بينَكم**﴾) برفع ﴿مودةٌ﴾ من غير تنوين وفتح ﴿بينكم﴾ لكونه مبنيًا لإضافته إلى المبني الذي هو الضمير ومحله الجر، كما في قراءة مَنْ قرأ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٤] بالفتح مع جعل بينكم فاعلًا (**الشُّموني**) وهو محمد بن حبيب الشموني عن أبي يوسف يعقوب بن خليفة بن سعد بن هلال عن أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم رَحِمَهُ اللَّهُ، (**والبرجمي**) هو عبد الحميد بن صالح

الأصنام من عابِدِيها ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الأتباع (القادة) ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مأوى العابِد والمعبود والتابع والمتبوع ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ثَمَّة.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ لإبراهيم عليه السلام ﴿لُوطٌ﴾ (**هو ابن أخته**) إبراهيم (**وهو أول مَن آمن له**) حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ (**من كوثى**) وهي (**من سواد الكوفة**) إلى (**حرّان**) ثم منها إلى (**فلسطين**) وهي من (**برية**) الشام، ومن ثم قالوا: لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان. وكان معه هجرته لوط و(**سارة بالتخفيف**) وقد تزوَّجها إبراهيم ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيث أمرني ربي بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو خير.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولدًا ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وَلَدُ وَلَد ولم يذكر إسماعيل لشُهرته ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي في ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد به الجنس يعني التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي إبراهيم

البرجمي ـ بضم الباء وسكون الراء وضمّ الجيم ـ نسبة إلى البراجم وهي قبيلة من تميم عن أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم رحمه الله. **قوله**: (**القادة**) جمع القائد.

قوله: (**هو ابن أخته**) هذه رواية، وفي رواية أخرى أنه عمّ لوط على نبيِّنا وعليهما الصّلاة والسلام، وفي جامع الأصول أنه ابن أخيه هاران بن تارخ. **قوله**: (**وهو أوّل مَنْ آمن له**) أي بنبوّة إبراهيم على نبيِّنا وعليهما الصلاة والسلام، وإن كان مؤمنًا قبل ذلك. **قوله**: (**من كوثى**) بضم الكاف والثاء المثلّثة والقصر بلدة بالعراق قديمة ينسب إليها إبراهيم الخليل على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، وبها كان مولده. **قوله**: (**من سواد الكوفة**) السواد الناحية. **قوله**: (**حرَّان**) قرية من قرى غوطة دمشق. **قوله**: (**فلسطين**) بكسر الفاء وفتح اللام. **قوله**: (**برية**) في المصباح: البرّ بالفتح خلاف البحر، والبريّة نسبة إليه وهي الصحراء. اهـ. **قوله**: (**سارة بالتخفيف**) والتشديد وهي بنت عمّه.

﴿أَجْرَهُۥ﴾ الثناء الحسن (والصلاة عليه إلى آخر الدهر) ومحبة أهل المِلَل له، أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فيه دليل على أنه تعالى قد يعطي الأجْر في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من أهل الجنة: عن (الحسن).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ أي واذكر لوطًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح وهي اللواطة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلًا قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقيل: لأن أحدًا قبلهم لم يقدم عليها، قالوا: (لم ينز) ذكر على ذكر قبل قوم لوط ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ بالقتل وأخذ المال كما هو عمل (قطاع الطريق)، وقيل: اعتراضهم (السابلة) بالفاحشة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ مجلسكم ولا يقال للمجلس نادٍ إلا ما دام فيه أهله ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي المضارطة والمجامعة والسُّباب والفحش في

قوله: (والصلاة عليه إلى آخر الدهر) وهو قولنا: كما صليت على إبراهيم في الصلاة. **قوله:** (الحسن) هو الإمام المشهور المجمع على جلالته في كل فنّ، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار التابعي البصري ـ بفتح الباء وكسرها ـ الأنصاري، أدرك من أصحاب رسول الله ﷺ مائة وثلاثين مناقبه كثيرة مشهورة، توفي سنة عشر ومائة رحمه الله.

قوله: (لم ينز) في المصباح: نزا الفحل نزوًا من باب قتل، ونزوانًا وثب، والاسم النّزاء مثل كتاب وغراب، يقال ذلك في الحافر والظّلف والسباع. اهـ. وفي مختار الصحاح: نزوًا وثَبَ وبابه عدا ونَزَوانًا أيضًا بفتحتين ونزّ الذكر على الأنثى يَنز ونِزاء بالكسر والمدّ، يقال ذلك في الحافر والظلف والسباع. اهـ. **قوله:** (قطاع الطريق) جمع قاطع الطريق. **قوله:** (السابلة) أبناء السبيل. اهـ شهاب. وفي المصباح: السابلة الجماعة المختلفة في الطرقات في حوائجهم. اهـ. **قوله:**

المزاح (**والخذف**) بالحصى ومضغ (**العلك**) و(**الفرقعة**) والسِّواك بين الناس ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب. (﴿إِنَّكُمْ﴾ و﴿أَئِنَّكُمْ﴾ **شامي وحفص وهو الموجود في الإمام، وكل واحدة بهمزتين كوفي غير حفص** ﴿آينكم﴾، ﴿آينكم﴾ **بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو** ﴿أينكم﴾ ﴿أينكم﴾ **بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكي ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد**) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش.

(**والخَذْف**) بالخاء والذال المعجمتين رمي الحصاة بين الأصابع. **قوله**: (**العِلْك**) الذي يُمْضغ. اهـ مختار الصحاح. وفي المصباح: العِلك مثل حمل كل صمغ يُعلك من لبان وغيره، فلا يسيل. اهـ. وأيضًا فيه: علكته علكًا من باب قتل مضغته. اهـ. **قوله**: (الفرقعة) تنقيص الأصابع. اهـ مختار الصحاح. وفي رد المحتار: هو غمزها أو مدّها حتى تصوّت. اهـ. **قوله**: (﴿إِنَّكُمْ﴾ و﴿أَئِنَّكُمْ﴾) الأُولى بهمزة واحدة والثانية بهمزتين (**شامي**) أي ابن عامر الشامي (**وحفص وهو الموجود في الإمام**) أي مصحف أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه الذي اتّخذه لنفسه يقرأ فيه، وليس هو بخطّه كما توهّمه بعضهم (**وكل واحدة بهمزتين**) الأُولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام (**كوفي غير حفص**) أي أبو بكر وحمزة وعلي الكسائي وخلف رحمهم الله. («آينكم»، «آينكم» **بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة أبو عمرو**) عبارة **الإتحاف**: فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل والمدّ. («**أينكم**»، «**أينكم**» **بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة مكي**) أي ابن كثير المكي (**ونافع غير قالون**) هو عيسى بن مينا المدني، يكنى أبا موسى وقالون لقب، ويُروى أن نافعًا لقبه به لجودة قراءته؛ لأن قالون بلسان الروم جيد، توفي بالمدينة قريبًا من سنة عشرين ومائة. (**وسهل**) بن محمد السجستاني البصري وليس من السبعة، (**ويعقوب**) بن إسحاق الحضرمي وليس من السبعة (**غير زيد**) بن أحمد بن إسحٰق، وعبارة **الإتحاف**: وورش وابن كثير ورُويس بالتسهيل والقصر، والباقون بالتحقيق والقصر، إلّا أن أكثر الطريق عن هشام على المدّ. اهـ. وقوله: (ورش)، هو عثمان بن سعيد المصري، ويكنى أبا سعيد وورش لقبٌ لُقِّبَ به فيما يقال لشدّة بياضه، توفي بمصر

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة لإبراهيم بالولد (والنافلة) يعني إسحٰق ويعقوب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ﴾ إضافة ﴿مُهْلِكُوٓاْ﴾ لم تفد تعريفًا (لأنها بمعنى الاستقبال). والقرية (سدوم التي قيل فيها أجور من قاضي سدوم) وهذه القرية تُشعِر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام. قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة وهم عليه مُصِرّون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ أي أتهلكونهم وفيهم مَن هو بريء من الظلم وهو لوط ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾

سنة سبع وتسعين ومائة وهو يروي عن نافع رضي الله تعالى عنهما؛ وقوله: (رُويس)، هو أبو بكر محمد بن المتوكّل اللؤلؤي، يروي عن يعقوب؛ وقوله: (هشام) بن عمار يروي عن ابن عامر ﷺ.

قوله: (والنافلة) أي ولد الولد. اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (لأنها بمعنى الاستقبال) واسم الفاعل يعمل إذا كان للاستقبال، فيكون ﴿مُهْلِكُوٓاْ﴾ مضافًا إلى معموله، فتكون إضافته لفظية. اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله**: (فيكون مجازًا) باعتبار الزمان حيث عبّر عن المستقبل بلفظ الحال. اهـ قنوي. **قوله**: (سدوم) بفتح السين ودالها معجمة ومهملة. **قوله**: (التي قيل فيها أجور من قاضي سدوم)، قيل: كانوا يجلسون على الطرق وعند كل واحد قصعة فيها حصى، فمن مرّ بهم خذفوه، فمن أصابه منهم فهو أحقّ به، فيأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم، ولهم قاضٍ يقضي بينهم بذلك، ومنه قولهم: هو أجور من قاضي سدوم. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

(﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ يعقوب وكوفي غير عاصم) ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم و(﴿أَن﴾ صلة) أكدت وجود الفعلين مرتبًا أحدهما على الآخر كأنهما وُجِدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: كما أحسَّ بمجيئهم فاجأته المساءة من غير (ريث) خيفة عليهم من قومهم أن يتناولوهم بالفجور (﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ مدني) و(شامي وعلي) ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق (بشأنهم) وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فَقْد الطاقة كما قالوا: «رحب الذراع» إذا كان مُطيقًا، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلًا في العجز والقدرة وهو نصب على التمييز ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ (وبالتخفيف: مكي وكوفي غير حفص) ﴿وَأَهْلَكَ﴾ (الكاف في محل الجرِّ) ونصب ﴿أَهْلَكَ﴾ بفعل محذوف أي وننجي أهلك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

قوله: (﴿لَنُنْجِيَنَّهُۥ﴾) بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم (يعقوب وكوفي غير عاصم) .أي حمزة والكسائي وخلف، والباقون بفتحها وتشديد الجيم.

قوله: (﴿أَن﴾ صلة) أي زائدة. **قوله**: (ريث) في المصباح: راث ريثًا من باب باع أبطأ. **قوله**: (﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾) بإشمام كسرة السين الضمّ (مدني) أي نافع المدني، وأبو جعفر المدني وليس من السبعة، (شامي) أي ابن عامر الشامي، (وعليّ) الكسائي. **قوله**: (بشأنهم) . . الخ إشارة إلى أن فيه مضافًا مقدّرًا. **قوله**: (وبالتخفيف) أي بإسكان النون وتخفيف الجيم (مكّي) أي ابن كثير المكّي (وكوفي غير حفص) أي أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم. **قوله**: (الكاف في محل الجرّ) على المختار بإضافة اسم الفاعل إليه، ولذا حُذِفت النون وهذا عند سيبويه رحمه الله، وذهب الأخفش رحمه الله إلى أن الكاف في موضع النصب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ (﴿منَزِّلون﴾ شامي) ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (بفسقهم) وخروجهم عن طاعة الله ورسوله ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِّقَوْمٍ﴾ (يتعلق بـ ﴿تَّرَكْنَا﴾ أو بـ ﴿بَيِّنَةً﴾) ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة أو خافوه ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قاصدين الفساد ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت بها ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلدهم وأرضهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ (باركين) على الرُّكَب ميتين.

قوله: (﴿منَزِّلون﴾) بفتح النون وتشديد الزاي (شامي) أي ابن عامر الشامي، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي. **قوله**: (بفسقهم) إشارة إلى أن ﴿ما﴾ مصدرية، والمراد فسقهم المعهود؛ لأن ما المصدرية موصولة، فتفيد العهد في الجملة، وكان لا سيما إذا دخلت على المضارع تفيد الاستمرار، وهذا من الإضافة التقديرية. اهـ شهاب. **قوله**: (يتعلق بـ ﴿تَّرَكْنَا﴾ أو بـ ﴿بَيِّنَةً﴾)، والمراد بالتعلّق ما يعمّ النحوي والمعنوي، والأظهر تعلّقه ببيِّنة. اهـ شهاب.

قوله: (باركين) بالباء الموحدة من البروك وهو الجثو على الركب، والمراد ميّتين مجازًا. اهـ شهاب.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَعَادًا﴾ منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك (﴿وَثَمُودَاْ﴾ حمزة وحفص وسهل ويعقوب) ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ذلك يعني ما وصفه من إهلاكهم ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل الذي أمروا بسلوكه هو الإيمان بالله ورسله ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء متمكّنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ أي وأهلكناهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ فيه ردٌّ على مَن يجوِّز العقوبة بغير ذنب ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هي ريح عاصف (فيها حصباء) وهي لقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ هي لمَدين وثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾ يعني قوم نوح وفرعون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطغيان.

قوله: (﴿وَثَمُودَاْ﴾) بحذف وتنوين الدال والألف الذي بعده وصلًا ووقفًا (حمزة وحفص وسهل ويعقوب)، وليسا من السبعة، والباقون بتنوينه وصلًا وفي الوقف بالألف.

قوله: (فيها حصباء) الحَصْباء بالمدّ الحصىٰ. اهـ مختار الصحاح.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي آلهة يعني مثل مَن أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإن ذلك بيت لا يدفع عنها الحَرّ والبرد ولا يَقِي ما تَقِي البيوت، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، جعل (حاتم) ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ حالًا ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن من بيتها. (عن عليّ رضي الله تعالى عنه: طهِّروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يُورث الفقر) ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. وقيل: معنى الآية مثل الشِّرك الذي يعبد الوَثَن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتًا بالإضافة إلى رجل يبني بيتًا (آجر) و(جِصّ) أو

قوله: (حاتم) اسم رجل من النحاة، قاله المحشي. **قوله**: (**عن عليّ رضي الله تعالى عنه: طهّروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر**) رواه الثعلبي، وفي الدرّ المنثور أخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله ﷺ: «**العنكبوت شيطان مسخها الله، فمن وجدها فليقتلها**». اهـ. أي ندبًا، قال المناوي: يعارضه خبر: «**جزى الله العنكبوت عنّا خيرًا، فإنها نسجت عليّ في الغار**».

قلت: وكذا يعارضه الخبر الذي أخرجه الخطيب عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا وأبو بكر الغار، **فاجتمعت العنكبوت** فنسجت بالباب فلا يقتلوهن»، قال المناوي وقد يقال هذا في عنكبوت خاصّ. **قوله**: (آجر) في المصباح: الآجرّ اللبن إذا طبخ بمدّ الهمزة والتشديد أشهر من التخفيف الواحدة آجرّة، وهو معرب. اهـ. **قوله**: (جِصّ) في شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس: (الجصّ) بالفتح (ويكسر) وهو الأفصح كما في شروح الفصيح. قلت: وأنكر ابن دريد الفتح، وقال ابن السكّيت: ولا يقال بالكسر (معروف) وقد خالف هُنا اصطلاحه من ذكر إشارة الميم، وقال الجوهري: هو الذي يبنى به، قال: وهو (معرب) أي لأن الجيم والصاد لا

(**ينحته**) من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتًا بيتًا بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينًا دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. وقال الزَّجَّاج: في جماعة تقدير الآية: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ﴾ (**بالياء التحتية: بصري وعاصم، وبالتاء: غيرهما غير الأعشى والبرجمي**). و«ما» بمعنى «الذي» وهو مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ ومفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضمر أي يدعونه يعني يعبدونه ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾ «من» في ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ للتبيين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا شريك له ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في ترك المُعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادًا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير. ﴿وَتِلۡكَ (ٱلۡأَمۡثَٰلُ)﴾ الأمثال نعت (**والخبر** ﴿نَضۡرِبُهَا﴾) نبيِّنها ﴿لِلنَّاسِ﴾

يجتمعان في كلمة عربية، قيل: فارسية الجصّ كج بالكاف العربية والجيم، وقيل: بالكاف الفارسية، وقال اللّيث: لغة أهل الحجاز في الجصّ القَص. اهـ باختصار.
قوله: (ينحته) في المصباح: نحت بيتًا في الجبل نحتًا من باب ضرب ومن باب نفع، ولها قرأ الحسن: ونحت الخشبة أيضًا نحتًا نجرها، والآلة المنحات بالكسر، وهي القدوم. وفي مختار الصحاح: نَحَتَ القلم بَرَاهُ وبابه ضرب وقطع أيضًا، نقله الأزهري. اهـ.

قوله: (**بالياء التحتية: بصري**) أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري وليس من السبعة (**وعاصم**، وبالتاء: **غيرهما غير الأعشى**) هو أبو يوسف يعقوب بن خليفة بن سعد بن هلال رحمه الله، عن أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم (**والبرجمي**) بضمّ الباء وسكون الراء وضم الجيم هو عبد الحميد بن صالح عن أبي بكر عن عاصم رحمه الله.

قوله: (﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾) نعت أي صفة أو بدل أو عطف بيان. **قوله**: (والخبر ﴿نَضۡرِبُهَا﴾) ويجوز أن يكون ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ خبرًا و﴿نَضۡرِبُهَا﴾ حالًا.

كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن ربّ محمد يضرب المثل بالذُّباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ به وبأسمائه وصفاته (**أي لا يعقل صحتها**) وحُسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصوّرها للأفهام كما صوَّر هذا التشبيه الفرق بين حال المُشرِك وحال المُوَحِّد. (وعن النبي ﷺ) أنه تلا هذه الآية فقال: «العالِم مَن (**عقل**) عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» ودلَّت الآية على فضل العلم على العقل.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ (**أي مُحِقًّا**) يعني لم يخلقهما باطلًا بل لحِكمة وهي أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمُعتَبِرين منهم ودلائل على عِظَم قدرته، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وخصَّهم بالذِّكر لانتفاعهم بها ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ تقرّبًا إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي دُم على إقامة الصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ الفعلة القبيحة كالزِّنا مثلًا ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو ما ينكره الشَّرع والعقل. قيل: مَن كان مُراعيًا للصلاة جرَّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يومًا ما فُقِد رُوِي أنه قيل يومًا لرسول الله ﷺ: إن فلانًا يصلي بالنهار

قوله: (أي لا يعقل صحتها) وحسنها إشارة إلى أنه على تقدير مضاف. **قوله**: (وعن النبيّ ﷺ).. الخ. قال ابن الجوزي رحمه الله: إنه موضوع، لكن ابن حجر تعقّبه بأنه أخرجه بعض المحدثين عن جابر رضي الله تعالى عنه، ونحوه حديث: «الكيّس مَنْ دان نفسه وعَمِل لما بعد الموت»، والمراد بالعالم فيه الكامل في صفة العلم والحقيق بأن يسمّى عالمًا. اهـ شهاب. **قوله**: (عقل) من باب ضرب.

قوله: (أي مُحِقًّا) فالباء للملابسة، والجار والمجرور حال.

ويسرق بالليل. فقال: «إن صلاته (لتردعه)». رُوِيَ أن فتًى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال: «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب. (وقال ابن عوف): إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت في معروف وطاعة وقد (حجزتك) عن الفحشاء والمنكر. وعن الحسن: مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وَبالٌ عليه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وإنما قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ﴾ ليستَقِل بالتعليل كأنه قال: والصلاة أكبر لأنها ذِكر الله. وعن (ابن عباس) رضي الله عنهما: ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذِكركم له الآن، لأن ذكره بلا علَّة وذكركم (مشوب) بالعِلَل والأماني، ولأن ذِكره لا يفنى وذِكركم لا يبقى. وقال (سلمان): ذِكر الله أكبر من

قوله: (لتردعه) في مختار الصحاح: ردعه من الشيء فارتفع أي كفّه فكفّ[1]، وبابه قطع. اهـ. **قوله:** (وقال ابن عوف)... الخ. عبارة تفسير ابن كثير، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذِكر الله أكبر. اهـ. وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عون الأنصاري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الآية، قال: إذا كنت في صلاة كنت في معروف وقد حجزتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. اهـ. **قوله:** (حَجَزتك) في مختار الصحاح: حجزه منعه فانحجز، وبابه قطع. اهـ. **قوله:** (ابن عباس) الصحابي ابن الصحابي المكي ابن عمّ رسول الله ﷺ، وكان يقال له: حبر الأمّة والبحر لكثرة علمه، رُوي له عن النبيّ ﷺ ألف حديث وستمائة حديث وستون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على خمسة وتسعين، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين، توفي بالطائف سنة ثمان وستّين، ومناقبه كثيرة مشهورة. **قوله:** (مشوب) الشَّوْب الخلط، وبابه قال. **قوله:** (سلمان) الفارسي الصحابي أوّل مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندق، ولم يتخلّف عن مشهد بعدها، وكان من فُضلاء الصحابة

---

(١) وهو يتعدى ويلزم. اهـ مختار الصحاح. وفي المصباح: وهو يتعدى ولا يتعدى. اهـ. ١٢ منه رحمه الله تعالى.

كل شيء وأفضل فقد قال عليه السلام: («ألا أُنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذِكر الله»).

وزهّادهم وعُلمائهم وذوي القرب من رسول الله ﷺ، ونقلوا اتّفاق العلماء على أن سلمان الفارسي عاش مائتين وخمسين سنة، وقيل: ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: أدرك وحي عيسى ابن مريم، رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ ستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثة، ولمسلم ثلاثة، توفي بالمدائن في أوّل سنة ستّ وثلاثين، وقيل: سنة خمس وثلاثين رضي الله تعالى عنه. **قوله: (ألا أُنبئكم)** أي ألا أخبركم **(بخير أعمالكم)** أي أفضلها، **(وأزكاها)** أي أنماها وأنقاها **(عند مليككم)** أي في حكم ربِّكم **(وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوّكم)** أي خيرٌ من بذل الأموال والأنفس في سبيل الله بأن تجاهدوا الكفار **(فتضربوا أعناقهم)** أي أعناق بعضهم، **(ويضربوا)** أي بعضهم **(أعناقكم)**، وهذا تصوير لا على مراتب المجاهدة **(قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله)** قال ابن الملك: المراد الذِّكر القلبي، فإنه هو الذي له المنزلة الزائدة على بذل الأموال والأنفس؛ لأنه عمل نفسيّ وفعل القلب الذي هو أشقّ من عمل الجوارح، بل هو الجهاد الأكبر لا الذِّكر باللسان المشتمل على صياح وانزعاج وشدّة تحريك العنق واعوجاج كما يفعله بعض الناس زاعمين أن ذلك جالب الحضور وموجب السرور حاشْ لله، بل سبب الغيبة والغرور، انتهى.

(ولا شكّ) أن الذِّكر يُطلق على الجناني واللّساني وأن المدار على القلب الذي ينقلب بسبب ذكر المذكور من الغيبة إلى الحضور، وإنما اللفظي وسيلة ولحصول الوصول وصيلة، واختلف المشائخ في أيّهما أفضل بالنسبة إلى المبتدي، وإن كان ينتهي المنتهى أيضًا إلى الذِّكر القلبي. وأما الأُمور البدعية والأغراض الدنيوية، فخارجة عن الأنواع الذكرية، ولا رَيْب أن الجمع بينهما أكمل وفي تحصيل المثوبة أفضل، والظاهر أنه المراد هنا لأن المجاهد المذكور والقاتل الشكور لا يخل عن الذِّكر القلبي، اللّهمّ إلّا أن يقال: المراد أن ذكره القلبي الذي هو الجهاد الباطني أفضل من مضاربته الذي هو الجهاد الظاهري، فيكون الحديث نظير قوله عليه السلام: «لو أن رجلًا في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر كان ذكر

وسُئِل أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: («أن تُفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»). أو ذِكر الله أكبر من أن (تحويه) أفهامكم وعقولكم، أو ذِكر الله أكبر من تلقى معه معصية، أو ذِكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ من الخير والطاعة فيُثيبكم أحسن الثواب.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن للثواب وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب (بالكظم) كما قال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: الآية ٩٦] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا (النصح) ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ، أو إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة، أو معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذِّمَّة المؤدِّين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذِّمَّة ومنعوا الجزية فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز المناظرة مع الكَفَرَة في الدين، وعلى جواز تعلّم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة، وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ

الله أفضل»؛ كما رواه الطبراني عن أبي موسى ؓ .اهـ مرقاة. **قوله:** (أن تفارق الدنيا ولسانك) الواو للحالية (رطب) أي قريب العهد أو متحرك طريّ (بذكر الله) والذِّكر يشمل الجليّ والخفيّ، واللّسان يحتمل القلبي والقالبي، ولا منع من الجمع، بل هو أدعى إلى مقام الجمع، وفيه الإشارة إلى أن أفضل الأعمال ما يُختم به الأحوال. قال الطيبي: رطوبة اللّسان عبارة عن سهولة جريانه بالمداومة، فكأنه قيل: أفضل الأعمال مداومة الذِّكر، فإنّ الذِّكر هو المقصود وسائر الأعمال وسائل إليه. **قوله:** (تحويه) في المصباح: حَوَيْت الشيء أحْويه حواية واحتويت عليه إذا ضممته واستوليت عليه فهو محويّ وأصله مفعول واحتويته كذلك.

قوله: (بالكظم) أي إخفاء الغيظ وتحمله، في مختار الصحاح: كظم غيظه اجترعه وبابه ضرب، فهو رجل كظيم، والغيظ مكظوم.اهـ. **قوله:** (النصح) بالضم.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ من جنس المجادلة بالأحسن. (وقال عليه السلام): «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلًا لم تصدقوهم وإن كان حقًّا لم تكذبوهم».

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ (ومثل ذلك الإنزال) ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أنزلناه مصدقًا لسائر الكتب السماوية، أو كما أنزلنا الكتاب إلى مَن قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هم (عبد الله بن سلام) ومَن معه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ أو أراد بالذين أُوتوا الكتاب الذين تقدّموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وزوال الشُّبهة عنها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلا (المتوغلون) في الكفر

قوله: (وقال عليه السلام)... الخ. هو بيان، لكن القول المذكور مجادلة؛ لأنه كناية عن أنا لا نصدّق نقلكم ما لم نعلم به، والتكذيب والتصديق ليسا بنقيضين، فيجوز ارتفاعهما كما في حال السكوت، والحديث المذكور صحيح، وأصله مرويّ في البخاري.

قوله: (ومثل ذلك الإنزال) ﴿أَنزَلْنَآ﴾ يريد أن ذلك إشارة إلى ما بعد اسم الإشارة، وهو الإنزال الذي يدلّ عليه ﴿أَنزَلْنَآ﴾ والمراد به إنزال قوله: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، والكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كلفظ المثل في قولك: مثلك لا يبخل، أي مثل ذلك الإنزال العجيب الشأن الداعي إلى الإيمان بجميع الكتب المنزلة، وإلى التوحيد أنزلناه. **قوله**: (عبد الله بن سلام) ـ بتخفيف اللام ـ ابن الحارث الإسرائيلي الأنصاري ثم الخزرجي الصحابي كنيته أبو يوسف، رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرون حديثًا، اتّفقا على حديث وانفرد البخاري بآخر، توفي سنة ثلاث وأربعين بالمدينة ومناقبه كثيرة مشهورة رضي الله تعالى عنه. **قوله**: (المتوغّلون) بمعنى البالغين، وأصل معنى التوغّل الدخول. اهـ شهاب. وفي

(المُصمِّمون) عليه (ككعب بن الأشرف وأضرابه) ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ خصّ اليمين لأن الكتابة غالبًا تكون باليمين أي ما كنت قرأت كتابًا من الكتب ولا كنت كاتبًا ﴿إِذًا﴾ أي لو كان شيء من ذلك أي من التلاوة ومن الخط ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجد نعته في كتبنا أُمّيّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به، أو لارتاب مُشرِكوا مكة وقالوا: لعله تعلَّمه أو كتبه بيده. وسمّاهم مُبطِلين لإنكارهم نبوّته. وعن (مجاهد والشعبي: ما مات النبي ﷺ حتى كتب وقرأ):

المصباح: وغل في الشيء وغلًا ووغولًا دخل. اهـ. وأيضًا فيه: توغّل أمعن وأسرع. اهـ. **قوله**: (المصمّمون) في المصباح: صَمم في الأمر بالتشديد مضى فيه. اهـ.

قوله: (ككعب بن الأشرف) من علماء اليهود. **قوله**: (وأضرابه) بمعنى أمثاله. **قوله**: (مجاهد) بن جَبْر الإمام المشهور، وهو تابعي إمام متّفقٌ على جلالته وإمامته وتوثيقه، وهو إمام في اللغة والتفسير والحديث مناقبه كثيرة مشهورة. **قوله**: (والشعبي) أبو عمرو عامر بن شراحيل، وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم، ويقال: إنه أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ، توفي بالكوفة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وقيل: ستّ، وقيل: سبع، وقيل: خمس ومائة. وشراحيل: بفتح الشين المعجمة والراء وبعد الألف حاء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها وبعدها لام. والشعبي: بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وبعدها باء موحدة، هذه النسبة إلى شعب، وهو بطن من همدان.

قوله: (ما مات النبيّ ﷺ حتى كتب وقرأ)، قال ابن حجر في تخريج الرافعي: قال البغوي في التهذيب: هل كان النبيّ ﷺ يُحسن الخطّ ولا يكتب ويُحسن الشعر ولا يقوله؟ الأصح أنه كان لا يُحسنهما، ولكن كان يميّز بين جيّد الشعر ورديئه، وادّعى بعضهم أنه ﷺ صار يَعْلَم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها، وعدم معرفته بسبب المعجزة لهذه الآية، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمن الارتياب تعرّف الكتابة حينئذ، وروى ابن أبي شيبة وغيره:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي في صدور العلماء به و(**حفاظه**) وهما من خصائص القرآن كون آياته بيّنات الإعجاز وكونه محفوظًا في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تُقرَأ إلا من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الواضحة ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (**أي المتوغلون**) في الظلم.

ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ، ونقل هذا للشعبي فصدّقه، وقال: سمعت أقوامًا يذكرونه وليس في الآية ما يُنافيه، ورَوى ابن ماجة عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسري بي مكتوبًا على باب الجنّة: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر»، والقدرة على القراءة فرع الكتابة. ورد باحتمال إقدار الله له عليها بكونها معجزة أو فيه مقدّر، وهو: فسألت عن المكتوب فقيل... إلى آخره، ويشهد للكتابة أحاديث في البخاري وغيره، كما ورد في صلح الحديبية أنه ﷺ كتب ولم يكن يُحسن الكتابة، وممّن ذهب إليه أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة، وصنّف فيه كتابًا؛ وممّن سبق إليه ابن منبه، ولمّا قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورُمِيَ بالزندقة وسُبّ على المنابر، ثم عُقِد له مجلس فأقام الحجّة على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف، فأجابوا بما يوافقه، ومعرفة الكتابة بعد أُمِّيّته لا تنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم، وردّ الإمام أحمد بن منذر كتاب الباجي لِمَا في الحديث الصحيح: «إنّا أُمّة أُمّيّة لا نكتب ولا نحسب»، وقال: كل ما ورد في الحديث من قوله: اكتب فمعناه أمر بالكتابة.اهـ شهاب.

قوله: (حفّاظه) الحفّاظ جمع حافظ، في المصباح: جمع الحافظ حفظة وحفاظ مثل كافر في جميعه، وحفظ القرآن إذا وعاه على ظهر قلبه.اهـ. **قوله**: (أي المتوغلون) بمعنى البالغين.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (﴿ءَايَةٌ﴾ **بغير ألف: مكي وكوفي غير حفص**). أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزل أيتها شاء ولست أملك شيئًا منها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أُعطِيت من الآيات وليس لي أن أقول أُنزل عليَّ آية كذا دون آية كذا مع علمي أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي أو لم يكفهم آية مُغنِيَة عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنِّتين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها، أو تكون في مكان دون مكان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ **(لنعمة عظيمة)** ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون المتعنِّتين.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي شاهدًا بصدق ما أدّعيه من الرسالة وأنزل القرآن عليَّ وبتكذيبكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو مُطَّلع على

قوله: (﴿ءَايَةٌ﴾ **بغير ألف**) بالتوحيد على إرادة الجنس (مكي) أي ابن كثير المكي (وكوفي غير حفص) أي أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف والباقون بالجمع.

قوله: (لنعمة) تفسير للرحمة (عظيمة) من تنوينها.

أمري وأمركم وعالِم بحقي وباطلكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ منكم وهو ما يعبدون من دون الله ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ (هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **المغبونون في صفقتهم**) حيث اشتروا الكفر بالإيمان (**إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله**: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾) [سبأ: الآية ٢٤]. ورُوِيَ

قوله: (﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ **المغبونون في صفقتهم**) إشارة إلى أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ استعارة كناية بأن شبه ما فعلوه من اختيار الضلالة على الهدى بعقد المبايعة. **وقوله**: (﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾) استعارة تخييلية قرينة للمكنية، وقوله: (**صفقتهم**) في المصباح: صفقته على رأسه صفقًا من باب ضرب ضربة باليد وصفقت له بالبيعة صفقًا أيضًا ضربت بيدي على يده، وكانت العرب إذا وجب البيع ضرب أحدهما يده على يد صاحبه ثم استعملت الصفقة على العقد، فقيل: بارك الله لك في صفقة يمينك، قال الأزهر: وتكون الصفقة للبائع والمشتري. اهـ. **قوله**: (**إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف**) لعدم التصريح بأنه على الحقّ وهم على الباطل، أي على أسلوب الاستدراج والكلام المصنّف، وذلك أن قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية، كلام فيه وعيد شديد وتهديد عظيم، لكن لم يكافح من خوطب بل جيء به عامًّا وعلى الغيبة، ولم يصرح بما كان منهم من الجحد والتكذيب لما جاء به ليتفكروا فيه وينظروا هل هم من الجاحدين للحقّ أو من المنصفين أو من الذين آمنوا بالله وكفروا بالطاغوت أو خلافه أو كانوا مُبطلين أو محقّين، فحينئذ ينصفون من أنفسهم فيذعنوا للحقّ. اهـ محشي. **قوله**: (**كقوله**: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾) قال المصنف رحمة الله عليه في سورة سبأ: ﴿**وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾، ومعناه: وأن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من كلام المصنّف الذي كل من سمعه من مُوال أو مُناف قال لمن خُوطب به قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدم ما قُدِّم من التقرير دلالة غير خفيّة على مَنْ هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك لكاذب: إن أحَدَنا لكاذب. اهـ. وعبارة تفسير البيضاوي وهو بعدما تقدّم من التقرير

أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد مَن يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] الآية. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (وهو) يوم القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم بآجالهم، والمعنى ولولا أجل قد سمّاه الله وبيّنه في اللوح لعذّبهم والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب عاجلًا أو ليأتينّهم العذاب في الأجَل المسمّى ﴿بَغْتَةً﴾ (فُجاءة) ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (**أي ستحيط بهم**) ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ

البليغ الدالّ على مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو في الضلال أبلغ من التصريح؛ لأنه في صورة الإنصاف المُسكت للخصم المشاغب. اهـ.

قوله: (وهو)، أي إيراد الكلام على وجه الإبهام مع كون الهادي والضالّ متعيّنين. وقوله: (لأنه في صورة الإنصاف الأُولى) ترك الصورة لأنه غاية الإنصاف المسكت، وفي نسخة: المبكت، بمعنى المسكت للخصم لعدم تصريح مَنْ هو ضالّ وهادٍ، فكل مَنْ سمع مثل هذا الكلام يقول: قد أنصفك صاحبك فينقطع حجّة الخصم، فلا مجال له للمنافسة والمناقشة فيسكت الخصم، ونسبة الإسكات إلى الإنصاف مجازية. اهـ قنوي. والمشاغبة بالغين المعجمة من الشغب، وهو الخصام وتهييج الشرّ، وهذا من فنون البلاغة يسمّى الكلام المنصف. اهـ شهاب.
قوله: (فُجاءة) بالضم والمدّ، وفي لغة وزان تمرة. اهـ مصباح.

قوله: (أي ستحيط بهم) يعني أن اسم الفاعل بمعنى الاستقبال، لكن جيء بالجملة الاسمية مؤكّدة بأن ولام الابتداء للإيذان بأن وعد الله ووعيده كالمتحقّق في

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: الآية ١٦]. ولا وقف على ﴿بِالْكَفِرِينَ﴾ لأن ﴿يَوْمَ﴾ ظرف إحاطة النار بهم ﴿وَيَقُولُ﴾ (بالياء: كوفي ونافع)، وقوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء أعمالكم.

﴿يَعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَسِعَةٌ فَإِيَّىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿يَعِبَادِيَ﴾ (وبسكون الياء: بصري وكوفي غير عاصم) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَسِعَةٌ﴾ (وبفتح الياء: شامي) يعني أن المؤمن إذا لم يتسهّل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمشَ له أمر دينه فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنه فيه أسلم قلبًا أَصَحُّ دينًا وأكثر عبادة، (والبقاع) تتفاوت في ذلك تفاوتًا كثيرًا. وقالوا: لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحثّ على القناعة وأطرَد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني من مكة حرسها الله تعالى. وعن (سهل): إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المُطيعين. (وعن رسول الله ﷺ) «مَن

الحال لتحقّق وقوعه البتّة، ويحتمل أن يكون اسم الفاعل بمعنى الحال، ويكون المعنى أن جهنم لمحيطة بهم في الدنيا باعتبار أن أسباب إحاطتها من الكفر والمعاصي محيطة بهم في الحال، فنزل المسبّب أيضًا منزلة الواقع في الحال. **قوله:** (بالياء) من تحت (كوفي) أي عاصم وحمزة والكسائي وخلف (ونافع) المدني، والباقون بالنون للعظمة.

قوله: (وبسكون الياء: بصري) أي أبو عمرو البصري، وكذا سهل البصري ويعقوب البصري (وكوفي غير عاصم) أي حمزة وعليّ الكسائي وخلف، والباقون بفتح الياء. **قوله:** (وبفتح الياء: شامي) أي ابن عامر الشامي، والباقون بالإسكان. **قوله:** (والبِقاع) في المصباح: البقعة من الأرض القطعة منها وتُضمّ الباء في الأكثر، فتجمع على بقع مثل غرفة وغرف وتُفتح فتجمع على بقاع مثل كلبة وكلاب. اهـ.

قوله: (سهل) بن عبد الله التستري، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل: ثلاث وسبعين ومائتين رحمه الله. **قوله:** (وعن رسول الله ﷺ)... الخ. عبارة

(فرّ بدينه) من أرض إلى أرض وإن كان شبرًا من الأرض (استوجب الجنة») ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (وبالياء: يعقوب. وتقديره) فإياي اعبدوا فاعبدوني. وجيء بالفاء في ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ لأنه جواب شرط محذوف لأن المعنى إن أرضي واسعة فإن لم تُخلِصوا العبادة لي في أرض فأخلِصوها في غيرها، ثم حذف الشرط وعوَّض عن حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص، ثم (شجع) المهاجر بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ أي واجِدة مرارته وكربه كما يجد، الذائق طعم المَذوق لأنها إذا تيقَّنت بالموت سهّل عليها مَفارق وطنها ﴿ثُمَّ

الخطيب: روى الثعلبي عن الحسن البصري مرسلًا: «من فرّ بدينه من أرضٍ إلى أرض ولو كان شبرًا استوجب الجنّة، وكان رفيق إبراهيم ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهما»، انتهت. وقوله: (فرّ بدينه) فيه مبالغة، ولذا لم يجئ من هاجر، والباء للسببية أو للملابسة وجوّز فيها أن تكون للتعدية وهو بعيد.

وقوله: (استوجب الجنة) أي استحقّ الجنّة كالواجب بمقتضى الوعد، وقوله: (وكان رفيق إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما) وهذا كناية عن علوّ درجته وليس ظاهره بمراد، وقوله: (رفيق إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما) خصّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكونه هاجر من كُوثىٰ إلى الشام فرارًا بدينه، حيث قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٦] ومحمد سيد المرسلين هاجر إلى المدينة حيث تعذّر عليه رعاية ما أمر به في أمر الدِّين وأمر المؤمنين بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على كل مَنْ كان في بلدة تعمل فيها المعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يمكنه أن يعبد الله فيه حقّ عبادته. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (وبالياء) في الحالين (يعقوب). **قوله**: (وتقديره) ﴿فإياي﴾ فاعبدوا ﴿فاعبدوني﴾، يريد أن إياي لا يجوز أن يكون معمولًا لهذا المذكور؛ لأنه اشتغل عنه بضمير يوجب تقدير مفسّر، وهو قوله: فاعبدوا، وهو العامل في ﴿فإياي﴾، والفاء الأُولى جواب شرط محذوف والثانية كذلك لكن أنيب مَنابه تقديم المفعول والثالثة هو الداخلة على المفسّر، المعنى: يا عبادي إن أرضي واسعة، وإذا كان كذلك فأخلصوا العبادة أينما كنتم، فإن لم يتمكّنوا على الإخلاص فأخلصوها في أرضٍ يتمكّنون فيها عليه. اهـ محشي. **قوله**: (شجع) دلير گردانيد.

﴿إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب (﴿يُرۡجَعُونَ﴾ **يحيى** ﴿تَرۡجِعُونَ﴾ **يعقوب**).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ لننزلنّهم من الجنة (**علالي**. ﴿لنثوينهم﴾ **كوفي غير عاصم**) من الثواء وهو النزول للإقامة، و(**ثوى**) غير مُتعَدٍّ فإذا تعدّى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولًا واحدًا. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف، إما إجراؤه مجرى لننزلنَّهم أو لنؤينّهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل، (**أو تشبيه الظرف المؤقّت بالمُبهم**) ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ويُوقَف على ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ على أن ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين صبروا على مُفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المِحَن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي، والوصل أجود ليكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعتًا لـ ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولم يتوكلوا في جميع ذلك

قوله: (﴿يُرۡجَعُونَ﴾) بالياء التحتية (**يحيى**) بن آدم القريشي عن أبي بكر عن عاصم رحمه الله، والباقون بالتاء الفوقية: (﴿تُرۡجَعُونَ﴾) بالبناء للفاعل (**يعقوب**).

قوله: (عَلَالي) تفسير لغرفًا وهو جمع عِلّية بكسر العين، وقد تُضم وأصلها عليوة فأعلّت الإعلال المعروف ومعناه القصر، وعَلَالي بالتشديد الياء وقد تخفّف. **قوله**: («لنثوينهم») بمثلثة ساكنة بعد النون الأُولى وياء مفتوحة بعد الواو المخفّفة (**كوفي غير عاصم**) أي حمزة والكسائي وخلف، والباقون بموحدة مفتوحة بعد النون الأُولى وتشديد الواو وهمزة مفتوحة بعدها. **قوله**: (ثوى) من باب رمى. **قوله**: (**أو تشبيه الظرف المؤقت**) أي المعيّن المحدود من المكان كالدار والغرفة (**بالمبهم**) منه والفعل لا ينصب المعيّن المحدود من المكان على الظرفية، فلا يتعلّق به إلا بواسطة الجار بخلاف المبهم، فإذا نصب المحدود وجب أن يصار إلى حذف الجار وإلى التشبيه فأجري هنا مجرى المبهم توسّعًا كما في قوله: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦] أي بإسقاط الخافض اتّساعًا أي في غرف.

إلا على الله، ولما أمر رسول الله ﷺ مَن أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ (أي وكم) من دابة (﴿وكائن﴾ بالمدّ والهمزة مكي) والدابة كل نفس دبَّت على وجه الأرض (عقلت) أم لم تعقل ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي لا يرزق تلك الدّواب (الضّعاف) إلا الله، ولا يرزقكم أيضًا أيها الأقوياء إلا هو، وإن كنتم مُطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لم يقدّركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل. وعن الحسن: لا تحمل رزقها لا تدَّخره إنما تصبح فيرزقها الله. و(قيل): لا يدَّخر شيء من الحيوان قوتًا إلا ابن آدم و(الفأرة والنملة) ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولكم نخشى الفقر و(العَيْلة) ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين مَن خلق السمٰوات والأرض على (كبرهما) وسعتهما، ومَن الذي سخر الشمس والقمر ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله! ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي لمن يشاء

قوله: (أي وكم) أي وكأيّن بمعنى كم للتكثير. **قوله**: («وكائن» بالمدّ والهمزة) بوزن ماء (مكّي) أي ابن كثير المكي، والباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها تحتية مشدّدة. **قوله**: (عقلت) من باب ضرب. **قوله**: (الضّعاف) جمع ضعيف. **قوله**: (قيل)... الخ. قائله سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنه. **قوله**: (الفأرة) تُهمز ولا تُهمز وتقع على الذّكر والأُنثى والجمع فأر مثل تمرة وتمر. اهـ مصباح. **قوله**: (والنملة) في لسان العرب وغيره: النمل معروف، الواحدة نملة. اهـ. **قوله**: (العَيْلة) الفقر.

قوله: (كبرهما) الكِبْر - بالكسر - العظمة. اهـ مختار الصحاح.

فوضع الضمير موضع ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لأن ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مُبهم غير معين فكان الضمير مبهمًا مثله. (قدّر) الرزق و(قتره) بمعنى إذا ضيقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم. (في الحديث) «إن من عبادي مَن لا يصلح إيمانه إلا الغِنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي مَن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي هم مُقِرّون بذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض أو على أنه ممّن أقرَّ بنحو ما أقرّوا به نفعه ذلك في توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن إقرارًا عاطلًا كإقرار المشركين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نُريهم من الآيات ونُقيم عليهم من (الدلالات)، أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي وما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرّقون، وفيه (ازدراء) بالدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي (لا تزن) عنده جناح بعوضة! (واللهو) ما يتلذذ به

قوله: (قدر) من باب ضرب ونصر. **قوله**: (قتره) من باب ضرب ودخل. **قوله**: (في الحديث) القدسي.

قوله: (الدلالات) جمع دلالة بكسر الدال، وهو كون الشيء بحالة يلزم من العِلم به العلم بشيءٍ آخر، والشيء الأوّل هو الدال والثاني هو المدلول.

قوله: (ازدراء) أي تحقير، في مختار الصحاح: ازدراه أي حقره.اهـ. **قوله**: (لا تزن)... الخ. كناية عن حقارتها عند الله تعالى بأسرها كما ورد في الحديث: «فيعلم حقارة ما فيها من الحياة» بالطريق الأولى. **قوله**: (واللّهو)...

الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضي ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي الحياة، أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان مصدر حيي وقياسه حييان (فقُلِبت الياء الثانية واوًا) ولم يقل: «لهي الحياة» لما في بناء (فعلان) من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة والموت سكون، فمجيئه على بناء دالٍّ على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ويوقف على ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ لأن التقدير ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي، ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقًا بشرط علمهم ذلك وليس كذلك.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ هو متصل بمحذوف دلَّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه: هم على ما وُصِفوا به من الشِّرك والعناد فإذا ركبوا في الفُلْك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (كائنين في صورة مَن يخلص الدين) لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلـٰهًا آخر ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وأمنوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عادوا إلى حال الشِّرك.

الخ. واللّعب هو العبث **قوله**: (فقلبت الياء الثانية واوًا) أي على خلاف القياس بناء على أن لامها ياء، وقيل: إنه واو وأدلّة الفريقين مفصّلة في الصرف. **قوله**: (فعلان) بفتح العين.

قوله: (كائنين في صورة من يخلص الدّين) فهو تهكّم بهم سواء أُريد بالدِّين الملّة أو الطاعة. أمّا الأوّل فظاهر، وأمّا الثاني فلأنهم لا يستمرون على هذه الحال، فهي قبيحة باعتبار المآل. اهـ شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ. يعني أن تسميتهم مخلصين تهكّم من حيث إنهم ليسوا مخلصين حقيقةً، حيث إن الذي لجأهم إلى أن ذكروا الله تعالى خاصّة وتركوا ما سواه خوف الغرق والهلاك، وفي الآية مضمر وتقدير الكلام: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهاجت الرياح واضطربت الأمواج وكادت تغرق بهم ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾، ودلّ على هذا المحذوف ذكر التنجية بعده. اهـ شيخ زاده رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ من النعمة. (قيل: هي لام كي) وكذا في ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ فيمن قرأها بالكسر أي لكي يكفروا وكي يتمتعوا، والمعنى يعودون إلى شِركهم ليكونوا بالعَود إلى شِركِهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتّع بها والتلذّذ لا غير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة (ذريعة) إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذّذ والتمتّع، وعلى هذا لا وقف على ﴿يُشۡرِكُونَ﴾. ومَن جعله لام الأمر (متثبتًا بقراءة ابن كثير وحمزة وعلي ﴿وَلۡيَتَمَتَّعُواْ﴾ بسكون اللام) على وجه التهديد كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: الآية ٢٩]، (وتحقيقه في أصول الفقه) يقف عليه ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم عند (تدميرهم).

قوله: (قيل: هي لام كي)... الخ. فهي لام العاقبة في الحقيقة. اهـ شهاب. **قوله**: (ذريعة) أي وسيلة. **قوله**: (متشبثًا) أي متمسّكًا (بقراءة ابن كثير) المكّي (وحمزة وعليّ) الكسائي، وكذا قالون عن نافع وخلف (﴿وَلۡيَتَمَتَّعُواْ﴾ بسكون اللام)، والباقون بكسرها. **قوله**: (وتحقيقه في أصول الفقه) في الحاشية على المرآة من أصول الفقه لمولانا حامد أفندي المشهور: أن صيغة الأمر استُعملت ثمانية عشر وجهًا:

١ ـ للوجوب، نحو: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: الآية ٤٣].

٢ ـ وللندب؛ كقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ﴾ [النور: الآية ٣٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٤].

٣ ـ وللإرشاد إلى الأوثق؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢].

٤ ـ وللإباحة؛ كقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: الآية ٤]، وكقوله تعالى: ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [المائدة: الآية ٢].

٥ ـ وللإكرام؛ كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: الآية ٤٦].

٦ ـ وللامتنان؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢].

....

٧ ـ وللإهانة؛ كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدّخان: الآية ٤٩].

٨ ـ وللتسوية؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ [الطُّور: الآية ١٦].

٩ ـ وللتعجب؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريَم: الآية ٣٨]، أي ما أسمعهم وما أبصرهم.

١٠ ـ وللتكوين وكمال القدرة؛ كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٣].

١١ ـ وللاحتقار؛ كقوله تعالى إخبارًا: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يُونس: الآية ٨٠].

١٢ ـ وللإخبار؛ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبَة: الآية ٨٢].

١٣ ـ وللتهديد والتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٠]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: الآية ٢٩]، ويقرب منه الإنذار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ [إبراهيم: الآية ٣٠]، وجعل البعض قسماً آخر.

١٤ ـ وللتعجيز والتقريع، نحو قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣].

١٥ ـ وللتسخير؛ كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٥].

١٦ ـ وللتمني؛ كقول الشاعر:

ألا أيها اللّيل الطويل ألا انجلي

١٧ ـ وللتأديب؛ كقوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «كُلْ مما يليك»، وهو قريب من الندب؛ إذ الأدب مندوبٌ إليه.

١٨ ـ وللدعاء: اللّهمّ اغفر لي.اهـ.

قوله: (تدميرهم) أي إهلاكهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ممنوعًا مصونًا ﴿آمِنًا﴾ يأمن داخله ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يستلبون قتلًا وسبيًا ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أبالشيطان والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بمحمد عليه السلام والإسلام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بنبوّة محمد عليه السلام والكتاب ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي لم (يتلعثموا) في تكذيبه حين سمعوه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ هذا تقرير (لثوائهم) في جهنم لأن همزة الإنكار إذا أُدخِلَت على النفي صار إيجابًا يعني ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب؟ أو ألم يصحّ عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حين اجترؤوا مثل هذه الجراءة؟ وذكر المثوى في مقابلة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ يؤيد قراءة الثاني.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمفعول ليتناول كل ما تَجِب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ (في حقنا) ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (﴿سُبْلَنَا﴾ أبو عمرو) أي لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقًا. وعن (الداراني): والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا فقد قيل: مَن عمل بما علم وُفّق لما لا يعلم. وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما

قوله: (يَتلَعْثَمُوا) أي يتوقّفوا. **قوله**: (لثوائهم) أي إقامتهم.

قوله: (في حقنا) ففيه مضاف مقدّر، ومعنى في حقّنا: ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا. **قوله**: (﴿سُبْلَنَا﴾) بإسكان الباء (أبو عمرو) البصري، والباقون بالضمّ. **قوله**: (الداراني) هو أبو سليمان عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية الزاهد المشهور، أحد رجال الطريقة، كان من جلّة السادات وأرباب الجدّ في المجاهدات، وكانت وفاته سنة خمس ومائتين، وقيل: سنة خمس عشرة ومائتين رضي الله تعالى عنه. والداراني بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مفتوحة وبعد الألف الثانية نون، هذه

لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم. وعن (فضيل): والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به. وعن (سهل): والذين جاهدوا في إقامة السُّنَّة لنهدينهم سبل الجنة. وعن (ابن عطاء): جاهدوا في رِضانا لنهدينَّهم الوصول إلى محل الرضوان. وعن (ابن عباس): جاهدوا في طاعتنا لنهدينّهم سُبُل ثوابنا. وعن (الجنيد): جاهدوا في التوبة لنهدينَّهم سُبُل الإخلاص، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحنّ عليهم سُبُل المُناجاة معنا والأُنس بنا، أو جاهدوا في طلبنا (تحرّيًا) لرِضانا لنهدينّهم سُبُل الوصول إلينا. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة والمعونة في الدنيا وبالثواب والمغفرة في العُقبى.

النسبة إلى داريّا وهي قرية بغوطة دمشق، والنسبة إليها على هذه الصورة من شواذ النسب، والياء في داريّا مشدّدة. **قوله**: (فضيل) بن عياض خراساني من ناحية مرو، وقيل: إنه وُلد بسمرقند ونشأ بأبِيْوَرْد ومات بمكّة في المحرّم سنة سبع وثمانين ومائة ﷺ. **قوله**: (سهل) بن عبد الله التستري. **قوله**: (ابن عطاء) أي أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء. **قوله**: (ابن عباس) أي عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما الصحابي ابن الصحابي. **قوله**: (الجنيد) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيّد هذه الطائفة وإمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج، فلذلك يقال له القواريري وكان فقيهًا على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السري والحٰرث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب، مات سنة سبع وتسعين ومائة. **قوله**: (تحريًا) أي قصدًا والله سبحانه وتعالىٰ أعلم وعِلْمه أتمّ.

تمّ ما يتعلق بسورة العنكبوت بعون الله سبحانه وتعالى وحمده وتوفيقه
وصلّى الله وسلّم على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه،
وهذا أوان الشروع في إيراد ما يتعلق بسورة الروم